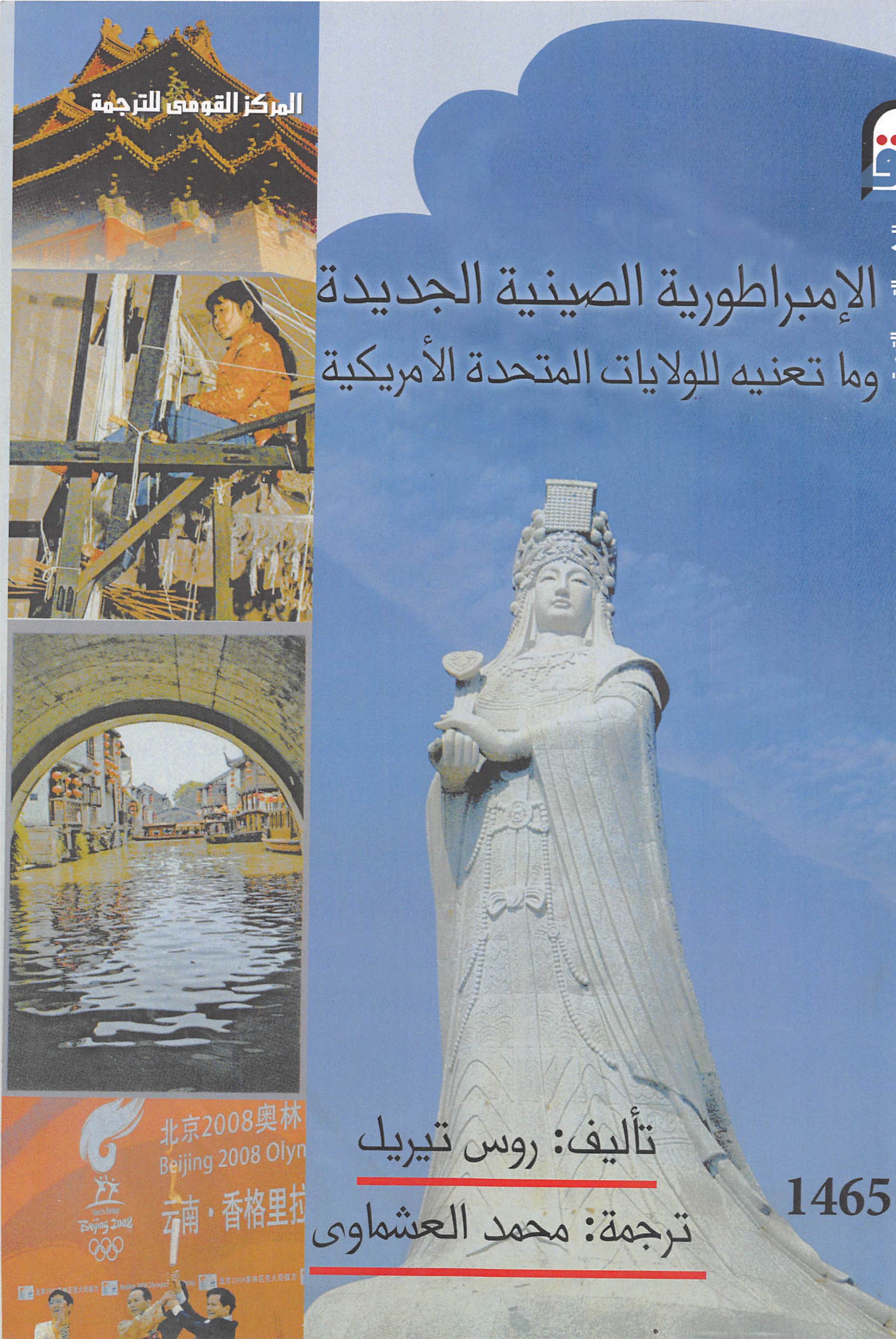


المركز القومى للترجمة
الإمبراطورية الصينية الجديدة
وما تعنيه للولايات المتحدة الأمريكية
تأليف: روس تيريل
ترجمة: محمد العشماوى
1465

لما كانت أوضاع الصين مجتمعاً وثقافة ودولة، ووزنها المتزايد بقوة فى العلاقات الدولية تلقى الاهتمام من جانب مجتمعات النخبة والمثقفين والرأى العام على المستوى الدولى فإن الأدبيات التى تتناول مثل هذه الموضوعات المتشعبة والمعقدة والمتشابكة صارت تلقى على المستوى الدولى والثقافى رعاية واهتماما وتشجيعاً.

ولما كانت المكتبة العربية تعانى نقصاً، ولربما فقراً مدقعاً، فى مثل هذه الدراسات الصينية بصفة خاصة، والأسيوية بصفة عامة، فإن الاهتمام بترجمة الدراسات والأدبيات الصادرة فى أوروبا وأمريكا على يد متخصصين ومحللين وباحثين يتميزون بالجدية والرصانة، قد صارت حاجة ملحة على المستوى الثقافى العربى وخاصة فى ضوء تحولات القرية الكونية الواحدة.

ومن هنا فإن دراسة روس تيريل عن الإمبراطورية الصينية الجديدة وما تعنيه للولايات المتحدة وترجمتها للغة العربية نرجو أن تسد جزءاً من هذه الثغرات وتقدم حافزاً للمزيد من الترجمات والدراسات فى هذه الموضوعات المهمة والحيوية.

الإمبراطورية الصينية الجديدة
وما تعنيه للولايات المتحدة الأمريكية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1465
- الإمبراطورية الصينية الجديدة
- روس تيريل
- محمد محمود العشماوى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

The New Chinese Empire

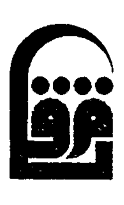
By Ross Terrill

First published in the United States by Basic Books,
a member of the Perseus Books Group

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الإمبراطورية الصينية الجديدة
وما تعنيه للولايات المتحدة الأمريكية

تأليف: روس تيريل
ترجمة: محمد محمود العشماوى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تيريل، روس
الإمبراطورية الصينية الجديدة وماتعنيه للولايات المتحـــدة الأميريكية/ روس تيريل، ترجمة: محمد محمود العشماوى
ط ١ – القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٣٨٠ ص ، ٢٤ سم
١ – الإمبراطورية الصينية
(أ) العشماوى ، محمد محمود (مترجم)
(ب) العنوان ٩٥١

رقم الإيداع ٢٣٨٢ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 479 - 958- 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصـدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الفصل الأول

معضلة الصين

تعتبر الحضارة الصينية واحدة من أعظم حضارات العالم، وتفخر الصين بأن إقليمها الأساسى خضع للحكم السياسى قبل أى أمة أخرى فى التاريخ، كما أظهر أهل الصين موهبة عظيمة وجديّة عندما تواتيهم الفرصة، وحتى عصر الثورة الفرنسية كانت الصين مجتمعًا لا يضارعه آخر من حيث المستوى والتقدم البيروقراطى والثروة، كما كانت لديها مكتبات تنافس مثيلاتها ودورًا للعرض فى مجال الفنون والأدوات والتحف اليدوية.

وفى فجر القرن العشرين كانت الصين على قمة الممالك التى استمرت مع بعض الانقطاع لمدة تصل لأضعاف التاريخ الأمريكى، كما أن كثيرا من المواد والمنتجات الأساسية التى عرفها البشر بدأت فى الصين وضمن ذلك البارود والطباعة والبوصلة، كما أن الصين مهدت الطريق لتقدم البشرية فى علوم الفلك ونظريات استراتيجيات الحروب وكذلك فنون إدارة وتسيير الدولة.

لكن القرنين التاسع عشر والعشرين كانا هما الأضعف بالنسبة للسياسة فى الصين، ولقد كان الدبلوماسى الأمريكى (جون باتون ديفيز) مبالغا بعض الشىء فى المذكرات التى نشرها عام ١٩٧٢ تحت عنوان (ذيل التنين) عندما أطلق على الصين لما سقطت إمبراطوريتها ١٩١١-١٩١٢ إنها مخيبة لآمال الجميع، وأن رجال الأعمال من الغرب والمبشرين والمعلمين ممن حاولوا تحديث الصين ونشر المسيحية باءوا بالفشل، كما أن العسكرية اليابانية فشلت فى هزيمة الصين، والحكومة الأمريكية لم يحالفها النجاح فى توحيد وتحديث

الصين، وكذلك القادة السوفيت الذين رافقهم الفشل فى التسلل للسيطرة على الصين.

والشيء الأكثر مدعاة للأسف أن التجربة الصينية كانت مخيبة للآمال: فشل تشان كاى تشيك، وفشل ماوتسى تونج، وبعد خمسة عقود تحت حكم ماوتسى تونج فإن جمهورية الصين الشعبية تقف فى موقف متناقض بين مجموعة الأمم والدول حيث تتراوح بين مجموعة من النظم المتسلطة والتقاليد القديمة والأساطير وبين شكل سياسى حديث ومراوغ، كل ذلك بالموازاة مع مجتمعها واقتصادها اللذين يعيشان حالة تغيير.

ومنذ انهيار النظام الذى عاش ٢٥٠٠ سنة من الملكية الكونفشيوسية كما عبر عنها بصدق فيلم (الإمبراطور الأخير) لبرناردو برتولوشى، لم تتمكن الصين من إنشاء نظام عادل وقوى، كما أنها لم يمكنها التكيّف والتهيؤ لتكون دولة حليفة، ومنذ الصراع بين القوميين المثاليين وأمراء الحرب أوائل القرن العشرين وحتى المواجهة بين اللينينيين وحركة الطلبة الديموقراطية فى ميدان تيان آن مين عام ١٩٨٩ فإن الصين تتخبط مع فكرة الحرية لكنها فى العموم تختار التسلط والقمع عندما تشعر بتهديد الأمن والنظام، وكما يقول (جوردن بينيت) فإن الصين اليوم متأكدة مما لا تريده أكثر مما تريده بالفعل.

وإن الفشل فى إيجاد البديل اللائق والحديث للحكم الاستبدادى له صلة بالتمسك بالوسائل والطرق الإمبراطورية، وتبدو الصين على مشارف القرن الواحد والعشرين غير منسجمة أو متناغمة مع رقعة الشطرنج لساحة القوى الكبرى الرئيسية، مازالت الصين حضارة تحاول أن تبدو كأمة، وكما لاحظ (لوشيان باى) أن الصين تتعامل بغطرسة واستعلاء مع شعبها كما سنرى فى الفصلين الخامس والسادس أنها ليست بعد دولة فى وضع مستقر بين مجتمع الدول وضمن توازن دولى دائم التغيير.

الإمبراطوريات السابقة تملأ متاحف التاريخ، لكن الصين حالة خاصة، ورغم سقوط أسرة الكينج ١٩١١-١٩١٢ إلا أن مكونات النظام الإمبراطورى لم تختف كليّة كفضاء متسع وبناء سياسى، وهى تحتاج بطبيعتها تلك لآليات وأساطير لتجميع الثقافات المختلفة، لكن الدولة الحديثة الديموقراطية شيء مختلف، إنها كيان سياسى وشعبها هو الذى يحدد توجه هذه الدولة، أو هو كما يسميه (أنطونى سميث) دولة المواطن أو دولة المواطنة.

كانت السياسات الماضية دولاً عرقيّة وليست أمما، فالأخيرة تستلزم ثقافة عامة، وتوجد عناصر قبل الحديثة داخل أمم كثيرة بما فيها الموقع والأساطير والذكريات، لكن الأمم لم تتواجد قبل القرن الثامن عشر.

وبهذا التعريف للإمبراطورية فإن دولة الصين الشعبية دولة أوتوقراطية، هى إمبراطورية فى عصرنا غريبة كسمكة وسط الأشجار، فهى تحكم أراضى كان يقطن نصفها تاريخيًا شعوب غير صينية، وهى تفتقد تقاليد وأعراف الأمة ولا تتصرف باعتبارها أمة، إنها باستمرار تستخدم الآليات الأوتوقراطية وأهدافها تلتقى مع أهداف الإمبريالية، وهذه هى الصين التى يحكمها ويسيطر عليهاالحزب الشيوعى الصينى، إنها نظام قوى جدًا فى الداخل ولكنه ضعيف على الصعيد العالمى، وهى دولة ليست إمبراطورية بمعنى السعى للسيطرة على العالم كما كان يطمع الاتحاد السوفيتى، لكن سلوكها الإمبريالى يقتصر غالبًا على جيرانها فى شمال شرقى آسيا وجنوب شرقى آسيا ووسط آسيا، لكنها إمبراطورية لأن لديها فكرة إمبريالية عن الصين، فهى تريد إعادة إنتاج الأوتوقراطية التى تعود إلى ألفين وخمسمائة سنة للتحكم فى شعبها وممارسة الغطرسة والهيمنة بالقوة على جيرانها من الشعوب غير الصينية، ونتيجة لهذا فإن النظام الصينى أضحى يمثل خللاً وظيفيًا فى عالم اليوم.

إنها ترتبط بفكرة عن الوحدة لا تتناسق مع الحقائق الزاحفة لصين حديثة أو حسب الشروط الحديثة، فمنذ ١٩٤٩ فإن العالمية الماركسية أدت لتقوية المظاهر الإمبريالية الحديثة للصين، ألم تكن الاشتراكية التى نفخت فيها الصين هى مصير كل الأمم؟ ألم يكن الشرق الاشتراكى متجهًا ليغير ويقوض الغرب الرأسمالى؟ وحتى الماركسية التى أفل نجمها منذ ثمانينيات القرن العشرين قد رأت الحزب الشيوعى الصينى يعود لصيغة عالمية الصين ما قبل الحديثة Great systemic whole ومازالت الصين تلوى عنق التاريخ وتستخدم خرائط مزيفة عن تخومها، كذلك فإن الأوتوقراطية تزيد وتتعمق ويقوى الشعور الإمبريالى مما يزيد من التناقض مع حالة المجتمع المفتوح، ولهذا سيظل الصينيون كما يقول (هاران بوكمان) يحملون أثقال تاريخهم أو هم بالأحرى ضحايا نجاحهم التاريخى.

ورغم عدم التناسق مع أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، فإن دولة الصين الشيوعية نجحت غالبًا فى تحويل ضعفها إلى قوة، ومنذ عام ١٩٤٩ بدأت تأخذ طريقها نحو الاحترام، ففى السبعينيات أقنعت عددا من الدول أن صينا واحدة تعنى أن مجتمع الجزيرة المنعزلة (تايوان) كان جزءًا من جمهورية الصين الشعبية كما فعل فى السابق شيانج كاى شيك رئيس الصين الوطنية عندما أعلن أن أرض الصين الأساسية كانت تنتمى إليه، وفى نهاية السبعينيات من القرن العشرين شكلت الصين ما كان يشار إليه بالمثلث الاستراتيجى العالمى مع الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، ولما وجهوا سياستهم بعيدًا عن الاتحاد السوفيتى واتجهوا للولايات المتحدة غيرت الصين اتجاه العلاقات الدولية رغم أنها كانت أكثر ضعفًا من الولايات المتحدة وأشد ضعفًا بصورة واضحة من الاتحاد السوفيتى، ولما اختفى الأخير عام ١٩٩١ بدأت الصين تواجه انكماشًا استراتيجيًا، ورغم ذلك فخلال الثمانى سنوات لإدارة كلينتون تمكنت الصين مع ضيق ذات اليد من

وضع أجندة ثابتة لعلاقاتها مع الولايات المتحدة تحتفظ لديها باليدالعليا فى مجال الاقتصاد والثقافة والشئون العسكرية.

والصين قوة متوسطة من الدرجة الثانية كما كتب (جيرالد سيجال) فى مقالته قبل وفاته المفاجئة عام ١٩٩٩: (وأن الصين حذقت فن المسرح السياسى مستخدمة الخديعة حول قوتها). وحتى هنرى كيسينجر المفتون بالصين قد سمى الانفتاح عليها علامة فارقة منذ الحرب الأهلية الأمريكية، واعتبر خطاب شواين لاى -رئيس وزراء الصين- للرئيس نيكسون بالموافقة على الزيارة السرية للصين عام ١٩٧١ بأنه أخطر خطاب سرى وصل للرئيس الأمريكى منذ الحرب العالمية الثانية.

وفى عام ١٩٧٢ عندما جلس نيكسون مع رئيس وزراء الصين كان الموضوع الرئيسى هو الحاجة للسرية وشكا نيكسون لشواين لاى أن مساعديه الأمريكان لديهم مشكلات فى الحفاظ على الأسرار وكتمانها، كما أشار كسينجر للرئيس نيكسون بأنه باستثناء بريطانيا فإن الصين هى الأقرب لأمريكا فى إدراكاتها الدولية، وبعد مفاوضات متكررة مع الرئيس ماو علق كيسينجر بأنه أى ماو يشع ببريق السلطة والحكمة وأنه صار أكثر تأثرًا وشغفًا بقوة وعظمة الرئيس ماو، وذكر كيسينجر للرئيس نيكسون أن الولايات المتحدة والصين صارتا حلفاء ضمنيًا Tacit allies، كل هذا رغم أن إدارة نيكسون لم تتحدث مع الشعب الأمريكى بهذه الطريقة عن الصين.

لقد كانت هناك أسباب مهمة لانفتاح نيكسون على الصين، كما أن إبراز كيسينجر لأهمية الصين كلها كانت جهودًا محسوبة للحصول على تأييد الحزب الديموقراطى للرئيس نيكسون، لكن الأمور بالنسبة للصين كانت نجاحًا ضخمًا لقوة من الدرجة الثانية فقد صارت القيادة الأمريكية بالنسبة للصين صينية sinified وهى تعنى أنهم أتوا (الأمريكان) وتشكلوا بشكل صينى وهو الأمر الذى كان يستخدمه المتأثرون بالملكية الصينية فى إشارة

إلى قدرة الصين على إحضار الشعوب الأقل، وهو الأمر الذى فعله الصينيون كذلك مع الاتحاد السوفيتى من قبل حيث أربك الرئيس ماو رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى خروتشوف من خلال وسائل الضيافة والكرم وتحديد لقاءات القمة فى حمام السباحة، فيما لم يكن خروتشوف يستمتع بالجلوس مع ماو فى حلة السباحة مع أقداح الشاى المتوالية التى لا يقربها خروتشوف وكان عليه الجلوس يقظًا منتبهًا فيما أن ماو من وقت لآخر يذهب إلى الحمام، وهذه الأساليب مكنت بكين من اللعب بالورقة الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى فى فترة بريجينيف خليفة خروتشوف، ومن الواضح أن الصين منذ زيارة نيكسون الأولى لها ١٩٧٢ وسقوط الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١ قد تحدت وهاجمت بعنف الاتحاد السوفيتى وهى دولة كانت أكثر قوة من الصين وأعظم منها بكثير ويقول مؤلف هذا الكتاب أنه قد رأى بأم عينيه عام ١٩٧١ براعة الدولة الصينية وخبراتها أيام تقارب الولايات المتحدة واستراليا ودول أخرى معها، ويقول الكاتب أنهم أحسنوا معاملته وغطى الإعلام الصينى بعضًا من نشاطاته وأن السبب فى ذلك يعود إلى أنه كان وسيطًا بين سياسى استرالى وحكومة الصين مع مشاركة من السفير الفرنسى فى إطار مناورة لتغيير العلاقات بين الصين واستراليا، وفى رحلة عام ١٩٧١ بالصين أعطوه صفة ضيف ثم دعوه للصين وكان ذلك وصفًا غير دقيق فالمؤلف يقول أنه دخل بتأشيرة سياحية وكان يعيش فى بيت ضيافة حيث يقوم بدفع الفاتورة، لكن أسلوب الصينيين فى التقرب والتلطف والتزلف واستخدام لفظ ضيف كانت أمورًا هامة فى دراما الموضوع فالضيف المدعو يمكن التحكم فيه والسيطرة عليه أما المواطن العادى فليس كذلك فعندما يسمونه صديق الصين (كما سموه) فإن التوقعات أنه تحت الضغط سيحقق المطلوب منه، وحيث أن المؤلف كان يعرف كيسنجر فقد كان عليه تقديم صورة كاملة لصديق عن الرجل وآرائه فى العلاقات الدولية وتقديره أى كيسنجر للصراعات داخل القيادة السوفيتية وكذلك تقدير كيسنجر للعلاقات مع اليابان، كما طلب

الصينيون منه النصح عن الصحفيين الاستراليين الأكثر تعاطفًا مع الصين استعدادًا لتغطية زيارة مرتقبة لزعيم المعارضة الاسترالى ليفى كين.

وعند حضور الضيف الاسترالى ليفى كين فوجىء بلقاء مفتوح مع رئيس وزراء الصين وبحضور ستة صحفيين استراليين وقام تشوين لاى بتذكير الضيف بوعوده حول تايوان وأنه عندما يعود إلى كرسى رئيس الوزراء فإنه سيكون قادرا على تحويل أقواله إلى أفعال، كل ذلك كان مثالاً للأسلوب والتقاليد الإمبريالية الصينية المطعمة بالفلسفة الماركسية.

وأمريكا بعلاقتها المتأرجحة مع الصين تتعامل مع مجتمع يتقدم باستمرار ويدخل فى مضمار الحداثة اقتصاديًا واجتماعيًا، لكنها دولة تستخدم آليات ووسائل قديمة موروثة من عهود الإمبراطورية منذ ما يربو على ألفى عام. صحيح أن دولاً كثيرة لها ماض أوتوقراطى لكن لا توجد إمبراطورية قديمة عاشت حتى القرن العشرين كما عاشت الصين وهى ترى فى نفسها نظامًا أعلى ويحمل قيمًا عليا ومفوضة من السماء ولديها وظيفة لرفع الشعوب المجاورة لأوجها الحضارى وثقافتها العالية بما يجعلها تشبه الأب بالنسبة لجيرانها الذى يرشدهم ويرعاهم.

والإمبراطوريات يمكن أن تكون متعددة الثقافات لكن فى أشكال مختلفة، فالتعدد الثقافى الأمريكى يمكن استخدامه وتوظيفه من خلال التصويت الانتخابى، وكان الأمر قريبًا من ذلك مع الإمبراطورية البريطانية، لكن الإمبراطورية الصينية تنظر للتعدد الثقافى وكأنه بناء سحرى يشتمل على تعويذات، ومن خلال المركز الإمبراطورى تنظر للثقافات الأخرى غير المركزية كوحدات تابعة ومطيعة وخاضعة لمركز واحد تدور فى فلكه.

والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة يمكن النظر لهما كمجتمعات متعددة الثقافات، وبالنسبة للاتحاد السوفيتى كانت أوكرانيا تمثل ركنًا عظيمًا

فيه وكذلك أوزبكستان، والمكسيكيون الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية هم أمريكيون إسبان مثل البيض والسود ويصوتون كأفراد (رغم اختلافهم ثقافيًا) فى إطار حكم القانون.

لكن الصين بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هى الإمبراطورية الوحيدة الباقية، وباعتبارها متعددة الثقافات مع وجود أقلية الهان العرقية التى تتولى القيادة فهى تشبه الاتحاد السوفيتى فيما عدا أن الهان يمثلون ٩٢% من السكان فيما كان الروس نصف سكان الاتحاد السوفيتى، والطريقة التى تمسك بها بكين إقليم أقلية التبت تشبه تحكم موسكو أيام الإمبراطورية فى أستونيا ولاتفيا وليتوانيا قبل عصر جورباتشوف.

وفى دراسة موثقة لـ(تسرينج شاكيا) عن التبت جاء فيها أن القومية الصينية طبقت سياسة دمج التبت فى إمبراطورية الصين الكبرى والتى رأت فيها جزءًا سابقًا من الصين ولهذا لا تعطى الصين أى اعتبار لآراء سكان التبت، ومثلهم كذلك اليوجور وهم من العرق التركى ولهم ثقافة مختلفة عن الصين وكذلك دينهم، وهى منطقة تخضع للحكم الذاتى فى سيكيانج بغرب الصين، ويعاملون معاملة أقل من المواطنين من حيث الحقوق.

وإذا كنا فى الولايات المتحدة لا نرى خطرًا من وجود مدن صينية فى نيويورك وسان فرانسسكو حيث يسود حكم القانون فى دولة حرة يتم فيها إقرار القوانين وتقنينها بالوسائل والإجراءات الديموقراطية، على عكس الصين حيث إن غير الصينيين مثل أهل التبت واليوجور مشكوك فيهم ومتهمون من جانب دولة أوتوقراطية الهان الصينية، وحتى الأساتذة الأمريكان من ذوى الأصول الصينية تم القبض عليهم فى الصين عام ٢٠٠١ وواجهوا تهمًا بالتجسس لحساب تايوان.

وكتب عالم السياسة الأمريكى (لوسيان باى) أن التعامل من الخارج مع الصينيين كأفراد يمكن أن يؤسس لعلاقات دافئة، لكن المشكلة هى دائمًا مع حكومة ودولة الصين، فهى دولة استبدادية قمعية تخاف حتى من شعبها نفسه.

والبعض يرى أن الصين تتحول لتصير قوة عظمى اقتصادية تشترى وتبيع مع جيرانها فيما يرى آخرون أنها ستخضع للانقسام والتشظى ويتساءل: هل الصين قومية؟ هل مازالت ديناصورًا شيوعيًا؟ هل هى وحدة من بليون مواطن فى القرية الكونية؟ هل هى كما ادعى كلينتون شريك استراتيجى؟ أم هى كما ذكر بوش- لمجرد الاختلاف مع كلينتون - منافس استراتيجى؟

والتقارير فى صحافتنا تتزايد عن الصين ومن الصعب بلورة تقسيمها بصورة متماسكة، ومن أسباب عدم اليقين تجاه مستقبل الصين أن الجماهير الصينية والنخبة الصينية لديهما أفكار مختلفة عن المجتمع الصينى، وعن الحريات الاقتصادية المتزايدة والتخلص من سياسات الرئيس ماو بعد وفاته عام ١٩٧٦، والحزب الشيوعى الصينى ليس راضيًا تمامًا، ولديه خوف من الكثير مما يحدث حوله، يجتر الأحزان التاريخية ويبدو محبطًا من الهوة المتسعة بين الأهداف والطاقات والقدرات، وهذه الثنائية والازدواجية لا يمكن فهمها دونما تفكيك ألغاز نظام دولة الحزب الشيوعى فى بكين.

فهل الطبيعة الحقيقية للدولة الصينية غير معلومة؟ ليس من الظاهر فى بكين؟ وشنغهاى أن السلطة السياسية قد تركت المجتمع الصينى للتركيز على الأعمال والتجارة وتكوين الثروات، وبعض المحللين يصف حكومة الصين بأنها طبيعية فى دولة من دول العالم الثالث تنتقل من نظام الدولة الشيوعية، أو هى حالة سوق لينينى وما بعد الشمولية، كما يرى محللون من ذوى المكانة أن السياسة ستهتم بنفسها بينما المجتمع يتطور، فيما المهتمون بالثقافة

ينحون لجانب الحذر حيث يشعرون أن كلاً من الماركسية والديموقراطية غير معروفتين فى الإطار الصينى، بينما الاقتصاديون متفائلون وواثقون أن مجتمع الأعمال والتجارة سيستمر بدون ألم ويطرح سياسة حديثة على المدى الأطول.

بعض هذه الرؤى ستتأكد وتثبت، ففى عقد التسعينيات من القرن العشرين تحدث الرئيس الأمريكى فى ثلاث مناسبات كما لو أن السلطوية الشيوعية هى شيء من الماضى، وفى عام ١٩٩٨ قبل زيارة كلينتون للصين ذكر أن روسيا والصين بدأتا الاتجاه صوب المجتمعات الديموقراطية الحرة الغنية.

لكن الواقع الفعلى يشير إلى أن روسيا ديموقراطية واعدة ومتطورة، والصين نظام لينينى لكنه مهجّن أو بنكهة تقاليد الصين الأوتوقراطية، ودولة الحزب الصينية قد اختارت ماضيًا صينيًا لتحقيق أهدافها وتاريخ الصين غنى ومعقد ونظمها مطعمة بالأساطير بهدف الاستمرار فى السلطة وتسهيل حكم الجماهير، والصورة التقليدية عن الصين القديمة موحدة ولا تتغير طابعها الغطرسة تجاه جيرانها والسلبية مع تاريخ موغل جدًا فى الماضى وتكاد تشارك الخيالات التركية وتاريخ الصين عبارة عن تلفيق وتجميع لحكايات وتقاليد تم تشويهها لأهداف سلطوية.

والدولة الصينية تحمل على كتفيها تاريخًا مضطربًا عنيفًا، والمركزية الصينية ووحدة الصين كانت فى وقت ما عملية تمويه لضم أقاليم الآخرين، ومن الناحية العملية فإن الحزب الشيوعى الصينى قام وأسس لشرعية تاريخ ثرى غامض حتى يقدم مشروعه الإمبريالى الجديد، ولا توجد دولة إمبريالية بطبيعتها لا الصين ولا اليابان ولا روسيا، وفيما بين ١٩٣٠ إلى ١٩٦٠ تغيرت الصين من مجتمع حاد الطبع وإمبراطورية غير راضية إلى أمة متحضرة تسلك سلوكًا قويمًا غنية وواعدة.

وخضوع آسيا لطوكيو باسم نطاق شرق آسيا الأكبر للرخاء المشترك بين الثلاثينيات والأربعينيات كان لفترة قصيرة وتميز بالعنف وكان لابد لاستمراره من عسكرة السياسة المحلية لكن بعد الحرب العالمية الثانية لم تعد سياسة اليابان تتجه فقط للحوار والتوفيق بل إن سياستها الداخلية صارت تعددية ولديها صحافة حرة.

وخلال التسعينيات تحولت روسيا من طريقها السابق الإمبريالى، وفى ٢٠٠٢ تحت حكم بوتين صارت أكثر ديموقراطية وتتوجه نحو الغرب وفى ٢٠٠١ انضمت من الناحية الفعلية للناتو والاقتصاد الروسى بعد المرور بعقد صعب وخشن تم فيه التخلص وتفكيك الدولة الأوتوقراطية العسكرية ونما الاقتصاد بمعدل ٥% سنويًا وكما قال (ليون آرون) عام ١٩٠٢ لم تكن روسيا خلال أربعة قرون ونصف أقل إمبريالية أو تسلحًا أو تهديدًا لجيرانها وللعالم وكل هذا تم دونما ضرب روسيا أو احتلالها من جانب المنتصرين، ومع التوجهات الروسية الجديدة تغيرت طبيعة الدولة وأضحت عملية الانتخابات وفكرة السوق هى الأدوات التى أنتجت روسيا الجديدة ولاحظ بوتين عام ٢٠٠١ أن بلاده لأول مرة فى التاريخ بدأت تنفق على التعليم أكثر مما تنفق على التسلح.

ومنذ وفاة الرئيس ماو الإمبراطور الأول الجديد لمملكة الصين الشعبية فإن الصين تندفع بسرعة اقتصاديًا ولكنها تتعثر فى طريقها السياسى والثانى الأخير هو استمرار للطريق الإمبريالى الذى سلكه بعض الأباطرة والتناقض بين الاقتصادى والسياسى يتصل بمناطق أساسية فى حكم الصين والتى سلمها الرئيس جيانج زيمين إلى الرئيس هوو جينتاو، وفى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى الصينى عام ٢٠٠٢ برزت موضوعات حقوق المواطن، الأيديولوجيا، أى طريق تسلك الصين مع العالم وكيف تتصرف، وفيما يلى عرض لثلاثة أحداث منذ نهاية القرن العشرين وهى ذات أهمية ومغزى

بالنسبة لموضوعنا حيث تبرز واضحة الصين كإمبريالية قومية واضحة وعارية وعظامها ناتئة من جسدها السياسى المتهرىء.

الحادثة الأولي: عندما سافر رئيس تايوان (لى تنغ هوى) إلى جامعة كورنيل الأمريكية ليلقى خطابًا، لقد حصل على الدكتوراه منذ سنوات مضت ولم تكن زيارته عام ١٩٩٥ لتأخذه إلى واشنطن ولم تتضمن اتصالاً مع إدارة كلينتون لكن بكين اندفعت بعنف للقول بأن على الرئيس لى أن يسافر دوليًا ويستقبل كزعيم لاثنين وعشرين مليون تايوانى يعيشون كأمة ذات سيادة، ولقد مرت العلاقات الأمريكية الصينية بفترة صعبة حيث طالبت بكين واشنطن برفض دخول الرئيس (لى)، صحيح أن كلينتون لم يجعل بكين تعتقد أن لى لن يعطى تأشيرة دخول لأن كل الكونجرس رفض ذلك لكن الشعب الصينى كان يريد أن يقول لكل من القادة الأمريكان والتايوانيين المنتخبين ماذا عليهم أن يفعلوه فى علاقاتهم الثنائية، إنه شىء سخيف لكنه كان منطقيًا تمامًا مع وضع وتفكير وواقع الصين.

فى العام التالى حدث شىء آخر فقبل انتخابات مارس ١٩٩٦ فى تايوان قامت الصين بتجربة صاروخ قرب ساحل تايوان، وكان هذا العمل المفاجىء والمروع يستهدف إبراز عدم موافقة الصين على حقيقة انفصال تايوان وما تعتبره الصين وهمًا أنها جزء من جمهورية الصين الشعبية، وكان قادة بكين المحبين للظهور قد شعروا بأنهم يمكنهم تخويف شعب تايوان من التصويت لـــ(لى تنج هوى) ورفض صيغة الصين الواحدة لكن التصويت للمعارض الذى يتجه للتوافق مع طلبات الصين الشعبية، لكن لى كسب الانتخابات بنسبة أكثر مما كان متوقعًا والفجوة بين حقيقة الموقف التايوانى وإمبراطورية الصين الجديدة جرى توسيعها ويمكن الاعتقاد بأن بكين أحست بالإحراج لأن الديموقراطية وصلت لتايوان فيما أنها غير مقبولة سياسيًا ولا قانونيًا فى الصين الشعبية إنشاء حزب سياسى ذو توجه ديموقراطى، لكن

الصين لم تستفد من مغزى التناقضات والنتائج التى يجدها قارىء هذا الكتاب منطقية لأن الصين لا تهتم برأى القواعد فى المواضيع السياسية الأساسية وديكتاتورية الصين الشيوعية هى مثل السياسة الصينية الملكية القديمة فرض من أعلى فالرئيس لى يمثل حكومة تعددية ديموقراطية تتناقض مع بكين الأصولية الماركسية والحزب الشيوعى الصينى يخدع نفسه بصيغته التى يتخيلها عن تاريخ الصين حيث يريد أن يقول لاثنين وعشرين مليون تايوانى من يجب أن يقودهم.

ومنذ التسعينيات نشأ نزاع بين بكين وحكومة هونج كونج الإنجليزية ودور المحافظ كريس باتن فى إعطاء قدر محدود من الديموقراطية لهونج كونج استعدادًا لتسليمها للصين الشعبية حيث هاجمته صحافة الصين الرسمية وسمته داعر آسيا وجرى توبيخه بقسوة وباستخدام ألفاظ معروفة ضد الهرطقة والبدع كانت تستخدم تجاه غير الصينيين الذين يسمونهم فى الصين البرابرة، وفى حالتنا هذه جرت الأمور بنكهة المسرح السياسى للثورة الثقافية الصينية فى الستينيات وأطلقوا على محافظ هونج كونج الإنجليزى المجرم الذى ستجرى إدانته لآلاف الأجيال.

والموضوع الحقيقى فى كل من هونج كونج وتايوان هو عدم المواءمة بين وجهة النظر الإمبريالية للحزب الشيوعى الصينى حول السيادة باعتبارها ذريعة أو تفويضًا إلهيًا (طورها الحزب الشيوعى لتكون تفويضًا تاريخيًا) ووجهة النظر الديموقراطية بأن السيادة تنشأ بالإرادة الشعبية ومن القاعدة الجماهيرية وتجاه الرئيس (هوى) والمحافظ (باتن) فإن المهم هو الجانب المظهرى الخارجى من الإمبراطورية الصينية الجديدة التى تمارس أيديولوجيتها وتؤكد على اختصاصاتها وصلاحياتها، ولحسن الحظ فإن الرئيس كلينتون قام بإفشال هذه البالونة للمظهرية والعجرفة الصينية بإرسال حاملة طائرات إلى خليج تايوان فى مارس عام ١٩٩٦.

الحادثة الثانية: هى خلال مايو ١٩٩٩ عندما أخطأت قاذفة تابعة لحلف الناتو وضربت سفارة الصين فى بلجراد وقتلت ثلاثة أشخاص صينيين وأحدث ذلك غضبا لدى الصين، والصين لها بعض المصالح فى جنوب أوروبا بجانب المصالح التجارية وهى لا تبرر سوء المخاطرة أو الخطأ أو حتى القصد فى هذه المأساة. وأكثر من هذا فإن الرأى العام الصينى من قبل ضرب السفارة كان غاضبا حيث شن الإعلام حملة شديدة ضد ما أسماه الهجوم الإجرامى على صربيا وظهر مقال فى صحيفة الشعب الصينية اليومية يوم ١٩ أبريل عام ١٩٩٩ يظهر صربيا باعتبارها كبشا أعطت مرفأ أمان لنعجة بريئة هى كوسوفو فيما كلاب الناتو تحوطها بالأسد العارية، وعليه لم يكن من المستغرب مظاهرات الصينيين ضد السفارة الأمريكية فى بكين حيث أرسلوا رسائل شديدة اللهجة وتصايحوا بالإدانة ضد الهجوم المتعمد على الحياة والممتلكات الصينية من جانب الإمبريالية الأمريكية وهددوا السفير الأمريكى قائلين "اخرجوا من الصين أيها القتلة الأمريكان". هؤلاء القتلة هم الذين يشترون رغم ذلك ما يربو على ربع مجمل الصادرات الصينية ومما يعد مساهمة ضخمة فى الاقتصاد الصينى المزدهر.

والحقيقة أن غضب الرأى العام الصينى كان مجرد استعراض بالوكالة، والطلبة المتظاهرون جرى نقلهم بالأوتوبيسات للأماكن التى تجمهروا فيها. وبالنسبة للتحيز فى الإعلام الصينى قبل الحدث قد كان أمرا معدا قبل ضرب السفارة. هذا وقد قام الرئيس الأمريكى كلينتون بتقديم اعتذار بالتليفزيون عن ضرب السفارة وجرى إعلان التحقيق فى الحادث ورغم ذلك لم يتم من جانب الصين إبلاغ الرأى العام لديها فى حين استمرت الصحافة والإعلام فى الصين فى تقديم ضرب السفارة كعملية محسوبة ومتعمدة ضد الصين، وعلى عكس انطباع بعض المتفائلين فإن قطاعا ضخما

من الرأى العام ليسوا متصلين بالإنترنت والميديا الرسمية التى تطبق على كل الصين صورت أمريكا مثل ألمانيا النازية.

وبعد أربعة أيام تبين أن الحكومة الصينية غيرت لهجتها حيث تم تلخيص الأسف الأمريكى وكذلك من جانب الناتو للرأى العام الصينى وللغرابة فإنه بالنسبة لمن يعرفون كيف تخرج المظاهرات فجأة وفى موعد محدد فإن الجماهير الغاضبة إختفت وتوقف الهجوم على المصالح الأمريكية والغربية عموما، والواضح أن خداع الذات ومسايرة الأهواء يناقض سياسة الصين لتوسيع التجارة وطلب الاستثمارات والتكنولوجيا من الولايات المتحدة وخلال ربيع ١٩٩٩ كان مكتب رئيس وزراء الصين (زو رونجى) ينتظر موافقة أمريكا على المسعى الصينى لدخول منظمة التجارة العالمية والواضح أن الحزب الشيوعى الصينى قد استخدم المظاهرات ضد الولايات المتحدة ثم أوقفها فجأة رغم ان الغضب الشعبى كان موجودا وبالتالى كانت الولايات المتحدة عدوا ضروريا وفى نفس الوقت كانت مفتاحا لنمو الاقتصاد الصينى، الدولة الخاطئة ظهرت فجأة ولكن ذلك كان ثمنا للتضحية المسرحية.

الحادثة الثالثة: فى أبريل ١٩٩٩ حيث رأينا عشرة آلاف شخص يتبعون لحركة (فالونجونج) وهى حركة متأثرة بالبوذية تهتم بأساليب التنفس وتعليم الشفقة وبعض الأفكار حول الرؤى، وقد تجمعوا فى ميدان تيان آن مين فى مسعى صامت مطالبين بالاعتراف بهم ومعظمهم من مقاطعة (تيان جين)، وكانوا قد شعروا بالإهانة من مقال أكاديمى اتهمهم بالجنون وقد أحس الحزب الشيوعى بالخطر وقامت الدولة بالهجوم عليهم، وفى يوليو جرى منع الحركة وإغلاق مقراتها وظهرت الدولة الخائفة فى بكين وأظهرت حركة فالونجونج من حركة غير ضارة تهتم بتطوير الحياة لملايين الصينيين المسنين إلى عدو يهدد الاستقرار والوحدة فى مملكة وسط الصين الحمراء على الرغم من أن الحركة لم تشكل أى تهديد لاستقرار الدولة ووحدتها،

وكان ضمن المنتمين للحركة عدد من كبار أعضاء الحزب الشيوعى من البوليس والجيش والقوات الجوية وقد كانت الحركة قد قامت على أساس تقليد أصيل فى الصين منذ ألفى سنة وقالت الدولة الصينية إن فلونجونج تمثل هرطقة دينية ترفضها مثالية الحزب الشيوعى.

ولو كانت حركة (فالونجونج) ضارة بالصحة لأعضائها فإن (الوثبة العظمى) لماو سنة ١٩٥٨-١٩٥٩ كانت حقيقة ضارة بصحة الملايين من الفلاحين الصينيين، ومات ٣٠ مليون منهم من الجوع بسبب مثاليتها الشديدة، وقد أذاع التليفزيون الصينى تقريرًا من مستشفى نفسى بأن فالونجونج قد أدت لجنون عدد من أعضائها، وكتبت (إليزابيث بيرى) بعد ضرب الحركة مباشرة أنه منذ القضاء على الثورة المضادة للخمسينيات لم نر مثل هذا الوعى القومى مكرسًا ضد المقاومة الفئوية ولهدف مجرد واحد، والحملة على الحركة هى أبعد من مبادىء وحكم ماو لعدم إمكانية التوفيق بين الهرطقة والابتداع فى الدين، صحيح أن الحقيقة ذات الطبيعة السياسية ليست متعددة لكن الاختلاف الفلسفى هو عمومًا تهديد ضد الدولة، وقد قال الحزب الشيوعى أن الحركة ليست مسجلة ومن هنا ليس لها حق الاجتماع والحديث، وصحيح أيضًا أن مظاهرة العشرة آلاف فى أبريل عام ١٩٩٩ كان فقط وبالتحديد للمطالبة بتشريع موقفهم من التسجيل فلماذا يتم إدانة المنظمة لعدم حيازتها لما طالبت به سلميًا وجرى رفضه، والقضية الأساسية هى أن قوة الدولة البيروقراطية جرى الخوف عليها من البوذيين كبار السن وتأملاتهم ووجهات نظرهم الدينية، والواقع أن أى شخص له توجهات خارج الماركسية يخشى منه الحزب الشيوعى الذى لم ينس أنه وصل إلى السلطة من خلال برميل البارود ولهذا يخشى من حركة فالونجونج وامتدادها فى كل الصين واستخدام الإنترنت داخل الصين وخارجها، وزعيم للحركة يعيش فى

نيويورك ومن هنا فإن التفويض السماوى للدولة الخائفة يكون فى خطر ويعطى لمحة عن أن بطن الدولة الطرى يشك فى نفسه.

وفى الحوادث الثلاثة المشار إليها فإن رد الفعل الصينى ضد الديموقراطية فى تايوان والتطور الديموقراطى فى هونج كونج، ورد الفعل تجاه ضرب السفارة الصينية فى بلجراد، والصراع بين الحزب الشيوعى وحركة منظمة بوذية دينية فقد أظهرت الدولة الصينية حقيقة أنها مجرد مظهر خائف ومرتعد وحزين وجرى الإمساك بها بين دول العالم الذى يعتمد بعضه على بعض ووجهة نظرها الأيديولوجية المكثفة، لكن هناك زاوية أخرى فإن الدولة الصينية الإمبريالية لها تاريخ طويل وأسباب قوية وراء خوفها، فالصين فى القرن العشرين لم تكن كما صورها (باتون ديفيز) الفشل الذريع فقد رأت تحولات وتحسنًا لكن فى الجوانب السياسية، وقد كان القرن حلقات من البدايات المزيفة والثورات المنظمة فيها من المآسى والتراجيديات السياسية مما يعطى فى النهاية شيئًا يتسق مع حضارة الصين، فالصين الشيوعية تمتعت ببعض من النجاح داخليًا وخارجيًا، وما تحقق ماديًا متبلور على الأرض، وعلاقات الصين مع فضائها غير الصينى وطموحاتها فى العالم كان كبيرًا ولكن على الولايات المتحدة أن تحدد هل هى تتعامل مع الصين كديناصور يترنح؟ أم مع خليط من التقاليد والحداثة؟

إنه من الصعب علينا كغير الصينيين تقدير مشاكل الحكم التى تواجه بكين، فهى تضم خمس سكان العالم وأكثر من أربع أضعاف عدد سكان الولايات المتحدة، وهى جارة لما لا يقل عن ١٥ دولة أخرى من الشمال والغرب والجنوب تضم أراض متفاوتة من التبت والإقليم الإسلامى فى سينكيانج وجزء من منغوليا، إنها فى الحجم واللغة والثقافة تكاد تعادل تقريبًا كل أوروبا، ولهذا سمى الصينييون الحرب العالمية الأولى بالحرب الأهلية الأوروبية لأن الصين تملك أكثر مما يوازى كلا من فرنسا وألمانيا وإيطاليا

وكله يدخل فى الفضاء الصينى، ويمكن للغرب أن يعذر سيدة زارت التبت وشكت أنها فى الصين، أو غربيًا آخر زار سنغافورة وأجزاء من بانكوك واعتقد أنه فى الصين، إننا نتذكر أن الصين بالأساس هى حضارة وهى بالتاريخ المزيف والسياسات الاستبدادية دولة، ووجهة نظر الحزب الشيوعى فى مشاكل الصين هو دعم الاستقرار والوحدة كأولوية قصوى ولسحق أى نشاط يعد هرطقة ومعاديًا للصورة التى ترسمها الصين لنفسها، ومن هنا الهجوم على المتأملين من فالونجونج ودمغ الدلاى لاما باعتباره انفصاليًا منشقًا والنظر للمساجد فى غرب الصين باعتبارها محطات للانفصالية ولهذا فإن الحكومة التى تهتم بأولويات سياسات الاستقرار هى ربما حكومة فى خطر.

والواقع أن الحزب الشيوعى جرب الطرق والأساليب التى اتبعتها الملكيات السابقة فى الصين واعتبر الأيديولوجية أسطورة للتحكم فى العناصر المختلفة مع الحزب والأجزاء البعيدة من الصين وشبه الصينيين المنتمين للحضارة الصينية كدولة واحدة، لكن الماركسية التى نبذها الحزب كسلاح قديم ملأه الصدأ واستخدمها ضد أى بديل للحزب الشيوعى، لكن هذا الحزب ينكر الأفكار السياسية المختلفة ويحتقر التوافق مع مطالبها وكذلك القواعد الشديدة من جانب المنظمات الدولية، ولما جرى انتخاب الرئيس فى تايوان اعتبرت الصين الزعيم السياسى المجاور وهو من أصل صينى اعتبرته حثالة الجنس الصينى وهذا أمر غريب فى تقاليد المجتمع الدولى المعاصر فنصف حكومات العالم ديموقراطية ومعظم دول العالم الكبرى فيدرالية والصين كعملاق العالم لا هى ديموقراطية ولا هى فيدرالية، هذا العالم الزاحف والذى هو حجمًا وتعقيدًا يقارن بأوروبا لا يمكن أثناء تحديثه أن تحكمه دولة بسيطة واحدة وحكومته ليست مسئولة أمام شعبها، لقد حضر الرئيس (جيانج زيمين) ببزته اللامعة اجتماع دول آسيا والباسيفيك للتعاون

الاقتصادى ومؤتمرات دولية أخرى جالسًا بجانب رؤساء الدول والحكومات وكذلك فعل خليفته (هو جينتاو) الشىء نفسه لكن ابتسامتهما وبزتهما لا تخفى حقيقة أنهما حضرا هذه المؤتمرات دونما تفويض شعبى، والرئيس كلينتون أواخر عام ١٩٩٨ بعد زيارة الصين وبينما هو فى هونج كونج قال عن القيادة الشيوعية الصينية أنه يريد أن يرى هذه القيادة الصينية قنطرة وجسرًا لما بعد الشيوعية كجورباتشوف وليس كبريجينيف الحارس للينينية، ويأخذوا الصين بالكامل تجاه القرن الواحد والعشرين، وأن الشعب الصينى لم يُعط كلمته ورأيه فى هذا الصدد.

وقد كان تغييرًا تاريخيًا ذلك الذى حدث عام ١٩٧٩ فإن سياسة الإصلاح الاقتصادى التى شجعها الزعيم (دينج إكس ياو بينج) الإمبراطور الثانى الجديد للصين مما جعلها دولة تجارية ولكن تم ذلك بطريقة عجيبة بعيدًا عن مشاكل الصين السياسية وتحول دينج إلى صورة أخرى من ماو وصار فوق النقد وحكم حتى الموت مثل الأباطرة، لكن التأكيد الأساسى على الاقتصاد كان يشبه سكينًا ذا حدين للصين وشعبها الذى يبلغ ١,٣ مليار والذى عاد ثانية لفكرة مزرعة الأسرة ودور رجال الأعمال والمنظمين والحجم الكبير للتجارة وكل ذلك نتج عنه اتجاه واضح لنقل القوة والثروة بعيدًا عن بكين، فالمقاطعات حاليًا تتعامل مع بعضها متجاهلة الحكومة المركزية، وفى عام ٢٠٠١ فإن مقاطعة (جواند دونج) المركز التجارى الصاعد تجاهلت عدة مرات قرارات وقوانين بكين العاصمة فى أعمالها وتجارتها مع مقاطعات (جيانج زو) و(يانج زى) وشنغهاى، كما أن عدة اقتصاديات أخرى إقليمية كونت كما قال أستاذ صينى متخصص نظامًا مغلقًا وتحكمت فى إغلاق بعض الأقاليم وبدأت تضع قيودًا وحدودًا تجارية.

كما ترتب على سياسة دينج أيضًا أن هناك أكثر من مائة مليون فلاح سابق يتحركون عبر البلاد دونما تحكم من جانب العاصمة بكين، ولا توفر

لهم الحكومة وظائف فى المدن التى تمكنها من التحكم فيهم، وخلال العام ٢٠٠١-٢٠٠٢ فإن هؤلاء الهائمين على وجوههم ربما زاد على العشرة ملايين، وشكل دخل الدولة تغير ودخول الأموال الأجنبية فى شرايين الاقتصاد نقلت القوة بعيدًا عن العاصمة بكين وإذا كان دخل الدولة هو الدولة كما كتب (إيدموند بيرك) فى كتابه خواطر حول الثورة الفرنسية فإن الصين فى فجر القرن الواحد والعشرين هى مثال يؤكد صحة هذا القول.

والدولة الرسمية الصينية تحظى بأقل جزء من كعكة الدخل الصينى، وفى نظام مالى لا يعمل فإن ما يتم جبايته يفشل فى أخذ طريقه نحو ميزانية الحكومة للخدمات والنفقات العامة، والدخل خارج الميزانية يتم توجيهه لمشروعات غامضة بالإضافة لفساد الموظفين وسرقاتهم، وخلال ذلك كله فى جنوب شرق الصين فإن الثروة والقوة المتضمنة تتزايد وتتراكم، وفى مقاطعة (جوان دونج) يشير الناس لأنفسهم ليس باعتبارهم (هان رين) وهى جملة تقليدية للشخص الصينى لكن باعتبارهم (تان غرن) وهى لفظ آخر للشخص الصينى تعيد إلى الأذهان نكهة الملكية، هذا الإحساس بالجنوب باعتباره قلب الصين يردد ويعكس بعض الأجزاء من تاريخ الإمبراطورية الصينية فإن سياسة الباب المفتوح لدينج صارت إيماءة للاتجاه نحو الجنوب الساحلى.

و(جون فيربانك) فى كتابه عن الثورة الصينية الكبرى وكتبه الأخرى رسم خطًا بين الصين الداخلية والصين الشاطئية الساحلية وكيف أنهما مختلفتان، ومنذ البدايات الأولى فإن الشمال بيروقراطى العقلية وهو فى حالة توتر مع العقلية المتفتحة الكوزموبوليتالية للجنوب المحيطى الساحلى وكان الرئيس جيانج زيمين إمبراطور الصين الثالث فماو قاد الثورة وجاء بالسلطة للحزب الشيوعى ودينج قاد عملية الإصلاح والسياسات الاجتماعية بما حقق تفكيك المادية الجدلية وأعطى القدرة للموهبة الصينية وللأعمال والتجارة

وزيمين يمثل الجيل الأحدث الذى لا يحمل أية استحقاقات ثورية من نضالات ماضى الأبطال والتحدى أمامه هو لمأسسة أولويات دينج فى الاقتصاد ونقل السلطة إلى الأقاليم، فهل ستؤول الأمور إلى الموازنة بين الاتجاهين أم سيهتم فقط بمجرد المحافظة على الوحدة والاستقرار؟

ويتحدث جيانج أحياناً كما لو أن ظاهرة الأقاليم التى تقوم بنفسها صارت تهدد وحدة الصين كما أن طبيعتها التجارية تهدد صيغة الشيوعية لدولة الحزب، والواقع أن القسر هو الذى يهدد وحدة واستقرار الصين.

وهذا الكتاب لا يفترض أن نقل السلطة إلى الأقاليم سيؤدى إلى تفكك وحدة البلاد، والحزب الشيوعى يتجه لخفض عملية نقل القوة والسلطة أو الحد منها أو حتى عكس اتجاهها ولو بأى تكلفة اقتصادية.

وقد حققت سياسة الانفتاح والإصلاح الاقتصادى مع سوق الصين الضخم نجاحات اقتصادية وفوائد إنسانية.

وقد أظهرت بعض من أجزاء الصين اتجاهات وغرائز نحو الانفصال، ولو تحولت بالفعل للانفصال فلن يكون ذلك بإرادتها لكن بسبب الفوضى الناجمة عن ضعف قبضة بكين على من هم من غير قومية (الهان) فى مناطق غرب الصين ولكن قبل ذلك فإنها تواجه مشاكل فى مناطق الهان ذاتها لم تواجهها إمبراطورية الكينج ١٦٤٤-١٩١٢ فتايوان وهونج كونج هما أكثر مناطق الصين الكلية الكبرى ترفض التحكم من بكين، ووراء وخارج مناطق الهان مثل غوان دونغ وتايوان توجد الشعوب والأقليات المسلمة كما فى سينكيانج، والجنوب الغربى (التبت)، والشمال (منغوليا الداخلية) وكلها لا تستريح للطرق الإمبريالية.

ولفهم سياسة الصين فى جوانبها البعيدة غربًا وشمالاً يجب أن نفهم أثر فكر عالم الصين التقليدى ونظامها الفكرى، فمعظم الإمبراطوريات انتهت أو ضعفت عندما واجهوا الفوضى الداخلية مع التهديد الخارجى وهذا ما تواجهه الصين حاليًا، الإمبراطورية الصينية الجديدة معرضة لمثل هذا الاضطراب بسبب المجتمع الجديد المتغير والاقتصاد النامى فى بعض أقاليم الصين مع هشاشة النظام اللينينى والمفارقة بين الصين كإمبراطورية متعددة الثقافات مع أوضاع وظروف القرن الواحد والعشرين.

فى يوم من أيام ١٩٩٦ صاح الرئيس كلينتون فى وجه هيئة أعضاء مكتبه قائلاً: "إننى أكره سياستنا نحو الصين" وكان يعنى من ذلك أنها كانت تعطيهم المزايا التجارية" ونغير نحن سياستنا التجارية"، وبعد حادث التصادم الجوى فى جزيرة هاينان عام ٢٠٠١ فإن الرئيس بوش وجد نفسه فعليا يواجه دولة غامضة مشوهة وسيئة السلوك، وأى رئيس قادم سيشعر بإحباط مماثل من السلوك الصينى الماكر والمخادع والمضلل فى منظمة التجارة العالمية حيث تعطى بكين التأكيدات لجنيف لكنها تسمح فى الوقت نفسه لمقاطعاتها الرئيسية بالتلاعب بهذه التأكيدات، وفى النهاية فإن سياسة دولة الحزب تعيد كتابة التاريخ وتحسن وتجمل الواقع للحفاظ على قوتها وحماية سياستها وخططها الإمبريالية، وهذه الأجندة تنتهى وتؤول إلى عدة قواعد للسلوك، فالحزب الشيوعى مهتم لحد المرض بالعقيدة حتى الأفراد العاديين سئموا العقيدة وخواءها، وفكرة الأخذ والعطاء مع الدول الأخرى لا يتم مراعاتها من جانب دولة الحزب.

وفى وقت ما فإن مشكلة الصين بالنسبة لأمريكا والدول المجاورة للصين لا يتم التعبير الصحيح عنها لأن الصين تمثل نموذجًا إمبرياليًا متحديًا غير متوافق مع القرن العشرين والأخير غير متوافق معها فبريطانيا منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية كانت إمبراطورية رسمية

(بوليس وعلم ومحاكم ومدارس)، والاتحاد السوفيتى ١٩١٧-١٩٩١ احتفظ بمستعمراته من بلغاريا إلى كوبا بالتوافق مع العقيدة الماركسية والقوى العسكرية، واليوم أمريكا مع تفوقها العالمى ترتكز على النصر والتفوق التكنولوجى والاستثمار والتدخل العسكرى، ويبدأ وينتهى كل هذا بالنفوذ غير المباشر والمستمر والمتوالى، لكن الإمبراطورية الصينية مختلفة فهى أحيانًا أكثر تواضعًا وأخرى أكثر من ذلك عدوانية وغطرسة إنها إمبراطورية المسرح إنها مشيدة من القمع الداخلى والطموحات الدولية وضمن أسلحتها الغموض والمكر، وحس تاريخى يمكنها من أخذ مصالحها وطموحاتها بنظرة طويلة وعميقة.

وتتمثل القواعد الأساسية لإمبراطورية الصين الجديدة فى ثلاثة قواعد:

الأولى: القوة الدافعة والمتحكمة التى تأتى من أعلى وليس من أسفل تنظر لنفسها باعتبارها الوصية على الحقيقة، وأى توافق تحققه مع القوى العظمى الأخرى هو أمر تكتيكى بطبيعته وليس قائمًا على الموافقة، والتنافس الأمريكى الصينى ليس ملموسًا باستثناء مضيق تايوان فى الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، ومشكلة الصين ليست فى صعودها الاقتصادى أو أنها تهددنا وتهدد نصف العالم لكن كديكتاتورية لينينية إمبريالية تحكم الصين الصاعدة، وقد قال الرئيس نكسون للزعيم ماو عام ١٩٧٢ عندما شكل الاتحاد السوفيتى عدوًا مشتركًا لبكين وواشنطن أن المشكلة ليست فى فلسفة السياسة الداخلية ولكن فى سياستها تجاهنا وبقية العالم.

لكن اليوم فإن سياسة الصين الداخلية هى أمر مهم، وفى كتاب الصراع القادم مع الصين ذكر مؤلفوه أن حكام الصين سيخاطرون بالحرب مع أمريكا ليس لأنها فى مصلحتهم ولكن لأنها فى مصلحة العصابة الحاكمة والمتحكمة.

الفيدرالية تبدو شكلاً دستوريًا للصين الصاعدة بعد ماو ولا توجد دولة فى ربع حجم الصين أو سكانها تم حكمها بنتائج طيبة فى العصر الحديث دونما شكل من الفيدرالية، ولمدة قرن كامل فإن العقول القائدة فى الصين اقترحوا الفيدرالية لحكم بلادهم، ولكن عندما تكون وحدة الصين معتمدة على السلاح والقوة فإن الفيدرالية لا يمكن أن تكون على الأجندة ولا يمكن أن تكون مفهومة فى ظل تقليد سياسى يركز على الوحدة وعلى المركز، والصين دولة غامضة حول السياسة ونظام الدولة، الفيدرالية تقسم السلطة تحت ظل القانون، لكن الإمبراطورية تركز السلطة فى يد صفوة مختارة معينة، والحزب الشيوعى ينكر سلطة القانون بادعائه أنه مفوض للحكم بناء على مراحل التاريخ حسب النظرية الماركسية، والحكم الذاتى ليس أكثر من لامركزية لكنه ليس بديلاً عن الفيدرالية على أساس القانون.

والصين عصبية جدًا تفهم حكم القانون على أنه وسيلة وطريقة ولا تسمح بأى درجة من الاختلاف السياسى فى الأسس وتمتنع عن مأسسة انتقال السلطة من بكين إلى المقاطعات البعيدة والذى حققته الإصلاحات الاقتصادية وفرضته، وبكين تريد توسيع إقليمها ليشمل تايوان لاستعادة الفرية بأن تايوان مقاطعة من مقاطعاتها، بالرغم من أن الصين لم تحكم تايوان تاريخيًا يومًا واحدًا.

ويومًا ما فإن الليبرالية ستقوم بدورها الإمبريالى كما بدأ الاتحاد السوفيتى تحت جورباتشوف وكما فعلته روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى حيث يتمدد نظامها على حدوده الغربية والجنوب شرقية التى ينتشر فيها الفساد بعمق، والصين الإمبراطورية هى نظريًا وعمليًا إمبراطورية ولا يمكن أن تكون دولة قومية، وقد وصلت بعد أن سلمها جيانج زيمين إلى هوو جينتاو ٢٠٠٢-٢٠٠٣ على منتصف الطريق بين الإمبراطورية والدولة الأمة وتسوية هذا التناقض لا يمكن أن يكون بعيدًا، كيف أن الحضارة الصينية

مازال يتحكم فيها القمع الإمبريالى وتحاول أن تتواءم مع نمو القوى الاقتصادية الجديدة، وطبقة وسطى نامية بمنتجين مستقلين ومستهلكين وعالم الدول القومية سيؤثر على كل أمريكى وشرق آسيوى ومن منطقة آسيا الوسطى الذين يعيشون على حدود الصين.

الفصل الثانى

كيف تكونت إمبراطورية الصين

"يمكن القول أن الدولة فى الصين هى الكل، هى ليست كيانًا وجدت نفسها مضطرة لإيجاد مكان لها بين القوى الأخرى كما هو الحال فى دول الغرب حيث كان على الدولة فرض نفسها على السلطات المستقلة كالكنيسة والإقطاع والنبلاء، وأن تجد لها طريقًا ما مع التجار وطلب المساعدة من الممولين، الدولة فى الصين هى حقيقة واقعة منذ البداية أو على أية حال منذ تحققت صيغة دولة الـ QIN(الكين) قبل عام ٢٢١ قبل الميلاد".

(جاك جيرنيه)

واليوم وكما جاء فى الفصل الأول فإن الدولة الصينية لها خصوصيتها لإحساسها بالمصير (بمعنى الحتمية) ودورها التعليمى التثقيفى ووجود مسافة بين الشعب والحكام وسلوكها الفظ فى العلاقات الدولية، وكل هذه عقبات إلا أن الدولة الصينية الشيوعية قد تفادت مصير شريكها الأكبر يومًا ما وهو الاتحاد السوفيتى، لقد أظهرت قدرة على البروز بوزنها باستخدام أسلوب المسرح السياسى لكنها رغم كل ذلك تبدو خليطًا من المتناقضات، تريد أن تكون دولة حديثة ودولية كما ظهر فى سعيها لدخول منظمة التجارة العالمية ورغم هذا تتباهى وتختال وتحاضر العالم خاصة الولايات المتحدة وكأنها تخاطب ليس دولاً أخرى ولكن عناصر متمردة داخل نطاق اختصاصها، إنها قادرة على الادعاء بعقيدة عفى عليها الزمن لكنها تتصرف بواقعية ميكافيلية، وكل ذلك ينبع فقط من الستالينية وبقايا من الماضى الإمبريالى.

وعلم السياسة فى الولايات المتحدة لديه القليل عن نموذج دولة سوفيتية مركزية كما حدث فى الصين لما يناهز القرن، الدولة بعيدة تمامًا عن الميثولوجيا الأبوية والتوسع والقوة القاهرة وكل ما يعد حقيقة من مظاهر الإمبراطورية الصينية.

و(مورتن ح. فريد) فى مقال هام للدولة كمؤسسة يبتعد عن فكرة لويس الرابع عشر (الدولة هى أنا) حيث لا قيمة لها لفهمنا للدولة، لهذا يمكن أن نخلص إلى نتيجة مؤداها أن الدول الديموقراطية وتلك السلطوية لا يمكن دراستهما باعتبارهما تكونان نوعًا واحدًا.

المفكر(غابرييل ألموند) يرجع وجهة النظر التجزيئية هذه إلى التجنيد السياسى الذى جرى فى الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين وتولد نوعيات جديدة من المؤسسات السياسية والأحزاب وجماعات الضغط والإعلام الجماهيرى وغيرها.

وفى كلمة واحدة فإن موجة التعددية والديموقراطية أخذتنا إلى وجهة نظر أميل للاستقرار (relaxed) وقد وجد (ديفيد سيبلى) أن الدولة سقطت من علم الاجتماع السياسى الأمريكى كرد فعل للسلطوية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى، وكما يرى بعض الأوربيين فإن الدولة قوة كما يوافق الصينيون والتحليل السياسى الأمريكى منذ (آرثر بنتلى) الذى رأى أن الدولة هى واحدة من الرفاهيات الفكرية القديمة، ويفيد (ديفيد إيستون) فى كتابه النظام السياسى عام ١٩٥٣ أن علماء السياسة عليهم أن يتفادوا مجرد كلمة الدولة.

وفى الولايات المتحدة اليوم لا نجد إلا دراسات المناطق حيث تتم المواجهة بين دول قوية بين آن وآخر ويتم دراسة وبحث أسس الدولة.

(ألفريد ستيبان) فى دراسته لأمريكا اللاتينية يقدم صوتًا نادرًا ويهتم بالدولة كعامل غير مستقل حيث واقعيًا يصف الدولة وليس فقط المجتمع ونتيجة لهذا فإن موضوع دولة الصين وهى بشكل ما أقوى دولة رآها فى العالم متروكة لدراسة المؤرخين الصينيين، والمتخصصون فى شئون الصين من أوروبا الذين مروا بتجربة السلطوية والاستبداد فى القرن العشرين غالبًا لديهم قناعة عن طبيعة الدولة الصينية كما يقول balazs المولود فى المجر واللاجىء من الشمولية، كما يضيف أننا نهتم فقط بما يتصل بنا شخصيًا.

والصين فى القرن العشرين ترجع أصولها وجذورها إلى أسر ملكية سواء الثورية القومية (صن يات صن) المولود عام ١٨٦٦ أو القومى المحافظ (تشيانج كاى تشيك) المولود عام ١٨٨٧ أو القومى الشيوعى ماو تسى تونج الذى ولد عام ١٨٩٣ وجميعهم تعاملوا مع طبيعة وشخصية الدولة الصينية وإحساسها بذاتها، ولما سمع صن يات صن عن العقيدة الشيوعية من ممثلى الحزب الشيوعى فى موسكو ذكر أنه ليس هناك جديد فى الماركسية وأنها كلها جرى قولها فى كلاسيكيات الصين الكونفوشيوسية، كما أن ماو تسى تونج عندما رأى لأول مرة خريطة العالم بعد سقوط إمبراطورية (الكينج) على جدار مكتبة فى مقاطعة (هو نان) قال إنه لأول مرة فى حياته يرى الصين كدولة وحولها آخرون أكثر منها باعتبار الصين هى العالم مع وجود ظلال معتمة لما حولها.

وبعيدًا عن قيود وحدود النظريات الغربية عن الدولة لدراسة الحالة الصينية فمن غير المجدى مقارنة الصين مع الدول الجديدة فى العالم الثالث باعتبار أن الدولة فى الحالتين تشير لأرض وشعب وحكومة، الدولة الصينية كمثال لم تظهر عندما ترك الهولنديون عام ١٩٤٠ مجموعة جزر كونت دولة لأول مرة هى الدولة الإندونيسية.

ويقول (فاينر) أن طريقة ظهور وبناء الدول له أهمية بالنسبة للطريقة التى يتم بها حكمها فالولايات المتحدة تم بناؤها من الجذور وأهداف وطموحات المهاجرين المثاليين الواصلين من بلاد مضطربة عبر البحر من هنا الأمريكان قاموا بالموازنة بين القيم الأمريكية والقيم العالمية، فى بريطانيا القوى المتمردة قتلت الملك قبل الدولة الحديثة واستمر الانجليز قادرين على إبقاء الملك كرمز يملك ولا يحكم، استراليا بدأت كسجن أو مستوطنة سجن حيث تدير الدولة كل شىء ولهذا فالعقلية الاسترالية تعتمد على الحكومة ولا نجد هذا فى أى ديموقراطية.

الدولة الصينية لها أصول مختلفة تمامًا عن كل هذه الدول وغيرها، نظام حكومة الصين قديم لكن التاريخ المسجل للحكومات على الأرض بدأ ليس فى شرق آسيا ولكن فى الشرق الأوسط، الدولة السومرية بجنوب العراق ما بين النهرين حوالى ٣٥٠٠ قبل الميلاد، والدولة المصرية ظهرت فى وادى النيل حوالى ٢٨٥٠ قبل الميلاد، وفقط فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ومع تشييد إمبراطورية أسرة (شانج) المعروفة بتكنولوجيا البرونز والعربات التى تجرها الخيول ونضوج نظام الكتابة الصينى ومن هنا بدأت أصول الدولة الصينية فى الظهور، وفى أسرة (زو) ١٤٥٠-٢٥٦ ق.م. حيث بدأت الدولة تبدو عليها مظاهر الدولة الواحدة كالعقيدة والملك بعقيدة وحق الحكم بالفضيلة والتراتبية الهيراركية الشديدة والإحساس بأنهم فى مركز العالم وصارت كلها تميز الدولة الصينية حتى اليوم ، وفى فترة حكم أسرة (زو) فإن كلا من كونفوشيوس ومينوسيوس زودوا الحضارة الصينية بأهم فلسفاتها العامة التى تطورت لما يسمى بالكونفوشيوسية بعضها غامض وبعضها فى السماء لا أحد يجد عمقًا لقول مينوسيوس (توجد طريقة للإمبراطورية لكسب الناس وكسب قلوبهم، إنها إمدادهم بما يريدون) لكن

الكونفوشيوسية لديها فضيلة لجمع الحكومة والشعب معًا فى أخلاق واحدة جامعة.

أسرة QIN ٢٢١-٢٠٦ ق.م. أقامت ديكتاتورية حديدية، الإمبراطور (كين شيهوانج) الذى يذكره الناس اليوم بالشكر والتقدير وأقام عاصمته قرب مدينة (إكسيان) وكان حكمه مركزيًا يفتقر للفضيلة وحكم بالقانون الشديد والسيف، وكان للدين فى حكمه دورًا أقل مقارنة بحكم أسرة زو وكان حكمه بدائيًا ساذجًا وشبه عنصرى ولكن أسرته عرفت كيف تصل إلى السلطة وتراكم القوة وأمكنها هزيمة خمس دول منافسة فى ظل نظام شمولى سلطوى، وكل من يقول أو يمارس سياسة أو فلسفة يتم إعدامه ويتم عرض جثته على العامة فى الميدان، وبدرجة ما فإن (كين شيهوانج) أنشأ دولة صينية ميكافيلية فى مواجهة دول تحسده وعرفت الصين عن طريقه مصطلح الدولة فى معناها الغربى.

وعكس سياسة كين القاسية لكن الواقعية جاء رد الفعل فى إمبراطورية أسرة الهان ٢٠٢ق.م إلى ٢٢٠ بعد الميلاد حيث تم التوفيق بين الفضيلة والسيف، هى ملكية مطعمة بنكهة الكونفوشيوسية جمعت معًا الحياة الزراعية فى وسط الصين حيث حولته إلى إقليم يوازى ثلثى مساحة الولايات المتحدة وبعدد سكان ٦٠ مليون مع وجود دين وبيروقراطية قوية استخدمت واستفادت من القناعة الأخلاقية.

ومن هذه الأسرة ظهر (الهان رين) كمصطلح للشخص الصينى العادى وبعد الهان جاءت فترة تعب وفوضى (وهى ليست الأولى ولا الأخيرة فى الصين) وفقط مع أسرة (سوى) ٥٨١-٦١٨ بعد الميلاد حيث عادت الوحدة مرة ثانية للصين.

وبعد أقل من أربعة عقود ظهرت الأسرة المبهرة أسرة (التانج) ٦١٨-٩٠٧؛ حيث أعادت إنشاء الدولة الصينية ببناء قانونى معقد وأعادت العاصمة إلى (إكسيان) التى يقطنها مليونا شخص مما جعل منها أكبر مدن العالم، وحتى بعد عدة قرون كانت مدن أوروبا أقزامًا مقارنة بمدن الشرق الأقصى الكبرى والشرق الأوسط كمدينة فينيسيا فى أوجها كان يقطنها ٥% من سكان (إكسيان)، وفى فترة التانج بلغ الشعر أوجًا جديدًا كما وجد النحت البوذى وكانت المكتبة الإمبريالية تحوى ٢٠٠ ألف مجلد وكان فيها مكتبات شخصية بها ما بين ٢٠ و٣٠ ألف كتاب وأورثت أسرة الهان نظامًا حكوميًا متطورًا حتى أن اليابان استعارته كله دفعة واحدة فى القرن السابع. وبدأ وعاء الضرائب يتسع مما زاد من عملية التمدين والتحديث، وأوجدت نظامًا لاختيار الموظفين على أساس فهم واستيعاب الكلاسيكيات الكونفوشيوسية مما كان له أثر عظيم فى تقوية ودعم العقيدة.

وفيما يخص ما وراء الصين وجوارها فإن أسرة التانج تميزت بالزواج مع غير الصينيين من النبلاء وهاجمت وغزت وحكمت وسيطرت على كوريا وأجزاء من فارس وفييتنام، ولأسرة التانج آثارها الفنية تُرى للعيان فى متحف (شانكسى) التاريخى و(إكسيان)، ورغم كل ذلك الذى شكل أسبابًا كثيرة للفخر من جانب كل صينى فإن أسرة التانج تمزقت وتضعضعت بعد التمرد الشديد والجماهيرى من بعد سنة ٧٥٥ حتى ٧٦٣ وأعقب هذا التمرد توقف السلطة والقوى الاقتصادية والاجتماعية التى انتقلت للأقاليم وأعقب ذلك ثورات الفلاحين المنتشرة فى نهاية القرن التاسع مما عجل بانهيار الأسرة، ومثل نهاية أسرة الهان فإن سقوط أسرة التانج أنتج فترة اضطراب لمدة ستين سنة، ورغم ذلك فإن الإنجازات التاريخية كانت بداية كبرى لدخول عصر الحكم فى العالم كله فهذه الملكية والبيروقراطية رغم أنها خليط ماكر ومخادع للقوى والضعف والكذب الواضح والصريح كانت ولما بعد

ذلك نموذجًا قائدًا وكبيرًا لكيف يمكن لمجتمع أن ينظم نفسه بشكل مضاد للدول الأخرى يمكن تسميته بالحكم الحضارى أو المدنى.

والدولة بالمفهوم الأوروبى شيء غريب على الصين نظرية وتطبيقًا، فالدولة بالنسبة للصين مختلطة بفكرة الحضارة وفكرة جعل جيرانها يتلقون الثقافة الصينية ويتحولون إلى صينيين وذلك حتى دخول مملكة الصين عصر الملك (لير) فى نهاية القرن التاسع عشر، وصحيح أن نظم الحكم فى مصر وما بين النهرين كان يوجد بينها وبين نظام الحكم فى أسرة مملكة (الزو) فى الصين بعض المشابهات كحكومات ملكية ولكن بعد عصر المسيح فإنه لم تأت دولة قديمة لمدة ألفى سنة كما حدث الأمر مع الدولة الصينية، لقد عاش نموذج الحكم الحضارى الصينى، وأثار إعجاب ودهشة الأجانب حكم الإمبراطورة دواجار (١٨٣٥-١٩٠٨) عندما سقطت آخر الأسر الملكية، وصدى ذلك مازال يعقد علاقات الولايات المتحدة مع الصين حتى يومنا هذا.

وكما كتب المؤرخ (وانجونجو) فى الكتب الأولى حول مملكة (السونج) ما بين٩٦٠ إلى ١٢٧٩ وما بعدها حيث حاولوا التخطيط والإعداد لسياستهم الخارجية وكأنه يقول ما تقوله أى دولة كان ذلك منذ ألفى سنة قبل أن تعرفه أوروبا وكأنه يعيش بيننا اليوم، وطبقًا لمفهوم أسرة التانج فإن أية دولة أخرى لها مكانتها ووضعها بالنسبة إلى الصين، وكان يقال "عندما يأتون لا يرفضون وعندما يذهبون لا يجرى تعقبهم" وكان هذا الشكل المثالى لتقديم الطاعة والولاء حيث ترسل الدول من جوار الصين بعثاتها إلى البلاط الصينى لتقديم فروض الطاعة ولتحقيق الأمن وضمان عدم الاعتداء عليها، عرفت الصين بذلك اليد الحديدية داخل قفاز من الحرير، وظل خيار الغزو موجودًا فى ما إذا سقط القناع الأخلاقى حول أولوية الصين على أذن صماء.

كل هذه الموضوعات موجودة اليوم فى سياسة الصين الخارجية، العناصر الأوتوقراطية من ماضى الصين البعيد، والحزب الشيوعى مستمر

فى تقاليده الإمبريالية، ولسوء الحظ فإنه أكثرها قمعًا وأقلها إنسانية، وهنا فإن مقولة (فاينر) أن طبيعة الدولة وخاصة فى الحالة الصينية بسبب عمرها الطويل تتوقف على كيف برزت للوجود ونمت وتطورت.

ما الدولة؟ قديمًا كانت تعنى شريحة من البشر تعيش على إقليم معين وتنتظمهم سلطة عامة، مجموعة متخصصة من البشر وقوة مسلحة تعطى الشكل والعضلات لهذه السلطة وكل شريحة بشرية بسلطتها المصاحبة ترى نفسها مستقلة عن الدول الأخرى، ويراها الآخرون مختلفة ومتميزة، هذه الدولة طبقًا لتعريف (فاينر) تختلف عن الفكرة الحديثة للدولة التى تعبر عن مجتمع وتسمح بالمشاركة السياسية ولا تعرف شيئًا عن السلطة العامة سوى ما تحدده إرادة الشعب، الدولة بالمفهوم الأول القديم لا تنطبق على الصين فالإقليم الصينى يكبر ويصغر وأقل ما يقال عنه أن حدوده غامضة، ولفترة طويلة فإن الصين بكل بساطة لا تقبل فكرة الحدود، وهناك تصريح أو هو إعلان أو شعار لأسرة التانج مفاده أن الإمبراطور طويل وعظيم مثل السماء وعرضه كبير كبر الأرض، وإشعاعه مثل القمر والشمس، وأمانته مثل الفصول الأربعة، فأى أهمية لحدود الدولة فى مثل هذا العالم أو تلك النظرة للعالم.

وفى إمبراطورية الهان فإن القوة المعنوية للصينيين لا تعرف الحدود إنها ثقافة وطريقة للحياة وأسلوب عالمى للتفكير، إنها ليست فقط خطوطًا على خريطة تحد حدودهم مع أقرب الشعوب إليهم، وحتى فى الأسرات التالية فإن الخرائط التى يرسمها موظفون رسميون كانت غامضة من حيث أين تبدأ وأين تنتهى خريطة الصين وأين تبدأ خريطة العالم، ومن المؤكد أن الدولة الصينية تعرف الحدود فقط إذا كانت ترى أن ذلك من المناسب لها لكنها تحتفظ بحقها فى الاختصاص غير المحدود.

وفى أوروبا كانت هناك فترة انفصال بين الولاء السياسى والإقليمية خاصة خلال فترة الإقطاع والتى انتهت بانهيار الدولة فإن الولاء كان يعنى أى رجل تتبع، لكن التقليد الصينى كان كيف تعيش. حدود الصين دائمة التغيير وغالبًا ومقصودًا أن تكون غامضة، فإذا كنت صينيًا وتمارس طقوسًا صينية وتعرف بعض الحروف الصينية وتدفع الضرائب ولك اسم عائلى وتزرع الحقول وتأكل بالعصى وأنت ابن الإمبراطور. إذا لم تكن صينيًا فإن الإمبراطورية ستهزمك وتحولك إلى صينى وصينيتك ستكون أمرًا لا مناص منه، ورغم فكرة (مينوسيوس) عن أن الحكومة التى تحترم شعبها هى فقط الحكومة فإن شرعية السلطة فى الصين لم تنبع أبدًا من سيادة الشعب.

لقد وجدت الدولة الصينية خلال وقت طويل ولا يمكن للفرد دون تناقض تحديد متى بدأت الدولة، هى بالتأكيد لم توجد كاسم ومصطلح خلال أسرة (زو) وأسرة (شانج) فقط يمكن القول أنها كانت مجرد أجزاء بسيطة مما صار فيما بعد الصين، الصين تعنى الشخص الصينى والجنس الصينى وهذه مصطلحات حديثة وعدم الاستمرار والاختلاف وجدا خلال آلاف السنين. كان هناك ملوك قسيسون لكن بعد آلاف السنين من النظام الإمبريالى انتهت الثيوقراطية، إمبراطورية الشانج من القرن السادس عشر حتى الحادى عشر قبل الميلاد لم تحترم نفس الدولة والحضارة مثل من جاء بعدهم، نظام الامتحان واختيار البيروقراطية لم يتم تطويرها حتى أسرة التانج المقاطعة الأساسية الجنوبية (جواندونج) تم جعلها صينية خلال أسرة التانج، فوجيان وجيانجكس فى الجنوب الشرقى تحولت صينية فيما بعد ذلك بكثير خلال أسرة (سونج)، فقط أسرة (المينج) التى سقطت عام ١٦٤٤ بدأ معها حكم بلاط الصين فى يونان وجويز وقبلوا طريقة الحياة الصينية، منشوريا اليوم شمال شرقى الصين تحولت للصينية فيما بعد ذلك بكثير خلال أسرة الكينج، وفكرة (فاينر) تنطبق على الصين من حيث وجود خدمة مدنية وجيش للعمل

وحماية الدولة كما فى مصر وروما لكن فكرة (فاينر) أن الدولة ترى نفسها كواحدة ضمن آخرين لم تكن موجودة، صحيح أن الممالك الإسرائيلية (جوديا وسماريا) ١٠٢٥ إلى ٥٢٨ ق.م. كانوا كذلك حسب رؤيتهم لكن إمبراطور الصين كان أكثر من ذلك حيث ينظر لنفسه بأنه الحاكم الوحيد الذى يمثل السماء نفسها، فالإمبراطور المتعجرف (تاى زونج) يعدد انجازاته خلال فترة أسرة السونج ٦٩٠ ق.م. إلى ١٢٧٩ بعد الميلاد يقول حول الصين والبرابرة: "إن مكرماتنا انتشرت حتى للحيوانات والنباتات".

والمعروف أنه خلال فترة الزو والهان والتانج أخذت الدولة شكل (نحن وهم) وتحولت للسيطرة على الزراعة والمجتمع أساسًا حول النهر الأصفر على شعب يتحدث بشكل ما الصينية، وعلى نصف الألفية قبل الميلاد هذا المجتمع البدائى فرض عليه اللوردات المحليون الضرائب وبدأ يتطور له نوع من الهوية لكن قبل القرن السابع قبل الميلاد لم تكن هناك زراعة أو حقول دائمة والملكية لم تكن تباع وتشترى فى أسرة الزو من القرن ١١ إلى ٣ ق.م. وبدأ الملك الصينى يسمى نفسه ابن الإله أو ابن السماء وبدأ يؤسس اختصاصًا دوليًا وهو حقيقة اختصاص غير محدود، وفى ظل وجود طبقتين فإن نخبة مختارة طورت أساليب للحكم وأساطير للشرعية لفرض النظام على المجتمعات الزراعية، والطقوس تحدد عالم ابن الإله والبيروقراطية من عموم الشعب وهم ببساطة الأشياء للحكم الأبوى، كلمات الحرية والمساواة غائبة ببساطة عن الكتابات السياسية الصينية وأساسيات الفكر السياسى الغربى كانت غير متناسبة مع مركزية الواجبات والهيراركية فى الفضاء الصينى الصاعد حتى الملك لم يكن له واجب تجاه أجداده السابقين، وغياب نظام وراثى أرستوقراطى قوى بعد أسرة التانج أعطى النظام السلطة والقوة المستمرة وبعض العقلانية والنظم والعقائد الأخلاقية

للتراتبية الهيراركية، والواجب حسبما تحدث عنها مينوسيوس وكونفوشيوس وتفسيرها بالاستمساك بالقوة أعطى التبرير المتقدم لنظام سياسى مفروض.

وكما ذكر (بارث ليميوث) و(ماتينوف) أن العالم يتكون من جزئين: الطبقة والنخبة عالم حضارى والآخرون الفلاحون الصينيون والشعوب غير الصينية وهو عالم الفوضى، وهو عالم سمج وسخيف وعدوانى كما هو واضح وكما سنرى هناك خط اتصال يتضمن آلاف المنحنيات بين هذه الازدواجية وبين أبوية الصينيين ودولتهم على الأقل خلال فترة ماو تسى تونج.

لقد زرت الصين لأول مرة عام ١٩٦٤ وعدة مرات متوالية فى السبعينيات وكم هالتنى الفجوة بين دولة ماو الذى يعرف كل شىء، وفى المدارس والكليات كنت أسأل الشباب ماذا يريدون فعله بعد التخرج وكانت الإجابات محددة كالزى المدرسى وهى أن الدولة التى تقرر، كما زرت الكوميونات وهى الوحدات السياسية والاقتصادية التى من المفروض أن تطلق الصين نحو المستقبل كنت أسأل عن خطط المستقبل وكانت الإجابة هى: "الدولة هى التى تقول ذلك"، وهذه الإجابات بالطبع ليست صادقة ولا أمينة لكن القاعدة فى صين ماو هى الانحناء حتى الركبة وترك أى قرار فى الوظائف والمهن وأولويات الزراعة وحتى النواحى الفنية وطبعًا كل شىء عن القيم لكادرات دولة الحزب الشيوعى الصينى، هذه الكادرات نصفهم رؤساء فى ماكينة السياسة ونصفهم القسس فى القرية يمثلون أو يشبهون الأب والأم بالنسبة للناس، السماء جعلت الحكام آباء الشعب والدولة جزء مما يعنى الصينيين والمشكلة أن دولة الحزب المرتبطة باللينينيية صارت أكثر قمعية من دول الأسرات الملكية السابقة، هى ليست صرخة على شفاه الكثيرين، فالصين القديمة كما يتحدث مينوسيوس أن الإنسان عليه ألا يعصى والديه ولكن الحاكم السيئ يمكن هزيمته، لكن فى فترة ماو فإن الكوادر

الشيوعية صارت لها سلطات وصلاحيات ليست أقل من الآباء لذلك اعتبر الحزب الشيوعى مينوسيوس رجعيًا.

والخطوة الثانية الرئيسية فى تشكيل الدولة الصينية حدثت بينما امتد نظام (نحن وهم) إلى التعامل مع الشعوب غير الصينية الذين تحتاج لهم الدولة منذ أسرة الشانج مع شمال وغرب الصين وفى التعامل مع الصحراويين الأقل عددًا من الصينيين لكنهم محاربون أشداء وتحتاج الدولة الشاى والحرير وغيرها من المنتجات الزراعية الصينية لذا طور الصينيون المفهوم البغيض المستمر وهو التمييز الحاد بين الصينيين والبرابرة والنظام نفسه يحدد الفلاح الصينى باعتباره الحاكم الطبيعى والثانى البرابرة كنوع أقل، والأساتذة الكونفوشيوسيون يرون الشعوب الأقل وأنهم يمكن خلاصهم عن طريق التعليم لكن القانونيين المتحكمين فى السلطة لا يرون ذلك وخلال أسرة التانج نجد النظرة نحو البرابرة نظرة السماء للأرض فالشفقة والرعاية وتلقى الغذاء يمكن تقديمها طالما لم يقاوموا الإمبراطور الذى هو السماء والأرض بالنسبة لشعبه والبرابرة، مستشارو الإمبراطور (جاو زونج) خلال فترة التانج بدوا وكأنهم يضعون الكوريين ضمن البرابرة حيث صارت (الآخرون) تعنى الأجناس المجاورة، وأضاف مستشارو الإمبراطور أن الصينيين هم بالنسبة للشعوب الأقل فى إشارة للكوريين وغيرهم مثل الشمس بالنسبة لباقى النجوم، وعندما يصل الأمر إلى التوبيخ فإن الصينيين يشبّهون البرابرة بالحيوانات، ومنذ ألفى سنة يُنظر لشعوب الجنوب وغير الصينيين بأن لهم أجسام البشر ووجوههم لكنهم مثل الطيور بجناح ومنقار، وشعوب الغرب لهم وجوه البشر ولكن أجسام الأفاعى مثلما قال مستشار الإمبراطور (تاى زونج) فى القرن السابع: "وجوه بشر وقلوب حيوانات، وليسوا من جنسنا، عندما يجدون الفرصة للسرقة والنهب يقومون بذلك لكن فى ضعفهم يخضعون، وطبيعتهم أنهم ليسوا ممن يعرفون رد الجميل أو الحق" كما قالوا

عن شعوب الجنوب أنهم مثل الطيور والحيوانات ليس لديهم أخلاقيات الإنسان.

وفى دراسة (ألستير جون جونستون) عن ذكريات الساسة الخارجية خلال حكم أسرة المينج وجد ذكرى واحدة فقط من ضمن ١٢٠ يعترفون بأن المنغوليين مثل البشر يمكنهم الفهم والعقل ويفهمون التكلفة والفائدة، وحكم على المونجول أنهم بطبيعتهم كلاب وخراف، وفى الوثائق الإمبريالية الأحدث فإن الغربيين كذلك يتم تصويرهم من جانب الصينيين كحيوانات، وذكر المؤرخ الصينى (يانج لين شينج) فى مقال له أن بعض الصينيين لديهم شعور بالأجانب لكن لا يساوون بين الصينيين والعالم المتقدم، رغم ذلك البرابرة بالنسبة لهم حيوانات، وحقًا كما خلص هذا المؤرخ فإن من الصعب إصلاح هذه الأفكار خاصة إذا تكونت خلال الفترة الأولى للمجتمع، وقد تم تذكيرنا بذلك عندما اشتكى الطلبة الأفارقة فى الصين من عنصرية الرسميين الصينيين والطلبة الصينيين تجاههم فأى صينية تُرى ماشية مع أفريقى فإنه ينظر إليها نظرة دنيئة ويحكم عليها.

كل الدول وليست أقلها الولايات المتحدة تذهب للعالم ولديها قناعاتها المسبقة، لكن بالنسبة للصين فإن وجهة نظرها عن العالم فى العلاقات الدولية تم طبخها فى النفسية الصينية خلال تطور طويل جدًا، ووجهة النظر لها قوة لا تتزعزع باعتبارها توأمًا للأجهزة والمؤسسات الداخلية فى الصين.

نحن وهم داخل الصين تعطى معنى الصينيين والبرابرة والتنسيق بينهم يمكن الحفاظ عليه عندما يريد البرابرة اتباع طريقة الإمبراطور كما فعل الصحراويون (كالميك) ١٧٧١ مع الإمبراطور كيان لونج ١٧٣٦ إلى ١٧٩٦ الذى ذكر أن المغول الكالميك وغيرهم من المغول المعتقدين فى بوذية التبت والذين جاءوا من جنوب شرقى روسيا قد خضعوا وعليهم تقديم الإخلاص بمعنى التسليم، البرابرة مخلصون طالما هم متمسكون بالأسلوب الصحيح

للأشياء أى لما يوافقوا طريقة الإمبراطور حيث يخضعون للنور الصينى ويسمونهم متحولين، هم يرون الترك كحالة ضد السماء هم غير المتحولين وغير الملتزمين ولذلك هاجمهم الصينيون ويضعونهم فى الصف الثانى، وهناك نقطة أكثر تقدمًا: المنهزم الذى تحول يمكن ترقيته فى وصف جديد يستمسك بالطريقة الصينية، وفى نفس الفترة الإمبراطور كيان لونج الذى شكر الكالميك سنة ١٧٧١ نظر إلى النيباليين بأنهم يرفضون السماء ولهذا هزم وغزا نيبال ووضع ملك نيبال كخاضع لنظام الأشياء الصينى لكن الإمبراطور قبل توبة ملك نيبال ووضع كاتماندو ضمن دعاة السلام للعالم، وبطريقة ما فإن البلاط الصينى يمكنه ضمان تسليم وخضوع الشعوب الأقل.

أسرة صينية جديدة بدأت تدشن أربعة أعمال مهمة لها صبغة عملية تنفيذية متصلة بالسياسة الداخلية والخارجية وتؤكد مفهوم (نحن وهم) بين الصينيين والشعوب الأخرى (الأقل).

الحاكم الجديد بدأ يطبق بفاعلية سياسة الحكم فى الإقليم الداخلى بمعنى السيطرة والتحكم المإلى والعقيدى والتنظيمى لدرء أى محاولة للتخطى أو التعددية أو الفوضى.

وتوازى حاليًا الصين الخارجية والتى يطلق عليها outer China (نناقشها فى الفصل السابع) وبدأت تهتم الأسرة الجديدة بتجنيد المناطق التى تشكل خطًا عسكريًا فى الشمال والغرب وهى قاعدة أهل الصحراء وهذا غالبًا يشمل أجزاء من منغوليا والتبت والتركستان واستخدام القوة صار يتم اللجوء إليه عادة فى هذه المنطقة.

ممارسة الأسرة نفوذها السياسى فى الأقاليم البعيدة حيث يفترض الهيمنة السياسية العامة فى مناطق ما تسمى اليوم كوريا وفيتنام، وفى هذا المضمار فعندما سمع إمبراطور المينج أن ملك كوريا بدأ يظهر اهتمامًا

بالبوذية فإن الإمبراطور عنفه كما يعنف الوالد ولده، هذا الإمبراطور نفسه لا يجد سهلاً احترام فيتنام التى تنفست ريح الاستقلال منذ عدة قرون بدأت سنة ٩٣٩، واستخدمت الصين التحذير الإمبريالى ضد فيتنام (إذا لم يعمل ما يجب عليه عمله فسيتم إرسال تجريدة إلى فيتنام) وفى ذات الوقت أثناء الهجوم على فيتنام كان هناك إعلان ملكى يقول أهل شمال فيتنام كلهم أبنائى الصغار، ويتحدث عن زعيم فيتنام بأن شعبه يكرهه حتى النخاع وأن أرواح السماء والأرض لا يمكنها تقبله وقال للجيش أنتم ذاهبون لتخليص الشعب مما يعانيه، وقتل مئات الآلاف من الفيتناميين فى هذا الهجوم بما فيهم (المتمرد) تاردى ورغم هذا لم يمكن للصين استعمار فيتنام، وحتى الآن يكتب مؤرخو الحزب الشيوعى الصينى عن فيتنام وجنوب غرب الصين وأنهم الذين جرى عقابهم، وأكثر من هذا فإن الرسميين الثقافيين للحزب الشيوعى الصينى يتحدثون عن فيتنام كجزء من الصين حتى مجىء الفرنسيين إليها فى القرن التاسع عشر حيث يخلطون علاقات الضرائب مع الملكية، وفيتنام حسب ما رأيت عام ٢٠٠٢ فى متحف (شانكسى) التاريخى فى إكسيان "فإنه حتى ٢٠٠ سنة كانت فيتنام جزءًا من الصين ويمكنك رؤية الحروف الصينية فى منازل أهل فيتنام (characters)" والجملة الأخيرة تتجاهل التمييز بين الفيتناميين والصينيين المقيمين فى فيتنام، ولا يعرف شباب الصين شيئًا عن غزو الصين ومذابحها وسيطرتها فى التعامل مع فيتنام وغيرها من الجيران.

إيجاد مكان نظرى فى داخل فضاء الأشياء الصينى للأراضى البعيدة التى تعرف عنها الصين القليل، وهذه كانت أحيانًا البحار الجنوبية أو المحيط الغربى بما فيها بعضًا من جزر جنوب شرقى آسيا وأوروبا أيضًا، هذه كانت لا تعتبر تهديدًا ولدى الصين طموحات بشأنهم، لكن إمبراطور الصين لن يكون ابن السماء ما لم يجد له مكانًا فى نظام الكوكب، وكما قال إمبراطور

المينج (يو إنزهانج) فى إعلانه عام ١٧٣٢ "دول المحيط الغربى لهم حق الأقاليم البعيدة أو النائية هم يأتوننا عبر البحار وصعب عليهم حساب السنة والشهر لوصولهم وبغض النظر عن أعدادهم يمكننا معاملتهم حسب مبدأ من جاء متواضعًا يعود مكرمًا"، وهنا نجد تشابهًا مع سياسة الصين تجاه العالم الثالث وأفريقيا خاصة خلال الخمسينيات من القرن العشرين.

هذه الأشياء الأربعة الأساسية المركزية أمكن تنفيذها وتحققت بشكل ما بنجاح تقريبًا فى الأسرات الملكية الأخيرة لكنها سقطت ومن المهم فى الفصل القادم أن نرى لماذا والعمل من أجل التلائم والتوافق بين النظرية والتطبيق من حيث الخلاف بين طريقة معيشة وحياة الصينيين من جانب والبرابرة من جانب آخر حيث لم يمكن جمعهما معًا.

وتختلف الحجج داخل البلاط الصينى حول كيفية التعامل مع Xiongnu وهم صحراويون فى شمال منغوليا يتقاطعون مع الـــHuns ويتكلمون Aliac ويعتقدون فى الـــshamanism وهم الذين اخترعوا البنطال والفروسية وكانوا خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد متساوين مع الصينيين فى قوتهم البدنية، وخلال حكم Maodun لهذه المنطقة توسل لإمبراطور الصين ألا يتحرك ضدهم وبحكم طبيعتهم فهم يتجمعون كالحيوانات (قطيع) ويتفرقون كالطيور وملاحقتهم تشبه محاولة إمساك الإنسان بظله لذلك ينصح الإمبراطور بعدم مكالمتهم، لكن غالبًا كان يتم رفض هذه الحجج وعادة دون نتائج جيدة.

وأحيانًا فى العلاقات مع المسلمين والتبت وغيرهم من أهل الغرب يتم ربط الحكم فى الصين مع ممالك أخرى من خلال الزواج لتفادى الحروب التى لا يمكنهم كسبها، لكن الصينيين لا يحبذون اتفاقيات الزواج الذى يعنى المساواة مما يخالف فكرة ابن السماء عن الإمبراطور، واليوم فإن مؤرخى الحزب الشيوعى بدأوا فى الاتجاه لإنكار هذه المساواة، وكتب Xiao

Zhixing أن اتفاقات الزواج تؤكد وتدعم التضامن الأخوى بين القوميات داخل بلدنا ويقتبس من التاريخ فى أسرة التانج وأن اتفاقيات الزواج تدعم التناسق والتناغم كما فى العائلة وتؤكد وحدة الدولة.

وتؤكد دراسة فى أسرة التانج كيف أن البلاط الصينى الذى يتملص من اتفاقات الزواج التى لا يمكنه رفضها بصراحة فى أوقات يكون أهل التبت واليوجور أقوياء، ومن ضمن واحد وعشرين أميرة صينية تزوجت حكامًا غير صينيين فإن ثلاثة منهن فقط كن بالفعل بنات الإمبراطور أما الأخريات فكن مزورات، وفى عام ٦٥٨ طلبت التبت من الصين زواجًا جديدًا وظلت الإمبراطورة wu تمانع (الأنثى الوحيدة التى اعتلت عرش الصين وسنسمع عنها الكثير) وافقت من حيث المبدأ عام ٧٠٢ بعد ضغط من جانب التبت واختار الصينيون العروس وقالوا إنها ابنة الابن الأكبر للإمبراطور (جاو زونج) وأن الإمبراطور ربّاها ولكن كل ذلك لم يكن صحيحًا وتم توديعها بالدموع مع شعراء البلاط.

وإلى حد ما كان هناك اتجاه للقول أن الفضيلة يمكنها أن تحكم الصينيين، والقوة ضرورة للسيطرة على الشعوب الأقل، والحقيقة أن الكونفوشيوسية الكلاسيكية تقول بأن الفضيلة هى لحكم شعوب المملكة الوسطى الذين يمكن العناية بهم والعقوبات هى للقبائل البدائية، واتفاقات المصاهرة تفترض المساواة وهى طريقة وسطى بين الحكم بالفضيلة من جانب والحكم بالسيف من جانب آخر والقوميات المحيطة بالصين ينظر إليهم فى النهاية كجزء من الفضاء الصينى الكبير.

وعملية تنظيم العالم الصينى كوظيفة كانت للإمبراطور حتى أسرة الـــQin ولكن منذ أسرة الهان فقد غلب الإحساس بالتفوق والعلو ومن هنا حق الحاكم فى السيطرة الذى انتشر من الإمبراطور إلى نخبة كونفوشيوسية مؤهلة ومن هنا يتم النظر إلى البربرى أو دولة البرابرة بأنهم مجرد تابع فى

علاقتهم بالبلاط الصينى وهنا نرى أن هذا النموذج لا يشابه نموذجًا آخر فى العلاقات الدولية. وجهة نظر الصين عن العالم نظريًا أنه لا توجد دولة أقوى من الصين فى الحقيقة وبالتالى لا تقف معها على قدم المساواة ومن هنا كما ذكر (مارتينوف) و(بارث ليميوث) فإن الخلاف والفصل ليس نابعًا من خبرة الاتصالات مع الجيران ولكن من صميم هيكل الدولة الصينية، والبلاط الصينى لا يمارس سياسة خارجية لكنه استمرار لسياسته الأبوية الداخلية فى إطار الفضاء الصينى نحن وهم كمزدوج توازى وتناظر فى أوروبا الملكية والأرستوقراطية من جانب والعامة من جانب آخر، خضعت الصين فى بعض الأوقات لقوة أكبر منها مثل المغول، لكنهم لم يسلموا من العلو الثقافى تجاه أى كيان غير صينى.

ويرى الصينيون أن الخطأ بالنسبة للبرابرة هو عيشهم فى السهوب الواسعة، ويفترض الصينيون أن الزراعة هى الأمر الطبيعى للبشر على الأرض فيما البرابرة يميلون للنزوات التحكمية وهم ببساطة لا يشاركون الصينيين رؤيتهم للعالم؛ لذا فإن المتاعب مع البرابرة هو مجرد وجودهم وهى مأساة الدراما الصينية الأبوية، وإحساس المركز والمحيط متجذر بقوة فى الفلسفة الصينية العامة منذ البداية فالوعى الذاتى العالمى يقارن بإحساس الدولة الرومانية بمركزيتها، الصحراويون فى الشمال الغربى كانوا مشكلة خطيرة منذ ألفى سنة قبل الميلاد وهم ينظرون إلى العالم أنه متغير باستمرار والتوفيق بين الصينى والصحراوى أمر صعب، الصينى لا يمكنه أبدًا أن يمد طريقة عيشه إلى الاستبس لفترة مستمرة والصحراويون البدو لا يمكنهم هزيمة الصين.

كانت هناك دائمًا خلال أسرتى المينج والكينج إحساس بالاحترام من جانب الدول الأقل للبلاط الصينى تؤكدها حالة Ruyhyu خلال فترة الكينج وهى اليوم جزء من جزيرة أوكيناوا فى اليابان حيث أرسلت بعثة لتقديم

فروض الطاعة والولاء تحملها سفينة من مينائها الرئيسى Naha إلى مقاطعة فوجيان فى الساحل الجنوبى الشرقى وكان يتم إرسال البعثة كل سنة لمدة خمسمائة سنة من بداية أسرة المينج إلى نهاية أسرة الكينج، هذه العلاقة المحترمة استمرت مع الاحتفالات الرسمية وبذكاء واستقرار واضح، وكانت لها أهداف سياسية وتجارية وثقافية من الجانبين، حسب نظام أسرة الكينج عندما يكون هناك حاكم جديد على عرش الجزيرة فإن إمبراطور الصين يرسل مبعوثًا خاصًا إلى الجزيرة يتم استقباله وتكريمه، وفى إحدى المرات كان هناك ملك جديد على الجزيرة، ولم يتم استقبال بعثة الجزيرة إلا فى مقاطعة فو جيان فقط دون بكين، وأبلغ الإمبراطور حاكم الجزيرة بألا يستخدم صفته كملك حتى يتم إنهاء الرحلات المتبادلة بين الدولة التابعة والبلاط الإمبراطورى، وكانت البعثة الصينية إلى الجزيرة تتكون من ٥٠٠ شخص بما فيها فريق النساخين وقارعى الأجراس والطباخين وحاملى الكراسى والخياطين والحلاقين مع قوة عسكرية من ٢٠٠ شخص لحماية أعضاء البعثة الخمسمائة من القرصنة البحرية فى بحر شرقى الصين، وتحمل البعثة معها آلات العزق والحرث تحسبًا من الأعاصير البحرية التى تتسبب فى غرق السفن وتجعل العودة للصين أمرًا مستحيلاً، وحتى الأكفان يأخذوها معهم احتياطيًا وتمكث البعثة فى الجزيرة خمسة أشهر توفر لهم فيها الجزيرة نفقات الإقامة والضيافة والهدايا، وبعد عدة حفلات يقوم ملك الجزيرة بالسجود الكامل أمام المبعوث الخاص للإمبراطور وأخيرًا يتحول الوريث الشرعى إلى ملك حقيقى.

وأعتقد أن رسم الحروف الصينية هو مثل الإمبراطورية الصينية، حيث إن أغلب الصينيين لا يمكنهم قراءته والأكثر من هذا أن نطق الحروف الصينية يتم بشكل مختلف فى الأقاليم الصينية، واللغة الصينية اليوم رغم الحديث بها وكتابتها فهى ليست واحدة، ومن هنا السؤال التقليدى عن أى

صينية تتحدث، الكانتونية أم الماندرين؟ واللغة الصينية أمر حاسم فى الحكم يعكس نفوذ قوة النخبة المفروضة على عموم الشعب، فالصين شعبان مختلفان فلاح من جهة وأستاذ تبرهن أظافره أنه لم يعمل عملاً شاقًا والكلمات يتم نطقها بأصوات مختلفة حسب المكان الذى يعيشون فيه سواء كانوا حول النهر الأصفر أو فى شمال فيتنام ومن هنا ينطق كثير من الشعوب التابعين لابن السماء ولاءهم للزعيم بطرق مختلفة ويستمرون أميين من حيث اللغة الكلاسيكية وهى وسيلة كلاسيكية لــ(نحن وهم).

والكلمة المكتوبة لعبت دورًا أكثر أهمية منها فى أية حضارة أخرى، وقد كتب (جاك جيرنيه) منذ عام ١٣١٠ أن مليون وستة وثلاثين ألف حرف فى الزراعة كتبت ونشرت تقرؤها النخبة عبر الإمبراطورية رغم هذا لاحظ (فيت فوجل) أن الكتابة الصينية فرقت وعزلت الطبقات الاجتماعية لكنها وحدت الأقاليم، والحرف الصينى كما لاحظ (فير بانك) يكرس اصطناعية الحكم الصينى وأن الحكمة من أعلى تعطى لابسى الملابس الرسمية الصينية انهم يأمرون الفضاء المحيط والمقاطعات البعيدة تلتقط الحكمة بالكتابة كما نسميها، وكما قال (مارك إدوارد لويس) فإن الكلمة المكتوبة تحكم الوصول والطاعة فى الدول المجاورة، والحرف الصينى من خلاله تم خلق الغموض والصوفية والروحانية، وقد قال (ليو بولد فون رانكى) أن التاريخ هو ما حدث بالفعل وآخر شيء يعنيه الصينيون الحاكمون الذين أعطوا دورًا كبيرًا للتاريخ والحكايات المنقاة من الملوك والحكماء.

وبعد سقوط أسرة الهان سنة ٢٢٠ فإن الحلم النصى بلع الحقيقة السياسية، الأسر الحاكمة قواعددها الإدارية وسجلاتها تأتى وتذهب لكن الإمبراطورية الصينية تتخطاهم وتعيش من خلال مجموعة من النصوص التى تتسلح بها النخبة وتقوم بتشييد أسر جديدة من بقايا الأسر الماضية. والتاريخ الصينى نفسه صار مادة للحكم والسيطرة وكما كتب (بالاز) فإن

التاريخ الرسمى هو أكثر الوسائل الجماهيرية لتمجيد طبقة اجتماعية معينة وفى الوقت ذاته فإن أسلوب (الدخان والمرايا الصينى) ينتهى أحياناً لسوء التقدير فالضعفاء يتمردون وتسقط الأسر المالكة واللعبة الذكية لابد أن تبدأ من جديد رغم فترات التفتت والتأمل الذاتى أحياناً، وبغض النظر عن أين تقع حدودها الغامضة وفى أى نقطة فإن الصين من داخلها وفى عظامها هى منذ زمن طويل إمبراطورية، وأحد أهداف هذا الكتاب هو إظهار أن الصين لم تتخل عن وسائل وأساليب وطرق الإمبراطورية.

الإمبراطورية هى دولة كبرى ومسيطرة حققت أبعادها من خلال الغزو العسكرى وإنه من غرائب الصين أنها صارت إمبراطورية بمعنى الإمبراطورية الرومانية حتى قبل أو بدون محاولاتها للسيطرة على الشمال والغرب البرابرة والفيتناميين والكوريين وغيرهم وضمهم إلى المنطقة الكونفوشيوسية الثقافية، فنموذج الحكم الحضارى تم تطويره من خلال الحدود الضيقة للصين الداخلية ثم تم توسيعه لخارج الصين التى شملت أحياناً أراضى الإستبس وبشكل أكثر توسعًا شعوبًا بعيدة عن ذلك ومن خلال نموذج مُعين تم عزل الشعوب الأقل مع وجود خطة فى إطار فكرة المركز والمحيط ومن هنا صارت تنطوى الصين على مفارقة تاريخية فرغم هذه النظرة العالمية المثيرة والمغرية للبعض صارت مصدر غضب للآخرين.

والأسرتان الأخيرتان وهما المينج والكينج لجأتا بانتظام لاستخدام القوة فى الداخل والخارج فإنهما لم يستمرا فقط فى الفكرة الكونفوشيوسية والفضيلة كمفتاح للسياسة الحكومية فى الداخل والخارج لكنهما طورتاها وجعلتاها أكثر قوة فى مؤسسة الدولة الصينية، وصارت وجهات النظر المنشقة ضد إمبراطور المينج الطاغية (تاى زو) كانت موجودة لكنها لم تكن إلا فى النادر قوية وتطورت الدولة الصينية لما نراه كدولة فى القرن التاسع عشر وظهر تعبير الصين كاسم للدولة والكثير من الطعام الصينى كما نعرفه فى عام

٢٠٠٣ هو ما بعد أسرة التانج ومفهوم الصين القديمة التى لا تتغير والموحدة والمستمرة هى أسطورة القومية العنصرية كما كتب (بارى ساوثمان) أن كلا منا يمكنه الرجوع لشخصيته تاريخيًا كمجتمع بيولوجى وثقافى حيث جوهره باق عبر الوقت وهى الفكرة المزيفة التى تؤمن فكرة النظام العظيم الكلى Great systemic whole والتى تنتشر حاليًا فى الصين.

استمرار وقدم الصين وعمرها الطويل وتماسك عنصر الهان هى أمور يتم باستمرار المبالغة بشأنها من جانب دولة الحزب الشيوعى الصينية لاستمرار وتأمين الأوتوقراطية والتحكم وفكرة الصين الواحدة، رغم هذا فإن التشوهات الأخيرة لجانب وحدة الدولة الصينية وبغض النظر عمن وراءها وتقف أحيانًا لآلاف السنين وتحدد الشخصية الصينية، لقد صار معنى أن تكون صينيًا أنك طفل الدولة الصينية، وعليها أن تفك نفسها من هذا النظام الأبوى الخانق الذى حشرت نفسها فيه.

الفصل الثالث

إننا نحن العالم!

(إن لدى الصين تقديرا عاليًا لإنجازاتها، وليس لديها للدول الأخرى سوى الاحتقار لقد صار ذلك وأضحى شيئا طبيعيا)

(صن يات صن)

إن الإمبراطورية الصينية إثر نضوجها كانت فريدة فى نوعها وبأشكال تعكسها الدولة الصينية اليوم، إن لديها شعورا بالسمو والعلو بشكل واضح خلال التاريخ العالمى، وحتى فى القرن العشرين الذى ضم وحوى النموذج السوفيتى والنظم الفاشية فإن إحساس الصين بالعلو والارتفاع على الآخرين كان وراء أى شىء عسكريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا، وكل من تعامل مع البلاط الصينى سواء كان مبعوثًا كوريا أو تاجرا روسيا أو غازيا مسلما أبدى ملاحظاته على إحساس الصينيين بالعلو والتفوق العنصرى، والنخبة الصينية ذاتها تعطى ذلك الإحساس وتصل إلى حد التحدث عنه، وحتى فى أسرة التانج المتفتحة نسبيا على العالم الخارجى كان من تقاليدها إنه إذا تزوج أجنبى صينية أو كانت صديقة له فإنه لا يسمح له بمغادرة الصين باعتبار أنه لا مجال للسؤال عن أخذ صينية خارج حدود عالمها الحضارى إلى عالم حضارة أقل، والفلسفة أو العقيدة وراء ذلك هى الثقافة التراتبية الهيراركية المؤسسة على الأخلاق الاجتماعية للكونفوشيوسية والمتضمنة للإنسانية المتفائلة / ومركزية الأسرة/ وأولوية التعليم لمن يستحقونه/ والعلاقة الوثيقة بين الأسرة والمجتمع الصيني/ ونظام من الواجبات (حيث لا توجد حقوق) هى كلها أساس إنجاز هذه المثاليات.

والإمبراطور يربط كل قرية بالسماء نفسها باعتباره أبا للشعب وابنا للسماء والانحناء حتى الركبة والسجود العميق من جانب الرسميين أمام الإمبراطور هو انعكاس لسجود الأطفال أمام آبائهم، فالإمبراطور وحده هو من يقدم القرابين للسماء والأرض نائبا عن الكل، وهو وحده ابن للسماء، وطريقته هى التى تتسق مع الكون كله أو يجب أو يفترض أن تكون كذلك.

وعندما يعترى هذه القيم والمثآليات الضعف والأفول فإنه يوجد كل من القانون والسيف بديلا عن المثآليات، والخرائط الصينية وكذلك فى أسرة المينج والكينج لا تتضمن فقط الأرض والصين فى مركزها ولكن السماء أيضا مع الابن واقفا فى القمة والقمر فى النهاية أو إلى الأسفل، والإمبراطور (يونج لى) من الأسرة قبل الأخيرة للمينج ١٣٦٨-١٦٤٤ رسم التاج الصينى بوضوح شديد مكتوبا فيه (نحن نملك روحيا ونمسك بالتفويض السماوى حكم كل من الصينيين والأجانب) وفى كتاب القصائد (لا توجد أرض ليست للإمبراطور ولا توجد دولة مجاورة تحترم نفسها وترغب فى الاستقلال)، وهذا كله علو ورفعة وغطرسة عنصرية لا تحتاج لدليل، والتفرقة الأمريكية بين ما يجب عمله وما هو الصحيح غائب عن هذه الفكرة الصينية عن العالم والذى من المفروض فيه أن الحق يصنع القوة والقوة ليس لها أن تصنع الحق كما قال (مارك مانكال).

وقد شرح أحد أباطرة المينج غزوة ضد شعب غير صينى فى منطقة توجد حاليا فيما يسمى بورما (ميانمار) بهذه الطريقة: (فى البداية لم أكن راغبًا فى إرسال قوات للقضاء على هذا المجرم اللص، لقد حذرته لكنه لم يلتزم وصار أكثر طمعا وكان لا بد من استخدام أسلوب أكثر خشونة ولا مناص منه مع سلوك هذا البلطجى الذى لا يمكن احتماله فى السماء والأرض والأرواح، لقد أمرت القائد الإقليمى ليتقدم بقواته ويزيلهم وعندما تهاجم الصين جارًا لها فإن هذا يعد شيئا عظيما ومكرمة لهذا الشعوب الدون

فالسماء من خلال أداتها الإمبراطورية تعيد تأسيس النظام ليكون أفضل) وحالة بورما تؤكد الثمن الكبير اللذى يدفعه البلاط الصينى لتحسين صورة الإمبريالية نفسها، ويشيرعالم السياسة (لوسيان باى) إلى أن أول واجب من خلال بعثة تقديم فروض الطاعة والولاء للصين هو أخذ هدايا غالية وثمينة وقد اقترحت بورما جعل البعثة سنوية وتراجعت الصين وطلبت جعلها كل خمس سنوات وشعر البورميون بالرضا من خلال سجود رئيس البعثة إلى الأرض فى وجود الإمبراطور. وعودتهم بهدايا فخمة وغالية فى مقابل مجرد النفاق وتعظيم الإمبراطور، ولكن إذا فشلت الدول الأجنبية فى تقديم الاحترام والتقدير كما تتوقعه الصين فلا مجال إلا للغضب من جانب الصين وتوقع أشياء سيئة، والإمبراطور (يانج دى) من أسرة (سوى) اشتكى من أنه مد أريحيته وكرمه للدول المختلفة فى الأقاليم الغربية لكن الهند وبيزنطة لم تردا عليه بإرسال بعثات التقدير والاحترام للصين، لقد صب جام غضبه على الهند لكن بعدها كان كافيا لتتفادى الغزو الصينى.

والشىء الغريب الثانى عن الإمبراطورية الصينية هو اللجوء للمواءمة مع استمرار الإحساس العميق بالعلو والعظمة والتفوق الصينى فابن السماء عادة يحكم عالمه من خلال اللمسة الرقيقة، ومنذ أسرة الهان طبخت سياسة الحكم المتساهل نسبياloose فيما وراء الحدود المفترضة للصين الذين يشبهونهم بالماشية، والحكم المتساهل هو ضد الحكم السلطوى فالشعوب الأخرى يجب إلجامها وليس السيطرة عليهاو فى أسرة (التانج) تأسس الحكم المتساهل فى مقاطعات الحدود بأن يكون رئيس المقاطعة غير صينى لكنه عرقيًا وطنى ولا يجب أن نتوقع منه تقريرًا للمركز فى (إكسيان) عن السكان والأحوال المالية مثل المناطق الأخرى داخل الصين. وأسرة الكينج كما كتب أحد المؤرخين حكمت شعوب الحدود بالمرونة حسب الإقليم والعادات، ورغم ذلك كانت هناك فترات استثنائية خاصةً للإمبراطور (شيهوانج) حيث إن

مشاعره كانت ضد الحكم المتساهل، لكن التجربة علمت البلاط الصينى أن اللمسة الرقيقة كانت أفضل من بديلها.

والعقيدة الكونفوشيوسية لديها تحيز واضح للحكم بالوسائل الأخلاقية أكثر منها بالقانون والقوة العارية، وعندما كانت الصين إمبراطورية لا تبارى ولا يُشق لها غبار لم تكن مركزية مثل روما بل كانت أقرب إلى الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية حيث لم يكن القانون أو القيم غالبين فى أنحاء الإمبراطورية، وفى قمة أسرة الكينج فإن الأسواق ترعرعت داخل الثمانية عشرة مقاطعة صينية وكان هناك حراك اجتماعى كبير.

وهناك عامل آخر هيكلى أكد حدود سيطرة وقوة المركز، فالإمبراطور وبيرقراطيته لم يكونا متناسقين أو متناغمين وكان الإمبراطور يلجأ للوقيعة بين البيروقراط وقد كتب (وانج رولاى) وهو يناقش فترة أسرة السونج وحيث الإمبراطور وموظفوه يراقب كل منهما الآخر، وأباطرة أسرة الكينج فى بدايتها كانوا أقوياء ومحاربين وسيطروا بقوة على البيروقراطية والجيش على عكس فترة ضعف الأسرة فى أواخر عهدها. والواقع أن البيروقراطية الصينية كنظام حكم لا شخصانى تراتبى هيراركى ومتخصص تعرض للتأثير عليه من جانب النظام الاجتماعى الصينى مما أثر فى ضعف البيروقراطية، وكما يقول المتخصصون فإن الصين كنظام اجتماعى يمكنها العمل والاستمرار وحدها مع أقل تدخل من الهيكل السياسى الرسمى، ووجود هذا العالم الواسع لربما أعطى البيروقراطية من المرونة ما ساعدها على إعادة الإحياء بعد سقوط الملكيات، ومن هنا كان التناقض أحد أسباب استمرارية الدولة الصينية ووجود التبادل بين القواعد المقننة والعرف والعادة هو ما جعلها معرضة لعدم الكفاءة وسقوط الملكيات.

وللعجب فإن الحكم المتساهل نسبيًا والإحساس بالتفوق والعلو ليسا متناقضين بطريقة عميقة خاصة فى التعامل مع الشعوب المختلفة ثقافيًا، وفى

منطقة الاستبس، والإدراك الذى جعل البلاط الصينى يشعر بالعلو تجاه البرابرة حدا به إلى ترك مسافة مع الشعوب التى ذكر عنها الإمبراطور (تاى زونج) متضجرًا: "هؤلاء الشعوب الذين يروحون ويجيئون بشعورهم المقبضة وعاداتهم أكل الطعام دونما طهى"، وبجانب هذه السياسة كان يقترن بها كذلك ما يحب الصينيون أن يظهروه من محاولاتهم جعل البرابرة صينيين ومن هنا فإن ما يسمونه بمنطقة sinic zone بما فيها فيتنام وكوريا حيث تركت اللغة والفلسفة الصينية طابعها، وكذلك أسلوب الحياة الزراعية الذى يشبه ما هو بداخل الصين.

وتأثير الصين القوى على كوريا جاء فى بعض الأوقات عبر وسائل عسكرية وفى أوقات أخرى جاء بالإقناع الأخلاقى وبقدر من الغطرسة، وعلاقات الصين مع فيتنام لم تكن مختلفة كثيرًا فهناك درجة ما من الإغراء للنخبة الفيتنامية من جانب الثقافة الصينية، لكن الهجوم المادى جرى استخدامه كثيرًا وعلى فترات فقد غزت الصين فيتنام لألف سنة منذ أيام أسرة الهان حتى سنة ٩٣٩، وأحيانًا الملك الفيتنامى الذى عارض الصين عندما كانت بلاده مستقلة كان عليه المجىء للصين فيما بعد وتقديم اعتذاره وأسفه.

عندما كان البلاط الصينى قويًا وواثقًا من نفسه وليس هناك ثمة تمرد من البرابرة فإن الكرم والفخامة والأبهة كان يتم التعبير عنها جميعًا تجاه الشعوب المحيطة، فالإمبراطور (تاى زونج) من أسرة التانج أعلن سنة ٦٤٧ أنه منذ القدم فإن كل الحكام أبدوا اهتمامهم بالصين العظيمة والاحتقار للبرابرة لكن أنا أحب كلاً من الصين والبرابرة معًا، وبالتساوى ولهذا فإن كل القبائل والشعوب خضعت لى كما خضعت لآبائهم وأمهاتهم، ورغم هذا فإن هذا الكرم والأريحية يمكن أن ينقلبا إلى غضب إذا لم يتم تقديم فروض الطاعة والولاء والإذعان.

ولما لم يستطع الإمبراطور (يانج دى) من أسرة (السوى) الحصول على الاحترام الواجب من كوريا فقد وبخ الكوريين باعتبارهم أعاجيب صغيرة، والجيران من الشمال لم يستطيعوا تقديم الاحترام للبلاط لكنهم شاركوا قبائل أخرى فى غزو الصين، وقد قام الإمبراطور (يانج دى) بإرسال تجريدة عسكرية للتعامل مع الكوريين الأشرار.

ولطالما لوحظ أن الصين لم تقم بإيجاد مستعمرات رسمية لها حتى خلال فترة المينج ولما حازت على القوة البحرية لم تعبر المحيط الهندى لتصل لإفريقيا، لقد كان الصينيون منشغلين مع الداخل الآسيوى وليس الحدود البحرية.

لكن نموذج الصين-البرابرة استخدم تجاه شعوب الاستبس والسهول وبدا أنه غير خلاق، ورغم أن الصين تستخدم غالبًا القوة العسكرية تجاه الشعوب الأقل فلم يمكنها النجاح فى مد ونشر طريقة الحياة الصينية فى مناطق الاستبس إلا خلال أسرات قليلة مثل الهان والتانج كما كتب (موريس هوسابى) حيث حاول الصينيون وغزوا وهزموا الشعوب الصحراوية لكن ما حققوه لم يستمر إلا لفترات قصيرة، وكان على الدولة الصينية البحث عن طريقة أخرى للتعامل مع هؤلاء الأعداء الأقوياء والخطيرين أحيانًا الذين يركبون الخيول ويشربون اللبن ويأكلون السمك النيئ على غير عادة الصينيين.

ربما اتجهت الصين جغرافيًا إلى المركزية السلبية كما كتب (بنيامين شوارتز) أن الصين لم يتم تحديها فى جوارها القريب بظهور دول عالمية لها مطالب تشعر الصين أن عليها أخذها فى الاعتبار بقوة بالمعنى الثقافى، فبعض الدول فى العالم القديم كانت أقل كثيرًا من الفضاء الصينى فمصر كانت مجرد شريط رفيع على جانبى النيل وبعض الممالك الأخرى كانت

غير بعيدة عنها وعلى عكس دول ما بين النهرين حيث كان الاقتصاد قويًا فإن الفضاء الصينى كانت حدوده واسعة جدًا - أحيانًا ألف ميل من العاصمة- ومن هنا فإن خبرة الصين كانت محدودة فى التعامل مع من يماثلها فى القوة وكما كتب الموهوب (دينج ينج بانج) أن الصين ليس لديها أثينا أو الإسكندرية (حضارات قريبة) حتى تقدم التحدى المحرك للإمبريالية الرومانية.

وبمقاييس معظم الإمبراطوريات فإن تعامل الصين مع المملكة الصغيرة فى (ريكيو) وهى جزء من المنطقة الصينية خلال أسرتى المينج والكينج، ففيما كان الخضوع بعيدًا عن اليد الثقيلة حيث يمكن القول بأنها تقوم على فلسفة (لاو زى) الذى علق بأن الفضاء المتسع فى شرق آسيا، كأنه يشبه عملية طبخ سمكة صغيرة، فالغطرسة حتمًا موجودة، وكان يشار لحكام ريكيو بأنهم تابعون للبلاط الصينى ورغم هذا حصلت ريكيو على فوائد ومنافع ثقافية وكذلك تجارية وفى الوقت ذاته لم تعارض الصين مساومات ريكيو فى مجال الأسعار.

ولما صار التحكم والسيطرة على ريكيو موضوعًا بين الصين واليابان عام ١٨٧٣ فإن الرسميين من ريكيو كتبوا لوزير خارجية اليابان أنهم يعتبرون الصين كأبيهم واليابان كأمهم، وفى كلمة واحدة فإن الصين حصلت على احترام ريكيو.

والصين فى تعاملها مع الشعوب المحيطة عرفت أين تقف، وقبضتها لم تكن قوية إلا نادرًا وكما لاحظ (جون فير بانك) فإن الصين وحكمها المصطنع هو سر نجاحها وعندما يتحول العقاب للاتجاه للتشدد فهذا لا يعنى أن الإمبراطورية الصينية كانت فى قمتها غالبًا أكثر مما يعنى أنها علامة على خوفها وإحباطها.

الدفاع والغطرسة كانا جانبين لعملة واحدة، الصينيون يدافعون عن نقاء طريقتهم فى الحياة فى علاقة الصين مع القبائل الاستبسية أخذ وعطاء تفاعل واتفاقات على قدم المساواة كان ذلك غير ممكن خلال أسرة السونج، ومع الغلو والغطرسة والتفوق العنصرى التى غلبت على البلاط الصينى هذه العقلية يمكن القول عنها بلغتنا الحديثة أنها العزلة مع الثقة بالنفس.

قاعدة أخرى وعادة عجيبة مع الإمبراطورية الصينية فعلى الرغم من أن ابن السماء يمتلك عقيدة شاملة جامعة ولها طموحها فى التعاملات مع الشعوب غير الصينية باعتبارها بيئة معادية كانت تلك القاعدة تقهره على التعامل ضد مبادىء الكونفوشيوسية السامية والمتفائلة، وفى كلمة واحدة ليكون براجماتيًا عمليًا وأحيانًا يلجأ للمواءمة والحلول الوسط كما حدث مع التبت والترك فى الغرب والخيتان والجورشن ولكن دونما اعتراف بذلك فى التاريخ الرسمى، ورغم ذلك لا يجدون ضرورة لترك المبدأ أو إعادة تقويمه والنظر فيه، وبدلاً من ذلك اخترع أباطرة الصين أساطير تبرر البعد عن العقيدة، فأسرة الكينج الشهيرة تحدثوا عن شعوب غير صينية قدمت الاحترام والتقدير والاعتراف بالجميل للصين وهو ما لم يحدث بالفعل، وحتى بابا روما نفسه زعموا أنه قدم احترامه وتقديره للبلاط الصينى وهو ما لم يحدث، ويتحدث تاريخ أسرة المينج عن أن البرابرة يحبون المنتجات الصينية ويحققون أرباحًا ضخمة بالتجارة، وأسرتا المينج والكينج نظروا عمومًا وراء التجارة بأسئلة تتصل بالسيطرة والاستقرار والاحترام، لكن فى وقت آخر خلبت خيالهم الخيول التى يقدمها فقط البرابرة وسنرى لاحقًا ما يشابه ذلك فى تعامل الصين الحالى وجعل العالم يعتقد أن الولايات المتحدة تحتاج للصين أكثر من حاجة الصين لها.

ولا يحب الصينيون الاعتراف بلجوئهم المنظم للقوة ضد البرابرة، ويفضلون أسطورة أن البرابرة وافقوا على حكم القيم والعقيدة، والحقيقة أن كثيرًا من الأجانب يشعرون بالاحتقار تجاه الصينيين.

ففى القرن الثامن الميلادى قال التركى (خان كولتاجين) أن الصينيين عادة لديهم كلام معسول وكنوز عظيمة يجذبون بها الشعوب البعيدة عنهم الذين جلسوا قريبين واستوعبوا شرورهم، والزعيم المسلم الذى خلف (تاميرلين) أرسل لإمبراطور الكينج خطابًا بالعربية وآخر بالفارسية ناصحًا إياه بترك طرقه ووسائله غير المؤمنة وإعلان إسلامه ولقد حصل على رد على كتابه على غير ما أتى تاميرلين ملك لملك إلى ملك الترك قابلاً الهدايا كهدايا وليس كجزية، لقد خضعت الصين لكن التاريخ الصينى لا يذكر ذلك.

لقد كانت الحروب مكلفة ومدمرة للصين ولاقتصادها الزراعى على غير الحال بالنسبة لشعوب الشمال والغرب ورغم هذا فإن القوة لعبت دورًا كبيرًا على الأقل كسيطرة معنوية فى علاقات الصين مع جيرانها من التبت ومنغوليا ومنشوريا، ورغم هذا فإن الحكم بالفضيلة لم يترك كلية وكما قال الإمبراطور مؤسس أسرة المينج: "منذ أقدم الأباطرة الذين يحكمون تحت السماء فقد سيطرت الصين على البرابرة من الداخل بينما كان البرابرة ينظرون باحترام للصين من الخارج"، وكان هذا غير صحيح لكنه ساعد أسرة المينج على الادعاء بأنهم يستعيدون دولة أنشئت منذ القدم وبدون انشقاقات. وبعين ترى أهمية كل ذلك لصين اليوم فإن القارئ قد يرى ويتساءل هل كانت إمبراطورية الصين قوة مهابة ومسيطرة؟ أم كانت لاعبًا يتأرجح فى لعبة أكبر وأوسع مع معارضين خطرين وأقوياء؟ فمنذ أسرة الزو (٣٠٠٠سنة) وحتى سقوط أسرة الكينج ١٩١١-١٩١٢ كانت الصين كلا الاثنين وغالبًا كانت الصين إمبراطورية لا تُبارى، وفى معظم الأحوال كان يوجد توازن للقوى بين الصين والدول المجاورة وتأرجح البلاط الصينى ما

بين العظمة والعلو وبين الهوان والذلة، بين الصياح عاليًا بعقيدتها وبين الهدوء والسكينة، وفى القرن الثامن عندما كانت التبت قوية مقارنة بأسرة التانج وكانت (لهاسا) تسيطر على كثير مما يسمى اليوم مقاطعات إكسين جيانج وجان سو وكينج هاى فإن أهل التبت رفضوا قبول العنصرية والغطرسة الصينية فى العادة المسماة بـــ(السمكة المكسورة) والتى كانت علامة ومسرحًا سياسيًا الهدف منه إبراز التبعية والخضوع من جانب التبت تجاه الصين، وبعد حرب ضروس بين الطرفين تغلبت فيها التبت على الصين فإن المبعوث التبتى إلى بلاط الصين رفض لعبة السمكة المكسورة لأن بلاده صارت على قدم المساواة أو شبه المساواة مع الصين ولم يكن أمام الصين إلا الخضوع والموافقة.

وفى أسرة الكينج القوة والضعف كانت ضمن عدة عقود بعد توحد الدول المناوئة وإنشاء الصين عام ٢٢١ ق.م. فإن الإمبراطور (كين شيهوانج) أرسل نصف مليون من القوات لمهاجمة فيتنام، وخلال عقد من الزمان بعد ذلك سقطت أسرته وجاءت أسرة السونج وفى سنواتها الأولى حافظت على علاقات أبوية مع جيرانها الجنوبيين وطالما كان جنوب التانج وجنوب الهان ومملكة وويى تدفع الجزية كدول تابعة تركهم بلاط السونج ولما قوى بلاط السونج فإنها قامت بإنهاء هذه الدول الثلاثة.

ففى الشمال فإن أسرة السونج لم تسيطر وكان عليها المشاركة فى نظام يشبه نظام العلاقات الدولية، وكان عليهم التعامل على قدم المساواة مع الخيتان وهم شعب صحراوى من الاستبس شرق منغوليا والذين أنشأوا أسرة لياو (٩١٦-١١٢٥)، وفيما بعد مع الجورشين وهم شعب ظهر فى وادى نهر آمور والذين كونوا إمبراطورية الجين (١١١٥-١٢٣٤) وكل من أسرة اللياو والجين فى وقت أو آخر طالبوا البلاط الصينى بتقديم الجزية إليهم، هذا البروز للقوة هو الذى يحدد الجمع فى تاريخ الصين بين النفوذ والغطرسة

الصينية وبين الإذلال، بين تنفيذ المبدأ الإمبراطورى الإمبريالى وسد الثغرات ومكامن الضعف بأية طريقة ممكنة.

ماذا يمكن أن يقال عن الإمبراطورية الصينية؟ إن أى نظام حكومى فى العالم لم يستمر لمدة طويلة فلماذا استمراره فى الصين بأطول مدة وهنا لا نناقش طول المدة من حيث المعنى الفنى لأنه فى فترات طويلة سقطت الإمبراطورية وتفتت أو فقدت السيطرة لصالح حكام غير صينيين، ومنذ سقوط أسرة التانج عام ٩٠٧ وسقوط النظام الملكى عام ١٩١١-١٩١٢ ولمدة ٧٠٠ سنة فإن غير الصينيين حكموا معظم الحضارة الصينية، وعكس ذلك فإن كل الفضاء الصينى بما فيه أسر المانشو وإليوان والأجزاء الشمالية منها التى حكمها الجيران من الجورشين والخيتان (٩١٦-١٢٣٤) فإنه لمدة ٣٠٠ سنة فقط من الألف سنة كان الفضاء الصينى فى يد الصينيين.

ولربما يقول البعض أن الصينيين كانوا محظوظين وكانت لهم حرية السيطرة على الأجزاء الشرقية خلال القرن التاسع عشر، واستمرارية النظام الصينى لمدة طويلة لا ينفصل عن غياب الضغط من الجانب البحرى مثل ذلك الذى جاء من ناحية الإستبس ورغم هذا فإنه كان هناك خط من العزلة تجاه الداخل الآسيوى ومارس الصينيون خلافات كثيرة وانتهوا إلى سجل مختلط رغم هذا لم تسقط الدولة الصينية أو تُستبدل بدولة أخرى من خلال هجوم أو غزو من داخل آسيا.

والسبب الأساسى لاستمرار النظام الصينى هو الجمع بين الكونفوشيوسية والأسلوب القانونى التنفيذى وهما الفلسفتان الأساسيتان العامتان فى الصين، وخلال فترة المعاناة أواخر أسرة الزو ظهر سؤال: ليس بهدف معرفة الحقيقة النهائية ولكن من أجل مجتمع متطور وكان الأمر بالنسبة لكونفوشيوس أن الكون هو سلة من الغموض والسرية فيها السماء والأرض والإنسان. وقبل هذا فى أسرة الشانج كان الصينيون يؤمنون بالله

مع شخصية إنسانية لكن بنهاية أسرة الزو فإن إلها إنسانيًا تم استبداله بالسماء كقوة غامضة ولكنها حيوية ترفرف على الكل وحسب وجهة نظر كونفوشيوس فإن السماء عادلة تجاه الشعب ولديها أساسياتها عن الفضيلة بين البشر من خلال السلوك المطيع والمحترم الذى يصله بالتناسق الكونى، مينوسيوس كان أكثر عدالة من كونفوشيوس حيث كان أكثر مودة تجاه الشعب وكلاهما لم يضع اهتمامه الأساسى على المعرفة الفنية أو القوة العسكرية أو نظريات ما بعد الحياة وفيما بعد فقد حدث تقاطع فى وجهات نظرهما الدينية من ناحية والقانون والأمن والنظام من ناحية أخرى. وكثير من الصينيين يؤسسون وجهات نظرهم كنوع من بوليصة التأمين مع إيماءة إلى الآلهة والإمبراطور وعلى الكبار المباشرين كالآباء والأزواج. والنظام الأخلاقى الكونفوشيوسى إذا نجح يؤكد على التعليم واللياقة والذوق والتحكم فى النفس ومعاملة الناس كما يحب الفرد أن يعاملوه، وهو ما يستدعى فقط دولة تقوم بدور المراقب الليلى، ولو تعامل الناس بالحسنى فوجود دولة قوية ليس بالضرورة واجبًا ولا ضروريًا، لكن فى الغالب فإن النظام الكونفوشيوسى الأخلاقى كان صرخة فى واد وخلال حكم الإمبراطور (هوزونج) من أسرة السونج أثير السؤال لماذا من الصعب أن تظهر الأخلاق واضحة والعادات الاجتماعية ليست واحدة، ولما كانت الطبيعة البشرية هى هى كان الحكم الصينى المسيطر شديد الوطأة وفضاء الأسرة والمدرسة يلعب بها القائمون بأزمة الأمور وفى تاريخ الحكم الصينى عاشت الكونفوشيوسية أو بالأحرى تعايشت مع أعدائها وهى السياسة الواقعية وهو التقليد الرائع لفن إدارة الدولة. واقعية الصين هى مثل الغرب مع توماس هوبز ومثل التحديث مع هو جنتاو إنها تتكلم اللغة العالمية للقانون والنظام والسياسة لا علاقة لها بالأخلاق والفضيلة نادرة والعنف لا مناص منه واحترام القوة هو ما يتوقع من الغالبية.

إننا نرى عقائد الواقعية فى صفحات (هان فيى) (٢٨٠/٢٣٣ ق.م.) حيث نصح الحاكم بأن الظروف الاقتصادية لها الأولوية طالما لا توجد قيم من الماضى فالناس متخلفون ومهملون وقذرون وعقولهم مثل الأطفال لا يُعتمد عليها، وكمية الطعام المتوفر هى التى تحدد أخلاقيات الناس فى التعامل والقوة والسلطة هى كل شيء. ولما سمع الفيلسوف أن جنديا هرب من المعركة لأنه لو قتل كمن يخدم والديه أجاب أن الابن البار بوالده يمكن أن يكون خائنا للحاكم ويرى الفيلسوف كذلك أن لكل جريمة سببا واحدا هو الفشل فى الردع وكان (هان فى) ساخرا من الكونفوشيوسية وهو يقول إن استخدام الأموال العامة لإعطاء جوائز يقولون عنه إنه عمل خير وكذلك خرق القانون لحماية أسرة الفرد يسمونه حفاظا على المبادئ وتقديم الميزات مقابل الشعبية والجماهيرية تسمى كسبا لرضى الناس!! ونظم وعقائد (هان فيى) مع قواعد وعقائد اللورد شانج (٣٨٥,٣٣٨ ق.م.) ولى سى (٢٨٠.٢٠٨ ق.م.) جرى العمل على أساسها خلال فترة الإمبراطور (كين شيهوانج) والأربعة ليس لديهم وقت للكونفوشيوسية، اللورد شانج فهم فنون الدولة الشمولية البيروقراطية، الشعب يجب تنظيمه فى مجموعات وفى صيغته هذه يفرح الأفراد بالمراقبة المتبادلة وإذا لم يبلغوا عن الجريمة فى مجموعتهم يعاقبون جميعا والذين يبلغون عن الجرائم يجرى مكافأتهم ومن يحمون الأعداء يجب عقابهم كمن سلم للعدو.

ويقال فى الغالب إن التاريخ الصينى يعرض صراعا بين الفلاسفة وبين المتمسكين بالقانون الحرفى والواقعية لكن الأساس بالنسبة للدولة الصينية والسبب الأساسى لطول عمرها هو ذلك الزواج القلق بين الكونفوشيوسية والتمسك الشكلى الحرفى بالقانون. وفى نهاية الأمر فإن التمسك الحرفى يحتاج للكونفوشيوسية كما أن هذه الأخيرة تحتاج للتمسك الحرفى بالقانون والمتمسكون بحرفية القانون يهتمون بعلم السيطرة والتحكم

وعقيدتهم تقول للإمبراطور لماذا وكيف يجب أن يحكم والكونفوشيوسيون يقولون للناس لماذا وكيف يجب عليهم مطاعة الحاكم فى آخر المطاف أو عند الحاجة إلى إسقاط الحاكم.

والأستاذ (دونج زونجشو) (١٩٥,١١٥ ق.م.) وهو كونفوشيوسى قديم أعطى تفسيرا مهما للروابط الثلاثة (التابع يطيع الحاكم والولد يطيع والده والأنثى تطيع الذكر) حيث جعل الكونفوشيوسية والالتزام القانونى يجتمعان بوضوح حيث قال إن كل الروابط الثلاثة مؤسسة على مفهوم عالمى كونى مثل الشمس والقمر، فالشمس yang وهى ذكر والقمر yin وهو أنثى، ومن هنا فالحاكم الصينى ينظر إليه كقوة مطلقة ويأخذ موقع الحياة والموت على الرجال وهو مع السماء يملك قوة التغيير والتحول وبالتالى فهو ليس فقط قوة وسلطة معنوية لكنه كذلك يقوم بقوة الردع وقرع السوط بمعنى اللجوء أحيانا إلى العنف.

قوانين أسرة الهان (٢٠٢ ق.م-٢٢٠) والتانج (٦١٨-٩٠٧) لم تشر إلا بصعوبة لمثاليات عالم الكونفوشيوسية، وعدد قانون الهان ٤٠٩ جرائم ترتب عقوبة الموت ويلاحظ (فاينر) أن التقنين العام مع العقوبات المحددة للجرائم مختلفة النماذج هو أمر غير كونفوشيوسى ورغم هذا فإن أسرة الهان ومعها أسرة المينج مشهورتان بأنهما كونفوشيوسيتان. والأساس هو أن الكونفوشيوسية استطاعت أن تحقق اتفاقا وتلاقت مع الالتزام الحرفى القانونى وخلال ذلك وبالتالى تم استيعابها وامتصاصها من جانب راغبى ممارسة السلطة، والأيدولوجية يتم التلاعب بها من أجل ضمان الأمن والنظام وتقنين أسرة التانج كان قاسيا من الناحية التنفيذية وإن كان فى الوقت ذاته يعطى الاعتبار للدور المركزى للأسرة؛ حيث كانت عقوبة ضرب الأبوين هى الموت (السماء هى أبى والأرض هى أمى) كما كتب الكونفوشيوسى (زاهانج زاى) من أسرة السونج (الإمبراطور هو الابن الأكبر لوالدى) وربما هذا

يعنى كمثال للشعور الذى يمكن استخدامه لدعم تصاعدية السلطة. نحن وهم هى نتاج للتفاعل بين الكونفوشيوسية المثالية وواقعية التمسك الحرفى بالقانون والأخلاق فالرفيعون من الرجال هم أيضا سلطويون ورغم أن ذلك هو أمر يبعث على الأسف من وجهة النظر الغربية الحديثة فإنها ثنائية أعطت الاستقرار للدولة الصينية. (ايتيين بالازس) هاجم فكرة الصين التقليدية كصورة للتناغم الكونفوشيوسى لكنه أيضا رأى الحقيقية فى ذلك وتتضمن وجهة نظره التوفيق والتناغم والتوازن بين النسق الكونفوشيوسى وقوة التمسك الحرفى بالقانون والأخلاق ورفض بالازس فكرة الأرض الهادئة التى لا تتغير والمبتسمة والتى فجأة تتحول إلى أتون للنيران من خلال شعلة ثورات القرن العشرين القومية والاجتماعية. وكذلك بالصين كعملاق محجوب تم قطعها من ثلاثة آلاف سنة من النوم وسط الأعمال الفنية العظيمة والتقاليد المتقدمة والحكمة الصوفية، صحت على الدعوات الصائحة للبعثات الأجنبية ومثيرى الشغب ورغم هذا أشار بالازس إلى سر أساسى (وراء الدخان والغموض ومرايا الاستمرارية الصينية) بأن الصورة المثالية ليست الاختراع النقى وأن قوة الميكانيكية الاجتماعية صاحبة القوة الدافعة ولدتها التجاذبات المتعارضة المتصارعة وهى ببساطة كما قال أعطت الانطباع بالتناسق والتناغم المعد سلفا، التوترات تحت السيطرة بالقوة ولهذا فكل منها تنهى الأخرى حتى إن القوة الديناميكية الداخلية تبدو وكأنها فى حالة توازن مستمر، وسنرى كيف أنه فى جمهورية الصين الشعبية أيضًا فإنه يتم الاحتفاظ بالتوترات تحت السيطرة بالقوة.

قصة التاريخ الإمبراطورى الصينى الطويلة كانت ممكنة فقط بسبب (كين شيهوانج). والكونفوشيوسية كان لا يمكن لها أن تكون فلسفة للحكومة مع غياب التمسك الحرفى بالقانون (الواقعية) التى أقامتها، وكتب (ستيفن ساجن) أن الكونفوشيوسية التى تنبع من السهول المركزية (هذه الفلسفة التى

تحتل جوهر الشخصية الصينية ولكنها لا يمكنها أن توحد الأراضى التى نعرفها بالصين، الوحدة تتبع من كين، حكام أسرة الكين لا يتشاركون نفس الرؤى مثل فلاسفة السهول المركزية، فى أسرة الكين الدولة تسيطر وتحكم بسيادة وتعيد نمذجة المجتمع تجاه القانون ومشفوعة بالقوة.

ويمكن أن يحاجج الإنسان بأنه فى أسرة المينج فإن دولة الكونفوشيوسية عادت للوجود بالقوة والعقيدة متحدان معا، وكذلك أواخر أسرة الكينج فإن هذه الدولة الكونفوشيوسية أظهرت تقاليد وقواعد بما فيها نقص الحماس للتجارة ولم تكن مثل الدولة الصينية فى كثير من الفترات عندما تم ترك الكونفوشيوسية جانبًا فى بدايات أسرة الكينج، وإننى أرد بأن تحديث الكونفوشيوسية والتمسك الحرفى بالقانون كل ذلك لعب دوره فى ديكتاتورية الصين الشيوعية ما بعد عام ١٩٤٩.

لكن فى القلب والجوهر فإن التمسك الحرفى بالقانون كان هو عمود الخيمة للإمبراطورية الصينية، والكونفوشيوسية كانت هى الزى الناعم الحريرى، و(كين شيهوانج) نفسه رأى من الأوفق إضافة زخرفة ووشى كونفوشيوسى على أفكاره حتى تبدو كأنها تحكم العالم كله (تحت السماء هو يكسب قلوب الرجال وينسق جهودهم) كما نصت وثيقة أشارت للقوة القاهرة للإمبراطور.

رغم هذا فإن (كين شيهوانج) كان واعيًا تمامًا ويميز بين حدود مملكته والاتجاهات الأربعة الأساسية للأرض التى يتكلم عن بركاتها الكبرى، إنه يلعب على الحبلين القانون والتمسك الحرفى به من خلال علم القوة الكونفوشيوسى كعقيدة ليحتفظ بالشعب حسن النية ولين العريكة إلى جانبه.

وبدون كين شيهوانج لم يكن ماو تسى تونج ليكون هو البديل الآخر أو هو بالأحرى خليط من الكونفوشيوسية والتمسك الحرفى بالقانون والأخلاق والذى استمر ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين.

وأسرة المينج رغم شهرتها بأنها كانت أكثر الأسر دفاعًا عن الصين فقد خاضت ٣٠٨ حربًا خارجية خلال ثلاثة قرون، وقد استمر الجمع والازدواجية بين الكونفوشيوسية والقانونية من أسرة الهان إلى ماو الذى تحدث عن حكم الفضيلة لكنه احتفظ بالسيف طوع يديه، واستمرت كذلك درعًا لدينج إكس ياو بينج وجيانج زيمين وكلاهما أعطى تبريرًا لفظيًا مثاليًا لحكم الفضيلة لكنهم تصرفوا باعتبارهم قانونيين شكليين (واقعيين) حديثين.

والسبب الثانى لاستمرار الدولة الصينية هو أن ابن السماء لم يكن متعصبًا، انحصر اهتمامه فى فن إدارة الدولة وليس ما وراء الطبيعة وهو ما وضع الصين بمعزل عن الإمبراطوريات الرئيسية الكبرى في العصور القديمة والوسطى ما عدا فارس فإن الإمبراطوريات الأكثر تدينًا لم تمتلك فترة الاستمرار الطويلة التى عرفتها الإمبراطورية الصينية غير الدينية.

فى معظم الإمبراطوريات القديمة – ونادرًا فى الإمبراطورية الصينية– فإن موضوعات الدين والسياسة صارت متفجرة، وظهور أديان جديدة كان يؤدى لعدم الاستقرار وصراعات المدارس الدينية تدخل فى سياسات الدول.

والثابت أن الكونفوشيوسية كانت أحيانًا النظير لوظيفة للدين، والبيروقراطية الفكرية الصينية يمكن مقارنتها مع بطاركة أوروبا المسيحية أو أئمة الخلافة، ومع عصر المينج والكينج كان المجتمع الصينى كونفوشيوسيًا مثلما كانت مجتمعات الغرب مسيحية، ورغم هذا فإن

الإمبراطورية الصينية بعد أسرة الكين لم تكن ثيوقراطية كما كانت بيزنطة مع صيحتها (إله واحد، إمبراطورية واحدة، دين واحد).

والكونفوشيوسية كانت بالأساس أخلاقيات لم تكن مزدوجة كما كانت الأديان الكبرى تعطى فضاء للطبيعة وفضاء آخر لما بعد الطبيعة، وباعتبارها نظامًا أخلاقيًا مع عدم وجود رؤى غامضة فإنها لم تدع لنفسها حق التخلص من غير المعتقدين فى فلسفتها كما كان الأمر مع الخلفاء والإمبراطورية الرومانية المسيحية وفى الحقيقة فإنها تقاطعت مع البوذية والداوية Daoism، وفى مجال آخر كالتمسك بالقانون (الكونفوشيوسية تعنى أشياء كثيرة لأناس كثيرين كما يقال مع شىء من المبالغة) (المسيحية يجب أن تكون شيئًا واحدًا لكل الناس).

والإمبراطورية الصينية لم تقم وتسقط مع نظامها الكونفوشيوسى كما حدث لمصر، وعندما أسقطت المسيحية دين مصر القديم فإنها دمرت معه كل الثقافة الفرعونية كذلك.

ويضع (فاينر) كذلك مقارنة ثانية، أن أنبياء بنى إسرائيل والكنيسة المسيحية والإسلام جاءوا من خارج الدولة (وهم فى الحقيقة جاءوا ضدها) وبدأوا يدعون قوة فوق الطبيعة لكن المؤسسة الكونفوشيوسية قد جاءت بها الدولة نفسها ودعت إليها، وفلسفتها هى أشياء من صنع الإنسان.

هذا التوجه الدنيوى العالمى للكونفوشيوسية يتضمن احترامًا للتاريخ، والوضع المحافظ المستقر من حيث عقلانيتها والرهبة والاحترام والتقديس للذين ذهبوا ربما ساعد على استمرارية وديمومية النظام.

وتقليد عبادة الأسلاف كما كتب (هارولد بوكمان) خلق ميلاً شديدًا نحو الماضى الذى دعم الإحساس بالأصل والمصير الواحد وهو أمر لا نظير

له فى الحضارة الغربية مما خلق اتجاهًا عرضيًا أفقيًا نحو الماضى بدلاً من التوجه الرأسى نحو إله شخصى.

الكونفوشيوسية كأخلاقيات سمحت ببعض الأخذ والعطاء مع وجهات النظر العالمية المنافسة مما جعل الإمبراطورية الصينية أقل انكسارًا وهشاشة من الآخرين، ومنذ عصر الدول المتحاربة (٤٧٥-٢٢١ ق.م.) كانت هناك تعددية فلسفية للأسس المتاحة للسياسة العامة، الداوية اتجهت نحو العودة للشخص والنزوات الفردية دونما محاولة لإصلاح العالم، والكونفوشيوسية اقترحت استعادة عصر الماضى الذهبى باتباع تعاليم أسرة (الزو).

القانونية والتمسك الحرفى بالقانون (الواقعية) ليس لديها تذوق للماضى والعوالم الأخرى وتمارس علم القوة.

وللحقيقة فإن هذه التعددية الثقافية لم تتضمن حرية الفرد، قليل من الصينيين متعلمين أو غير متعلمين يشعرون بالحرية لأخذ بديل عن أورثوذوكسية اللحظة، بعضهم على سبيل المثال مثل السياسى والفيلسوف فى (وانج يانجمينج) من أسرة المينج ١٤٧٢-١٥٢٩ لكنها كانت دائمًا على خطر.

لكن من وجهة نظر المستقبل على المدى الأطول فالاختلاف موجود من قرن لقرن وإمكانية الاختيار أعطت شيئًا من المرونة وإمكانية الحركة للنظام الصينى.

(بيتر بول) أظهر التغيير الحاد من المثالية إلى التجريدية الواقعية بعد تنازل الإمبراطور الثانى عشر (وى زونج) فإن سؤال الاختبار للمرشحين للوظيفة الرسمية عام ١١٢٤ افترض أن التراث القديم والنظام الكونى يعطى الأرضية لنموذج من الحكم الذى يغير العالم، لكن سؤال عام ١١٢٨ قدم

التحية للدراسة المتبلورة لظروف نابعة من القاعدة ودراسة وضع السكان كافتراض أساسى.

ومن وجهة نظر أخرى فإن الإمبراطورية الصينية دامت واستمرت لأنها زرعت أسرار الاستقرار، فالبلاط الصينى منخرط باستمرار فى معارك للحفاظ على الاستقرار، والأباطرة ومستشاروهم يضعون الاستقرار فوق التصورات والنظم والبرامج معظم الوقت والعقيدة الكونفوشيوسية المفضلة لم تكن بعيدة عن التأثر بالأفكار المنافسة أو الأديان وبدرجة ما منذ أسرة الهان وتأكد واضحًا منذ أسرتى التانج والسونج فقد وجد اتجاه وتجاذب وحرب بين الإمبراطور القوى أو الضعيف والبيروقراطية الضعيفة أو القوية ومثل الخلافات الفلسفية فإن ذلك أعطى النظام مرونة.

وفى التعامل مع الشعوب غير الصينية وجدت باستمرار وسائل يتم تطبيقها من حيث قبول الجزية وتبادل الهدايا هذا فى الجانب اللين وحتى الحرب فى الجانب الصعب وبين الاثنين توجد نزاعات تجارية وغارات، وسياسة المسرح هذه بين (المرايا والدخان) أعطت الخيارات والاختلافات بين المبادئ المثالية والبراجماتية العملية، والوسيلة السياسية نفسها احتفظت بأسطورة وحدة الصين فمفهوم اليوم عن الصين كمفهوم اليوم عن أسطورة صين واحدة، وعندما تحدث هزيمة يتم التعامل معها باعتبارها نصرًا وهى لعبة أخرى ورثها الحزب الشيوعى الصينى.

والكثيرون ممن زوار الصين يرجعون لبلادهم متعجبين لماذا صاروا لا يرون الكثير من الصين الماضية، والجواب أنها احترقت أو أكلها الزمن لأن الصينيين يستخدمون الأخشاب فى آثارهم أكثر مما يستخدمون الأحجار والمعبد الكبير العالى السماوى فى بكين ليس مبنىً قديمًا لكنه من القليل الذى بقى من أسرة المينج وأعماله الخشبية لم يستخدم معها أى أحجار ومعظم الأشياء الخشبية المعاصرة له تحولت إلى تراب.

(إدوارد جيبون) يحدثنا أنه اتجه للكتابة عن الإمبراطورية الرومانية من خلال التأمل فى القطع الباقية والتى ما زالت ماثلة للعيون، لكن مدن الصين بها القليل مما تركته أسرة الهان مقارنة بما تركته إمبراطورية روما.

وربما تركت الصين طريقة وأسلوبًا أكثر من الآثار الواضحة وعمومًا طريقة الإمبراطورية الصينية هى غامضة وضمنية، كتابات كونفوشيوس ومينوسيوس هى موضوع لمئات التفسيرات، وما تركه الأباطرة والمحاربون والفلاسفة ليس متاحًا لإمكانية التفسير والمعرفة، الإمبراطورية الصينية كانت ومازالت فى جزء كبير منها إمبراطورية فى الخيال.

أحجار باريس تعطى زائرها وجودًا فعليا للعصور الوسطى لكن دولة فرنسا المعاصرة تعكس القليل أو لا شيء على الإطلاق للنظام السياسى لفليب أوغسطس الذى حكم ١١٨٠-١٢٢٣ أو لويس التاسع ١٢٢٦-١٢٧٠، فى الصين العكس هو الصحيح مبانى الماضى قليلة الوجود لكن طريقة الحكم وأسلوب التفكير والتصرف مازالت حية ماثلة للعيان، فقد دامت جزئيًا؛ لأنها ضمنية ومرنة وجرى احترامها فى معناها وحرفيتها، وأيضًا لأن الحزب الشيوعى الصينى كرس العناصر الأوتوقراطية لهذه الطريقة من أجل تحقيق أهداف هندسته الاجتماعية.

والإنسان ينظر بازدراء وتكبر إلى الصلة بين طريقة الحياة ووضعها فوق الآثار وهنا نلاحظ التضارب والتضاد بين إمبراطور روما ونظيره الصينى، المكتب الرومانى يمتلك وجودًا كونيًا أقل له قيمة أو مغزى من الصين، والإمبراطور الرومانى هو شخصية عامة أكثر من الصينى، الصينى نادرًا ما يظهر وجهه للعامة على عكس الرومانى فالصينى يعتقد أن عقيدته هى أكثر أهمية من يده الممتدة ونفس التناقض قائم بين الإمبراطور الصينى وحاكم الدول اليونانية إننا لا نجد ابن السماء يفتتح حدثًا رياضيًا كما يفتتح الملك اليونانى الألعاب الأولمبية عام ٧٧٦ ق.م.

رغم قوة الدولة الصينية فإن كل أسرة اضمحلت وانتهت، وداخل الاستمرارية العامة للنظام من أسرة الزو حتى ١٩١١-١٩١٢ حدثت اختلافات غير عادية وفوضى من فترة لأخرى ومن المفيد دراسيًا التساؤل حول لماذا سقوط أسرة الهان والتانج مع المواءمات التى أعقبت سقوطهما مما يعطى بعض الإجابة.

الإمبراطورية الرومانية وأسرة الهان كان بينهما مشابهات بما فيها فترة الوجود وطريقة الاضمحلال التى تعرضتا لها، البرابرة فى الشمال هددوا النظام، الأسر القوية نالتها الخلافات والانشقاقات، الفلاحون ثاروا وتمردوا، ودين جديد أتى إلى الأرض، وكانت هناك زعزعة فى الاقتصاد، والمرحلة الأخيرة من أسرة الهان حملت معها متاعب يقف لها شعر الرأس، التهرب من الضرائب، الفيضانات، الجراد، الرؤى المسيحانية كلها ساعدت على التمرد من جانب أصحاب العمامات الصفراء، وفى الجنوب الغربى الخمسة المتذمرون لعصبة الأرز وداخل البلاط الهان نجد الألاعيب والمناورات وصراعات القصر.

التقليد الإمبراطورى الرومانى مات كشكل حى والإقطاع انتشر فى الأماكن التى كانت تحكمها الإمبراطورية.

لكن نظام الهان الأساسى ٢٠٢ ق.م. إلى ٢٢٠ تم إعادة بنائه باسم أسرة التانج وحتى قبل هذا وخلال ٣٥٠ سنة وحيث صارت الصين تحتاج لنظام سياسى موحد فإن المواءمات جرى التعتيم عليها فى الدولة الصينية.

والتفرقة بين الشمال والجنوب حدثت باستخدام نهر (يانجزى) كعلامة واستمر ذلك حتى عصرنا الحالى، البوذية والداوية انتشرت من القاع والكونفوشيوسية بدت الحاجة إليها لتشارك فى الفضاء الفلسفى مع آراء فلسفية شاملة، عملية تحويل الأفراد إلى الصينية حدثت أحيانًا على غير

الإرادة وأحياناً بطريقة تكتيكية، والخلاف والصراع مع الممالك من غير الأصول الصينية من أجل السيطرة على الدولة الصينية، ورغم هذا تحدثوا اللغة الصينية لجعل حكمهم أكثر كفاءة وأكلوا الطعام الصينى وحكموا بالطريقة الصينية إذن الطريقة تم الحفاظ عليها وربما جرى مواءمتها، ومع أسرة التانج فقد تم إعادة بناء حقيقية.

ورغم هذا ومثل أسرة الهان وللسبب نفسه سقط التانج بعد ٣ قرون، فى عنفوان التانج كان هناك التسامح والرخاء الذى تحول للضيق والبحث عن الموارد والعنف، ولما سقطت التانج فى عام ٩٠٧ فإن الصين مر عليها خمسة أسر ملكية فى وراثة سريعة لنصف قرن وجنوب الصين انقسم إلى دول متعددة، وفى كلا الحالتين حدث السقوط بسبب شقين أو صدعين بالإضافة إلى عاملين مختلطين من القوة والضعف للدولة الصينية.

مشاكل الشرعية والتوارث كانتا المشكلتين الأساسيتين للدولة الصينية، فأيهما كان له الأولوية التفويض الإلهى السماوى أو نوعية الحاكم الذى حصل على تفويض السماء؟ لو كان التفويض الإلهى حقيقيًا والأهلية كاملة لممارسة السلطة فكيف يحدث صراع السلطة وتكرار احتلالها؟ إذا كانت شرعية الإمبراطور تأتى من السماء فكيف يمكن تحديها من الأرض؟ لا توجد ثمة إجابات يمكن التمسك بها لهذه الأسئلة، إنها بصعوبة تساعد على تعداد قائمة أسباب سقوط الإمبراطور من الفيضانات والتصحر والزلازل التى حدثت خلال حكمه وبالنسبة لوجهة نظر غير مؤمنة فإنه يمكن النظر لذلك باعتباره سوء حظ أكثر مما هى إدارة سيئة من جانب الحاكم.

كيف يمكننا تقويم علاقة المتمرد بالسماء؟ فى لحظة عندما يتحدى المتمرد سلطة مستقرة وقوية فهو يناقض تفويض السماء الذى تم إعطاؤه منحة لغيره، فى لحظة أخرى تحكم فى القوة لنفسه فنجاحه جعل منه اختيار السماء الجديد والتمرد من جانب الفلاحين حدث كثيرًا وتكرر ورغم تعاليم

مينوسيوس أن الحاكم السيئ يمكن خلعه فإن التفويض الإلهى لا يعطى إرشادًا نهائيًا مقدمًا لمن يجب مساعدته ومن يتم معارضته.

ربما كانت الحالة فى الصين كما بدت حقيقية فى مصر أن عملية من مرحلتين حدثت: فى مجال السعى للقوة كل شيء يعتمد على المؤهلات ومهارات الساعى إلى السلطة، وبعد أن يحصل عليها فإن العرش يساعد ذلك الشخص ليكون إمبراطورا حقيقيًا فعلاً.

وهذا يجرنا إلى الموضوع المتصل بالوراثة والتعاقب على السلطة، إذا تركنا السماء جانبًا فإن الوراثة الإمبراطورية كانت فى حقيقتها مناورات أجنحة ومؤامرات فى الظلام وقتل، والجنس لم يكن قط بعيدًا عن السطح، كان هذا صحيحًا ليس فقط فى الصين وإمبراطوريتها بل حتى فى الخلافة الإسلامية وفارس وروما ومصر، وهى العملة التى لا يستغنى عنها لصراع السلطة فى البلاط الصينى كانت العشيقات والزوجات والأميرات الصغار عملات لا يمكن الاستغناء عنها فى هذا الصراع، وفيما بين السماء والأرض كان من المفترض وجود نموذج للوراثة ابن الإمبراطور يخلفه لكن أى ابن؟ فى الصين لا توجد قاعدة حاسمة أنه يجب أن يكون الابن الأكبر هناك سحب دخان، ودور النساء فى حياة الإمبراطور ومعظمهن محظيات بما يعنى وجود عدد كبير من الأبناء جاهز للوراثة أحيانًا فى أوقات ما كان هناك باب دوار بين الحريم والإمبراطورة وهذا نفى من الناحية الفعلية الوراثة المحددة كإجراء.

فى أسرة الكينج عشرون ابنًا للإمبراطور (كانج إكسى) حاربوا من أجل سلطة أبيهم، بل وحتى فى البلاط الأكثر تنظيمًا فى بداية أسرة التانج وجدنا إمبراطورا يوضع على الخازوق من أجل موضوع تحديد أى الأبناء، قال الإمبراطور تاى زونج: "أنا عينت ابنى الأكبر وليًا للعهد" عام ٦٤٢ لكن حقيقة أن إخوته وأبناء المحظيات وعددهم أربعون كانوا مصدر الخوف من

جانبه، على الجانب الآخر من الخط لم يكن هناك ابن أو أن الوريث كان طفلاً، فى هذه الحالات فإن المناورات والمؤامرات والاغتيال كانت أمورًا لا يمكن تجنبها.

وعملية تزوير الوصية الأخيرة للإمبراطور صارت شيئًا متكررًا، الإمبراطور الثانى لأسرة الكين وصل إلى العرش بتزوير وصية (كين شيهوانج) وقتل ولى العهد.

هذه الوسائل لحل أزمة الوراثة فى ظل نظام أوتوقراطى كانت أكثر تعقيدًا من جانب الساعين لخلافة ماو وبعد أكثر من ٢٠٠٠ سنة ولأول مرة فى الدولة الصينية، فإن الحزب الشيوعى تعلم بالتأكيد من ستالين ولكن أيضًا من التقليد الصينى الأوتوقراطى.

وكما كانت أسرة التانج عظيمة فى بعض المظاهر فإن الصعود لسلطة الملك والحكم لمدة طويلة كان بالنسبة للإمبراطورية مشكلة دائمة وأزمات متصلة غلب فيها المكر والخداع والجنس والعنف فقد كانت الإمبراطورة محظية الإمبراطور(تاى زونج) بدأت ظهورها بحركة ولعبة لولى العهد الذى كان فى يوم قد ترك جلسته إلى الحمام ولما برز من الحجرة دخلت المحظية (وو) بابتسامة وقعب ماء ذهبى وبعد عدة دقائق فإن وريث العرش الصينى كان يتلوى على مقعد مع عشيقة أبيه، ومات الإمبراطور بعد ذلك بسرعة، أرسلت بعد ذلك (وو) إلى سلك الرهبنة ولكن الإمبراطور (جاو زونج) لم ينس تجربته معها وكان لديه أميرة بجانبه السيدة وانج فوجد عذرًا فى زيارة (وو) وأحضرها إلى القصر فى منصب أقل، وكانت خطوة (وو) التالية أنها قامت بخنق ابن الأميرة فى سريره وأقنعت الإمبراطور جاو زونج أن الإمبراطورة هى التى فعلت ذلك وخلفت (وو) السيدة وانج كإمبراطورة وبسرعة صارت أمًا لولدين اثنين من الإمبراطور وصار لها من القوة والنفوذ ما مكنها من التخلص من السياسيين ورجال الدولة الذين عارضوا

ووقفوا ضد نفوذها الطاغى على الإمبراطور (جاو زونج) الواقع تحت نفوذها والمجنون بالجنس معها وتولت (وو) كثيرًا من أعمال الدولة بما فيها الحرب على كوريا، ولما مات الإمبراطور (جاو زونج) عام ٦٨٣ كان عمر (وو) ٥٥ سنة وكانت الإمبراطورة أرملة البلاد وعجوزًا مهيبة وأحيلت للتقاعد لكن بعد صراع قاسٍ ومرير وكان لديها وليا عهد وأعلنت نفسها عام ٦٩٠ ابنة السماء وأول سيدة تعتلى عرش الصين وكان عصرها خلال فترة الزو ٢٦ سنة منذ وفاة (جاو زونج)، وكنتيجة للإغراء والقتل والمؤامرة استطاعت الوصول لسدة الدولة الصينية وأدارت الإمبراطورية لنصف قرن.

لكن ليس كل وفاة لإمبراطور تبعتها مؤامرات مثل تلك التى حدثت مع (تاى زونج)، لكن فى المحصلة كل أسرة شهدت الصراع بغير نجاح مع مشاكل الشرعية والوراثة مما أدى لبروز أسرة جديدة وبالتدريج تفشل فى عملها ودورتها لإيجاد حل. وحتى اليوم فى جمهورية الصين الشعبية فإنه ليس لديها إجابة على التحديات التى صارت أكثر حدة بسبب البيئة الدولية التى صارت أكثر ديموقراطية لمشكلتى الشرعية والوراثة. وفى الحقيقة أن الشرعية والوراثة هما عادة قنبلة موقوتة فى ظل الديكتاتورية.

سببان آخران للصراع فى الإمبراطورية الصينية جاءا من اختلاط مظاهر الضعف والقوى فى الدولة: والقبضة المتراخية التى هى للمركز على تخوم الإمبراطورية، والفجوة بين العقيدة الإمبريالية والسلوك الإمبريالى، وكلا الاثنين أسهما وأديا إلى استقرار وطول عمر الإمبراطورية الصينية لكن إلى نقطة ما.

وكتب (ليمان ميلر) أن ما برز من أعماله الأخيرة عن أسرة الكينج هو صورة للقوة الإمبريالية محدودة بقسوة بالحقائق العملية والتعقيدات فى النخبة السياسية، والأباطرة فى العصور الأخيرة حكموا غالبًا ولكنهم لم يسيطروا، القبضة المهتزة والضعيفة للمركز على المقاطعات البعيدة ومشاكل تأمين

الموارد والتمويل للحروب ولأغراض أخرى جعلت التمرد من جانب الفلاحين خطرًا قائمًا وحالاً وكانت عاملاً أكثر عظمة وأهمية فى الصين مما كان الأمر فى روما أو معظم النظم الأخرى.

وهناك عدد من الأسر كالهان، والتانج، واليوان، والمينج كلهم سقطوا بسبب التمرد الريفى، وأسرة الكينج فى قرنها الأخير شهدت ستة تمردات كبرى وكان الفلاحون هم جوهر التمرد.

الفجوة بين العقيدة المثالية والتطبيق والممارسة تم جعله غامضًا من خلال الخيال الذكى الماهر، وكانت هذه فعالة ما لم تصبح هذه الخيالات خداعًا للنفس التى تعمى البلاط عن الحقيقة ثلاثة خيالات توضح الفكرة : الإحساس بالعلو والعنصرية يمكن توجيهه ضد الطرف غير المجرب لكنها يمكن أن تحدث العكس ولا تؤدى وظيفتها إذا دفعت ابن السماء لسوء تقدير العدو المحتمل، وهو ما حدث مع الكوريين فى القرن السابع؛ حيث بعد سلسلة من الهزائم العسكرية كان على الصين الاعتراف باستقلال كوريا. الثقة الزائدة تجاه الكوريين باعتبارهم كائنات أقل سبب الهزيمة. سوء تقدير للحساب مشابه أيضًا حدث مع البريطانيين فى جنوب الصين فى أربعينيات القرن التاسع عشر، ومؤخرًا حكومة الحزب الشيوعى الصينى خدعت نفسها تجاه الرأى العام فى تايوان وتخيلوا أن الجزيرة يمكن أن تغير لونها إذا ما استقبلت اللمسة السحرية لاشتراكية الأرض الأم.

مثل هذه الحسابات المشوهة لحوادث التاريخ الماضى فى التاريخ الرسمى هى سلاح ذو حدين عندما كتب المينج تاريخ يوان أو أسرة المونغول ١٢٧٩-١٣٦٨ التأخير لسبعين سنة كان يجب التواؤم مع الهرطقة والبدعة للحكم المونغولى، وعندما كتب المانشو تاريخ المينج تأخروا لما يناهز تسعين سنة لتعديله فالتاريخ المعدل يعجب البلاط بالصورة الجميلة للماضى القريب وهو أمر مهم للثقة بالحاضر وكما يقول المثل الصينى فإن

التاريخ كالبكر العذراء تستطيع أن تلبسها كيفما تشاء لكن الاعتقاد بأن شيئًا حقيقيًا لمجرد أنه كتب يمكن أن يكون أمرًا خطيرًا، الوثائق الصينية تؤكد والبلاط الصينى يعتقد أن الملك جورج الثالث قدم هدايا تقديرية إلى الإمبراطور (جياكينج) عام ١٨٠٤ والحقيقة أن ذلك لم يحدث وبعد أربعة عقود من ذلك فإن الهدايا المتواضعة من لندن أدت إلى هزيمة عسكرية بأسرة الكينج المندهشة.

سجلات أسرة المينج تقول إن القائد المسلم (تامرلين) الذى كانت قاعدته مدينة سمرقند فى أوزبكستان الحالية أعطى البلاط الصينى هدية هى عبارة عن ٢٠٠ حصان وخطاب خضوع عام ١٣٩٥ معتقدًا صحة ذلك بناء على التقارير البيروقراطية أرسل مبعوثًا لشكر القائد المسلم على خضوعه ولكن تامير لين لم يقدم هدية والبعثات من سمرقند إلى بكين كانت فقط تجارية ومع وصول البعثة الصينية للشكر المكونة من ١٥٠٠ شخص اكتشف تامر لين أن الصين تعتبره تابعًا لها، فقام بالقبض على البعثة وأقسم بالانتقام لهذه الإهانة بهجوم عسكرى على الصين.

ولحسن حظ أسرة المينج فإن الأحوال والظروف فى الهند وغيرها حازت على اهتمام تامر لين ولكن فى عام ١٤٠٢ فإن الإمبراطور الجديد (يونج لى) جاء إلى عرش المينج ولم يكن يعلم شيئًا عن غضب المسلمين فأرسل بعثة إلى سمرقند تصحبها قافلة تجارية من ٨٠٠ جمل لتسأل لماذا لم يقدم تامر لين الجزية لسبع سنوات، وأمسك تامر لين بالقافلة وأعد للإسراع بتدمير إمبراطورية المينج وتحويل الصين إلى الإسلام، ومرة ثانية ولحسن حظ الصين وأسرة المينج مات (تامرلين) وهو فى طريقه إلى الصين عام ١٤٠٥ وخلال هذه الممارسات الصعبة فإن عددًا من الرسميين الصينيين امتنعوا عن عرض بعض الحقائق المتفجرة مثل توصية (تامرلين) بأن إمبراطور الصين عليه اعتناق الإسلام ولم يكن بلاط الصين ليدرك الخطر

الذى يواجهه كما كتب (روسابى): "بالطبع فإن النظم الصغرى البسيطة خلال القرون ربما خدعوا شعوبهم، لكن الصين بينما يناقش البعض أنها الحضارة القائدة خدعت شعبها بقوة وربما ابن سمائها، إمبراطورها".

الأسطورة الثالثة والتى لها مضامين كارثية وهى سبب ونتيجة للعلاقة بين الحكم المتنور والتناسق الكونى، فتحت حكم إمبراطور فاضل يكون المناخ جيدًا والمحصول وفيرًا وأحيانًا كانت توجد حقيقة معاشة مجربة لهذه العلاقة والخطورة تأتى عادة من فيضان ليس للإنسان سبب فيه أو سقوط نيازك قد يوفر الحجة أن الإمبراطور ليس فاضلاً، كل هذه الخيالات أو الأساطير الثلاثة الذكية والماهرة للحكم الإمبريالى من خلال (الدخان والمرآة) هى محملة بالخطورة السياسية وكانت ظاهرة للناظرين فى تاريخ الصين فى القرن العشرين بما فيها كما سنرى فترات ماو ودينج وجيانج.

وأخيرًا فإن الحكام البريطانيين خلال التوسع الأوربى عقب الثورة الصناعية وصلوا إلى الصين من خلال الأسطول البحرى البريطانى وطور البريطانيون تذوقهم للحرير، والبورسلين، والأعمال الفنية بـــ(الورنيش المصقول)lacquerware والشاى، وبدأت التجارة مع الصين من خلال شركة الهند الشرقية غير الحكومية. وأسرة الكينج الصينية كانت سياستها التقليل قدر الإمكان من الأجانب على حدود الصين ولذا أعطوا التراخيص لبعض المشروعات بالتعامل مع البريطانيين فى كانتون (جوانج زو) على بعد ١٥٠٠ ميل جنوب بكين المقدسة، وبهدف إبعاد أى احتكاكات فى كانتون ولتوسيع التجارة أرسلت الحكومة البريطانية عام ١٧٩٣ بعثة للحديث مباشرة مع الإمبراطور (كيان لونج) برئاسة اللورد (مكارتنى) الذى كان صديقًا لـــ(إدموند بيرك) وهو عضو خبير فى النخبة السياسية الخارجية والتجارية البريطانية، وفى رحلة كبيرة له فى بداية تكوينه المهنى قابل مكارتنى فولتير فى باريس وقال له فولتير: "كيف فى سنك يا سيد مكارتنى لديك هذا الكم

الكبير من المعلومات فى موضوعات عديدة ومناصب فى سان بطرسبرج والكاريبى ومدراس وكلها تشمل موضوعات تجارية"، وتلقى مكارتنى تعليمات فى عام ١٧٩٣ للتوصل إلى اتفاقية تجارية مع الصين بما يحقق الوصول إلى المزيد من الموانئ وإنشاء بعثة دائمة فى بكين. وحتى قبل وصوله ومن معه من الحاشية التى بلغت ٧٠٠ شخص فإن البلاط الصينى أعد مسودة لرفض كل الطلبات البريطانية، وقال البلاط فى رده على الملك جورج الذى وصل العرش عام ١٧٦٠ أننا لم نثمن بضائعنا وأننا لا نحتاج أى شىء من مصنوعاتكم، والحق أن الإمبراطور (كيان لونج) كرر رفضه لطلبات التجارة التى كانت أسرة المينج والكينج قد دخلت فيها مع البرتغال والهولنديين والروس.

وقد بدت بعض المظاهر للثقافة السياسية الصينية فى التعامل والاتصال بين مكارتنى والبلاط الإمبراطورى، وظهرت الدولة الصينية من خلال منهجها التصاعدى الهيراركى فى العلاقات الدولية، وقال الإمبراطور (لونج) فى رده على الملك: "رغم أن بلادكم تقع فى المحيطات البعيدة فإن فى قلوبكم اتجاهًا للحضارة، قد أرسلتم رسولاً لتقديم رسالة وجاء إلى بلاطنا ليسجد ويركع" والحقيقة فإن مكارتنى لم يسجد أو هو بالأحرى رفض السجود، والحقيقة أن الإمبراطورية الصينية كانت تريح نفسها من خلال تخيل ما لم يحدث، وبعد قرنين جاء (جيانج زيمين) فى نهاية مقابلات القمة مع الرئيس كيلنتون ومن خلال تقارير الإعلام الصينى إلى الشعب حيث أراحت نفسها كذلك بممارسة أسلوب تنقيح الحوادث التاريخية وإسباغ الجانب الخيالى عليها، وكانت الحجة فى عدم الموافقة على وجود بعثة بريطانية مقيمة فى بكين تعكس قواعد البلاط الصينى فالمبعوث البريطانى لن يكون فى مقدوره الحديث بالصينية وستكون ملابسه غير مناسبة وبالطبع عليه أن يتواءم مع أساليب الصين وطرقها وأما الصين فلا ترغب فى إكراه الآخرين على فعل

ما هو صعب عليهم فعله، وهنا نواجه مرة ثانية الثنائية الدفاعية والشعور بالعلو والتفوق العنصرى ولم يوضح الإمبراطور أى اتجاه للتعامل مع البريطانيين فالأخيرون هم الذين دقوا أبواب الصين ورغم هذا فإن الإمبراطور (كيان لونج) نظر باحتقار إلى مكارتنى وبعثته وكتب إلى الملك جورج "من خلال الخضوع الدائم لتاجنا فإنه يمكنك أن تحقق السلام والرخاء لبلادكم" ووراء هذه الازدواجية من الغطرسة والدفاع عن النفس يكمن النقص فى حب المعرفة عن الأراضى البعيدة عن الصين.

والواضح أن رفض الإمبراطور للبعثة الدبلوماسية كانت محملاً بافتراضات فاضحة ورديئة فلم يكن لدى الصين التى ترى أن مبعوثيها هم مبعوثون سماويون فلا توافق على تبادل المبعوثين على أساس المساواة، وجهل البلاط الصينى بفكرة المعاملة بالمثل على أساس المساواة كلف الصين القليل طالما أنها بقيت غير مهددة فى موازنة حلمها الإمبريالى مع الواقع، ولكن بعد ذلك بدأت الإمبراطورية انحدارها لأسفل. وربما لو استمع الإمبراطور (كيان لونج) بحق وأمسك برياح الأخطار التى كانت تواجه أسرة الكينج ومع الغرب المتفوق ماديًا والذى كان على وشك أن يُظهِر تشدد وضعف صين القرن التاسع عشر، لكن رأى البلاط الصينى نفسه رقم واحد، ولم يكن لديه السلاح ليثبت أنه بالفعل أنه رقم واحد.

وفى بريطانيا فإن بعثة مكارتنى قد تخلصت من كل الأوهام فلو بقيت الصين مغلقة - كما كتب (بيرى فيت) فى رد فعله فى لندن- فإن الأبواب يجب كسرها، فخلال عقود قليلة فإن الصين المرغوبة والضعيفة والتى جرى إخضاعها سترى نفسها وقد جرى التلاعب بها، لقد رأى البلاط الصينى فضاءه كحضارة أو هو الحضارة أكثر مما هو دولة مثل المدن الإغريقية أو دولة مدينة كبلاد الرافدين، رغم هذا فإن أسرة الكينج كانت أيضًا إمبراطورية الهان والبرابرة معًا فى دولة واحدة وهى الصين التى تحدد

نفسها فى خضم صراعاتها مع آسيا الداخلية فهل كان فضاء الصين متجهًا ليجعل منها أمة تتحول إلى الحداثة أم الأفضل أن تواجه التحدى البحرى والبربرى.

إنه سقوط أسرة الكينج الذى حدث عام ١٩١١ وبعد قرن مازالت الصين خليطًا من الحضارة والإمبراطورية والدولة.

الفصل الرابع

مات الملك يحيا الملك

البحث عن نظام سياسى جديد بعد انتهاء العهد الملكى

(هل يمكن لمبدأ مركزى أن يحل محل نظام الإمبراطور؟ أو هل يتحول الدور الإمبريالى تحت أى مسمى ليكون علامة على النظام السياسى)

(إرنست يونج)

(رغم كل التغييرات التى حدثت فى العالم فإن المجتمع البيروقراطى من الإمبراطورية منذ ألفى سنة مازال يعيش معنا كقوة فعالة للغاية)

(إتيين بلازيس ١٩٥٧)

هناك مظاهر معينة للصين الحالية ظهرت فجأة: النمو الاقتصادى، نظام عاكف على الإصلاح لكن دون تغيير لنظام الدولة الأساسى، هناك ألم لأن الغرب واليابان لديهم مستوى معيشى أعلى من الصين وهناك خوف فى بعض القطاعات من أن الغرب رغم إمداده للصين وتشجيعها على التنمية يريد أن يرجع للإمساك بها وأن يكبح جماحها، وهناك وجهة نظر شائعة يجرى التعبير عنها بهدوء فى الصين، لكنها عالية الصوت من جانب الصينيين فى الخارج إنه يجب تغيير النظام السياسى من أجل إنقاذ الأمة.

هل نتحدث فقط عن الصين الآن أم عن الصين خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر؟ هذه المظاهر تنطبق على الحال فى الفترتين فخلال القرن التاسع عشر كان هناك التقدير العالى للنفس والإنجاز المتدنى

للإمبراطورية الصينية وكان ذلك واضحًا فى المعارك مع قوى الغرب التوسعية خاصة بريطانيا وهى التى طالت الصين من جهة البحر.

أسرة الكينج التى كانت سباقة وحاذقة فى بناء إمبراطوريتها على الأرض أظهرت إحساسًا عاليًا بالكبرياء والفخر ولكن سوء التقدير حالفها مع الموجة الجديدة من برابرة البحر. ونظرة الصين للغرب قبل حرب الأفيون أظهرت التصنع والفوضى والأستاذ الكبير (جوو وان يو) فى عام ١٦٦٢ حدد البرتغال جنوب جاوة وقال إن أحد مصالحها فى الصين هو شراء الأطفال الصغار من أجل طبخهم وأكلهم، ولسوء الحظ فإن صفوة المانشو الصينية كانت عمياء فى شعورها الاستعلائى تجاه الأراضى البعيدة، والثقة الزائدة لدى الصينيين لا يمكن فهمها كما لاحظ رحالة روسى وقد حاولت روسيا الاقتراب من الصين فى الشمال والغرب ووجد هذا الرحالة أن الصين لا تمدح شيئًا غير صينى.

عام ١٨٣٩ حث رئيس البعثة التجارية البريطانية فى جنوب الصين نائب الملك فى كانتون لتسوية الخلافات بين الطرفين بالطرق السلمية وموظفو أسرة الكينج الرسميون أساءوا فهم كلمة الاثنين لتعنى بريطانيا والولايات المتحدة، فالصين لديهم لا يمكن أن تكون واحدة من اثنتين وكانت نخبة أسرة الكينج غير واعية بالخطر على نظامها السياسى وبالأحرى على طريقة حياتها فى العلاقات والاتصالات المتزايدة بين المملكة الصينية والغرب وكان يجب على الإمبراطور كيان لونج التعامل مع مكارتنى على الأقل للمحافظة على مصالح الصين فى العصر الجديد.

لماذا كانت الصين فى خطر؟ وهو سؤال معقد والذى ينظر إليه اليوم بطريقة مختلفة لكن دونما توافق عما كان عليه الأمر منذ مائة سنة. فى بداية القرن العشرين رأى كثير من مفكرى الصين أن الثقافة الصينية التقليدية باعتبار أن الفقر يضربها فى الصميم لا تستحق سوى مزبلة التاريخ، بعد هذا

رأى البعض فى الصين وخارجها أن الغرب لم يكن فى أى شكل أكثر تقدمًا من الصين فى عصر أسرة الكينج، لكنه كان فقط أكثر عنفًا وعدوانية.

واليوم يشهد الغرب نقاشًا بين مدرسة تؤكد أن الصين تخلفت فى مجال القوة الدولية لأسباب واضحة وكانت مهددة بانهيار عمود خيمتها الرئيس من جانب الغرب بالكفاءة، ومدرسة ثانية تؤكد أن أسرة الكينج لم تكن بأى شكل أقل من الغرب لكنها كان لها طريقها الآخر فقيرة فى بعض الأشياء وممتازة فى أخرى.

وبالنسبة لمؤرخ اقتصادى مثل (ديفيد لانديس) فإن البرتغال غيرت العالم فى القرن الخامس عشر عندما اكتشف فاسكو دى جاما فى الهند أن البندقية والمراكب الأوروبية أعلى مستوى من نظيرتها الآسيوية، وقال لانديس أنه خلال القرن الخامس عشر فإن الصين فقدت ريادتها فى المجال البحرى والبنادق، وخلص إلى أن الصينيين كانوا متعلمين حقيرين والأوربيين كانوا تلامذة ممتازين.

استتبع هذا الكثير بما فيه ما بعد سقوط الملكية الصينية ١٩١١-١٩١٢ وبالنسبة للمؤرخ الأصفر (بيتر بردوى) على الناحية الأخرى فإن الصين وأوروبا حتى القرن الثامن عشر كانا متساويين اقتصاديًا وأكد فى نقاشه مع لانديس وغيره فى كامبريدج مساسوستش أن الصين أظهرت نزعة نحو الأخذ أو الترك من الغرب لأنه لم تكن هناك ثروة عظيمة فى الغرب للصين، وهذا الموقع أخذ شكلاً أو آخر من جانب عدد من الأساتذة مؤخرًا كثير منهم من كاليفورنيا. وفى هذا النقاش فإن هناك أرضًا فى الوسط يمكن إيجادها، فالمؤرخ (بيتر بول) يقول: "احذر من الكلام اللغو للإمبراطورية الصينية" وكما رأينا فى الفصل السابق كانت هناك دائمًا فجوة بين الصين من الناحية النظرية والصين من ناحية الممارسة العملية، والبلاط الصينى يتصرف بكبرياء وعلو أكثر من الحقيقة. والاقتصادى (دوايت بركنز) يشير لقائمة

طويلة من الاختراقات العلمية الصينية لكن المراقبين يلاحظون أنها لا تمثل تيارًا قويًا مثلما حدث فى الغرب فى بداية الثورة الصناعية والتى كان لها أثرها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

إن صورة الصين ككيان راكد لا يتغير كان مبالغًا فيها خلال القرن العشرين بسبب أن الغرب نظر إلى الصين كما مثلتها الظروف الأخيرة لاضمحلال أسرة الكينج، ويشير لانديس لثلاثة مظاهر نادرة للحضارة الغربية غذت النمو الاقتصادى الغربى: العلم كقوة ذاتية وماكس فيبر يشير إلى أن الأوربيين يقدرون العمل والمبادرة والاستثمار والمهارة الأوروبية فى مجال التعليم خطوة خطوة، هذه عوامل قوية، لكن الأفضل النظر إليها كنتيجة للظروف العالمية أكثر منها أنها خاصة بأوروبا بذاتها فقط.

ومن الواضح أن بعض الثقافات فى بعض الفترات مثل جزء من العالم العربى اليوم راكدة وفاشلة فى التعلم من الآخرين وليس لديها ثمة تجديد، والملاحظة الأخيرة ليست حكمًا تقويميًا على الإسلام لأن الأراضى العربية كانت لمرة فى مقدمة العالم المتقدم.

وملاحظة أندريه جوندر فرانك (أن الأوروبيين لم يفعلوا شيئًا بأنفسهم فضلاً عن أن يدخلوا الحداثة) فيها بعض الحقيقة.

الصين ليست بأى شكل حضارة متدنية، هى فقط سافرت بسرعة ونجاح أقل على نفس الطريق كالحضارة الغربية، فى القرن الثالث عشر كانت الزراعة الصينية بكل تأكيد تسبق أى مجتمع آخر وكان ذلك عندما كانت الصين هى أكثر مجتمع خضع للتمدن فى العالم، أوروبا فى أوقات أظهرت وأخذت نصيبها من الظلامية والتخلف والانقسام وعدم الكفاءة ولا يوجد ثمة شىء فى الحضارة الغربية متأصل فيها يجعلها تستعلى على الصين فى القرن التاسع عشر.

وأشار (بول روب) إلى أن النظم الاجتماعية والاقتصادية والفنية والقيم المعنوية والأبنية السياسية والافتراضات الفلسفية التى نعتبرها عادية ومسلمًا بها فى الغرب هى ببساطة لم توجد منذ ٣ أو ٤ قرون مضت، لم توجد فى الغرب ولا فى أى مكان آخر.

تقاليد الحضارات ليست محصنة ضد الظروف المحيطة، انظر إلى نجاح القدرات التنظيمية الصينية فى جنوب شرقى آسيا فى الوقت نفسه فى عصر ماو لم نرها فى أى مكان فى الصين، وقارن بين أداء الصينيين فى كاليفورنيا مع الصينيين فى ظروف مختلفة خارج الصين فى مجتمعات أوروبا الشرقية الشيوعية، إذا أعطوا الفرصة فإن الصينيين يمكنهم أن يكونوا رجال صناعة ناجحين وذوى مهارات تنظيمية مثل الأوروبيين، وبالنسبة للانفتاح فإن تاريخ الصين أحيانًا يظهر ذلك وأحيانًا لا يظهره. أسرة التانج والسونج أظهروا القدرة على التعلم من الآخرين فهذا الذى يمدحه لانديس فى الأوربيين بينما أسرتا المينج والكينج لم يظهرا هذه القدرة، وفى النهاية فلا يمكن إنكار قوة الحكم الشائع عن قادة الصين السياسيين والثقافيين فى فجر القرن العشرين.. أن الصين فقدت طريقها وتحتاج بسرعة لطريق للخروج مما صار أزمة فى كل شىء. وأبرز المحللين السياسيين فى نهاية أسرة الكينج وهو السيد (ليانج كيشاو) قال فى سنة ١٩٠٠ إنه من المهم والعاجل تحدى الأفكار الخاطئة والاعتقاد فى التقاليد التى استمرت ٢٠٠٠ سنة إنه لم يكن فقط رأى بعض الغربيين، لكن عقولاً صينية قائدة وعشرات الملايين من الصينيين العاديين الذين شعروا أن الصين تحتاج إلى تغيير كبير فى توجهاتها.

الصين بعد كل شىء فشلت فى العمل وإعمال إرادتها فى التعامل مع الغرب فى القرن التاسع عشر بينما نجح الغرب فى إعمال إرادته مع الصين بصورة أكبر وهذه حقيقة أساسية حول المواجهة بين الصينيين المهتمين

بالاستقرار والغربيين المخترقين للصين من السواحل، وخلال أقل من قرن خسرت الصين معاركها مع بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان، وتكمن أسباب الفشل الصينى فى القرن التاسع عشر فى ثلاثة أسباب:

السبب الأول: فإنه جغرافيًا فإن الصين لقرون كثيرة لم تواجه أو تتوقع أى تحد على سواحلها، عضلات أسرة الكينج كانت فى حالة فقيرة ومتدنية من حيث الاستجابة للغرب المتحدى والسابق فى المجال البحرى ولاحظ (جاريد دياموند) أن طول سواحل أوروبا كان حافزًا مقنعًا والأوربيون ينافسون بعضهم البعض فيما أن الصين كإمبراطورية أرضية مركزية وقفت عاجزة فى عزلتها المجيدة.

السبب الثاني: رغم الأعمال الرجعية لبعض المؤرخين الممتازين فى السنوات الأخيرة فإن السجلات تشير إلى أن الصين فى أواخر أسرة الكينج كانت لديها عقلية يغلب عليها الانغلاق وضيق الأفق والاستعلاء تجاه العالم غير الصينى وكان عليها أن تدفع الثمن، فرغم أن الإمبراطور (كانج إكسى) الذى حكم ١٦٦٢-١٧٢٢كان مهتمًا بالعالم الأجنبى لكن ابنه الإمبراطور (كيان لونج) ١٧٣٦-١٧٩٦ كان على عكس أبيه، وتكفى هنا الملاحظة بأن الإمبراطور الأخير (كيان لونج) كان يريد خرائط حدود الصين أبدية، كأنها عقيدة دينية أكثر منها انعكاسًا للتطور التاريخى، وفى النهاية كما كتب (إنديميون ولكينسون) أن الكينج قد شهدوا تطهيرات معنوية وكثيرًا من المساجين ومصادرة الكتب وإحراقها أكثر من أى أسرة ملكية أخرى فى تاريخ الصين.

السبب الثالث: داخليًا النظام الصينى الذى كان مرنًا ومتجددًا فى بعض مراحله الأولى تحول إلى التصلب والتحجر والبعد عن المغامرة فى القرن التاسع عشر وفى نهاية عصره جلس الأطفال إلى العرش.

والنتائج المتجمعة لهذه الأسباب الثلاثة تؤدى إلى ثقافة سياسية صينية مرتبطة بالتوازن وغير متطلعة للتحرك للأمام مع نخبة سياسية تقدس السوابق التى ترضى بالحدود ولا تريد العمل خارج الإطار المحدد.

وكتب (دونالد مونرو) عن الأسلوب الإمبريالى فى التفكير والاعتقادات التى تضع العقل فى معرفة كلية شمولية تعوق التعرف على أى نوع جديد من المعرفة، وخلص (إلفين) من دراسته عن صناعة النسيج أن الصين عانت من الضعف فى القدرة الاقتصادية والفنية التى تعمل من أجل الاختراع والتجديد وخلاصات (بالازيس) تشير إلى أواخر أسرة الكينج وفترات أخرى من التاريخ الصينى، والتى تشير إلى أن الدولة هى التى قتلت الاختراعات التكنولوجية فى الصين.

والصين فى أواخر القرن التاسع عشر لعدة أسباب بعضها واضح وبعضها غامض كانت معرضة ومكشوفة سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا لتحدى أقوى حضارة فى التاريخ وكان هناك عامل مهم وهو الضغط السكانى على الأرض، كان سكان الصين عام ١٥٨٠ يناهز ٢٠٠ مليون ارتفع إلى ٤١٠ ملايين عام ١٨٥٠ وعدة قوى ظهرت فى مواجهة قوى أخرى متحرشة بها فى حكم الإمبراطورة (دواجار)، التى لم يكن ينقصها القدرة ولكن كانت تنقصها السياسة والمغامرة.

أسرة الكينج سقطت ليس لسبب واحد ولكن لمائة سبب كانت مفلسة وفاقدة للفكر والرؤية الاستراتيجية، والغرب كانت عنده أولوية المعرفة والسلع والمنتجات والتى كان على الكينج الاستفادة منها.

إن النقطة البارزة حول أفول نجم أسرة الكينج هو أن فجوة فتحت بين إنقاذ نظام الدولة الملكية وإنقاذ الدولة، وخلال أسرة الهان أو حتى أسرة التانج كان يمكن تصور أن مجتمع الشعب الصينى سيعمل على تدمير الهيكل

السياسى القائم الذى يحددهم كصينيين، كانت هناك حالة من الإثارة والقلق تشير إلى التغيير السريع للصين فى نهاية القرن التاسع عشر، كانت حركة شاذة وغريبة، عنيفة وتنبؤية كرست موقف البلاط الصينى المتناقض، هذه الحركة المسماة (يوهيتو وان) (الميليشيا المتحدة) والتى يطلق عليها بالإنجليزية الـــboxer وبسرعة كان لها مؤيدون فى شمال الصين، والإمبراطورة (دواجار) شجعت بهدوء الحركة وعملياتها ضد التحديث وما ارتبط بها من مبالغات كما حدث عند هجوم مبشرى الحركة على بعثات التبشير الغربية والدبلوماسيين، لكن ثمانى دول هاجمت تكاثر عمليات البوكسر فى بكين، ودامت حرب البوكسر شهرين شمال الصين التى كان يتعين عليها دفع تعويضات ضخمة للقوى الأجنبية.

فشل البوكسر الذى ابتعدت عنه جنوب الصين أثار إصلاحيين كثيرين داخل وخارج بلاط أسرة الكينج لتغيير النظام والحفاظ على روح الدولة، ولخصت (مارى رايت) تقويم الأجانب للمسرح سنة ١٩٠٠ قائلة: "ليست هذه الصين التى نعرفها لقد وصلت صين جديدة يتجمع زخمها"، صين جديدة تبدو وكأنها تريد الخروج من الواقع المأزوم من أجل الخير الأعلى لتقدم الجنس الصينى، عام ١٩٠٠ فإن الهوية الصينية قد عبرت عن نفسها فى شكل غريب ووحيد بين القوى الكبرى يبدو مهددًا فى المدى الطويل للدولة الصينية، ووجد الصينيون أنفسهم أسرى لشعور قوى بمن هم، لكنه يبدو ضعيفًا حول ما يجب أن يكونوا عليه، وكتب المؤرخ (آرثر والدرون) "إن الصين لا تواجه أى شيء مما تواجهه القومية عادة، لا حاجة لاصطناع صورة للصينيين كدولة كبرى أو تجميعها مثلما فعل كافور أو بيسمارك من كثير من الأشياء الصغيرة، الخريطة محددة سلفًا والنظام الجمهورى يمكن أن يرث البيت الإمبراطورى بسهولة بنفس العاصمة ويحكم المقاطعات نفسها من

خلال كثير من الشعب نفسه"، لقد كان المجتمع قويًا ولكن الدولة كانت ضعيفة.

وعلى عكس القيم الأوروبية فقد كانت الهويات المختلفة داخل الفضاء الصينى (كلاهما أسبق وأقوى من الدولة) هذه الحقيقة المترتبة إثر عملية هضم واستيعاب طويلة كانت تمثل جوهر لغز الصين فى القرن العشرين، وبقيت بشكل مختلف فى بدايات القرن العشرين. (الحركات الانفصالية فى فترة ما بعد ١٩١١) كما كتبت (إيفيلين راوسكى) "هى شهادة على حقيقة أنه لا يمكن ببساطة موازنة ومقارنة إمبراطورية الكينج مع دولة تسمى بالصين". الصين كما حكمتها أسرة الكينج فى القرن العشرين ليست أمة ببساطة، رغم هذا فإن (يوان شيكاى) وفيما بعد (شيانج كاى شيك) و(ماو تسى تونج) كذلك لم يريدوا تسميتها إمبراطورية.

وعندما تسقط دولة الحزب الشيوعى الصينى الحالية كما سقطت قبلها دولة الأسرة الملكية الصينية الكونفوشيوسية كلا السقوطين سينظر لهما باعتبارهما نهاية اختصاص ونموذجًا وأسلوبًا للحكم. وقبل حدوث التغيير المؤسسى فى كلتا الأزمتين سيكون هناك خط تمايز لتحدٍ لا يمكن منعه أو تغييره بوجهة نظر عالمية، فى كلتا الحالتين فإن قوى سياسية جديدة ستنظر للعقائد المتحجرة باسم مصالح الأمة والماركسية اللينينية سيتم هجرها لإنقاذ الصين مثلما تم هجر الملكية الكونفوشيوسية كذلك لإنقاذ الصين.

وكتب (فير بانك) "أن نظام المعاهدة فى عقوده الأولى من عام ١٨٤٠ حتى الثمانينيات لم يكن مجرد وسيلة غربية لإدخال الصين فى العالم الغربى، ويمكن النظر إليها كوسيلة من أسرة الكينج لاحتواء الغرب وإعطائه هو مكانًا فى العالم الصينى".

باختصار كان هناك تعاون بين الصين والقوى الغربية، أسرة الكينج كان يمكنها النظر للغرب القوى لكنها لم تكن تنوى استعادة القانون الغربى، كما كانت أسر الهان والملكيات الأولى الذين عرفوا قوة الصحراويين (xiongnu) لكن ذلك لم يزعزع أو يهز قيم البلاط الصينى.

إن تعاون الصين مع الغرب فى القرن العشرين لم ينجح، وأعطى فير بانك جزءًا من التفسير عندما قال: "إن قوى الغرب الغازى استطاعوا وشاركوا فى البناء السلطوى للكينج، لكن الثقافة الصينية كانت بالنسبة لهم عقبةً كئودًا كما كان الأمر بالنسبة للغزاة البرابرة السابقين".

وفى نهاية القرن التاسع عشر فإن التجارة الدولية وإدارة الجمارك الصينية صارت مشروعًا مشتركًا بين الصين والقوى الأجنبية لكن لم يتم إطلاق مشروع مشترك بين الغرب والثقافة السياسية للصين. ربما كان يمكن حكم الصين كدولة وثقافة معًا لكن الغرب لم يكن مهتمًا بحكمها أو السيطرة عليها بالأسلوب الثقافى الصينى كما فعل المونغول والمانشو، ومن هنا فشل التعاون فى القرن التاسع عشر، والثقافة السياسية الصينية لا يمكنها التعاون مع الثقافة السياسية الغربية (كما تعاونت اليابان والغرب ثقافيًا من عصر الميجى) ولكنها اصطدمت بها.

ومن جانبها فإن أسرة الكينج فى أواخر عهدها أساءت قراءة هذا التعاون معتقدة إمكان احتواء الغرب فى نظامها وبنائها المعد سلفًا بينما حققوا فوائد تكنولوجية من الغرب، وحسابات الصين فى هذه الفترة شهدت مبعوثين غربيين ترتعد فرائصهم أمام الإمبراطور وتسقط أوراقهم على الأرض بسبب حالتهم العصبية وفى هذه الحالة فإن البلاط الصينى قد أطلق قذائفه، فيما الحسابات الغربية للفترة ذاتها تشير إلى تبنى ملايين من الصينيين للمسيحية وترك الأكل بالعصى واستخدام الشوك والسكاكين وملأ شوارع مانشستر

صينيون يرتدون القميص القطنى وكل واحد كان يشعر بالإحباط لكن سوء التقدير والحساب المدمر جاء على حساب أسرة الكينج.

إن قصة ١٩١١-١٩١٢ هى قصة دراماتيكية بينما الثورات تحدث وتتطور فإن ثورة xinhai والتى سميت حسب التقويم الصينى كانت ثورة غريبة، لقد اندلعت عندما انفجرت قنبلة فى ملجأ ثورى فى ووهان فى مقاطعة هوبى فى وسط الصين وكانت هناك تمردات موازية فى مقاطعات أخرى ولكن لم تكن هناك وحدة كاملة بين القوى المعادية للكينج ونظر الثورى المشهور (صن يات صن) إلى قواعد المجتمعات السرية كأساس، ثوار آخرون نظروا إلى القوات المسلحة فى الأقاليم، والتى سميت كمجموع بالجيش الجديد كأفضل أداة لإسقاط مملكة الكينج واشتكى (صن يات صن) أن أسرة الكينج قد طرحت الغرب على طول ذراعها ومن هنا منعت تقدم الصين، وثوريون أخرون رأوا فى أسرة الكينج أنهم منبطحون للغرب أحياناً، وقد بدا الثوريون فى بعض الأحيان كأنهم وحدة واحدة من خلال لمسات عرقية. ألم يهزم عرق المانشو عرق الهان؟ ليس حقيقة فإن نخبة المانشو قد تحولت للصينية خلال أواخر القرن التاسع عشر. إذن فماذا كانت ثورة ١٩١١ تعنى؟

المشهد الأول لدراما عام ١٩١١ كان انفصال عدد من المقاطعات عن المركز اعتبارًا من أكتوبر، ١٧ مقاطعة أعلنت استقلالها عن أسرة الكينج ولكن الأسباب المختلفة وأحياناً المجردة التى أعطاها الثوريون فى مختلف أنحاء البلاد فى معارضة النظام القديم هى أن الصين لم تكن ذاهبة للتغيير كثيرًا، لم توجد قوة سياسية جديدة يمكنها أن تقوم بتحويل المجتمع الصينى، وحقق الثوريون نجاحات سريعة لم يمكنهم متابعتها بخطة بناءة، والنقطة الأساسية كانت هى الإفلاس السياسى والفكرى والمالى لبلاط الكينج والخيار كان محدودًا من جانب الهان والمانشو، وكما أشار(لوشيان باى) "والصين لم

يمكنها الذهاب لطريق الملكية الدستورية كما فعلت اليابان خلال فترة الميجى" أو كما فعل البريطانيون قبل ذلك لأن خبرة المانشو كانت أجنبية وبالتالى لا تمثل القومية الصينية والقفز مباشرة للجمهورية دونما مرور السلطة التقليدية من خلال مؤسسة حديثة كان أمرًا مطلوبًا جدًا. (صان يات صن) بمهارته التكتيكية لعب بالورقة ضد المانشو ليضع الأساس لإمبريالية الهان المتعصبة والتى كان لا يمكن أن تأتى بالديموقراطية.

فى عام ١٩١١ الدستورية تم استقبالها من جانب الأرستوقراطية الحاكمة و ضباط الجيش وغيرهم لأسباب مختلفة ومتعددة لم تحدث هبة جماهيرية قومية ومعظم الصراع كان على المال من يحصل على الدخل القادم من السكك الحديدية، وحكومة الكينج استنفذت أرصدتها فى نفقات الحرب والتعويضات بما فى ذلك ٣٣٠ مليون دولار تمثل تعويضات حرب البوكسر.

المشهد الثانى من دراما ١٩١١ جاء عندما أعلنت المقاطعات المستقلة تكوين اتحاد بهدف المفاوضة لإنهاء نظام الإمبراطور. بينما كان صن يات صن يركب القطار فى كلورادو قرأ فى صحيفة باللغة الصينية عن انفجار مقاطعة (هوبى) التى فجرت الثورة فعاد بسرعة للصين ليستبدل بعملية جمع تبرعات للخارج إنهاء الأسرة الملكية فى الداخل واختارت المقاطعات الثورية (صن يات صن) كرئيس ثورى مؤقت وفى الأسابيع الأولى لعام١٩١٢ فإن (يوان شى كاى)، وهو شخصية عسكرية من أسرة الكينج، ذو عقلية إصلاحية وهو مثل صن يات صن من عرقية الهان تفاوض مع (صن يات صن) على النهاية الواضحة للدولة الصينية والتى تعود أصولها لآلاف السنين، وحدثت صفقة غريبة من الاتفاقات برزت فى فبراير ١٩١٢ والإمبراطور وهو طفل مانشو عمره ست سنوات اسمه puyi قام بالتسليم لكن بقى اسمه فى القصر يتلقى مرتبًا حكوميًا وأعلنت الجمهورية، ولكن

رئيسها الأولى كان موظف الكينج الرسمى (يوان تشى كاى)، صن زعيم الثورة استقال كرئيس للحكومة الثورية وفى أبريل ١٩١٢ كان يوان يحكم من بكين بدستور دبجته قوات صن، وبسرعة فإن البرنامج الثورى تبخر بمجرد كلمات جميلة. يوان كان يميل للمركزية ووصل به الحال إلى تصور إنهاء المقاطعات كوحدات إدارية، الحزب القومى الجديد (الجيوميندنج) أو KMT والذى نما من التحالف المتحد لصن والذى تم إنشاؤه فى طوكيو عام١٩٠٥ قام يوان بالقضاء عليه ولما كسب أول انتخابات فى الصين فى فبراير ١٩١٣ قام يوان بتدبير اغتيال زعيم الحزب القومى (صونج جياورين) فى محطة سكك حديد شنغهاى. (فيربانك) رأى فى (يوان شيكاى) شخصًا تقليديًا وفيما بعد فى الثلاثينيات بدا عصر الإحباطات القومية وكتب يقول "هذا الاغتيال هو تطبيق لمبدأ أن الحاكم فوق القانون وتكتيك أن المعارضين يمكن التحكم فيهم من خلال التخلص من قائدهم هو ما خنق الديموقراطية فى الصين منذ ذلك التاريخ"، كأنه يؤكد أن إنهاء النظام الملكى كان مجرد تغيير تكتيكى ولكنه لم يحدث تحولاً فى النفس الصينية.

وبدأ يوان يتحدث عن أن الصين لا يمكنها العمل دونما إمبراطور وأنه هو نفسه سيجلس على عرش التنين وعاد النظام الإمبريالى والحديث عن الانتخابات كان يرى فيه دعوة للفوضى وأن فكرة البرلمان هى إعداد للانقسام وضد الوحدة وأن أى حزب سياسى معارض هو مجرد خيانة للولاء. ووزارة مسئولة أمام البرلمان هو عكس للفكرة التقليدية بأن الوزراء ينظرون لأعلى إلى الإمبراطور.

وخلال سنة حكم يوان كديكتاتور، الحفلات الكونفوشيوسية عادت كطقوس للدولة وبكين احتضنت الكون القديم للسماء كأساس للشرعية. فى كل ذلك حصل يوان على مساعدة بريطانيا وكان ذلك مأساة؛ حيث فقدت الصين فرصة تحديثها من خلال بعثة مكارتنى سنة ١٧٩٣. المال الأجنبى والفكر

السياسى الإمبريالى والتسليح كانت هى أرصدة يوان الثلاثة وبمجرد اختفاء ابن السماء من المسرح فإن الحياة السياسية الصينية تدهورت لأن رئيس الدولة الآن ليس لديه التفويض الأيدلوجى التقليدى لممارسة السلطة النهائية وبلا شك فإن يوان قد شعر بذلك حقيقة.

لكن الكثير كان قد تغير فى الصين خلال القرن التاسع عشر ولم يتمكن نظام يوان أن يرأب هذا الصدع، لم يستطع يوان توفير الدخل الكافى من المقاطعات ليمول المركز القوى والمقاطعات بدأت تتمرد على بكين ولما وجد يوان أن عليه الهرب من الصين مات عام ١٩١٦ لكن الصين لم يمكنها أن تقف كجمهورية. الموهبة الصينية المخزونة للنظام والإرادة السياسية كما كتب (يونج) انحدرت لمجرد المناورات والمقامرات للجنرالات المراوغين وربما المهرة، وفى خلال اثنى عشر عامًا بعد وفاة (يوان تشيكاى) مرت على الصين ٨ حكومات و٢٤ تغييرًا وزاريًا و٢٦ رئيس وزراء وبدت السنوات بعد سقوط أسرة الهان عام ٢٢٠ والتانج عام ٩٠٧ ومنذ سقوط آخر أباطرة أسرة الكينج كان هناك مدعون متنافسون للشرعية السياسية فى فضاء الصين ولهذا استمرت الأمور كذلك خلال القرن العشرين.

فى مقاطعة هونان ولد الطفل ماو تسى تونج فى مزرعة بعد قرن من بعثة مكارتنى إلى الإمبراطور (كيان لونج) وقد تأمل بأسى فى انقسام الصين وعدم وحدتها ونظر فى التاريخ الصينى الطويل وسقوط الملكية الكونفوشيوسية المتمسكة بحرفية القانون لعام ١٩١٢. كان عمر ماو تسى تونج ١٨ عامًا عندما تزوج على غير إرادته عندما حدثت الثورة ولذلك كانت له قدم واحدة فى الصين الملكية ولكنه عاش ليحول المجتمع الصينى فى الخمسينيات، وليلتقى بالرئيس ريتشارد نيكسون ويغير التوازن الدولى للقوى فى السبعينيات، وقد صارع ماو تسى تونج ولاءه لإمبراطورية هونان التى أعلنت استقلالها عن أسرة الكينج عام ١٩١١ ومشاعره الوطنية نحو

الصين من ناحية أخرى، وكان الفتى يحث على استقلال هونان وتحدث عن مقاطعته الأم لتلحق مباشرة بدول العالم مسلحة بالوعى. هدف ماو الأخير هو صين جديدة لكن همه الأساسى فى العشرينيات كان هو نوع الحكم الذى يجب أن تتجه إليه الصين، وتحدث عن وحدة الصين وقال: "أنا أعطى تأييدى لو أن هناك ثورة عامة دقيقة فى الصين ولكن ذلك غير ممكن ولهذا لا نستطيع أن نبدأ بالأكبر ولكن لا بد أن نبدأ بالأجزاء" وفى مناسبة أخرى قال: "أنا لا أقترح الحديث فى سياسة الحكومة المركزية لمدة عشرين سنة ثمن الوحدة ليس لأول مرة ولا آخر مرة فى الصين هو فترة الانقسام وعدم الوحدة" تصور ماو مقاطعة هونان باعتبارها سويسرا الشرق وهو تصور لا يبعد كثيرًا عما يحدث الآن فى بعض مقاطعات ساحل الصين.

الصين لتفادى اختناق المركز تتجه إلى إنشاء علاقات دولية وهو تصور زال للأسف بسرعة والحزب الشيوعى الذى كان على ماو أن يقوده مثل منافسه الحزب القومى رأى أن المركز القوى هو أداة ضرورية من أجل تقدم الصين، وبسرعة فإن الحكم الذاتى للمقاطعات والفيدرالية تم رفضهما مع الشعارات القذرة مثل لوردات الحرب والإقطاع.

مغزى استقلال هونان بالنسبة لماو هو أنها تؤكد وتبرز أن الهوية الصينية كحضارة ليست محل تساؤل فى حل أزمات الصين العديدة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ومحل التساؤل هو الشكل السياسى الجديد الذى يحل محل النظام الملكى القديم.

فى بداية القرن العشرين فإن عددًا من الضربات جرى تصويبها ضد روح وجسد الدولة الإمبريالية الصينية، الإمبراطور ذاته اختفى (بطريقة غير عادية عندما وصل سنه إلى ٢٦ أعاد الغزاة اليابانيون الإمبراطور puyi ليكون إمبراطورا على ملكية منعزلة وحدها فى منشوريا) والعلاقة بين الرابطة الثقافية والقوى السياسية جرى فصمها وهناك حدث رمزى لهذا

الفصل والانقطاع عام ١٩٠٥ عندما ألغى الاختبار الإمبريالى وهو عمل رفيع كان طريق المرور الطبيعى للسلطة من جانب النخبة المتعلمة الكونفوشيوسية وبسرعة فإن الصين بدأت تطلب بنشاط ووضوح أن تكون جزءًا من النظام الغربى للدول القومية؛ حيث وقعت اتفاقيات ثنائية ومتعددة الأطراف تضمنت أن الصين دولة واحدة ضمن آخرين وكان كل ذلك ابتعادًا وتركًا ونهايات مفاجئة للعقلية الميكانيكية الإمبريالية طويلة الأمد.

رغم هذا فعدة أمور هامة كان متوقعًا حدوثها عام ١٩١١-١٩١٢ لم تحدث. الثورة ورثت الملكية لكنها فشلت فى إظهار وبروز بناء سياسى قوى حديث فى الحقيقة بعيدًا عن إرادة لم يتم تحريرها فإن السلطات الإقليمية وفى المقاطعات قويت مع انهيار المركز الإمبريالى وكتب (جوزيف إشريك) عن وجهى ١٩١١ لجمهورية تقدمية ولحد ما مغلفة بقناع الإقطاعية الرجعية ولم يبرز شكل جديد ولهذا هل يمكن للشكل القديم أن يموت؟

الإقطاعية كانت جزئيًا جديدة وهى فى الواقع المادى استمرار لأسرة الكينج محليًا وطرق السكك الحديدية هى علامة على الجديد والصين المتأثرة بالغرب فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر كانت أساسًا لقيادة عسكرية إقليمية تركت الحلم القومى عام ١٩١١ بعيدًا عن التحقيق وسقط الأمل فى البرلمان والدستورية تحت المنازعات الإقليمية. والتحكم فى السكك الحديدية كان فى وقت واحد الأداة والجائزة لأمراء الحرب الذين يسيطرون على خط حديدى ليتربعوا على عرش الملكية.

والسكك الحديدية كان معظمها ثمرة للرأسمال الأجنبى وكانت ظاهرة جديدة فى الصين على الرغم من أن الممالك كانت قصة أقدم. وعملية نقل السلطة من المركز فى العقود الأخيرة لأسرة الكينج كان فى جزء منه ضرورة لمساعدة الأسرة الملكية فى مواجهة مخاوف حدوث تمرد فى (تاييينج) سنة ١٨٥١-١٨٦٤ مما تسبب فى حدوث شرعية إقليمية كنت

أساسًا للإقليمية العسكرية فى العشرينيات، وفى غياب نظام توارث ملكى أو انتخابات حزبية كما يشير (فيربانك) فكيف يمكن لإدارة أن تظهر بغطاء للشرعية؟ فى بدايات القرن العشرين كان هناك فشل قد يمكن فهمه ولكنه مكلف لإعادة إنشاء المركز السياسى بعد الاختفاء الشكلى للدولة الإمبريالية، وفى بعض المناطق البعيدة من الفضاء الصينى لم تحدث الثورة أى تغيير وقد لاحظ (أوين لاتيمور) أن التركستان الصينى باعتباره منطقة إسلامية فى سينكيانج قد ذهب مع ثورة ١٩١١ دون أدنى تغيير، وكتب أن القوى الحقيقية التى كان يملكها موظف مجرب من الخدمة المدنية ويرفع علم الجمهورية ولكنه يدير المقاطعة لنفسه حتى تم اغتياله عام ١٩٢٨.

وحتى نهاية الثلاثينيات تحول سينكيانج إلى مجرد استمرار أو امتداد للاتحاد السوفيتى، وبين سنكيانج والصين فإن مقاطعات (جوانزو) و(كينجهى) و(منجيشيا) كانت أساسًا يحكمها المسلم بعرقية الما (MA) المسلمة. كانت يونان شبه إقطاعية مستقلة لشعب إليى (YI) والتبت كانت مستقلة فعليا، وقانون توازن القوى الذى يحدد السيطرة على تخوم الدولة الصينية خلال معظم العصر الملكى كان مازال يعمل بغض النظر عن أحداث مقاطعة هوبى وبكين.

وفى بداية القرن العشرين كان يمسك بتلابيب الصين ثلاثة تيارات:

التيار الأول: وهو دراما أزمة سقوط الملكية، لقد حدثت مثل هذه السقطة أكثر من اثنتى عشرة مرة من قبل.

التيار الثاني: تهديد وضغط وغواية الغرب وكان هذا بالكامل جديدًا على الصين فإن تحديات غير الصينيين لم تختلط قط بالجذب الثقافى، البرابرة من داخل آسيا كانوا يملكون القليل الذى يجذب الصين فيما عدا خيولهم العظيمة.

التيار الثالث: كان ذلك الشعور الجارف بالهوية الصينية وكان ذلك جديدًا فى وضوحه وصراحته وقد نشأت هذه القومية ونمت كرد فعل لتهديد وإغواء الغرب.

هذه التيارات الثلاثة تصارعت وتفاعلت فى رقصة سريعة من الفوضى مما جعل من حصاد السقوط الملكى الفعلى أمرًا أقل وضوحًا من ثورات ١٧٨٩ فى فرنسا و١٩١٧ فى روسيا، وبسرعة فإن أحداثًا أعادت توجيه التيار لنماذج جديدة مما جعلها تثبت أنها مؤقتة، ونتيجة لذلك فإن القليل كان فى خطر بسقوط أسرة الكينج أكثر من الأزمات النهائية التى ترتبت على سقوط الملكيات فى روسيا وفرنسا، وبعد سنتين من انتهاء الملكية الكونفوشيوسية فإن (يوان شيكاى) أعلن عن نفسه إمبراطورا للصين وبعد عام واحد انطلقت الحرب العالمية الأولى، فلو كانت أوروبا متقدمة حقًا فلماذا تركت نفسها فى أتون الحرب؟ وفى عام ١٩١٧ أسقطت البلشفية الملكية الروسية مما أعطى الشعب الصينى زاوية جديدة للنظر فيما بعد مستقبل أسرة الكينج، وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى اندلعت مظاهرات سياسية عاطفية قادتها فئات جديدة من طلاب الجامعات مما أثار وألهب العوامل الثلاثة مرة ثانية فى ربيع ١٩١٩. ففى شهر مايو قام عدة آلاف من طلبة ١٣ كلية فى بكين بالمظاهرة ضد قرار مؤتمر فرساى للسلام الذى أعطى الامتيازات الألمانية فى الصين إلى اليابان التى كانت قد حصلت عليها أثناء معارك الحرب العالمية الأولى، حرق المتظاهرون منزل وزير موالٍ لليابان وخطفوا المبعوث الصينى إلى اليابان وأساءوا معاملته، وأدان الطلبة الصغار ومدرسوهم تسليم وخنوع حكومة الصين بسبب تحرش اليابان بها ومن وراء ذلك أدانوا الثقافة الكونفوشيوسية وأنها سبب ضعف الدولة ودعوا لتحرير الفرد على النسق الغربى كخطوة نحو صين أقوى ونظروا بعين النقد لسلطوية الأسرة الصينية، وأعلنوا أن الكتابة الكلاسيكية الصينية

تمثل عقبة فى طريق التقدم (كما نظر الأوربيون للاتينية) مؤكدين أن المعرفة تكون ذات قيمة لو أسهمت فى حل المشكلات واحتضنت العلم والديموقراطية كدواء لجميع الأمراض.

واهتمت حركة ٤ مايو فى بحث عن الصين حول شكل سياسى جديد بأنه يعنى رفض التقاليد الصينية والنظر للغرب رغم مآسى الحرب العالمية الأولى مع الاستمرار فى كونهم قوميين فى الوقت ذاته وقد نسيت الحركة فى حماسها حقيقة أن الصين فقدت أقاليم (التبت ومنغوليا الخارجية) منذ سقوط أسرة الكينج، كما نسيت أن القومية لا تعمل دونما جذور فى الدولة، وكما سنرى فإن الحزب الشيوعى الصينى اليوم قد اختار النكوص عن قضية ٤ مايو عن الكونفوشيوسية وقام بتجديدها لخدمة الأوتوقراطية الحديثة، وقد أثبتت ٤ مايو النعمة والنقمة لبقية القرن العشرين ولاحظ (يونج) "أنه لا يوجد ثمة قومية صينية حقيقية واحدة" وفى نهاية أسرة الكينج كانت هناك معان مختلفة فى مظاهر القومية مما يظهر مشكلة المصطلح فى الفكر الصينى والتى حمل فكرة الدولة والتى كانت بالمفهوم الواسع بمعنى البلد وهى قريبة من الوطنية بمعنى الشعب كالشعب اليابانى، أو القومية بمعنى الجنسية كما فى الجنسية الكورية، وبالتأكيد فإن القومية الصينية كانت غامضة بالنسبة لتوجهها السياسى (واستمرت كذلك منذئذٍ)، يمكن أن تكون ليبرالية (حبًا وإعجابًا بالغرب) أو (راديكالية أى عصا لضرب الغرب) وخلال معظم القرن الماضى كانت هناك تفرقة حادة بين فكرة القومية المرتبطة بالمنزل أو بالأسرة أو اللغة الأم، والقومية كما يعبر عنها فى مجال السياسة العليا للدولة.

والمتحمسون لحركة ٤ مايو لم يتوقفوا ليجدوا طريقًا لربط قيمة المواطن بقيمة الدولة وأخطأوا فى تبنى الفردية كأسلوب لدعم الصين ولم يقبلوا الفردية كهدف فى حد ذاته يحقق ذات كل فرد ولا الخطأ القاتل كذلك

فإن رؤيتهم للتقاليد الكونفوشيوسية ككيان مقدس وتحطيم ٤ مايو لهذه التقاليد المقدسة جعلهم يشربون من كأس المحافظة الصينية القديمة فإن اتجاههم التوحيدى أو الواحدى للتقاليد كما كتب (هوانج شانج لينج) وكان متأثرًا بالميل الصينى للمزج بين القلب الثقافى مع القلب الاجتماعى السياسى.

فالصين مثل باقى أجزاء آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط واجهت حقائق مزعجة وغير مريحة باعتبارها المهد الأول للحكم المتقدم منذ آلاف السنين فقد وجدوا أنفسهم وقد سبقتهم الدولة القومية فى أوروبا والتى برزت ونشرت قوتها على مسرح العالم وقد غير هذا مجرى التاريخ لكل شخص آخر فالدولة القومية الأوربية بنموذجها العلمانى الساعية للديموقراطية من أجل تنمية العالم فى القرن العشرين.

وبينما كانت الصين تئن تحت الضغط فإن جزءًا من نخبتها المثقفة إزدردوا الماركسية كترياق لمقاومة إغراء الغرب مما عقد جهودها من أجل إيجاد شكل سياسى جديد. (ماو تسى تونج) فى مقاطعة هونان أضاف بعضًا من أفكار ماركس ولينين إلى الفوضوية والقومية والفردية فى خلطة جديدة للأفكار السياسية.

أما حركة ٤ مايو فقد انقسمت لجناحين، جناح يسارى اتجه نحو الجماعية وجناح يمينى استمر ملاصقًا للفردية، وتأسس الحزب الشيوعى عام ١٩٢١ بشنغهاى متأثرًا بالجناح اليسارى لحركة ٤ مايو، وكان ماو تسى تونج مندوبًا عن مقاطعة هونان.

ويبدو أن البلشفية أعطت المثقفين السياسيين الصينيين صفتين عاطفيتين، الأولى هى نبذ وشجب دبلوماسية البوارج الغربية التى أظهرت أزمة الصين فالصينى ليكون لينينيًا كان يعنى أن يكون تقدميًا وضد الغرب فى الوقت ذاته، والصفة الثانية هى إغراء وجذب الحلول السريعة من أثر

الجانب الروحى للغرب وتأثيره على الصين، فالثورة الروسية عام ١٩١٧ بدت وكأنها تحمل فكرة التاريخ الغربى المستقيم (كمقاوم أو هو ضد التاريخ الصينى المكون من حلقات) إلى درجة مثيرة وعالية.

الغرب جعل النخبة الصينية منبهرة لكنه لم يقدم علاجًا سريعًا لأمراض الصين فالليبرالية الديموقراطية ينقصها الجمهور الكافى، وبسرعة فإن جزءًا من الموالين للغرب من حركة ٤ مايو جرى انصهارهم فى موجة قومية صينية عالية فى العشرينيات، ونمو العقلية العسكرية للذين ضربتهم الحرب فى الثلاثينيات.

والنموذج البلشفى الثورى أيضًا فقد كثيرًا من حميته فى العصر الجديد للصين فمقولته عن ثورة عمال المدن والسيطرة على السلطة وبناء الاشتراكية قد سقطت كضحية مع ماو تسى تونج ومقولاته حول وزن التقاليد الصينية للقرى فائقة العدد فمرة ثانية فإن البرابرة من الشمال أو على الأقل أفكارهم قد خضعت للطريقة الصينية فى الحياة، لأن التقاليد الصينية قد تم استدعاؤها واحتضانها وإن تم ذلك بأشكال متحورة، هذه العملية كانت مغطاة أو مغماة بالمحددات الإقليمية (من ١٩١١ إلى ١٩٤٩ كان أكثر من نصف إقليم الصين خارج تبعية المركز) والنفوذ الأجنبى روسى وألمانى وأمريكى وبريطانى والمعاناة السياسية المتكررة وهجوم اليابان عام ١٩٣١، الذى أربك كل شىء كل ذلك أدى إلى تبين أن الدولة الإمبريالية أو على الأقل الأسلوب الإمبريالى لم يمت.

وبالمقارنة مع الصين فإن اليابان تعاملت مع التحدى الغربى والأمريكى بحذق وبراعة ونعومة مؤسسية، فاليابان لم ترغب فى مهاجمة ماضيها وكان انجذابها أقل إلى الماركسية، وأخذت بهدوء من الغرب ما ترغب فيه وقامت بتعليبه فى شكل يابانى، اليابان لم تلغِ إمبراطورها ولن تمارس ثورة عنيفة أو تدخل حربًا أهلية أو تنتج (ماو تسى تونج) آخر، وهى

على كلٍ غزت جيرانها وهو ما لم تفعله الصين فى النصف الأول من القرن العشرين.

فى شخصية (صن يات صن) تفاعلت التيارات الثلاثة التى أمسكت بتلابيب الصين فى بدايات القرن العشرين، حيث ولد عام ١٨٦٦ لأسرة من الفلاحين فى مقاطعة جواندونج جنوب الصين، وفى صغره درس فى مدرسة أنجليكانية فى هاواى ثم فى مدرسة طبية فى هونج كونج والتحالف المتحد الذى أسسه فى اليابان وحصل على تمويل له من الصينيين فى جنوب شرقى آسيا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها ولذا فإنه كان مشروعًا شخصيًا للتعاون بين الصين والغرب، وأفكاره كانت خليطًا من القديم والحديث، اليمين واليسار، الصينى والأجنبى، السلطوى والحر وعمل على أن يكون محبًا للغرب ومواليًا له، وقد اتجه فى تغيير سريع لأفكاره عام ١٩٢٢ للبلشفية مما يعطى المثال على عدم استقرار أسس الفكر السياسى الصينى فى بدايات القرن العشرين، هو يعتقد فى الديموقراطية لكن ليس مباشرة (مما يستدعى صلوات القديس أوجستين، يا الله اجعلنى طاهرًا لكن ليس بعد) كان يميل للدولة وفى أوروبا فإن الأمة الآن تخطت الدولة ولكن فى الصين فإن الأمة يتم تحديدها بالدولة وفى صراع صن يات صن مع أسرة الكينج وفيما بعد مع (يوان شيكاى) وغيره فإننا نرى صيغة تحدد تمايزًا بين الصين المثالية والصين الواقعية، تاريخيًا هذا التناقض يأخذ شكل الكونفوشيوسية ضد التمسك الحرفى بالقانون، فلسفيًا تؤلب المتفائلين بالطبيعة البشرية ضد المتشائمين منها، وفى مواجهة يوان فإن صن تحرك دستوريًا بينما جرد يوان جيشًا.

وقد كان لدى صن أفكار ليبرالية ولكنه كان يتشارك مع المتمسك بعقلية نحن وهم بالتقليد الأوتوقراطى الصينى، وخرج على طائفة الإصلاحيين فى تسعينيات القرن التاسع عشر ليقوم بالإرشاد لمجموعة من

أطياف الثوريين وخلاف الاثنين لا يرى فى الأهداف فكلاهما يريد إنقاذ وتقوية وتحديث الصين لكن الخلاف كان فى الوسائل بأسلوب الخطوات أو بسياسة الصدمات بأسلوب الإقناع أو بممارسة القوة وهل يكره الشخص الوضع القائم بعمق وهل يمكن العفو عن أسرة الكينج.

والعنصر النهائى فى أفكار (صن يات صن) هو أنه كان يستخدم حيلة الساحر بما فيها مفهوم العرق والجنس الصينى وعندما لعب بالورقة العرقية أعلن أن فضاء الصين مكون من خمسة أعراق: الهان، التبت، المانشو، المونغول، والهوى (المسلمون)، وهذا أضفى على الهان وحدة لم تكن لديهم والدراسات الأثرية تضع موضع التساؤل الأصل الواحد لعرق الهان فى منطقة النهر الأصفر. التقليد الجنوبى كما ظهر فى مقابر مقاطعة سيشوان بدت كذلك كأصل معقول للهوية الصينية، الهان فى الحقيقة هم تشكيلة متنوعة من الشعوب بأصول وتقاليد ولهجات مختلفة وحتى اليوم فإن داخل الهان يوجد ثمانى لغات متداخلة يتم التحدث بها.

قومية (صن) جعلت خطوط الخلاف واضحة بين الصين والمانشو ونزعت القناع عن المفهوم عن فكرة أن الصين كانت محمية وآمنة حتى لو لم يكن الصينيون يحكمونها. وفيما بعد فإن قومية الهان استخدمت المشاعر المضادة للمانشو لاحتضان صيغة من إمبراطورية الكينج على أمل إنشاء جمهورية صينية جديدة، وقد لاحظنا فى الفصل السابق أن أجزاء من تاريخ الصين ليست صينية خالصة فالمونغول والمانشو والأسرات الأخرى الأجنبية يمكن القول إنها تعاونت مع الحضارة الصينية مثل دوائين لهما آثار مختلفة، الثقافة الصينية والأجنبية معًا أنتجتا شيئًا جديدًا.

التعاون الأول لما بعد أسرة الكينج كان محاولة صن خلط تقاليد الفكر السياسى الصينى مع التفكير السياسى الحديث من مصادر أجنبية مختلفة. وفى سنواته الأخيرة فإن صن حرك التيارات الثلاثة التى لعبت بتاريخه

الثورى وكأنه مشروب جديد مع نكهة سلطوية عسكرية، ولما يئس من الطريق البرلمانى الغربى اتجه لموسكو وأعاد تكوين الحزب القومى (الجيومندانج) على أسس لينينية وقد ذبلت مثاليته وبدأ ينمو تذوقه للسياسة الواقعية ووصل لاستخدام البندقية كوسيلة لتوحيد الصين.

فى عام ١٩١٧ ذهب إلى (جواندجزو) مع جزء من البحرية الصينية ولعب لعبة أمراء الحرب وتحالف عام ١٩٢٠ مع رئيس مقاطعة (جواندونج) لقتال زعيم مقاطعة guangxi وعارض حركة تحويل الصين إلى فيدرالية وبدا أنه صرف النظر عن فكرة بناء نظام سياسى من الجذور القاعدية كما بدا أنه لم يكن قادرًا على أن ينزع نفسه من طريقة الصين التقليدية والعمل من أعلى إلى أسفل. إن فكرة وجود شمس واحدة فى السماء وحاكم واحد على الأرض كانت قوية فى الحقيقة مع وجود عاطفة قوية وبعض المهارات ساعدت صن على تفكيك الدولة الصينية الملكية ولكنه لما مات عام ١٩٢٥ لم يكن واضحًا ما الذى أتى به هو وغيره مكان هذه الدولة إن (صن) نفسه قال إن الأمر كان نقض وتقطيع أوصال البيت القديم أكثر من بناء بيت جديد مكانه.

ومثل صن يات صن فإن أستاذه شيانج كاى تشيك قدم خلاصة لعدد من وجهات النظر تحولت إلى فلسفة سياسية مختلطة وغير واضحة، ولد عام ١٨٨٧ فى مقاطعة zhegianj وكبر شيانج فى وسط تجارى كوزمو بوليتانى ودرس لعدة شهور فى الاتحاد السوفيتى ولسنتين فى اليابان ولم تستهوه الفلسفات اليسارية ورغم هذا فقد كون أفكارًا تنظيمية لينينية فى موسكو وقد كان بطبيعته سياسيًا عسكريًا وأحد أبطاله كان زنج جيو فان ١٨١١-١٨٧٢ وكان عسكريًا سياسيًا فى أسرة الكينج قام بالدور الأكبر فى قمع تمرد تاى بينج، وكانت المسيحية بشكلها الميثوديستى ضمن المكونات الغربية لوجهة نظره العالمية العسكرية، وبعد موت صن يات صن بدأ شيانج بشجاعة تحركًا

عسكريًا لهزيمة أمراء الحرب الذين حكموا شمال الصين مستهدفًا تحقيق وحدة البلاد.

وقد لاحظ (أرثر والدرون) "أن الصين الحديثة مثل أى دولة أخرى قد تم تشكيلها أساسًا من خلال الحرب" وأدت الحرب إلى سقوط نظام أمراء حرب الشمال وإلى الثورة القومية التى جاءت بشيانج كاى تشيك إلى ما يشبه السلطة القومية عام ١٩٢٧. وباستخدام السلاح قمع شيانج كاى تشك اتحادات العمال؛ حيث كان اليسار قويًا فيها وهزم مناورات الجناح اليسارى فى الحزب القومى وقاد الحزب إلى اليمين، وقاد حملته إلى الشمال لإنشاء الحكومة القومية عام ١٩٢٧ فى نانجينج على نهر يانج تسى ٣٠٠ كيلومتر من شنغهاى إلى الداخل، وعلى عكس صن يات صن فإن شيانج كانت لديه القوة العليا لفترة أطول ليضع أفكاره موضع التنفيذ مما كان من نتيجته بروز ما يشبه ديكتاتورية عسكرية تقليدية والتى دمجت الحزب القومى مع جهاز الدولة الذى شكله صن من دولة المملكة، وفى الثلاثينيات فإن عناصر من الفاشية نتيجة العلاقات العسكرية الألمانية مع نانجينج جعلت الفكر السياسى لشيانج أكثر شعبية من الناحية الانتخابية، وتولى شيانج عندما كانت عناصر تقوية أسرة الكينج تترك مكانها، طالب زينج جو ببناء الأمة من أجل هزيمة أعدائها من الداخل (تمرد تاى بينج) وبدون الإنجليز والفرنسيين وبنى تشيانج دولة تنموية مع زيادة تحكم الحزب فى الحياة الاقتصادية مستهدفًا التخلص من قبضة الغرب على سواحل الصين وطرد الآلة العسكرية اليابانية.

وبعد ١٥ سنة فى الحكم فإن أكثر من نصف الصناعة فى نظام شيانج كانت تملكه الدولة وبعض مظاهر نظام نانجينج الحديثة كان من وحى موسكو حيث درس صن وشيانج هناك وتعلما من لينين نفسه كيف يبنيان دولة الحزب، وجاء صن بمصطلح الحكومة بالحزب وهو مصطلح سلطوى أو حتى شمولى فى نكهته وكان هذا صدىً للمركزية والاستعلائية ونشر

التعليمات واستخدام القوة والمظهر البيروقراطى خلال حكم ملكية الأسرات والتى أنتجت وأفرخت فكرة أن الموظفين الرسميين هم آباء وأمهات الشعب. وكانت النقطة الأخيرة أن فكرة الحكومة بالحزب تعنى حكومة بحزب واحد مما قضى على التعددية السياسية والانتخابات ذات المعنى وكذلك حرية الصحافة وقد جعل شيانج الموقف واضحًا بمنع كل الأحزاب السياسية ما عدا الحزب القومى، وصمم علمًا قوميًا يشبه علم الحزب نفسه والنظام تطلب زعيمًا أعلى، وكان فى جزء منه إمبراطورا وفى جزء آخر (فوهرر) وجزء منه معلم الأمة.

وفى اجتماعات الحزب الوطنى كانت بدايات أعماله هى الانحناء ثلاث مرات لصن يات صن ويقرأ الإنجيل بصوت عال، والخطط تم رسمها (لم تنفذ بالكامل) لينان جينج والتى تعكس دولة صن وشيانج، والرسومات تبين المبانى العامة التى ترمز لمعبد بكين السماوى فوق كابيتول واشنطن وكان ذلك يعنى دفع الروح الوطنية والتكنولوجيا العالية ونان جينج الحديثة لتكون على مستوى باريس ولندن وقد وحد نظام نان جينج قدرا كبيرا من البلاد وقلل من السيطرة الأجنبية على سواحل الصين وأنشأ نظاما حكوميا شبه حديث وشبه تقليدى وأوجد خططا وأساسا تكنولوجيا (ليس أكثر من ذلك) لصناعة حديثة .

وكان نظام شيانج يشكل إله البدايات والنهايات اليونانى كان عليه أن يكون مواليا للغرب ليأخذ المساعدات ضد توسع اليابان، لكنه كان يحتاج أيضًا إلى سند يدعمه بوجهين من التقاليد الصينية لأن قمة جبل الثلج الصينى الضخم كانت حديثة لجسم ونفس تغيرتا تغيرا ضئيلا عما كانت عليه فى أسرة الكينج فإن نسبة ضئيلة جدا يعتقدون فى السياسة بأسلوب ليبرالى ديموقراطى.

والقرية الصحية شهدت تغيرًا بسيطا فى جسدها وروحها منذ الأسرة الملكية ونسبة ضئيلة من الشعب تفكر فى السياسة بطريقة ليبرالية أو ديمقراطية وأعداد طلاب الثانوى فى الصين ١.١٦٣.١١٦ وهى تعلو بقليل العدد نفسه بولايتى إلينوى ونيويورك ١ ٠٧٧ ٠٠٠ رغم أن السكان ٢٠ إلى ١ بين المكانين.

دولة حزب نان جينج كانت غشاء ممتدا ضيقا ورفيعا على جسد سياسى واجتماعى تغير قليلا ولهذا كان طبيعيا لشيانج للوصول لكبد الحكومة المتاحة من تجربة الصين السابقة، ورأى النظام فى نفسه الوصى على الأورثوذوكسية المعنوية، والحركة المضادة أو المعادية للأجانب بدأت تبرز بعض تعبيراتها. وبدأ شيانج حركة الحياة الجديدة التى خلطت الكونفوشيوسية بالفاشية. فى عام ١٩٣٤ أضحت الكونفوشيوسية مرة ثانية العبادة والمذهب الرسمى للدولة الصينية وبدأ شيانج يصيخ ثانية إلى يوان شيكاى الذى بدأ من جانبه هو الآخر يصيخ إلى أسرة الكينج وبدأ شيانج يصر على استخدام مفاهيم كونفوشيوس لتأكيد قيادته العليا على الصين وصورته الإمبريالية (السماء لا يكون فيها شمسان)، وصار الحزب الوطنى أكثر تقليدية مما كان عليه أيام صن يات صن. وفى كتاباته قال شيانج أن تاريخ الصين قد تم رفضه بشدة خلال الـــ١٠٠ سنة الأخيرة وشكا من أن الشعب الصينى عبد كل الحضارات الأجنبية ولم يفهم الروح الداخلية لأمة الصين والشخصية الفاضلة للشعب وهما تحويان نقاطا عظيمة ودولة حزب شيانج خضعت للطائفية التى كانت منتشرة فى ثقافة الصين.

لقد صار شيانج ديكتاتورا شديد الحدة وقد كان لنفوذ الاتحاد السوفيتى وكذلك لهتلر أثرهما على شيانج والتى اختلطت كذلك مع طبيعته العسكرية والتقاليد الملكية الكونفوشيوسية، وبالتأكيد فى ذلك الوقت فإن أوروبا والولايات المتحدة قدمتا بصعوبة المثل المتألق أمام الصين، ونظام نان جينج

عاصر الفاشية فى ألمانيا وإيطاليا والستالينية فى موسكو والكساد الاقتصادى العظيم فى الولايات المتحدة وإنجلترا وأماكن أخرى كثيرة ولهذا كان طبيعيا أن النظرة للغرب فقدت جاذبيتها فى الثلاثينيات واستسلم شيانج لفكرة الصين موحدة واحدة رغم أن الحقيقة كانت مختلفة أمامه، وقد أعلن (إذا لم يكن هناك اليوم الجيو مين دانج فلن تكون هناك صين) لهذا هل العسكرى السياسى بقدم واحدة فى أسرة الكينج دمج فكرة الصين مع مفهوم دولة موحدة مع سيطرة حزب معين (حزبه هو) فى زواج مع الدولة. نان جينج عام ١٩٣٦ سيطرت فقط على ربع مقاطعات الصين، ورغم هذا كان شيانج وثيق الارتباط بفكرة صين واحدة مثل الأسرات الملكية السابقة (وأيضا كما سيكون ماو تسى تونج فيما بعد).

وبطريقة عامة وعلى الورق قدم نظام نان جينج نظاما سياسيا حديثا كان يطلبه أهل المدن فى الصين ولكنه لم يحقق الشرعية؛ حيث إن شيانج كاى تشك وصل للسلطة بقوة السلاح وحزب الدولة الوطنى لم يكن قادرا على التخلى عن التقليد السلطوى الصينى لأنه لم يصل إلى السلطة من خلال إرادة الجماهير وحيث إن شيانج يحكم جزءا من الصين من نان جينج فإن ماو تسى تونج كان فى مرتفعات مقاطعة gianjxi يمارس نظرة ورؤية أخرى مختلفة لمستقبل الصين، شيانج العسكرى السياسى أخذ حزب صن يات صن الوطنى إلى اليمين الجديد التقليدى، فيما كان ماو تسى تونج يقود الحزب الشيوعى المتأثر بالبلشفية فيها بعيدا عن ثورات المدن وفى اتجاه يسارى تقليدى جديد لتمرد الفلاحين. شيانج سجن كل الشيوعيين فى شنغهاى وكان ضمنهم شواين لاى رئيس وزراء ماو مستقبلا فى نظام حكومة الصين الشعبية وفى مقاطعة ماو الأم قام جنود وعساكر شيانج بسرقة وتدمير مكاتب اتحاد العمال وحركة الطلبة وكانوا يصرخون (يعيش شيانج كاى تشك!) وكذلك كانت طقوس الصياح عشرة آلاف سنة (عشرة آلاف سنة) والتى كان

الشعب يحيى بها ابن السماء أثناء حكم الأسر الملكية والتى كذلك فى جيل المستقبل سيحيون بها الرئيس ماو تسى تونج.

وكلا الاثنين شيانج وماو كل على طريقته كانا يتراجعان عن أهداف ومثاليات حركة ٤ مايو وجمهورية ما بعد ١٩١١ لصين ديموقراطية فيدرالية.

لم نكن لنعرف إلى متى سيستمر النظام الوطنى لولا الهجوم الكاسح لليابان على الصين فى عام ١٩٣٧ لقد بدأت طوكيو بأخذ منشوريا عام ١٩٣١ ومعظم العالم لم يحرك ساكناً، ومع وجود شمال شرق الصين كقاعدة ومع التحالف مع هتلر عام ١٩٣٦ وقد استخدمت اليابان الصراع مع القوات اليابانية قرب بكين فى يوليو عام ١٩٣٧ كذريعة للهجوم على بكين وشنغهاى وغيرها من المدن ولما تكون محور برلين روما طوكيو عام ١٩٤٠ كانت اليابان تسيطر بالكامل على سواحل الصين، وكان على حكومة شيانج كاى تشك أن تتراجع أولا إلى (وهان) ثم إلى (شونج كينج) فى الجنوب الغربى.

وخلال ٨ سنوات من الحرب مع اليابان التى أضعفت حكومة شيانج وأعطت الحركة الشيوعية الصينية الفرصة للنمو، وفى عام ١٩٤٦ وصل عدد جيش ماو إلى مليون فرد وبفضل الاتحاد السوفيتى حصل الشيوعيون على موطئ قدم فى منشوريا واستولوا على الأسلحة اليابانية المتروكة هناك وابتداء من الشمال كان فى استطاعتهم بسرعة هزيمة دفاعات شيانج.

لقد كان نطاق شرق آسيا المشترك للرخاء العظيم تستهدف منه طوكيو أن تخلط قوتها العظمى وخبرتها فى التحديث مع مجتمعات شرق آسيا المتأخرة لكن الواعدة وبصفة خاصة الصين وبصفة أخص مع المواد الأولية الخام فى الصين البكر ونادرا ما حدث فى جنوب شرق آسيا مثل هذه المحاولة للتعاون باستخدام القوة فى وقت قصير: من ١٥ إلى ٢٠ مليون

صينى قتلوا أثناء تقدم الجيش اليابانى فقط فى منشوريا، وفقط فى منشوريا فإن التعاون حقق شيئا من الاستقرار وأنتج تقدما، وأحدث تقدم الهجوم اليابانى إعادة خلق شكل تاريخ آسيا، ولكن كتعاون كان فاشلاً، وكان شيانج كاى تشك هو الخاسر الأكبر وهزيمة اليابان على يد الصين وحلفائها (كتب التاريخ الصينية تتخطى وتتجاهل دور الولايات المتحدة فى هزيمة اليابان) لم تساعد شيانج ضد ماو ومن نجاحات الحرب العالمية الثانية لم يحصل شيانج كاى تشك إلا على بقايا ورماد الهزيمة على يد الشيوعيين الصينيين، والصين الوطنية فُقدت ليس على يد الولايات المتحدة ولكن على يد اليابان، لقد سلمت طوكيو مستقبل الصين فى النهاية إلى ماو تسى تونج.

لم تحدث ثمة مسيرة مطردة للتقدم فى الصين منذ ثورة ١٩١١ وخلال ثورة شان كاى تشك القومية عام ١٩٢٧و حتى ثورة ماو عام ١٩٤٩ وما دشنته من عصر الشيوعية والذى كانت بداياته انبعاث الشعور القومى والذى أمسك بتلابيب الصين خلال السنوات الأخيرة لأسرة الكينج، ولم يحدث شيء لإنجاز الوعد بالسيادة الشعبية لتحل محل النظام الملكى، وبالتأكيد حدثت خطوات للأمام ربطت بين الإصلاح خلال حكم الملك الأخير من أسرة الكينج والعاصفة التى جرت ١٩١٢، ومحاولة بناء مؤسسات سياسية فى العشرينيات والثلاثينيات وما بعد ذلك وحتى بداية القرن الـــ٢١ وكان البندول يتحرك أحيانا للأمام وأخرى للخلف ويتأرجح ما بين السلطوية واستهداف الحرية، ما بين الوطنية المحلية الصينية والنفوذ الأجنبى، ومابين مطالب واستحقاقات الماضى وإغواء وغواية المستقبل.

وحدث انسحاب كبير بعد العهد الثانى من القرن العشرين وعلى المستوى النظرى فإن قضية الأمة طغت على قضية الفرد وغموض حركة الرابع من مايو حول هذه النقطة جرى حلها باتجاه سلطوى. ومثل ذلك تماما ما لاحظه (جيو موريو)، وهو كاتب كبير وناشط سياسى وأحد مفكرى ماو

تسى تونج، لدى عودته بعد بضع سنوات فى اليابان حيث قال "إن الصين هى حبيبة قلبى".

ومن حيث الممارسة السياسية فى العشرينيات فإن السلاح والبندقية قد حلت محل المناقشة السياسية بداية باليمين السياسى مع صعود وبروز القادة العسكريين الإقليميين، وعلى صعيد اليسار عندما تحول الحزب الشيوعى نفسه إلى جيش الفلاحين وبصفة خاصة عندما تحول الحزب الشيوعى الصينى من المدن إلى القرى ومن القيادة الكوزموبوليتانية إلى القيادة المحلية الماوية وكان ذلك مبررا بالمصطلحات الاستراتيجية ويمثل خطوة نحو الابتعاد عن الأمل فى تحقيق وإنجاز دولة قومية حديثة. وفى معظم القرن العشرين وفيما بعد تجربة ١٩١١ كانت العين الفاحصة لا تخطئ القوة الساحقة المهيمنة للدولة والقومية التى تغلبت على كل البدائل. ومأساة هذا النصر المزدوج من العشرينيات أنه لم يذهب دونما اعتراض، (زاهانج جومو) فى العشرينيات انتقد كلاً من الحزب الوطنى والحزب الشيوعى لعدم احتضانهما للديموقراطية وحكم القانون وأن أساس الحكومة يجب أن يقوم على مبدأ الاعتراف بالحرية الفردية كما كتب (زهانج) محذرا من الشيوعية الديكتاتورية "إذا كان النظام السوفيتى يلغى شخصية الآخرين ويأخذ الحريات منهم ونحن ننظر إليه كمثال يستحق الدعم فإن ذلك يعنى فى أقل القليل اعتبار الديكتاتورية أفضل الخطط وتعليم الناس عبادة الأبطال والنظر إلى الشعب كعبيد".

الصين القديمة لم يتم القضاء عليها فى ١٩١١، ومنذ عام ١٩٠٠ فإن المسيرات الصارخة معلنة الصين الجديدة وما أعقب ذلك من إحباط، وما فعلته الصين خلال القرن العشرين ليس أقل صينية أو أكثر مما فعلته فى القرن السابع والقرن الثامن عشر فمازالت الصين تعيش بجانب الأنهار والجبال نفسها ومازال الملايين من الأفراد يأخذون القرارات مع أو ضد

الاستقرار والوحدة والتغيير، النخب الثانية مازالت تمشى على نفس الأرض وتمارس الفنون والآداب السياسية وألاعيب (الدخان والمرايا).

وكان (إيشيريك) بالتأكيد على حق أن الزخم ضد السلطوية عام ١٩١١ اتخذ الطريق العكسى لما تحطم على صخرة الثورة الشيوعية. وصحيح أن الثورة الشيوعية التى جرى تتويجها ١٩٤٠ ستضم الجماهير بطريقة لم يتم فعلها ١٩١١-١٩١٢ لكنها أيضا ستقوى السلطوية التى ضربتها وهزمتها ١٩١٢ (على المركز الإمبريالى) ورغم هذا أبقتها مستمرة محليًا. الحزب القائد الذى استخدمه (الجيومندانج) كانت له نكهة بيت الأسرة الملكية مثل بلاط المينج أو بلاط الكينج، (لن تكون هناك ديموقراطية وحرية كما اقترحها كارسون شانج مع تحذيره من عبادة الأبطال) وكان ذلك يمثل بصيرة نافذة من جانبه.

والنقطة الفاصلة لـــ١٩١١-١٩١٢ أنها أسست لنموذج واحد استمر خلال النصف الأول من القرن العشرين وهو اتجاه نحو الحكم من خلال نخبة مدنية من المستغربين وهو الاتجاه الذى قام ماو تسى تونج بسرعة بعكسه، رغم هذا فإنه حتى مؤخرًا فإن دينج إكسياو بينج وجيانج زيمين وهووجينتاو كلهم جزئيًا قاموا بعكس ما قام بعكسه ماو.

وهذه القضية ستأخذنا لنموذجين فى التعاون فى تاريخ الصين فى القرن العشرين وما بعده الأول بين ماو وحزبه الشيوعى والاتحاد السوفيتى ١٩٢٠ إلى ١٩٧٠ وهو النموذج الذى لم يتمخض إلا عن نتائج فقيرة، والنموذج الآخر وهو بشكل ما أكثر نجاحا منذ ثمانينيات القرن الماضى من فترة ما بعد ماو وحزبه الشيوعى مع العالم الرأسمالى الأجنبى.

لقد عاد مأزق أسرة الكينج ووعده بالإصلاح ليعيد إنتاج نفسه فى بدايات القرن الواحد والعشرين حيث إن الفريق الموجود اليوم فى زعامة الصين أمامه طريقان لموت النظام وانتهائه الطريق الأول هو أن يقوم النظام بإصلاح نفسه والطريق الثانى هو ألا يقوم بالإصلاح.

الفصل الخامس

الإمبراطور الأحمر

(النظام الشيوعى تحول لئلا يكون ثوريا حقيقيا، لكنه على أية حال ما زال صينيا)

ليمان ميلر

(لماذا مازال صعبًا أن تكون الأخلاق واضحة، والعادات والتقاليد ليست موحدة)

سؤال امتحان فى القرن الثانى عشر

(فى كتاب توك فيل النظام القديم والثورة قال إن صورا قديمة سبقت الثورة الفرنسية واستمرت معها هل يمكننا بالمقارنة الحديث عن دولة صينية أخذت شكلها خلال الإمبراطورية الأخيرة واستمرت بعد ثورة ١٩٤٩؟)

فيليب كوهين

لقد بدا شيانج كاى تشك روسيا، فيما بدا ماو تسى تونج بوهيميا ولما تصافح الاثنان فى (شونج كينج) فى أغسطس ١٩٤٥ بدأت آخر مفاوضات بينهما، كانت بزة شيانج أنيقة ومزركشة بالنياشين فيما كانت بزة ماو عكس ذلك ولا تحمل أوسمة أو نياشين. هذان القائدان لحزب الدولة فى القرن العشرين اشتركا فى قوة الإرادة وبعد ذلك اختلفا فى كل شىء، عائلة شيانج تجارية كوزموبوليتانية فيما تربى ماو فى مزرعة، عاش شيانج طفولة هادئة فيما كانت طفولة ماو صعبة، قضى شيانج ثلاثة أشهر فى الاتحاد السوفيتى

وماو عندما صار رئيسا عام ١٩٤٩ لم تطأ قدماه بعد دولة أجنبية، شيانج كان يقرأ قليلا فيما أن سرير ماو كان نصف مغطى بالكتب، أستاذ شيانج هو صن يات صن وماو ليس له أستاذ سياسى، شيانج جوهره سياسى عسكرى، ماو شبه مثقف صار زعيما عسكريا رغما عنه، فوق كل ذلك لم يحتضن شيانج الاشتراكية فيما أن ماو أخذ التحول الاشتراكى إلى مدى بعيد.

شباب الحزب الشيوعى بأحذيتهم الغليظة دخلوا بكين ١٩٤٨-١٩٤٩ وبعض الجنود كانوا يرون المدينة لأول مرة وحاولوا إشعال سجائرهم من لمبات النور، ومن مرتفعات الغرب خارج المدينة قال ماو: "هل الأسمال البالية ستغير بكين أم سيجرى التغيير فى الاتجاه العكسي؟" وكلاهما ثبتت صحته رغم هذا بعد ربع قرن فقد سقط ماو قريبا من الموت بسبب المرض وكان ماو قد بدا أقل إعجابا بالأبهة الاشتراكية أكثر منه بعضة أنياب الماضى.

لم يكن (يوان شيكاى) إمبراطوريا حقيقيا أو فعليا حتى بعد أن وضع نفسه على عرش التنين وصن يات صن لم يكن الأب المؤسس للأمة رغم أن الناس قالت عنه ذلك، شيانج لم يكن الشمس الوحيدة فى السماء ورغم تأكيده بأنه لا يمكن أن تكون هناك شمسان فإن ماو من خلال وصول شخصيته لأوجها فى الستينيات لم يكن الشمس الحمراء، كل القادة الصينيين الأربعة حاولوا إعادة خلق دور ابن السماء فى عصر تغير فيه جرس الموسيقى والحرف لا يتماشى مع إشارات الرجل القائد، (يوان شيكاى) وصن يات صن وشيانج وماو قادة لم يستطيعوا أن يكونوا أباطرة لكنهم لم يتمكنوا من خيانة التقليد الإمبريالى وكان البديل الأساسى غير متوفر ليضعوه مكانه. لم تكن هناك سياسة من أسفل لتحل محل السياسة من أعلى والتى ميزت عصر الأسرات المالكة وحتى عام ٢٠٠٣ ومع هوجينتاو على سدة الحكم فإن سيادة الشعب لم يجر بعد احتضانها ورغم اتصال ماو مع القادة الصينيين فى القرن

العشرين فقد بدت الدولة التى قادها مختلفة تمامًا عن دولة صن ودولة شيانج، دولة ماو أكثر اقتحامًا من دولة شيانج (رغم أنها سلطوية أيضا) لقد فرضت حقيقة ماو نفسها وداست على الشعب الصينى بقوة أكثر من أى نظام آخر فى تاريخ الصين. ورغم هذا فقد تحول ماو فى أواخر سنوات حكمه مثل الحاكم الصينى التقليدى ربما أكثر من سابقيه فى القرن العشرين وكما ذهب (فو زهينج يوان) بعيدا عندما قال: "إنه بسيطرة الحزب الشيوعى فإنه حدثت ثورة مضادة ضد ثورة الجمهورية الصينية الأولى عام ١٩١١ ".

دولة ماو مثل شيانج كانت دولة حزب واحد فى موقع متميز حيث لا يمكن التمييز بينهما وكما كتب (وليام كربى) عن الصراع بين شيانج وماو من ١٩٤٦ حتى ١٩٤٩ "فى النهاية فإن الحرب الأهلية الصينية لم تعط خيارا للصينيين" وكل ما أعطتهم وغذتهم به هو تجديد الأبوية. ورغم هذا فإن ماو أخذ مفهوم دولة الحزب إلى أراضٍ وأقاليم جديدة. الحزب الشيوعى ووصوله للسلطة عكس الاتجاه إلى التنمية بالمجتمع المدنى المستقل فى العصر الوطنى وكما كتب (فو) أنه استعاد النموذج التقليدى للدولة حول علاقة المجتمع بالدولة، حيث المجتمع كله خادم للدولة، القوى غير الحكومية كان قد تم إطلاق قواها عام ١٩١١ لكن تحت حكم ماو لم يكن ثمة مكان للمنظمات أو الأفكار خارج صندوق دولة الحزب المركزية.

وإحدى القواعد المفاتيح فى عصر ماو هى عمق المدى الذى وصلت إليه تنظيميًا، فالصين فيها أكثر من ألفى مركز محلى، وفى أوائل الخمسينيات فإن خلايا الحزب الشيوعى تواجدت فى كل وحدة من هذه المراكز فى المدن الكبرى والمدن الإقليمية، ولجان الجوار استوعبت كل مقيم تحت خيمتها ورعايتها وعنايتها، والأبوة الرحيمة لا يمكن فصلها عن التطفل، عملاً الفرد يكون جزءا من وحدة وهى تنظم وجود مكان للمعيشة وتحتفظ بملف لكل أوجه حياة الفرد (والتى تتبعك إلى ما لا نهاية) وما إذا كنت تتحرك من هذه

الوحدة إلى وحدة أخرى. وفى السنوات الأولى فى الريف فإن مدى وصول حزب الدولة تنظيميا كان قصيرا لكن على أواسط الخمسينيات فإن معظم الفلاحين الصينيين كانوا جزءا من التعاونيات الزراعية التى ألغت فكرة الزراعة العائلية، والقرار عن الزراعة والتسويق يتم صنعه واتخاذه فى حزب الدولة كما هو ممثل فى كل قرية ضمن آلية كادر الحزب، والدقة التنظيمية للحزب الشيوعى قد جعلت العالم يتحدث بسرعة عن صين جديدة أو حتى عن الرجل الجديد ولم يكن هناك فى الحقيقة رجل جديد والصين لم تتغير أكثر من مجرد تغيير على السطح لكن مهارات الحزب الشيوعى التنظيمية كانت حقيقة، والمقيم مثلا فى شنغهاى لا يمكن أن يكون لديه ضيف دون أن تعرف لجنة الجوار من هو ولماذا هو موجود هناك، والصحيفة الوحيدة المتاحة مرخصة ولديها فريق عمل ويدققها كادر من حزب الدولة، وإذا كان لدى الفرد شيء يقوله فكل هذا يتم من خلال الوحدة المحلية، مثلا إذا كان لديه شيء عن وضع المرأة فى الصين فأمامه الوحدة المحلية لاتحاد المرأة ولا يمكن فعل ذلك خارج هذا الإطار دون مخاطرة، وإذا كان يريد تركيب تليفون فلا يوجد دليل تليفونات مطبوع وعليه أن يأخذ الرقم من سكرتير الحزب المحلى أو لجنة الجوار ومن هنا المكالمة التليفونية ليست أمرًا شخصيا مع من تتحدث إليه. ولا يمكنك أن تكون كاتبًا دونما عضوية فى اتحاد الكتاب كما لا يمكنك الاتصال بأى شكل بالأجانب من دولة أجنبية دون الاتصال أولا بالكادر السياسى بالحزب... ولا توجد فى تاريخ الصين أسرة ملكية استطاعت الوصول إلى هذا المدى فى المجتمع الصينى كما لا توجد حكومة فى تاريخ العالم قد غطت الناس بهذا الشكل الشديد والدقيق. وفى دولة الكينج كان هناك نظام لتجميع الأسر فى مجموعات من عشرة ومائة وألف وعلى كل منزل شارة تحدد السكان وأى أنشطة غير قانونية أو مثيرة للاشتباه يتم التقرير عنها. وفى عصر تشيان كاى تشك كان هناك أصحاب القمصان الزرقاء وكانت منظمة شديدة الانضباط وسرية لرفع

مستوى الوعى داخل الجيش الوطنى، إلا أن لجان الجوار أثناء عصر ماو كانت أكثر إحكامًا وتدخلا فى عمق الحياة الخاصة للأفراد من أصحاب القمصان الزرقاء، لقد حولوا الشعب من أسفل إلى عيون وآذان لدولة الحزب، المتسولون لم يعودوا موجودين وخلال هذه العملية فإن دولة ماو انتفخت وتورمت لتملأ كل هذه الأركان، وتم تحويل المجتمع إلى ذرات وكل الناس المملوئين بالحيوية تم ترويعهم، فى عام ١٩٤٩ كان هناك ٧٢٠ ألف موظف رسمى للدولة (كوادر) وفى عام ١٩٥٨ ارتفع هذا الرقم إلى ٧,٩ ملايين كادر، وللأهمية المركزية فإن دولة ماو كان لديها عقيدة وكان جزء من هذه العقيدة يمكن أن يوضع جانبا لأنها تتكون فقط من أكاذيب تضع حجابا وقناعا على الديكتاتورية وطالما استخدم الشيوعيون فى أحاديثهم مصطلحات الشعب والديموقراطية والدستور كنوع من تمليح الكلام، ولكن نحن نعلم أنهم بذلك كانوا يضيقون على الجماهير ويدسون أنوفهم فى كل شىء.

وفى العالم ما قبل الحديث كانت هناك دول وقصور ملكية مثل مصر كمثال سيئ لإصدار الأوامر ودول أخرى مثل المدن الإغريقية كمثال لإقناع الشعب. لكن الدول الشيوعية فى القرن العشرين كانت الأولى تاريخيا فى دول القصور التى تتحدث مثل المدينة الإغريقية هى ديكتاتوريات وإن كانت تتشدق بكلمات ليبرالية. هذه العادة قد أدت إلى تعكير المياه لكننا نرى كما رأى شعب الصين الفرق بين اللباب والقشرة. وإذا تركنا جانبا الجزء الساخر من العقيدة المادية فقد كانت هناك محاولة قوية من جانب دولة الحزب لتملأ عقول الناس بالأفكار الأيقونية للاشتراكية مثل "اخدموا الناس"، "حارب نفسك"، "الاتحاد السوفيتى اليوم هو صين الغد"، "الإمبرياليون مصيرهم محتوم"، "قلبى ملك الرئيس ماو"، وكان عليهم محاولة أن يأخذوا هذه الشعارات الثقيلة فى سفينة حياتهم وعدد أقل كثيرا حاول أن يجعل العقيدة

محلية. وكما قال بطل اشتراكى من بداية الستينيات أن الحزب هو مثل أمى التى تساعدنى وتقودنى وتعلمنى كيف أمشى وأن الحزب الحبيب أمى الحبيبة "إننى ابنك الموالى لك"، ومعظم الصينيين لم يجعلوا أنفسهم حمقى فى هذه الأساليب من الفشل الساخر، إن الفشل كان دائما متتاليًا مثل النجاح المخلص. وفى اجتماع لجنة الجوار فى شنغهاى أوائل الخمسينيات طلبوا من سيدة أمية عجوز أن تثنى على مسودة الدستور الجديد لدولة الصين الشعبية، وفى لهجة شنغهاى الدستور يعنى لعبة الساحر فاعتقدت السيدة أنه مطلوب منها أن تقول كلمة طيبة حول لعبة سحرية جديدة ولما ضغطت كوادر الحزب عليه لتثبت ولاءها فإنها وقفت وأعلنت أنه: "خلال ٧٣ عاما قد رأيت فقط لعبة واحدة للساحر. حكومة الشعب حاليا التى تريد أن تقدم لعبة سحرية فإننى أؤيدها وأشهد بذلك" وكان على الكوادر الحزبية أن تبقى الاجتماع لنصف ليلة كاملة لعمل التصحيحات السياسية المطلوبة على كلام السيدة.

حتى الآن فإن عقائد الاشتراكية مازالت كلية، وتم إدخال التصنيفات الطبقية وصراعاتها فى كل مجالات الحياة والأفكار، وتعلم الشعب كراهية ملاك الأراضى والرأسماليين وينظرون بالتقدير للعمال والفلاحين، كما يتم التعبير بكل طريقة عن أن الفرد لابد أن يكون تابعًا للهدف الجماعى، وبالإضافة للأفكار الاشتراكية فهناك كذلك الاستخدام التنظيمى اللينينى للعقيدة، الحقيقة هى ما يراه الحزب الشيوعى حقيقيًا، مما يجعل سلطة الحزب مطلقة، وفوق كل مشروع للهندسة الاجتماعية يكمن القائد وفكره وكلاهما لا يخطىء ومعصوم ويتطلب الولاء المطلق والدراسة المستمرة.

قاعدة أخرى لدولة ماو وهى شعورها وحسها التاريخى بحتمية التاريخ، ديموقراطية الشعب الديكتاتورية فى بكين كان قد تم تجاوزها باعتبارها وسيلة الانتصار الكوكبى السياسى للعمال والفلاحين، هذه الثقة التاريخية جعلت دولة ماو مهتمة جدا إلى حد الهوس بجعل الشعارات

صحيحة حتى ولو لم تكن متوائمة مع الواقع (لدينا أصدقاء فى العالم كله) كما قال حزب ماو فى نهاية الستينيات ولم يكن لهم ثمة أصدقاء غير ألبانيا وكوريا الشمالية وفيتنام، نفس التكتيك الفعلى وجد أثناء البلاط الملكى فبالنسبة للإمبراطور العالم الكلى يحتاج إلى مصطلحات ليكون صحيحًا حتى لو كان الواقع يقول شيئا آخر وقصة أخرى، بالنسبة لماو الغاية الماركسية للتاريخ تتطلب التنبؤ المسبق.

دولة ماو أطلقت على الصينيين الذين يعيشون خارج الصين (الصينيون ما وراء البحار) وهى تسمية سيئة لكن معظم العالم ابتلعها والحقيقة أن ٥٠ مليون صينى خارج الصين كانوا سنغافوريين أمريكان من هونج كونج، استراليون وغيرهم، هم من أصول صينية ويقال لهم أمريكان صينيون ويسمون أنفسهم كذلك مثل الأمريكان الأفارقة أو الأمريكان المكسيكيين لكن هدف حكومة ماو من كل ذلك هو أن كل من هو من أصل صينى هو جزء من الملكية الاجتماعية للاشتراكية الصينية. اللفظ "الصينيون" ما وراء البحار يعنى الصينيين الذين يعيشون بعيدا عن البلد الأم حاليًا، هذه التسمية المضللة قدمت خدمة للهدف السياسى للدولة الصينية جعل دولة الحزب معينة فى التاريخ وأعطاها الذريعة لتعلن أن المواطن البرىء هو عدو للشعب وتأكيد هذه الإمبريالية هو أساس ومصدر متاعب العالم، والقسم بأن الصين لن تكون قوة عظمى، هذه التصريحات يمكن أن يعتقد فيها الموسميون لأن هناك إحساسًا بالتماهى مع ديكتاتورية الشعب الديموقراطى. الفضيلة من الميلاد متضمنة فى تسمية الدولة العامل والفلاح وهى تتخطى السؤال التجريبى حول من هو العدو، وكيف أن الإمبريالية سببت الفقر فى إفريقيا، وكيف أن الإمبراطورية الصينية ليست إمبراطورية.

وكما كتب (G.L.Talmon) فى عمل مبكر حول دولة الحزب الشمولية "حيث إن النظام – بالتعريف – ينظر إليه باعتباره يكرس الحقوق

والحريات فإن المواطن قد منع من الحق فى الشكوى، كما منع من حقوقه وحرياته" شعور الدولة وحسها بالحتمية التاريخية يفسر لماذا أصبحت السياسة مسرحًا للأشرار، والأبطال يصيرون أطهارًا لأن المؤامرة ستعطى له التبرير فى النهاية، وبذلك فإنه مع ممثلى فن التمثيل الإيمائى فإن شركاء ماو ومساعديه قد جعلوا ضباط الجيش يتغنون بفكر ماو وعندما قام ماو بالسباحة فى نهر يانجتسى ليجعل منتقديه يرتشعون فيما تعلن وكالة أنباء الصين "أن ماء النهر كان يبدو مبتسمًا ذلك اليوم".

وقبل ماو بكثير فإن المونغول والمانشو وغيرهم من الأجانب أنشأوا تعاونوا مع الحضارة الصينية، وقام ماو بإعادة تطبيق النموذج القديم حيث بنى تعاونا صينيًا أجنبيا مع الاتحاد السوفيتى ونموذجه الاشتراكى، فكل مؤسسة صينية هامة فى جمهورية الصين الشعبية فيما بعد ١٩٤٩ كانت تستلهم نموذجها من مؤسسة سوفيتية وقالت صحيفة الشعب اليومية فى صدر صفحتها عام ١٩٥٣: "يجب أن نرسى موجة جديدة للتعلم من الاتحاد السوفيتى على مستوى كل الأمة لبناء بلدنا" ويتسلم ماو مساعدات اقتصادية وفنية كما عقد معاهدة لتأمين نووى سوفيتى وعضوية فى المعسكر الإشتراكى والتى وفرت توازنًا ضد الغرب الذى صار باردًا تجاه الصين، كما تلقى مساعدة لتنمية أسلحة نووية صينية.

وفى داخل الصين فإن ذلك التعاون انتهى بزواج غريب بين ستالين والأوتوقراطية الصينية التقليدية، وعلى مرمى حجر من المدينة المحرمة وحيث كان يعيش الأباطرة ويعيش ماو الآن ظهرت مبانى حكومة ماو الجديدة، ماو الذى رأى فى نفسه فى حقبة الستينيات إمبراطورا كان يسمى رغم ذلك الرئيس chairman وهى من الذخيرة الرقيقة لأدبيات المنظمة الشيوعية العالمية وواحدة من هذه المبانى أيضًا سميت قاعة الشعب الكبرى وهى تعكس زيف الاستخدام الستالينى للكلمات لقد كانت مقرًا لحكومة غير

منتخبة وليست مكانًا من أجل الشعب، وفى دولة ماو كما فى دولة ستالين كانت الأولوية للسيطرة والتحكم فى الشعب، مجموعة من الناس تتحدث فى جانب الطريق يمكن أن ينظر إليها على أنها مظاهرة مضادة للحكومة يتم وأدها فى المهد بإرسال الناس إلى بيوتهم! وماذا يريد أن يقول ابن الإقطاعى فى كتاباته المسرحية فلنُغلق أعماله ومواده المسرحية ونعطى المسرح لمسرحيات صحية! ولماذا رجل ملتحٍ من اليوجور يتحدث فى مكالمة تليفونية من (تورفان) إلى خارج البلاد! "اطرده"!

الإحساس والهوس بالسيطرة لها أسبابها ولعدة عقود قبل عام ١٩٤٩ رأت الصين فوضى كبيرة وبسبب الخوف والفظائع أضيف إليها الخوف من الحزب الشيوعى الصينى والحكومة التى تحذر الناس من فعل أى شيء يحرمه الحزب ولأن الحزب الشيوعى وصل إلى السلطة بالنار والحديد فكان دائمًا يخشى أن زوجته أى الشعب سيسرق منه كما سرقت من الحزب الوطنى لشيان كاى تشك. وسبب عقلى آخر لهذه السيطرة فى الصين أكثر منها فى الولايات المتحدة، فى أمريكا الدولة الفيدرالية والسلطات المحلية يمارسون السيطرة لتفادى أى تصرفات غير مقبولة، يتم إرسال البوليس للتقليل من الجريمة ويمكن للحرس الوطنى أخذ تدابير مانعة فى ظل ظروف حادة لوقف أى تظاهر، القواعد يتم نشرها وإذاعتها عن أمن المبانى حتى لا تحطم المبانى رءوس الشعب، فى الصين السلطات طالما استخدمت السلطة لهذه الأسباب لكن أيضًا لتحقيق الخير العام وخلال الأسر الملكية هذا الخير العام كان هو تحقيق التناسق والتناغم للأسرة الكبيرة وفى فترة ماو كانت هناك وحدة فى النظرة السياسية والذين يتحدّون ذلك يجب أخذهم باليد من جانب السلطة ليس لتوقى خطرهم على الملكيات والآخرين ولكن لمجرد أنهم انحرفوا عن الطريق.

وخلال حكم الأسرات الملكية كان يمكن إعدام كل أسرة المجرم بجانب إعدام المجرم نفسه وفى صين ماو إذا ارتكبت جريمة فى السجن فليس من الغريب إعدام الجانى فى حضور زملائه المساجين خلال ساعة من ارتكابه للجرم وكان ذلك فعالاً للتمسك بالعالم الأخلاقى الجماعى وكما يقال (هؤلاء الذين لا يتصرفون كبشر طبيعيين يجب معاقبتهم، من أجل تطهير المجتمع).

اتجهت دولة ماو لتوجيه الاقتصاد من القمة إلى القاع، الموارد يتم تخصيصها من القمة، السلطة تعنى أكثر من النقود والثروة فى مجال السوق حيث سيطرة المال شيء تافه إذا قورنت بالتراتبية والهيراركية السياسية والتى يتم من خلالها فرض القرار فى الحياة الاقتصادية من أعلى إلى أسفل، اليوان الصينى غير قابل للتحويل مع العملات الأخرى ولهذا فإن أشياء الصين لم تكن منخرطة أو مندمجة مع الآلية الرشيدة للاقتصاد الدولى وفى هذه الأسرة المنعزلة الحمراء فإن الإنتاج والإسكان والأسعار والأجور والبناء كلها يتم تخطيطها من خلال دولة الحزب.

التوجيه الإدارى السياسى للاقتصاد جعل الصين تتراجع للخلف ولكن ماو لم يكن قادرا على مواجهة هذه الحقيقة وهذا الإحكام الشديد للسيطرة على الاقتصاد جعلت النتائج فقيرة ولا يهتم الاقتصاد سوى بالأرقام. لقد كان هناك تقليد لتأميم الإنتاج كما كتب (جوزيف نيدهام) حيث كانت هناك احتكارات الدولة للملح والقنوات والحديد والتى تعود إلى عصر أسرة الهان وقام ماو بجمع نماذج المركزية الاقتصادية من الفترة الملكية مع التخطيط اللينينى الشديد.

ومنذ سقوط الاتحاد السوفيتى فمن المعروف للكافة أن الاقتصاد المركزى المخطط لا يمكن أن ينجح فى تحقيق أهدافه وأنه يخنق الحرية من خلال محاولاته لتخطيط ما لا يمكن تخطيطه.

ومنذ الأربعينيات فقد حذر (فردريك فون هايك) المولود فى أستراليا من "الوهم الشامل" وأنه لا يوجد منطق بأن كل المعلومات عن الاقتصاد يمكن تكثيفها والعمل على أساسها والحقيقة أن المعلومات مشتتة تتغير باستمرار ويتم استخدامها مشتتة موزعة ويتم استخدامها فى ألعاب العطاءات للمشاركين فى السوق، و(هايك) كان متأثرًا بشكوك الفيلسوف (ديفيد هيوم) الذى أكد أهمية الجهل. الأمر المباشر المعد من أسفل يعطى أفضل نتائج اقتصادية وأقصى حرية للفرد، وخطط لينين الخمسية فعلت العكس ويبدو أن ماو يعرف ما كان يعنيه هايك وقد قال ماو لمجموعة من موظفى التمويل عام ١٩٥٣: "عمليا لم يصل شىء إلى أذنى فى بكين" وفى اجتماع الموظفين المحليين أعلن أن بكين ليست مكانا جيدا للحصول على المعرفة.

ولو مارس ماو الوهم الشامل فى الخمسينيات فإنه لم يتعلم منه فإن نتائج التخطيط المركزى للصين معروفة الآن جيدًا ورد فعل ماو الذى يقف له شعر الرأس كان غير عادى هو لا يستطيع قبول ما تحقق من نتائج لأنه لا يقبل بأن الاشتراكية متصدعة كفكرة سياسية، والسياسات الاقتصادية يمكن أن تتم بأقل قدر من الأوامر وسلم ماو بذلك تحت ضغط من لـــ(ليوشاوتشى)، دينج إكسياو بينج، وبينج دى هواى ولكن الخط السياسى للوثبة العظمى للأمام كان لا يمكن تغييره ولا انتقاده.

رغم هذا فإن التخطيط المركزى الشيوعى فى الصين هو سياسة اقتصادية حيث اختار ماو السماع ممن يريد سماعه حول نتائج المسيرة العظمى، وأن يلوم أعداء الطبقة على الكوارث وأنها كان لا يمكن إنكارها. وهذا الجرى وراء أداء الطبقة قلل من فرص قول الحقيقة وزاد من عمليات القمع السياسى، ماو لم يترك الاقتصاد المخطط المركزى كان يريد فقط البحث عن سبب يقدمه كضحية للفشل.

وفى النهاية فإن دولة ماو كانت معروفة ومشهودًا لها من حيث العلاقة القوية بين السياسة الداخلية والخارجية ولا يجاريها فيها أحد من القوى الكبرى حتى الاتحاد السوفيتى نفسه. عام ١٩٥٨ قصف ماو جزر (ماتسو وكويموى) بين الصين وتايوان ليس لهدف سوى الإشارة للصين وموسكو وبقية العالم أنه عاكف على سياسة داخلية نضالية جديدة "الوثبة العظمى إلى الأمام" فى العام التالى ظهرت مناوشات على الحدود بين الصين والهند وكما قال خروتشوف عن شجاعة ماو: "إنه أشعل الحرب بفانتازيا مريضة" فإن خروتشوف لم يكن مخطئًا فى فهم منطق ماو فى تحركه ضد الهند والحق أن هذا التحرك كان إشارة إلى أحلام ماو للقفز نحو الشيوعية، السياسة الخارجية كانت موجهة لتوائم منعطفًا جديدا فى السياسة الداخلية. هذه التصرفات تذهب إلى قلب مناقشتنا عن الدولة الصينية فسيطرة ماو على شعبه كانت قطعة من الخداع العقيدى والنماذج والوسائل القانونية التى تركز على الشكل مع الظهور وكأنه ينظم العالم والعلاقات الدولية.

أجندة ماو الاشتراكية فشلت فى تحقيق النتائج التى توقعها شعار "اخدم الشعب" لم يصبح خُلُق البلاد، الكوميونات جاءت ضد حب الإنسان للخصوصية واحترام المسئولية الشخصية، أعداء الطبقة كان من الصعب إعادة تشكيلهما وخاصة بعد هجوم خورتشوف على ستالين فقد صارت أهداف الإشتراكية مبهمة وغير واضحة حتى بالنسبة لماو، فى عام ١٩٦٠ وكانت قد مرت فترة قصيرة بعد الوثبة العظمى إلى الأمام فإنها صارت تترنح على الجوانب و(إدجار سنو) لما زار الصين سأل ماو ما هى الخطة طويلة المدى للصين فقال ماو لا أعرف، قال له الصحفى الأمريكى أنت حذر جدًا فرد ماو إنه ليس حذرا وقال له أنا لا أعرف فعلا ليست لدى التجربة.

الطريقة التى خاض بها ماو الأمور من البداية هى غالبا تعرض الطريقة الإمبريالية، ما كان يريد تحقيقه خلال الخمسينيات كان أبعد من

الطريقة الإمبريالية ولكن فى نهاية الخمسينيات وما بعد ذلك فإن (كيف) أخذت مكانها (ماذا) ولما تراجعت الأهداف فقد صارت الطرق والغرائز فى المركز والبؤرة وهذا ما جعل من ماو إمبراطورا وأقل اشتراكية. وفى لحظة صراحة عام ١٩٦٦ قال عن الحزب الشيوعى "هى ملكية أو أن حزبنا هو الوحيد المسموح له بالوجود" فهل كان ينظر فى المرآه؟ بالتأكيد أنه كان شيئا كبيرا وعى ماو عن الطريق الموازى بين حزبه البروليتارى والملكية الصينية، وقال ماو: "الفلاحون هم فقراء وبيض" قال هذا بما يعطى صدىً لعلو البلاط الملكى الأسرى تجاه ريف الصين وقرى الصين فى أواخر الستينيات، وفى وحدات العمل كان الناس ينحنون ٣ مرات أمام وجه ماو القمرى ثم ينحنون أمام الصورة حيث يقدمون تقارير للرئيس عما فعلوه منذ الصباح، وفى الجرائد والمجلات فإن الاقتباسات من كلام الزعيم ماو تظهر فى أعلى الصفحة، كما أن كلمات الإمبراطور كانت تكتب بحروف أكبر. حكمة ماو وأفكاره جعلت الأعمى يرى وجعلت الأصم يسمع كما ذكرت وسائل الإعلام الرسمية، وفى الطائرات كانت الرحلات تبدأ بحمل المضيفة نسخة من قبسات من كلام الرئيس ماو حيث تقرأ فقرة مختارة للركاب، وفى عام ١٩٧١ على رحلة من بكين إلى (إكسيان) أتذكر أننى سمعت صوتاً يعطى الاقتباس "لا تخش المصاعب لا تخشى الموت" قبل أن يبدأ محرك الطائرة فى العمل.

ظهرت بطانة من الأقارب والمتزلفين حول الزعيم ماو وغالبا كانت تحل محل أجهزة الحزب الشيوعى وزوجة ماو السيدة (جيانج كينج) صارت هى ووزير الدفاع لين بياو أقرب السياسيين المتصلين به رغم أن جيانج قبل ١٩٦٩ لم يكن لها منصب كبير فى الحزب وابنة ماو (لين نا) صعدت إلى منصب رئيس التحرير فى صحيفة جيش التحرير اليومية وهو منصب أكبر من خبرتها وقدراتها، وابنته الثانية (لين مين) وعمرها ٢٧ سنة رأست لجنة

العلوم والتكنولوجيا المسئولة عن تنمية الأسلحة النووية فى وزارة الدفاع، وعندما تراجعت صحة ماو فإن ابن أخيه (ماو يوانكسين) صار رئيس هيئة موظفيه الفعلى الذى تحكم هو وصديقته (زهانج يو فينج) فى الدخول إلى أماكن إقامته وفى التمويل وفى أوراقه. وزير الدفاع لين بياو اليسارى الضليع صار يتصرف بطريقة إمبريالية خلال الثورة الثقافية وأصدر تعليماته للبوليس للبحث عن تلميذة مدرسة عليا جميلة الشكل وحسنة المظهر لابنه (لى جوو) كما أمر بالبحث أيضا عن زوج مناسب لابنته (لى هينج). ولما فقد (لين بياو) منصبه وحياته عام ١٩٧١ بعد الخصام مع ماو فإن المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى طرده مرة واحدة وإلى الأبد وطرد الشخص يعطى الإيحاء أن الحزب كان مثل البلاط الملكى وراء التاريخ وجزءا من الكون الأكبر.

وتحت حكم نظام (نانجينج) فإن الأجانب يعيشون ويعملون فى الصين دونما صعوبة، لكن عصر ماو أتى مرة ثانية بعقدة الخوف من الأجانب التى كانت موجودة لدى بعض الأسرات الملكية وفى دراسة عن أسرة الكينج وعلاقاتها مع الألمان فقد كتب (جون ويلز) أن الأجانب فى الصين يمثلون خطرا عاما للتسميم الثقافى، أيضا لم يكن هناك أى طقوس فى الصين لمقيمين فى الإمبراطورية ممن يتبعون أميرا آخر وكثير من هذا كان صحيحًا فى الصين خلال الخمسينيات والستينيات ما عدا الدبلوماسيين الأجانب وبعض شعوب العالم الثالث. وجهاز أمن دولة الحزب يرى أن الأجنبى غير الرسمى فى الصين كجاسوس وإذا لم يكن جاسوسا فهو لا يمكن أن يفهم وضعه فى نظام الصين الاشتراكية.

ابن رئيس الدولة ليو شاوتشى واسمه (يون رو) وقع فى حب فتاة روسية صغيرة حينما كان يدرس فى موسكو فى الخمسينيات والداها لم يسمحا بالزواج من أجنبى قال ليو شاوتشى إننى زعيم سياسى وعندما تدخل

بيتى فقد دخلت السياسة رافضًا الزواج بأجنبية، وعندما استمر يونرو فى كتابة خطابات لصديقته فى موسكو فإن ليو شاوتشى أصدر تعليماته لوزارة الطيران التى تشرف على وحدة كلية الشباب أن تضع سكرتيرات جميلات ونجمات الأفلام فى طريق يونرو.

وفى إحدى الليالى بينما كانت عائلة ليو تتابع فيلما اسمه Five Golden Flowers فإن زوجة ليو (وانج جيوانجمى) وزوجة أب يونرو سمعت يونرو يثرثر عن البطلة أنها جميلة قائلاً (إنها جميلتى) وفى اليوم الثانى كانت وانج على طائرة إلى (كيو مينج) فى جنوب غرب الصين حيث تعيش الممثلة، وقالت زوجة رئيس الدولة للممثلة أنهم ينتظرونها للمقابلة فى بكين وبعد عدة ليالٍ تم تنظيم عشاء فى بيت ليو مع جميلة كيو مينج على المائدة وحاول الرئيس وزوجته ولم ينجحا أن يدفعا يونرو والممثلة معًا حتى يخلصاه من حبه للروسية، لكن الحبيبين استمرا من خلال الكتابة إلا أنه أثناء الثورة الثقافية فإن يونرو وبسبب كتاباته المتبادلة مع حبيبته الروسية اتهم بأنه جاسوس للأجانب وقضى ٨ سنوات فى السجن، ولما أفرج عنه عام ١٩٧٤ أصيب بمرض عقلى وبعد ٣ سنوات وكان مازال غير متزوج ووالده توفى وزوجة أبيه فى السجن، مات حزينًا بمرض فى رئتيه.

ولما قابل ماو خروتشوف فى بكين عام ١٩٥٩ سأل ماو سؤالا: "كم غازٍ غزا الصين؟" وقال مجيبا: "كثيرون، لكن الصين استوعبتهم جميعًا"، فلماذا قام ماو بعمل هذه البروفات للتعاون مع الأجانب فى ظل وجود الرئيس الروسى ولم يتركه فى شك لمدة طويلة واستأنف حديثه بالقول عندك ١٠٠ مليون وعندنا ٧٠٠ مليون وبعد عدة سنوات عندما سقط خروتشوف من السلطة قال ماو إنه سيمنح الرئيس السوفيتى السابق حجرة فى جامعة الصين لدراسة الماركسية لو أراد أن يدرس عملية استيعاب الأجانب، وكأن ماو كان يعيد بناء التاريخ كى يدفع المشروع الإمبريالى للحزب الشيوعى السوفيتى.

مصطلح الكوميونات والقفزة العظمى على عكس مصطلحات القانون الشيوعى رجع للوراء إلى مفهوم الشيوعية البدائية وصار ممكنا فهمه دونما إشارة للفكر الماركسى الأوربى وقد كانت هذه الإشارة صدمة من الصعب على خروتشوف ابتلاعها وهو ما لم يكن يستطيعه مع ستالين بسبب خصوصية اللغة الصينية ومفرداتها وقال ماو لخروتشوف: "كل العالم يستخدم كلمة كهرباء لقد استعاروها من اللغة الإنجليزية لكننا فى الصين لنا كلمتنا الخاصة بنا".

ماو الإمبراطور الجديد كان يحكم وكأن أسرة الكينج لم تسقط وأن(صونج جياورين) لم ينجح فى انتخابات ١٩١٣، وبأن صن يات صن لم يصدر دستوره الديموقراطى ولم يحاول أن يبنى جمهورية قبل الديموقراطية فى نانجينج. والحقيقة فإن إعلانه عن ديموقراطية جديدة فى فترة يونان التى أعقبت المسيرة الطويلة كانت مجرد خداع لقد كانت ثورة مضادة ضد ثورة ١٩١١. ومفهوم ما كتبه المؤرخ (ألكسندر وودسايد) عن "الملكية المتخفية وراء قناع فى الصين المعاصرة".

وكانت هدية ماو إلى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك بعد أن احتلت بكين مكان تاى بيه عام ١٩٧١ بما يعطى رمزا لجمهورية الصين الشعبية لدعم شرعيتها حسب التقاليد الصينية، وكانت الهدية المختارة بساطا صينيا ضخما عليه رسم سور الصين العظيم وضعت فى القاعة الشمالية للأمم المتحدة وقال الناطق باسم المنظمة الدولية أن سور الصين العظيم يعبر عن نظرة جديدة وأسلوب جديد للصين الجديدة وكان هذا تعليقًا له مغزاه على أيقونة عمرها ٢٠٠٠ عام، ولربما كانت الهدية مناسبة لأن السور العظيم هو شعار وعلامة على الاستبداد والوطنية وكلاهما صار لا يمكن فصلهما عن بعضهما فى صين ماو.

ولما مرض ماو وضعفت صحته برزت - عارية - الحرب على خلافته عام ١٩٧٢ كان الركنان الأساسيان أو القطبان شواين لاى وزوجة ماو جيانج كينج، وفى يوم ما فإن شواين لاى أبدى قلقه من رفض ماو للعلاج الصحيح لرئته وقلبه وذهب للحديث مع ماو وكان طبيب ماو حاضرا وكذلك زوجته وكان ماو جالسا على أريكة ورأسه للخلف وعيناه مغلقتان ويتنفس بصوت عال وكانت زوجته لا تحب الطبيب وترى أن الدواء هو محاولة لدس السم لماو وكان شواين يرى ضرورة اتباع تعليمات الطبيب، ولما شرح الطبيب الدواء فإن ماو أبدى تذمره من كل الحبوب الطبية وقامت زوجته بطرد الطبيب من الحجرة قائلة له: "لن تمارس ألاعيبك هنا مرة ثانية" ونادى ماو على الطبيب وقال له: "لن آخذ دواء ولا الدواء التقليدى العشبى" وتحدث إلى تشواين قائلا إن صحته ضعيفة جدًا وكل شيء يعتمد عليه ورد شواين بأن كل شيء سيتحسن، وقال ماو إن عليك أن ترعى كل شيء بعد وفاتى وهذه هى إرادتى وكانت زوجة ماو تتابع ذلك فى هلع.

وفى عصبية اتجهت زوجة ماو لعقد اجتماع عاجل للمجلس السياسى للحزب وقالت لهم: "إن الزعيم فى حالة صحية جيدة ولماذا تطلبون منه نقل السلطة إليكم؟" (موجهة حديثها إلى شواين)، لكن فى صين ماو كما كان الأمر أيام الأسرات الملكية فإن الانتقال السلس للسلطة هو أمر مستحيل.

وبعد وفاة شواين لاى فإن دينج الذى أعاده ماو عام ١٩٧٣ صار هو المنافس الأكبر لزوجة ماو من أجل الوراثة مما أدى لتعكير المياه، وقام ماو بسرعة برفع منصب (هوا جيوفينج) الذى وضع فيه ثقته، وفى إحدى الليالى فى أبريل سنة ١٩٧٦ خرج ماو من سريره ليتحدث لمدة عشر دقائق مع رئيس وزراء نيوزيلاندا وقبل عودته إلى السرير كتب رسالة إلى هوا جيوفينج قال له فيها: "معك إننى أحس بالراحة وأنت فى مكانك"، ماذا كان

يعنى ماو؟ هل كان يعنى اجتماع المكتب السياسى التالى؟ أو توديع رئيس وزراء نيوزيلاندا إلى بلاده؟ أم يعنى مستقبل الصين؟

وخلال الستة أشهر التالية فإن عدم الوضوح أدى إلى المؤامرات والتصفيات والتطهير والاعتقال والتعبئة العسكرية وغياب كل الإجراءات الدستورية. ولآلاف السنين فإن الحديث عن تزوير وصية الأباطرة الأخيرة عادت من جديد وفى صين ماو فإن شكل صدى هذه الممارسات مستقبل الشعب الصينى.

اعتاد ماو تقسيم تاريخ الحزب الشيوعى الصينى (قبل سيطرته عليه) إلى خمس أسر والأستاذ (شين دوكسيو) وآخرون قادة الحزب فى العشرينيات والثلاثينيات قال عنهم إنهم شر وأباطرة فاشلون. وزملاء ماو بدأوا ينظرون إليه كإمبراطور جديد فقد كان ماو مشعًا كما لاحظ (زاهانج وينتيان) وهو سفير سابق فى موسكو انتقد الوثبة العظمى للأمام لكن مثل ستالين الأخير فقد كان قاسيًا جدا فى عملية تصحيحه للشعب، ولما سمع (بينج ديهواى) الذى كان وزيرا للدفاع عام ١٩٥٩ وتم تطهيره، لما سمع ملاحظات زاهانج علق بالقول إنه دائما خلال تاريخنا فإن الإمبراطور الأول فى كل أسرة كان فى ذات الوقت لامعًا ووحشيًا قاسيًا. ماو الذى كره كونفوشيوس منذ كان عمره ثمانية أعوام قام بتطهير الفيلسوف الشهير من حدود فضاء وعقل جمهورية الصين الشعبية، ولكن ماو نفسه فى استخدامه الأيديولوجية الشيوعية كرر الدور الهيكلى للكونفوشيوسية فى الدولة الصينية، إن البناء الأساسى للكونفوشيوسية فى السياسية العامة كان فى بعض الأوقات ضد الالتزام الحرفى بالقانون والواقعية وفى أوقات أخرى مكملاً لها، ودولة ماو أظهرت تحديثًا لفيضان أو نقص بين الكونفوشيوسية باعتبارها قيم سلوك الشعب والالتزام الحرفى بالقانون والواقعية، وهى أساليب السيطرة من أعلى وفى ظل ماو والكونفوشيوسية - والتى وظيفيا - سميت فكر ماو مثل أفكار

كونفوشيوس ومينوسيوس فإن فكر ماو كان طريقة معنوية تهدف إلى إرشاد السلوك فى المجتمع وقيادته لكن الماويين وجدوا كما وجد الكونفوشيوسيون قبلهم أن الطريقة المعنوية لا يتمسك بها عادة معظم الصينيين ويعتبرون شعار "اخدم الشعب" أقل جاذبية من شعار "اخدم نفسك" وأحيانا الأيدولوجية يتم التلاعب بها لأهداف سلطوية، وتقليديا يأخذ شكل تكييف القانون وامتصاص الكونفوشيوسية من أجل أجندة القانون والنظام، وفى عصر ماو أيضًا، كان هناك كلا من التوتر والتعايش بين القيم والسياسة الواقعية.

وحكم ماو بخليط من القانونية الجديدة والكونفوشيوسية الجديدة، كانت القانونية الجديدة هى اللينينية مطعمة فى هياكل الدولة منذ شيانج كاى تشك ويوان شيكاى بعد ١٩٤٩، والكونفوشيوسية الجديدة كانت هى الماركسية محورة بالفلسفة المثالية لماو المتأثر بالفوضوية والاشتراكية الأخلاقية، وقد خلط ماو وتلاعب وتصارع مع متناقضات هاتين الفلسفتين العامتين.

أحيانا يضع ماو الطريقة الأخلاقية أولا وفى قمة عدائه للولايات المتحدة؛ حيث إن السياسة الواقعية تحتم تقوية الجسور مع الاتحاد السوفيتى، فإن ماو فعل العكس فى منتصف الستينيات وحيث الحرب تستعر فى فيتنام ولاوس وكامبوديا، فإنه قام بالتصعيد واستنكاره الأخلاقى لموسكو. فى وقت آخر وضع السياسة الواقعية أولاً وفى عام ١٩٦٨ لما تحولت الثورة الثقافية للطائفية والفوضى، فإن ماو بدأ يهتم بالمثاليين اليساريين، هو يريد الصراع الثقافى وليس الصراع المسلح، وقال بهذا فى تراجع عن تعاليمه السابقة، إنه نموذج شائع فى تاريخ الصين: الحديد والحرير يملكان معًا عادةً.

وفقط لأن الإمبراطور (كين شيهوانج) بنى دولته فإن الطريقة الأخلاقية للكونفوشيوسية استمرت كعقيدة للدولة وعلى المدى الأطول وفقط لأنه كان هناك كين شيهوانج فإنه لابد أن يوجد الزعيم ماو باعتباره اشتراكيًا أخلاقيًا. احتاج ماو للإطار القمعى للقانونية الجديدة لبناء جمهورية الصين الشعبية

وماو يعرف ذلك كما كتب فى قصيدة، فإن كونفوشيوس رغم شهرته فإنه كان لا شيء "قمامة" لكن نظام الكين قد بقى من عصر إلى عصر.

هل كان هناك انشقاق فى صين ماو؟ بالفعل كان، ولكنه أخذ شكل شكوى البلاط الشائع فى عصر الأسر الملكية فى الصين، فالناقد الكونفوشيوسى لم يواجه الإمبراطور مباشرة لخلاف أساسى حول فلسفة الحكم ولكن طلب باحترام إلى الإمبراطور أن يقوم بتحسينات فى الضواحى. وفى عصر ماو كان هناك قلة من المثقفين والشخصيات الدينية ورجال الأعمال والطلبة وغيرهم ممن تجرؤوا على النقد بالأسلوب نفسه. فى أبريل عام ١٩٧٦، وإثر وفاة شواين لاى رئيس الوزراء قبل ماو، والخوف من اتجاه السياسة الصينية إلى اليسار وحدثت مظاهرة من ١٠٠ ألف شخص استمرت ١٤ ساعة اعتبرها النظام أنها ضد الثورة، وكانت أكبر تعبير عن المقاومة الشعبية فى عصر ماو، وقد رفعت أثناء المظاهرة هتافات تقول إن يوم (كين شيهوانج) قد تم.

فى عام ٢٢١ ق.م أنشأ (كين شيهوانج) نظاما جديدا فى إكسيان وماو أنشأ نظامًا جديدًا فى بكين، وكلاهما جاء بعد فترة اختلاف ومعاناة وكلاهما كان معهما مهندسون اجتماعيون ويبغون الارتفاع إلى مستويات أعلى وأصروا على لغة واحدة وعملة وأورثوذوكسية وولاء، وبدأوا بالمشروعات الضخمة المكلفة وكلاهما تخلص من الدوقيات والإقطاعيات ورجال الجبال وبقايا النظم القديمة واحتقروا التجار كما أن كليهما قمع بيده أصوات المثقفين ذوى النغمات المتناثرة. وكل ديكتاتور اخترع لنفسه اسمًا ولقبًا ليتسق مع مشروعه الكبير والحاكم منذ ٢٠٠٠ سنة سمى نفسه (كين شيهوانج)، كين كان اسم العائلة وشى معناها الأول على الكل باعتبار الاستمرارية، وكين كان أول إمبراطور، وحاكم القرن العشرين سمى نفسه chairman وهو

مصطلح لطيف من كتب الشيوعية الدولية لم يكن أى زعيم للصين اسمه الرئيس لكن فى نفس الوقت فإن خمر الإمبريالية داخل الزجاجة البيضاء لا يمكن إنكارها، وخلال عقدين من الزمان ظهرت ألقاب فخمة مع صدىً كوزمولوجى كوكبى وتوج ماو بأنه "الشمس الحمراء لقلوبنا" وكان صدىً لهذه الألقاب ومنذئذ علم ماو أنه فى صف الأباطرة وقد قال عام ١٩٦٤: يجب أن نصدر أوامر محددة. وعندما كان يرتفع نجم ليو شاوتشى كان ماو يعد مؤامرة ويقول يجب أن يكون هناك إمبراطور، على نمط كين شيهوانج من هو؟ إنه ليو شاوتشى "إننى مساعد له" ولقد كانت هذه ملاحظة خائنة، لقد كان ماو قاسيًا فيما كان يريد أن يبدو متواضعًا. وبعد الخلاف الروسى الصينى، كان ماو يرى الحقيقة من العدو القديم الحزب الشيوعى الصينى، لقد قال عنه شان كاى تشك أنه نما فى الاتحاد السوفيتى وماو لما رفض روسيا كان يطعم اللينينية بالأوتوقراطية الصينية، وسمى (فريدمان) هذه النتيجة "قيصرية الكين اللينينية" كل من شيهوانج وماو تسى تونج عندما توفيا تم دفنهما فى مقابر عظيمة وفخمة كما تم انتقادهما بشدة ووصيتهما جرى تزييفهما ولويها، ولكن الإطار الحديدى لنظاميهما وحيث يستعير كل منهما من الآخر استمر رغم فجوة ٢٠٠٠ سنة.

لقد كان لماو ثلاثة أهداف:

١. <u>هدفه القومى:</u> جعل الصين موحدة قوية آمنة كما أسس أباطرة قبله وهذا جرى عمله بالفعل فى الخمسينيات.

٢. <u>هدفه الاجتماعى:</u> جعل الصين تعيش نظام مساواة وتخطيط المجتمع كما تعلم من كارل ماركس وغيره من الاشتراكيين. شعار ماو "حارب نفسك" يعنى أكثر من "لا تكن أنانيًا". ماو كان يقول إن الفرد لا يمكنه العيش فى فضاء خاص خارج التوافق الاجتماعى، المجتمع المحلى الحقيقى

كان جريمة بالنسبة لماو، السماح بالتعددية يعنى ٨٠٠ مليون أنانى، و"حارب نفسك" مبدأ أخلاقى وحتمية اجتماعية يعنى أن تكون مع الفريق، وهذا الفريق هو الحزب الشيوعى الذى يرأسه الإمبراطور ماو تسى تونج، عملية التحول الاجتماعى تكرر فشلها لكن ماو لم يتخل عن الهدف مثل لاعب التنس الذى يأخذ خمسين ضربة أكثر بعد خطأ مزدوج فى محاولة يائسة للصراع الطبقى العالمى، استمر يحاول فى أخذ كرة أخرى وتغيير السرعات وإضافى خيط جديد إلى جهوده.

٣. **هدف ماو الشخصى:** تحويل نهايته كبشر بإعادة إحياء الثورة الصينية ووضعها فى شكل لا يمكن تغييره، هذا الهدف جاء إلى المركز فى العقد الأخير لماو لما تحقق الهدف القومى بينما فشل الهدف الاجتماعى ودخل مرحلة الخمود.

واحد من كبار مثقفى الصين فى العشرينيات اسمه (هو شى) الذى اختار فيما بعد الليبرالية فيما اختار ماو الشيوعية غداة وصول الشيوعيين ١٩٤٩ للسلطة قرر أن يذهب مع شيانج كاى تشك والذى كان قد نقده بحدة إلى تايوان، وشرح للحزب الوطنى أسباب ترك منزله فى بكين وحدد الاختلاف بين السلطوية والشمولية وقال "السبب الأول: لماذا تفضل العناصر الليبرالية أمثالنا الالتحام مع الشعب؟ لأنه تحت نظامكم نتمتع بحرية الصمت ولكن تحت النظام السلطوى فإن هناك أشياء كثيرة ولكن الأشياء الباقية يمكن عملها وفى ظل الشمولية هناك أشياء كثيرة ممنوعة والباقى يجب أن تفعله: الصمت غير مقبول فى دولة ماو".

التاريخ أعطى لماو تفويضه، فى نظام ماركس الحركة للأمام من الإقطاعية للرأسمالية للاشتراكية ثم للشيوعية، هذا التفويض كان مشابهًا للتفويض الإلهى السماوى لأنه يأتى من أعلى والتعاهد مع الشعب لا يمكن

مقارنته مع المصير الإلهى السماوى الذى يتمتع به الإمبراطور أو الأهداف المخفية للتاريخ كما يحدد المستقبل الماركسى. فى الثورة الثقافية، صار ماو تسى تونج كالإله فوق دولة حزبه أكثر من فترة يوان وصن يات صن وتشيان كاى تشك، لقد تدحرج وتزلج بذكاء إلى نموذج الإمبراطور، وفى منتصف السبعينيات بدأت الصين الشعبية تتحول ليس إلى حل مشاكلها ما قبل ١٩١١، ولكن لتعبير جديد طازج عنها.

الفصل السادس

أمك ما زالت هى أمك

(لقد تركت لنا الصين القديمة تقليدا للأوتوقراطية أكثر من تقليد ديموقراطى وحكم للقانون)

دينج إكسياوبينج ١٩٨٠

(فى دولتنا الحزب الشيوعى يقود كل شىء)

زهانج يويويو، مشرع كبير ١٩٨١

(من سنة لأخرى فإن قصة السياسة فى الصين فى القرن العشرين فوضوية ومتعددة التوجهات. وخلال القرن فإنها تدور حول المسيرة التى لا تنثنى للدولة المركزية)

فيليب كوهين

فى الذكرى السنوية الأولى لانتهاء الحكم الإنجليزى لهونج كونج قام الرئيس جيانج زيمين بزيارتها عام ١٩٩٨حيث وصل إلى مول الميناء الجديد واستعرض الوجوه المبتسمة والصينيين الجنوبيين والمحلات اللامعة، ويعرف القليلون أن زيارة الرئيس التى استمرت لعشرين دقيقة قد سبقتها عملية تجديد شاملة وقبل شهر من الزيارة فإن مول المدينة الجديد قد تم إعادة تنسيقه من الداخل والخارج وتجديد النافورة الموسيقية وتجديد كل أبواب دورات المياه كما تم إخلاء أربعة أدوار من المول قبل الزيارة ولم تكن حكومة بكين أكثر بروليتالية للوصول إلى الحل الإمبريالى وقد تم إيجار أربعة محلات لوفد المقدمة لمدة ٣ أسابيع لتبدو المحلات مزدهرة، ووجد

الإمبراطور مملكته على أفضل صورة، كان يلبس بزلة غربية غامقة اللون ونظارة كبيرة سوداء، ابتسم ابتسامة واسعة وكأن وجهه انقسم إلى نصفين.

وتوجد انقطاعات بين الدولة الإمبريالية ودولة الحزب الشيوعى، فى الوقت نفسه فإن مشاكل كثيرة تواجه دولة الحزب أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين تشبه تلك التى كانت فى عصر الأسرات الملكية: علاقة المركز بالأطراف (المتوترة)، النقص فى الموارد على فترات حيث ترتفع نفقات الدفاع - الصراع بين الرشادة الاقتصادية والنقاء الأيديولوجى- قلاقل الفلاحين عندما تشتد الضرائب - الحاجة لرموز تركيزًا على الولاء لمملكة واسعة جدًا.

هذه التحديات كانت وهى بالفعل لم تحل إلا نادرًا، بالعكس لقد استمرت وتكررت فى أشكال مختلفة، ومن هنا فإن نموذجًا مزدوجًا وجد فى كل من الصين الإمبريالية وجمهورية الصين الشعبية، فالمشروعات الجديدة فى كل مكان ولكن عجلة العمل تترك مجالات كثيرة لم يتم حل مشاكلها والأمر يعتمد على عنصرالوقت للتحليل، لهذا فإن الإنسان يجد استمرارًا لمزيد من عجلات العمل وراءه عدم استمرار للسياسات.

منذ عام ١٩٤٩ وبشكل مختلف بعد عام ١٩٧٨ الحزب الشيوعى وافق على نوعين مختلفين من التعاون معروفين تمامًا من ماضى التاريخ الصينى. وبالنسبة لماو فى الخمسينيات والستينيات كان الاتحاد السوفيتى هو الشريك. ثم فى عصر دينج إكسياو بينج وجيانج وهو جينتاو فقد مارست الصين التعاون مع الغرب ورأس مال شرقى آسيا الأجنبى، التغيير فى النموذج للمشاركين جعل بعض المحللين يرون أن الاشتراكية قد تم تغييرها إلى الرأسمالية.

وعنصر الاستمرارية بين هذين التعاونين فى عصر جمهورية الصين الشعبية هو أن الصين أرادت أن تكون شعلة تقدمها من خارج الصين، تبدو كأنها تركت موسكو من أجل وولستريت ورجال الأعمال فى شرق آسيا من ذوى العرقية الصينية.

والملاحظ أن شنغهاى بعد ١٩٤٩ والتى كانت قبلها كوزموبوليتانية عالمية قد انتهت كما كتب (وانج جونجو وو)، وكان على أهل هذه البلدة أن يصبحوا صينيين حتى نخاعهم، لم يطلب منهم العودة إلى التقليد العظيم ولكن ليكون إسهامهم فى خلط البساطة الفلاحية والتجربة الاشتراكية والتى كانت هى صين ماو. ولما تم خروج الماوية من الشباك عام ١٩٧٨ وكان يجب إعادة ميلاد هونج كونج فإن الصين التقليدية لم تعد، ولكن فقط تم التعاون مع رأس المال الأجنبى وتجديد نظام الميناء، وفى شنغهاى عام ٢٠٠٣ نجد كلا من ناطحة السحاب والحى المالى الدولى وعلى الضفة الأخرى من النهر مدينة صينية جديدة بتراث تقليدى صينى، هذه الثنائية تحمل من الفترة الإمبريالية الفرق بين الامتيازات الأجنبية ومدن الصين التقليدية.

استمرارية ثانية بين جمهورية الصين الشعبية قبل وبعد موت ماو ١٩٧٦و تقع فى شخصية الدولة الصينية، حيث كانت هناك تغييرات اقتصادية واجتماعية تحت حكم دينج وجيانج ولكن بعد ربع قرن من وفاة ماو فإن الدولة الصينية هى دولة غير منتخبة أبوية لها عقيدة وإن كانت ضعيفة ولديها هوس بالسيطرة ومشروع من أعلى ويتملكها شعور بالحتمية التاريخية.

والخلاف الحاد فى الروح بين سنوات ماو وسنوات دينج وزيمين تأتى من عملية تعديل الازدواجية السياسية القديمة بين الفضيلة والقوة.

لقد دخلت الصين العالم الحديث ليس بترك تقاليدها الإمبريالية كما كتب (فير بانك) عن أسرة الكينج لكن بمواءمة من أجل مواجهة مشاكل منتصف القرن التاسع عشر. شيء مشابه وصار واردًا في جمهورية الصين الشعبية حيث واجهت مشاكل القرن العشرين من خلال نموذجين للتعاون مختلفين اختلافًا حادًا الخلط بين الفضيلة (المثالية الاشتراكية) والقوة (سلطة لينين) تغيرت ولكن الدولة الكونفوشيوسية القانونية الجديدة استمرت.

سئل دينج هل ستتسبب سياساته الجديدة في الثمانينيات في خطر على الصين فرد بهز كتفيه وأشار إلى ماو قائلا إنني قصير وصغير، ولو سقطت السماء فأنا لست مسئولا عن رفعها كطويل وكبير، كان طول دينج خمسة أقدام وبوصتين وعمره ستين سنة ورأسه على كتفه دون رقبة وفي حضوره كان لا يقارن مع ماو الذي يفرض نفسه.

لقد ولد لعائلة غنية من ملاك الأراضي في جنوب غرب ولاية (سيشوان) عام ١٩٠٤ وقد ذهب دينج إلى فرنسا والاتحاد السوفيتي وعاد عام ١٩٢٦ وترقى في الحزب الشيوعي مبتعدًا عن الصراعات الداخلية، وأسهم في المسيرة الكبرى في منتصف الثلاثينيات، وتعلم قوة النيران.

ولما سيطر الشيوعيون عام ١٩٤٩ صار دينج رئيسا لمنطقة جنوب الغرب المحلية، وفي منتصف الخمسينيات صار سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعي، ولما دشن ماو القفزة العظمى للأمام ١٩٥٨ فإن دينج ولأول مرة أدرك أن رئيسه ومعلمه يمكن أن يخطئ خطأ كبيرًا وكان عليه أن يواجه الحقيقة الماثلة أن أكثر من ٣٠ مليون شخص ماتوا في مجاعات القفزة العظمى وهو عدد يفوق ضحايا الحرب ضد اليابان ولكنه آثر الصمت، وفي بداية الستينيات بدأ في تجميع أفكاره فيما اتجه ماو للانكفاء على الذات.

كان الولاء الشيوعى قوة أثبتت نفسها فى الثورة الثقافية فى الستينيات وحاول دينج تهدئة ماو من خلال المشاركة فى إدانة رئيس الدولة ليو شاوتشى، لكن دينج نفسه كان يبدو أن عليه الدور ليضعوه فوق النار المشتعلة، ثم دمغوه بأنه الشخص الثانى فى السلطة الذى يأخذ الطريق الرأسمالى وأرسلوه إلى الجنوب ليعمل فى إصلاح الجرارات فى مقاطعة (جيانكسى) وبعد وفاة ماو عام ١٩٧٦ حاول الرجوع إلى السلطة من خلال الالتماسات وكانت منافسته الرئيسية أرملة ماو جيانج كينج قد تم اعتقالها بعد شهر من وفاة زوجها لتقضى بقية حياتها فى الحبس، كما أن نصف أعضاء المكتب السياسى لحزب ماو جرى اعتقالهم، ودينج باعتباره ضد ماو صار من الرابحين وجيانج كينج باعتبارها امتدادًا لماو باءت بالخسران.

لقد وصل دينج إلى السلطة عام ١٩٧٨ وحكم حتى وفاته عام ١٩٩٧ لكن بسبب حادثة تيان أن مين ١٩٨٩ فقد قام دينج بإسقاط وريثه المتوقع (زهاو زيانج) وعين (دينج) (جيانج زيمين) رئيسا للحزب الشيوعى وجيانج كان مهندسًا بالتدريب أخذوه من وظيفته فى شنغهاى ليكون الضابط التنفيذى للإمبراطور الجديد دينج.

فى منتصف التسعينيات كان جيانج يدير الدولة أساسًا فى ظل دينج الذى كان يعطى أحكامه بسرعة من على مائدة البريدج وقد بدا جيانج لكثير من الصينيين، كأنه شبه مصنَع مع ابتسامته الكبيرة وعادته فى الغناء وتمشيط شعره أمام الناس وصعوبة تحديد ما يعتقده، لكنه أول زعيم لجمهورية الصين الشعبية خريج للجامعة يتحدث بعض اللغات الأجنبية ودرس فى الاتحاد السوفيتى وعاش الفترات العصيبة وتخطاها. ماو كان مدرسًا أيديولوجيا ومحاربا، دينج كان منظما ومحاربا، جيانج كان فنيا وله ماضيه المهنى فى صنع الآلات والإلكترونيات. وعلى عكس ماو ودينج فإن

جيانج لم يخضع للتطهير ويعرف القليل عن صراع أكل الكلاب لبعضها، كما أنه ليس لديه مزاج ماو ودينج الناجم عن العمل فى الحزب الشيوعى والحرب على اليابان وتشيان كاى تشك (وقال جيانج عن نفسه بحق وعن مهنته كمهندس ومدير: "لقد صعدت السلم درجة درجة")

عصر دينج/جيانج جاء ومعه عدد من التحسينات الكبرى فى الصين على الرغم من أن لها كلها حدودًا. وأسفرت عن آثار جانبية بدت معها الطبيعة المتناقضة للدولة الصينية وحاجتها للتشبث بالقومية كمناط للشرعية. فترة ما بعد ماو فكت وثاق الصين من الأيدولوجية، ودينج لم يكن خاصة مكرسًا للماركسية كشاب مما جعل من السهل عليه أن يهز بعضًا من أركانها ويتخلص منها، والإشارات الماركسية فى كتاباته تبدو فاترة وخالية من الحماس. وكما قال دينج فإن ماركس وأنجلز عاشا فى القرن المنصرم وكانوا عظامًا لكن لا يتوقع منهم أن يعيشوا أو يحاولوا حل كل مشاكلنا اليوم، وبعد ١٩٧٨ بدأ دينج يعطى أهمية أقل للصراع الطبقى أكثر من ماو وبدأت الحياة السياسية تتطور فى ظل نفوذ أقل للماركسية وعندما يكون الوقت مناسبًا فإن دينج كان يوجه انتقاداته للتلوث الروحى من الغرب ويرفع شبح البرجوازية الليبرالية ليهدم معارضًا أو يحكم فى حالة انشقاق مثل هذه المناورة جعلته يطهر اثنين ممن كانوا سيخلفونه بالضبط كما فعل ماو.

وهناك ثلاث نتائج ترتبت على طبيعة الحكم فى بكين:

١- تهميش دينج للأيدولوجية، وفى المصطلحات التاريخية الهيكلية فإن الكونفوشيوسية الجديدة تركت لتنزوى، فيما أن القانونية الجديدة والتمسك الشكلى الحرفى استمر فى الحديث المعاصر، الماركسية تم نبذها وطرحها لكن اللينينية استمرت مما أعطى فكرة القانون والنظام لعصر دينج وأعطى السلطوية والتى فيما بعد عصر ماو

من وجهة نظر تناسب التنمية الاقتصادية، لقد خفتت القوة الناعمة للماركسية كعقيدة، لكن القوة العارية للدولة البوليسية استمرت، وخلال ست سنوات من عام ١٩٨٦ فإن عدد المتخصصين القانونيين ارتفع من ٢١,٤٥٦ إلى ٤٨,٠٩٨ ورغم هذا بدون حكم القانون فإن تقوية القانونية والتمسك الحرفى جرى استخدامه غالبًا لتسهيل التجارة أو كأداة قمعية حلت محل الحملات السياسية الجماهيرية لحقبة ماو.

٢- الفصل بين الإيمان الماركسى والقوة اللينينية أعطى الفرصة فى وقت الضرورة لإعادة إحياء القديم الذى ضربه ماو وعلى أحد المستويات فإن الفراغ القيمى كان يجب أن يملأ بشىء ما على الأقل لأولئك الصينيين الذين يشعرون أنهم جزء من حضارة تعيش بالأفكار، ومن الناحية الرسمية فإن العقائد الأجنبية غير الماركسية لا يمكن إدخالها فى هذا الفراغ لكن الأفكار الصينية إذا لم تكن ضد الاشتراكية والأفكار البعيدة عن السياسة كانت مرشحة لهذا الدور.

التحديث كان هو الاختراق لعصر دينج وكان يتوقع أن التوجهات الدولية ستزدرى التقاليد الصينية وبشكل ما كان هذا صحيحًا، فالصين جزئيًا مندمجة فى الاقتصاد الدولى والبيروقراطية الصينية أصبحت أكثر تخصصًا وكوزموبوليتانية أكثر مما كانت فى عهد ماو. ورغم هذا بالعودة لما قبل ١٩١١ كان لا يمكن إنكار أن المشاعر المحبذة للكونفوشيوسية قد قويت فى دوائر الأكاديميين والمثقفين، وفى عشرات الملايين من البيوت الصينية العادية بدأت المكتبات تنشط وتمتلئ بالكتب حول تاريخ أسرة الكينج حينما

كانت الصين مثلما هى فى عصر دينج/جيانج فى مواجهة حب وكراهية الغرب.

ولما سافر دينج للجنوب عام ١٩٩٢ ليعيد الحياة لفكرة الإصلاح سميت رحلته بالرحلة الجنوبية كما فعل الإمبراطور (كانج إكسى) فى الرحلة الشرقية فى بلده الأصلى فى منشوريا. وماو لم يوافق على عبادة الفلاحين للإمبراطور الأصفر وهو شخص خيالى أسطورى من ضباب ما قبل أسرة شانج الصينية (بعضهم يقول إنه حكم فى الفترة من ٢٧٩٧ إلى ٢٥٩٧ ق.م) ولكن تحت حكم دينج وجيانج يبدو أنه تم تشجيعها، لقد أشار ماو إلى يو، شون وييو كحكام أتوا بعد الإمبراطور الأصفر كأسطورة ولكن جيانج خاصة وثق ما قبل تاريخ أسرة شانج وأعطاها أولوية فى دولة الحزب وكتب جيانج أن الحضارة الصينية لها أصول بعيدة وعاشت قروناً طويلة. ومن أجل تجديد مقبرة الإمبراطور الأصفر كمجهود صارخ لإضافة ١٥٠٠ سنة لتاريخ الصين.

دينج وجيانج أقل كثيراً من ماو وجدا فى تاريخ الصين الأوتوقراطى وقوميتها العنصرية دعامة للقمع الجارى. كانت الدولة القديمة كأساس للعقيدة والقيم المعنوية صدىً لدعم دينج للحضارة الروحية الاشتراكية فى الثمانينيات. وكتب (استيوارت شرام) أن هناك خطاً مباشراً للهبوط لحقيقة أن دولة الصين كانت هى الينبوع الوحيد للسلطة بدون منافس مثل الكنيسة فى الغرب إلى مفهوم القيادة المندمجة لكل المجتمع فى دولة الحزب الشيوعى. الاستخدام الهرطقى للماضى أيضاً بدأ ينتشر ونظام التدريبات على التنفس الموجود من ٢٠٠٠ سنة كتقليد قديم بدأ يكسب المشجعين بين المهتمين بالصحة وكبار السن والمضغوطين وأصحاب الاهتمامات التى تتجاوز السياسة. الفلاحون المتشاحنون مع موظفى الضرائب أو الذين يعانون من

الفيضانات بدأوا يضعون على صدورهم شعارات الإمبراطور الأصفر والتى شعروا أنها تعطى الراحة والأمن للروح المؤمنة، وفى بعض المناسبات فإن هؤلاء الفلاحين ربطوا بين ماضيين اثنين ووضعوا صور ماو تسى تونج على أمل مشابه فى عقولهم، وحتى الركوع وهو من الماضى الإقطاعى بدأ يظهر فى بعض القرى.

واللغة تعكس أيضًا الاتجاه لإعادة إحياء التقاليد كمصطلح "رفيق" وهو ما يسبق دائمًا كل المداولات بين الأشخاص خلال فترة ماو صار لا يستخدم باستمرار فى عصر دينج وبات نادرًا خلال السنوات الأولى من القرن الـــ ٢١، والكلمة التقليدية الشيوعية للشخص الرسمى (كادر) بدأت تذبل بعض الشىء وبدأت الكلمة الصينية التقليدية "جوان" تدخل قاموس التعامل. كذلك كلمة الشعب بالمفهوم السياسى الماركسى بدأت تضعف وكانت هناك مئات المنظمات فى دولة الحزب تبدأ بمصطلح الشعب مثل مسرح الشعب، كوميونات الشعب، صحيفة الشعب، جامعة الشعب، وغيرها. وفى عصر دينج وجيانج مازالت تستخدم كمجرد طقوس لكنها فقدت بريقها ورنينها وصارت لا تطبق على المؤسسات الجديدة وبدلاً منها ظهرت كلمة تعنى المواطن بمفهوم غير أيدولوجى وبدأت تتردد أكثر على السمع وبدون دهشة، فإنه فى عملية الهجوم على حركة تيان آن مين الديموقراطية فى ٤ يونيو ١٩٨٩ فإن كلمة الشعب رميت جانبًا مثل الحلوى أو قصاصات الورق فى حفلات الزواج وجيش تحرير الشعب فى النهاية هو الذى أنقذ الصينيين من أعداء الثورة. وعلى أى حال فإن بعض الصينيين رفضوا بشجاعة مصطلح الشعب فى المعارضة والاحتجاج ضد دينج وجيانج وبعد أيام قليلة من المذبحة كنت (المؤلف) راجعًا مشيًا على الأقدام خارج فندق القصر فى حارة جولدفيش وأخذت أوتوبيسًا استرعت انتباهى ورقة صفراء على زجاج

السيارة الأمامى مكتوب عليها بحبر أسود (اجعلوا الأوتوبيسات من أجل الشعب) وخلال هذه الأيام من المعاناة والسيارات تتحرك خلال الشوارع وعليها آثار القتال رأيت إعلانات مشابهة على كثير من أوتوبيسات بكين عليها كلمات صينية تقليدية بدلاً من كلمة الشعب بالمفهوم الماركسى وكان هذا بديلاً واضحًا ومثيرا والكلمة الجديدة (من) وليس (ريمين) بالمعنى الماركسى لديكتاتورية متعجرفة مزهوة، فإن سائقى الأوتوبيسات كانوا يرجعون لفترة الماضى قبل الماركسية.

٣- الشيء الثالث مما ترتب على انخفاض مرتبة الأيدولوجية فى عصر دينج هو أن القومية دخلت فى فضاء القيم وفى فترة جيانج بدأ يرتفع الشعور بالصينية ليلعب دورا مضاعفا فى الصين فقد استخدمته دولة الحزب كفكرة تعطى الشرعية للثورة الصينية بعد الخمول الذى لحق بالإيمان الماركسى، وهذا التلاعب بأسطورة الإمبريالية والثورة هددت بوقوع الحزب الشيوعى الصينى فى خضم التعصب السياسى بعيدا عن إمكانية السيطرة عليه، رغم هذا فإن بكين نزعت الإهانة القومية بعد ضرب حلف الناتو للسفارة الصينية فى بلجراد عام ١٩٩٩ وبعد اصطدام طائرة صينية وأخرى أمريكية فوق جزيرة هاينان فى أبريل ٢٠٠١. فى كلتا الحالتين كان رد الفعل الأمريكى هو ماذا حدث؟ دعونا نعرف كل الحقائق وكان رد فعل الصين المسكوت عنه هو ما إمكانيات استخدام هذا الحدث لأهداف قومية، وبالنسبة لأى صينى صغير تعلم الكتب الدراسية فإن قتل الناتو لثلاثة صينيين فى بلجراد هو جزء جديد فى عملية طويلة من ادعاء البطولة الإمبريالية المستأسدة على الآخرين فى الصين وكل الكتب الدراسية يتم

صدورها عن دولة الحزب وتلك الكتب حول التاريخ الحديث تتلاعب بالمعنويات وتتجه لإدانة الإمبرياليين الأشرار المعادين لأبطال الثورة الصينيين، وعملية السفارة فى بلجراد هى الأخيرة من آلاف الحالات ابتداء من حرب الأفيون للعدوان الأجنبى الذى يستهدف وقف تقدم الصين.

فى عام ١٩٩٤ بدأت حكومة جيانج باختيار مواقع تعليمية وطنية، وكانت هذه بمثابة متاحف أو أماكن فعلية تتعلق بالبطولة والإهانات القومية كثير منها حقيقى من النضال ضد اليابانيين والأمريكان وغيرهم من الإمبرياليين، حيث يؤخذ الصينيون الصغار فى مجموعات لهذه الأماكن لرفع مستوى الشعور بالوطنية، حيث يسمعون من المرشدين عن السفاحين من اليابان والأمريكان والهتلريين، وفى مثل هذه الأماكن فإنه من غير المألوف وصف اليابانيين والأمريكان بالسفاحين.

مدينة نانجينج فيها ست قواعد تعليمية وطنية بما فى ذلك أماكن قتل فيها جنود يابانيون مدنيين صينيين عام ١٩٣٧ وقبل التخرج كل تلميذ فى المدرسة العليا عليه أن يقوم بثلاث زيارات من الأماكن الستة التى تسمى ضريح الذكريات.

وبدأت دولة الحزب دفع القومية فى مجال الثقافة والتاريخ. إن هناك توافقا دوليا فى مجال الآثار على أن الإنسان القديم ظهر فى إفريقيا إلا أن الصين ادعت أن حضارتها ترجع إلى ١٠ آلاف سنة وأنها كانت مهد النوع الإنسانى وأن الشعوب الأسيوية المحيطة بالصين ترجع أصولها الثقافية والبيولوجية لأصل صينى، وفى عام ١٩٩٦ عين جيانج مجموعة من ١٧٠ أستاذا لتقديم الدليل على أن أسرة (إكسيا) وهى فترة معتمة فى تاريخ الصين قبل أسرة الشانج (من القرن ١٦ إلى القرن ١١ قبل الميلاد) هى أسرة موثقة

تاريخيًا، فقط من منقوشات على عظام السلاحف والسكاكين المصنوعة من عظام الحيوانات.

حول أسرة إكسيا باعتبارها مبعثرة ومنتشرة وفى غياب أى سجل مكتوب معاصر فإن كتب التاريخ الرسمية الصينية ملأت هذا الفراغ كما تتحدث الماركسية عن مجتمع العبيد والصراع الطبقى.

وكان طلب دولة الحزب من مجموعة من المثقفين واضحا فى النتيجة التى يصلون إليها، فقد كان جيانج يريد دعم الفخر القومى لإثبات أن الصين بدأت منذ ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح، وكما هو متوقع من المؤرخين ورجال الآثار فقد جاءوا بالدليل فى ألفى تقرير تحت الإشراف الحكومى وقال رئيس المشروع إن الحزب والشعب فخورون بعملنا وأن دولة الحزب تستطيع القول إن حضارة الصين هى أقدم من هؤلاء الذين بدأوا فى مصر والهند والعراق، ولم يوجد أى أثرى أجنبى من الـــ١٧٠ أستاذا الذين فحصوا الحقائق الفنية من (إرليتو) جنوب النهر الأصفر فى مقاطعة هينان والتقرير كان بديلاً مؤقتا مؤلفاً من شظايا، ويتجاهل الدليل الذى يجلو الحقيقة عن أسرة إكسيا. الأثريون الدوليون غير متأكدين هل الأشياء الفنية التى جمعوها هى لأسرة الشانج أم لفترة أقدم؟ والتقرير شكلى حول التركيز على مجرد التواريخ، هى لم تقل فى أى إقليم تكونت أسرة إكسيا ولم تقدم حقائق حول أباطرة الأسرة وقالت القليل عن الاختلافات الأساسية بين الشانج وإكسيا ومحاولة الانتصار بالنتائج العريضة حول أقدمية حضارة الصين قد تم تزويرها للعالم وقد لخص مدير الآثار فى الأكاديمية الصينية فى تايوان المشروع بالقول إنه مشروع سياسى كبير وليس مشروعا أثريا كبيرا لقد أصبحت الأسطورة التاريخية سلاحا سياسيا.

وهناك دور آخر للقومية لم يكن مخططا له تماما من جانب دولة الحزب لقد فتحت الدولة الباب لبدائل غير رسمية بعد أن اضمحل الاعتقاد فى الفلسفة العامة (الماركسية)، وضمن هذه البدائل الرسمية الدين والنظريات الجمالية وعبادة الأشخاص والعدمية، وعندما اختفى الاتحاد السوفيتى وصارت الصين هى اللينينية الوحيدة الباقية فإن الوطنية البسيطة بدأت فى الفوران على مستوى القواعد، وبعد مرور فترة ماو الصعبة فإن كل طبقات المجتمع الصينى رغم شكوكهم فى الحزب الشيوعى الصينى شعروا بالانجذاب نحو عظمة الصين كإيمان بديل. وللمقارنة يمكن أن نأخذ الكتابات العقلية لليابان شبه الحديثة فى العشرينيات والثلاثينيات حيث افتقدت الشعور بالإمبراطورية والدور الفعال فى الشئون الدولية ولما تحولت وصارت أكثر سياسية واجتماعية فإن مزاجها انقلب ضد الغرب وقد قال جيانج "أنك لا يمكنك أن تكون وطنيا صينيا دون أن تكون اشتراكيًا". صاح بها جيانج الذى لم يكن يريد أن يلاحظ الشعب الصلة بين السلطوية والوطنية وبالطبع كان لا يريد لهم أن تتجه أنظارهم نحو الديموقراطية, لقد كانت صيحة جيانج تمثل خطوة للبعد عن المفهوم التقليدى (أنت لست مطيعًا أنت لست صينيًا حقيقيًا) وجيانج كان يعنى من الاشتراكى المطيع للحزب الشيوعى الصينى كان ذلك هو القلب النابض للمبادئ الأربعة للسلطة الشيوعية تحت كل من شعارات جيانج والكونفوشيوسية كان يتم معاملة الشعب وكأنهم أطفال لقد كانت الحاجة لحفر مستقبل للصين - التى مازال يحكمها الحزب الشيوعى - بعد سقوط الاتحاد السوفيتى - يحتاج لموارد جديدة من التقاليد الصينية أكثر مما كان متوقعًا, وهنا مرة ثانية تفيدنا المقارنة مع اليابان منذ أواخر القرن التاسع عشر فإن الصين قد طرحت كثيرًا من تاريخها جانبًا أكثر مما فعلت اليابان إلا أنه بعد فشل الشيوعية فإن الصين تحت دينج وجيانج حاولت تصحيح

التوازن لأسباب عملية وشعورية خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، فقد احتاجت الصين لتصنيع شرعية جديدة تحل محل الشرعية التى جاءت من الثورة البلشفية.

وعلى العكس فإن أواخر القرن التاسع عشر فى الصين شهد كلاً من التحرك نحو الحداثة وكذلك مقاومة الغرب وقد تم طرح الماضى جانبًا لأن مثل هذا التحرك بدا وكأنه يقتضى ذلك منطقيًا فإن المهمة الثانية وهى الدفع نحو الغرب قد تمت، فإن بعضًا من التقاليد يمكن استدعاؤها. احتضان الحداثة كما أظهرت اليابان لم يتضمن إلغاء الماضى كليةً، وكثير من الصينيين فى أواخر القرن التاسع عشر ومن منطلقات سياسية مختلفة اعتقدوا أن الثقافة الصينية والدولة الصينية يجب أن يقفا أو يسقطا معًا، قليل من اليابانيين اعتقدوا فى هذه الصلة بين الثقافة والدور اليابانى. اليوم الثقافة الصينية والدولة الصينية عليهما أن تناضلا للعودة إلى التناغم والتنسيق.

دينج وجيانج قاما بتخفيض الحرارة الأيدولوجية لكنهما لم يسمحا بتعددية الأيدولوجيات لقد كان مقبولاً أن تكون لا سياسيًا ولكن ألا تكون سياسيًا مستقلاً ولا حتى أن تغادر الصين وتنتقد دولة الحزب من الخارج. المواطنون موثوق بهم مع أموالهم فى عصر دينج ولكن ليس مع عقولهم (افعل ما تحب فعله) كما يقول المثل (طالما أنت ترضى الحزب الشيوعى) وكان على جيانج أن يأخذ الرأى العام فى اعتباره فى بعض الموضوعات ولكن كما قال (فو زهينجيوان) "الحقيقة أن راعى الغنم قد يحاك علمًا بأصوات وثغاء الخراف ولكن هذا لا يجعل من الخراف مشاركين فى صنع القرار". فى التسعينيات كان الشعب مازال يحترم موضوعين للتعبير واحد للحديث عن الأسرة والأصدقاء والثانى للحديث عن أى موضوع آخر والأخير كان يُسمى الحديث السياسى المعتاد ما يقوله الشخص لرئيسه

وللأجانب أو فى دورة سياسية أو للإجابة عن بحوث الرأى العام أو تبادل الآراء مع أى شخص ولاؤه الأساسى لدولة الحزب. الانشقاق صار أقوى وأكثر رؤية وحدوثًا وأكثر تكرارًا مما كان عليه الحال خلال فترة صين ماو رغم هذا فقد كان يأخذ فى الغالب شكل الشكوى للبلاط الشهير والعام خلال فترة الصين الملكية، فكرة وجود كاتب أو مخرج سينمائى أو رجل دين يضع موضع التساؤل أسس الاشتراكية كان استثناء نادرًا ينتهى به المطاف إلى معسكرات العمل والسلبية الصامتة فى شقة مُدمرة أو النفى من الصين.

أسلوب خنق الصوت المستقل فى عصر جيانج الصينى أو الحط من شأن من يهرب من النظام حمل مشابهة مع ما كان يحدث فى صين ماو، أول خطوة هى صدور تعليمات لشخص مهم لكتابة مقال أن شخصًا محددًا رغم كل ما يبدو عليه هو ضد الإشتراكية أو ضد الصين، الثانى إرهاب وتخويف أى شخص متصل بالإعلام أن يسمح لذلك الشخص ليقول قوله، ربما فترة سقوط وصمت تلحق ذلك الشخص وهنا يتحقق هدف دولة الحزب، هذه الطريقة فعالة لأنه كما كتب (بيرلينك) فإن بكين تستخدم السيطرة النفسية التى تعتمد أساسًا على الرقابة الذاتية، ضغط الحزب لا يصل إلى حد غل اليدين بالحديد أو إصدار أمر بالاعتقال، إنها تتضمن مجرد الخوف من حدوث ذلك.

فى عام ٢٠٠٠، عندما قررت مجموعة النشر فى بكين أن تترجم رواية "الانتظار" لكاتب امريكى صينى اسمه (هاجين) وهنا بدأ نظام التحكم يعمل وكان الكلب المكلف بالهجوم هو السيدة (ليو لى كينج) من جامعة بكين، ولما قام الناشر بالإشادة بالكاتب وكتابه ووقع عقدًا مع بيت نيويورك لترجمته وتم ترجمة نصف الرواية بدأ هجوم السيدة ليو والسبب وراء هجومها ليس محتوى الرواية ولكن الغضب على إنجاح الولايات المتحدة وأوروبا لصينى رأى نفسه كوزموبوليتانيًا (هاجين يكتب بالإنجليزية) أكثر منه وطنى صينى،

وقالت ليو عن الكاتب إنه يسب مواطنيه الصينيين وأنه أداة الإعلام الأمريكى ليجعل من الصين مجرمة وروايته تؤكد على تخلف الصين. وبعد هذه المقالة، قيل بهدوء للصحفيين الصينيين ألا يكتبوا أى شيء عن هاجين أو أعماله. وفى نيويورك ربح الكاتب هاجين جائزة الكتاب القومى وهو أمر لا يحدث كل يوم لكاتب وُلد فى الصين ولكن صحافة الصين تجاهلت ذلك وكذلك غيره من صور التكريم وقال الكاتب من منزله فى أطلنطا أن كتابه ليس عن السياسة بل هو عن القلب الإنسانى والانشقاقات الإنسانية وعن الطبيعة النكدة للوقت وفى النهاية ظهرت الرواية فى بكين عام ٢٠٠٢ مع حذف فقرتين لتفادى الجريمة السياسية والرواية دخلت فى مشاكل كثيرة مع السلطات الصينية وسببت للكاتب - كما قال - أوجاعًا فى قلبه ولذلك فإنه لا يشعر بالسعادة لنشرها فى بكين على الإطلاق.

(جيانج وين) هو ممثل شهير فى بكين ومخرج سينمائى حصل على الجائزة الكبرى فى (كان) عام ٢٠٠٠ عن فيلمه الشيطان على عتبة الباب عن الحرب اليابانية الصينية فى الثلاثينيات والأربعينيات لكن شعب الصين لم يمكنه رؤية الفيلم وجزء من مشكلته مشاهد لهاجين، حياه العالم الأجنبى وقدره كفنان صينى مما أسفر عن تقوية الشعور لدى دولة الحزب الصينية والنظر إليه باعتباره متذمرا لا يعتمد عليه.

واجه (جيانج وين) عملية تعتيم وتشويش عليه، لم يُمنع فيلمه ولم يُقبل ومكتب الأفلام المنوط به الموافقة على أى شيء يُعرض على شاشات الصين، قال إن الفيلم فيه مشاكل كثيرة، وقال المتحدث باسم المكتب أنه امتداد إقليمى فنى أرضى وأن الفيلم عُرض فى مهرجان سينمائى فى الخارج دون موافقة مما يشكل مخالفة واضحة، فإن صينيًا حتى فى (كان) ليس خارجًا عن ملكية الصين الاشتراكية. وحصل بعض رجال السينما على

نسخة من التقرير الذى كُتب عن الفيلم من جانب لجنة الرقابة على الأفلام وأنه يشى ويوضح أبوية دولة الحزب فى عصر جيانج. وقيل إن الفيلم تضمن عرضًا لنشيد يابانى عسكرى مرات كثيرة وأنه يمجد قوة العسكرية اليابانية ويؤذى مشاعر شعب الصين. والرسميون من الآباء والأمهات شعروا إنه لا توجد كراهية كافية فى اتجاهات الشخصيات الصينية فى الفيلم تجاه اليابانيين وكما قال جيانج وين إنه أشبه كثيرًا بإثارة هيتش كوك وإنه يوجد إرهاب كثير حوله ولكنه لا يستطيع أن يرى ماذا يحدث. ولقد سُمح لجماهير الصينيين أن ترى كثيرًا من أفلام هوليوود مع لقطات عنصرية مثل فيلم جيانج وين ولكن مخرجيها ليسوا صينيين.

فى عام ٢٠٠٠ فإن مواطنًا صينيًا اسمه (جاو اكسين جيان) يعيش فى فرنسا حصل على جائزة نوبل فى الأدب وهو أول مؤلف من أصل صينى يحظى بهذا الشرف، رفضت بكين اختياره باعتباره مفصولاً سياسيًا كما قالت دولة الحزب وأن كتاباته عادية جدًا وكان جاو قد تم السخرية منه وقمعه هو وكتاباته، وفى عام ١٩٨٩ هاجر إلى فرنسا.

كيف يتسنى لجاو وهو متخصص فى الجماليات وغير سياسى أن يثير دولة الحزب الصينية؟ لأنه ليس لديه وقت للوطنية وهو ببساطة مجرد فرد، والصينيون دائمًا مهتمون ومنغلقون على ثقافتهم المحضة كما قال جاو لمحاور له فى سيدنى حيث نُشرت ترجمة لعمله الكبير (جبل النفس) إلى الإنجليزية (فيما يخصنى فإن الثقافة الصينية عمومًا لا معنى لها).

حقيقةً جاو أنه صينى مثل جيانج زيمن لكنه لا يرى الثقافة الصينية مقدسةً كليةً وهو يرفض الوطنية الاشتراكية، وأن كثيرًا من التأكيد على الهوية يصبح أمرًا لا معنى له ويقود بسهولة إلى القومية، وقال جاو إنه توجد هوية واحدة بلا شك وهى أنك فرد فى النهاية.

اللعن أو الطرد من الكنيسة هو بالنسبة لجاو عقيدة واحدة، ووجهة نظر واحدة للتاريخ وأن هناك أكاذيب كثيرة قيلت فى المائة سنة الأخيرة بما فى ذلك الأكاذيب المخفاة داخل الأيدولوجية، لم يكن جاو لديه ثمة وهم أنه بعد سقوط الأيدولوجية وانحدارها بعد ماو قد أتت بالحرية إلى الصين عندما كان يكبر سنه، وفى رفض بارد لدولة الحزب كوصى على الشعب الصينى لاحظ جاو عام ٢٠٠٠ "أن الصين مازالت دولة سلطوية، وأنا لا أخطط للعودة طالما أنا حى أنا عندى الصين الخاصة بى ولا أريد أن أذهب هناك"، لقد ترك (هاجين) الصين فى نفس الوقت الذى تركها (جاو) ولربما تركها (جيانج وين) لدى مثول هذا الكتاب للقراءة.

ما تشعر به دولة الحزب حول مختلف الفنانين ولكنها لا تقوله، أنهم فشلوا فى التصرف مثل الأعضاء السهل انقيادهم للصين الاشتراكية، وهل تستطيع الاشتراكية جذب أحد بعد ربع قرن من وفاة ماو؟ فى الحقيقة، لديها القليل، لقد ذبلت الأيدولوجية ولكن بالنسبة لدولة الحزب اللينينية القانونية المتمسكة بالحرفية فإن الاعتقاد الماركسى البالى مازالت له الوظيفة الحاسمة فى الحفاظ على السلطة، وفى اعتراف ضمنى عن ضعف اعتقادها فى النظام فإن دولة الحزب لتطويل أمد حياتها قد أضافت قناع القومية. والنتائج الفوضوية لذلك هى دولة مُختطفة كانت جزئيًا اشتراكية وجزئيًا سلطوية إمبريالية جديدة. فى أوروبا فإن القومية أتت لتتخطى الدولة، وفى الصين فإن القومية مازالت تتحدد فقط بالدولة.

عمومًا فإن الصينيين الذين يتكلمون ولهم وجهة نظر مضادة لدولة الحزب فإنهم باحترام يدعون السلطات إلى المواءمة الإصلاحية التدريجية للنظام، وكان هذا صحيحا بالنسبة لمعظم المتظاهرين الموالين للديموقراطية فى ميدان تيان آن مين عام ١٩٨٩ وكما بدوا شجعانًا من تصرفاتهم فقد

أظهروا تقديرا وشكرا لــ(هو ياوبانج) وهو صديق شيوعى سقط مع دينج، طالبوا بالحوار مع حزب الدولة وقليلون منهم دعوا إلى إصلاح النظام الشيوعى.

وبعدما نشرت كتابى (الصين فى عصرنا) وهو شهادة عينية على أحداث بكين عام ١٩٨٩ فإن طالبا صينيا فى هذه الفترة استقر أخيرا فى استراليا أرسل لى خطابا جاء فيه أنه لم يفهم خلال مظاهرات الطلبة عام ١٩٨٩ لماذا لم يدمروا ضريح ماو؟ وإنه لسؤال جيد فإن مجتمعا جديدا عام ١٩٨٩ أثبت أنه غير قوى بما يكفى لتحدى دولة قديمة، هناك الملايين ممن تحسنت ظروفهم تحت حكم دينج أكثر مما كانوا تحت حكم ماو تم بيعهم للاعتبارات الاقتصادية، لقد تجرؤا ليكونوا شاكين وليس ليكونوا معارضين وبالنسبة لمهاجمة ضريح ماو فإن آثار الشمولية على شعب خاضع هو أمر ثقيل فمنذ وفاة ماو لم توجد حالة مزاجية ضد ماو مثل تلك التى كانت ضد ستالين فى الاتحاد السوفيتى بعد عام ١٩٥٣، وفى الحقيقة ولأسباب معقدة فإن الحاجة لماو كأب روحى يمكن أن توجد لدى بعض الصينيين الذين عودهم النظام على المكاره كما عودهم أن تكون نظرتهم لأعلى محملقين فى نظام دولة الحزب، إن قمع حركة تيان آن مين فى ٤ يونيو ١٩٨٩ لم تكن المذبحة التى اعتقد كثيرون أنها ستحدث تؤكد حقيقة موجودة لا أتعجب منها، مزاجها العنفى لم يؤثر ويفتح لعصر طويل جديد وهنا فأنا أتعجب ولهذا فإن جيانج لم يترك فترة دينج تركا حادًا، ولماذا جيانج لم ينتقد دينج فى العلن كما فعل الأخير مع ماو، وحوادث يونيو ١٩٨٩ أكدت من جديد أن دولة الحزب فى الصين ستعامل أى قوة يبدو أنها تهدد احتكارها للقوة السياسية كعدو، ومعظم الشعب يعلم هذا من البداية.

فى الغرب فإن حوادث ٤ يونيو أنهت الوهم بأن الشيوعية الصينية قد توارت فى منتصف الليل، وتشير صحيفة (جوترداميرون) ٣-٤ يونيو إلى أن دينج قام بعمل تمثيلى فى قرار اتخذه قبل أربعين يوما بأن الطلبة قاموا بمؤامرة مخططة قال هو لزملائه عنها فى ٢٥ أبريل ولم يعاملهم بأى قدر من اللين وأن إطلاق النار على المتظاهرين من قبل الجيش كان أمرا معدا سلفا كنوع من الإرهاب من جانب الدولة فى رسالة واضحة لما بعد بأن النظام الشيوعى هو شىء راسخ لا يصح أن يوضع موضع التساؤل، وكل قرارات دينج خلال الأزمة اتخذت بالمخالفة لدستور الحزب الشيوعى الصينى نفسه، فالإطاحة بزهاو زيانج الذى كان يحبذ المصالحة مع الطلبة وتعيين أعضاء جدد فى اللجنة الدائمة فى المكتب السياسى جاءت ضد المادة ٢١ من ميثاق الحزب التى تنص على أن هذه المناصب تتم بالانتخاب من جانب اللجنة المركزية وكذلك القرار بفرض الأحكام العرفية بعد طرد زهاو زيانج التى تناقض المادة ٦٧ من دستور الحزب التى تنص على أن ذلك يجب أن تقوم به اللجنة الدائمة لمؤتمر الحزب القومى وهى البرلمان الذى هو بلا أسنان، وعندما طلب عضو فى هذا الجهاز واسمه (هو جيوى) المحرر الأسبق لصحيفة الشعب اليومية لعقد اجتماع خاص للجنة الدائمة لمجلس الشعب أو لمؤتمر الشعب القومى ووقع عليها أكثر من العدد المطلوب للاجتماع الذى لم يعقد، وعلى العكس تم إيقاف (هو) عن العضوية لمدة سنتين واستدعى من منصبه كنائب فى اللجنة الدائمة للمؤتمر القومى للشعب.

وقبل قمع حركة ٤ يونيو ١٩٨٩ فإن طالبًا فى بكين أراد أن يشرح لماذا لا يرفع شعارات من أجل إسقاط الحزب الشيوعى، فرد بالقول أنه يمكنك القول أن الأمة تتصرف خطأ ولكن بنيات حسنة ولكنك لا يمكنك أن

تقول أن أمك هى ليست أمك أليس كذلك؟ اليوم الذى يرفض فيه الصينيون قبول الدكتاتورية المقنعة بقناع الوالدين لم يحن بعد.

وهناك أسباب لهذا الاختلاف، هناك الجبرية لدى الروح الصينية، فبعد آلاف السنين من (نحن وهم) كفلسفة للحكم، وثقافة الخوف من الفوضى الشاملة قوية جدًا حتى لدى الصغار فالإحساس بالصينية حتى ولو لم يحدث حماسًا للاشتراكية فإنه أعط فائدة الشك فى أن أمًا تتصرف بالخطأ. لقد كان الحزب الشيوعى الصينى ماهرا فى استخدام الماضى الصينى لتعظيم الاستفادة من كل هذه النقاط. وأخيرًا فإن الصين عام ١٩٨٩ لم يكن لديها هناك فيما يبدو بديل جاهز للحزب الشيوعى، بولندا كان لديها حركة تضامن والكنيسة الكاثوليكية كبديل موجود، ولكن ماذا كان لدى الصينيين غير اليدالثقيلة لأمهم. لقد أبلغ دينج زملاءه بعد الأزمة "إن هذه العاصفة كان مقدرا لها أن تحدث الآن أو فيما بعد وباعتبارها حتمية بحكم ظروف المناخ الداخلى والدولى فهى مستقلة عن إرادة الإنسان" وكان ذلك ومازال هو الصوت الإمبريالى الذى يستدعى التاريخ ويستحضره (السماء فى الماضى كسلطة).

التغيير الإيجابى الواسع الثانى فى عصر دينج والذى جرى تنفيذه فى عصر جيانج هو الأولوية العالية للتنمية الاقتصادية، وقال دينج إن اختيار الاشتراكية مترتب على ما إذا كانت ستنتج تقدمًا اقتصاديًا، وأصبح المزاج السائد هو استهداف الكفاءة وتحقيق الازدهار بأى طريقة كانت، والكثير من سياسات ماو الجماعية الاقتصادية جرى طى صفحتها وحل محلها موجة من التجارية والعودة لمزارع العائلة فى الريف، وانتشار المشروعات الصغيرة والمشروع الخاص فى المدن، وانعكس كل ذلك فى توسيع نطاق تيارات التجارة الخارجية، والنتائج كانت ممتازة:

أولاً: فى الريف، من حيث إن انتهاء والتغلب على المعوقات الجماعية تمخض عن زيادة الدخل الفردى خلال عشر سنوات أربعة أضعاف، وصادرات الصين ارتفعت من ٢٠ بليون دولار عام ١٩٨٠ إلى ٢٥٠ بليونا عام ٢٠٠٠. وهناك الكثير الذى يمكن أن يصل إليه بعد عصر ماو الصعب والمتشدد، وقد جاء النمو الاقتصادى مثل ماء يجرى تحت التل فله تداعيات مهمة وخطيرة بينما شجعت دولة الحزب الشعب على توجيه عقله وجهةً مالية، وهنا يبرز القلق من عدم المساواة والجريمة والفساد. ولكن عدم الأمن لا يمكن فصله عن توافر الفرص المثيرة لكثير من الصينيين وللتأكد من ذلك فإن الإحصاءات عن النمو الاقتصادى فى عصر دينج وجيانج جرى المبالغة فيها وأحيانًا بطريقة درامية كما فى عصر ماو. ورغم هذا فإن الوجه الاقتصادى الاجتماعى لمدن الصين لا يمكن التعرف عليه إلا بصعوبة، عام ٢٠٠٣ مقارنةً بالعقود الثلاثة السابقة. السيطرة والتحكم فى عمل الوحدات تم إضعافه والقرارات بالنسبة لحياة الإنسان يمكن غالبًا اتخاذها دونما إشارة إلى الحكومة، الشعب صار يمكنه الشراء والسفر أكثر مما كان وصار التمتع بالخصوصية أكثر حدوثًا. كان ماو قد ركز على موضوع الأرض ورأى أن الاشتراكية هى فى صيغ الجماعية الريفية، على العكس فإن حكم دينج وجيانج ركز على التحديث المرتكز على الحضر والمدن، وفى هذا الصدد فإن قادة ما بعد ماو استلهموا ما حدث من مسيرة فيما بعد خمسينيات القرن السادس عشر من أجل تمدين الصين وجعلها تجارية ومؤخرًا جدًا من حركة الذين يقوون أنفسهم فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر.

وبفضل النمو الاقتصادى أساسًا ففى نهاية القرن العشرين صارت الصين أقوى فى علاقاتها بشرق آسيا مما كانت عليه فى قرنين، وفى بكين ظهرت الرغبة وزادت الطاقة لدعم وتوسيع الإمبراطورية التى ورثتها من أسرة الكينج وكان المطلوب هو إعادة نسج التبت وسيكيانج ومنغوليا الداخلية

فى نسيج الصين الأصلية، وإعادة الحصول على تايوان والاهتمام بالمطالبة بالجزر المتنازع عليها فى بحر الصين الجنوبى، وكذلك الجزر التى تدعيها كل من الصين واليابان كقواعد لمستقبل تواجدها العسكرى.

ويبدو أن دينج وجيانج كانا واعيين بالموضوع (طلب الثروة والسلطة) وأخذوها من أولئك الذين دعوا لتقوية الصين نفسها فى القرن التاسع عشر والذين كانوا واقعين تحت ضغوط شديدة، والبلاط الصينى الجاهل والراضى عن نفسه رفض عرض اللورد (ماكارتينى) للمفاوضات والتجارة. بطرس الأكبر قاد روسيا للتعلم من الغرب وإمبراطور (الميجى) فعل الشئ نفسه فى اليابان لكن الصين تحت حكم الإمبراطور (كيان لونج) كانت أكثر اهتمامًا بكبريائها وبعد عدة عقود فإن (زينج جيوفان) وغيره من الداعين للتقوية الذاتية بدأوا تصحيحًا جزئيًا لخطأ (لونج). دينج وجيانج جمعوا من على الأرض ما رفضه لونج على المائدة وما رأى المقوون لأنفسهم أنه يجب اتباعه. وفى رحلته الجنوبية عام ١٩٩٢ فإن اليساريين المحاربين الذين كانت لهم الكلمة العليا بعد أحداث تيان آن مين لاحظ دينج "أن الصينيين لأكثر من مرة أخطأوا الفرصة للتحديث، ولايجب أن نفشل مرة ثانية". الغرب فى نهاية القرن العشرين صار أكثر استعدادًا للتجارة مع الصين مما كان عليه خلال عصر ماكارتينى وبعد ذلك فى عصر المذكرات المفتوحة الأمريكى.

لكن الصين التى جاء البنك وصندوق النقد الدوليين لمراجعتها كانت مختلفة جدًا عن الصين التى رآها ماكارتينى وضمن الاختلافات أن دينج وجيانج يعرفون أكثر عن الغرب من الإمبراطور كيان لونج، سلم دينج فى المقابلات أن عقيدة الصين (الماركسية فى هذه الحالة) قد أخرت الصين عدة عقود، ودينج وجيانج شعروا بالحمية للتنمية الاقتصادية التى حركت جون روكفيلر وهنرى فورد والثورة الصناعية فى انجلترا. وفى نهاية عهد جيانج عام ٢٠٠٢ وعندما صار هو جنتاو رئيسًا للحزب الشيوعى فى مؤتمر

الحزب السادس عشر فإن نهضة الصين وارتفاعها قد أخذ معنىً جديدًا تمامًا، تحت ماو كقوة ثورية جذبت الصين اهتمام جيرانها والولايات المتحدة، وفى بداية القرن الواحد والعشرين فإن الأضواء على الصين التى تستخدم قوتها الاقتصادية كمفتاح وقدراتها العسكرية لتعظيم وتفعيل نفوذها الدولى.

وأحد الموضوعات التى لم يضع جيانج الاقتصاد فيها أولاً، كانت إصلاح المشروعات المملوكة للدولة وكانت هذه هى جواهر التاج الصناعى فى فترة الستالينية والتى سماها لينين "الذرى الحاكمة" للاقتصاد الاشتراكى، إنتاج الصلب، الأدوات، الكيماويات، الأسلحة والذخائر وغيرها، مصانع الدولة هى أكثر من مجرد وحدات اقتصادية، إنها جزء من المؤسسة السياسية الاشتراكية وهذا مما يتمشى مع التقليد الصينى للأبوية الاقتصادية ومصطلح الاقتصاد هو تلخيص لأربعة حروف فى اللغة الصينية (أن تأمر العالم وأن تؤمّن الشعب وتساعده).

ومنذ عام ١٩٧٩ كان من السهل نسبيًا اتخاذ خطوات أولية لفكرة تسويق الاقتصاد بمعنى جعله قائمًا على السوق، المشروعات الخاصة الصغيرة والمشروعات المشتركة بين الحكومات المحلية ورأس المال الأجنبى جاءت بالسوق الحقيقى للصين، ولكن المشروعات المشتركة والقطاع الخاص أظهر مصانع الدولة خاسرة، ولما جاء دينج للحكم كانت مصانع الدولة تنتج ٧٥% من جملة إنتاج الصين، عام ١٩٩٥ بعد ١٧ سنة، صارت تلك المصانع تنتج ثلث جملة إنتاج الصين، وفى الفترة ذاتها فإن معظم هذه المصانع فقدت مبالغ مالية متزايدة، وقلة منها استطاعت أن تدفع أرباح ديونها.

دينج وجيانج سمحوا لهذه الديناصورات الصناعية التى علاها الصدأ أن تجرح وتدمى دولة الحزب والسبب فى ذلك يرجع إلى ثلاثة عوامل:

العامل الأول: بنوك الصين هى أذرعة حكومية وصار من غير الممكن تفادى الأخذ بعين الاعتبار المخاطر السياسية فى خصخصة المصانع الكبيرة لإعطاء تعليمات للبنوك بدعم هذه المصانع والربح والخسارة لا معنى لهما فى مصانع الدولة طالما هى متصلة مع أذرع الحكومة مثل مكاتب الضرائب والوزارات الاقتصادية والبنوك.

العامل الثانى: خوف دولة الحزب مما يترتب اقتصاديًا واجتماعيًا على قطع العقبة فى مصانع الدولة، وزارة العمل والضمان الاجتماعى الصينية قالت فى عام ١٩٠٢ أن البطالة فى الحضر سترتفع من ٦,٨ ملايين إلى ٢٩ مليون عام ٢٠٠٥، والرقم ٦,٨ عام ٢٠٠١ هو بكل تأكيد أقل كثيرًا جدًا من الحقيقة، أن الحكومة تعتقد أن الرقم الحقيقى قد يصل إلى ١٠٠ مليون، ومما يثير العجب توقع بكين لزيادة مُضاعفة ثلاث مرات فى رابع سنة، إذا أُغلقت هذه المصانع أو أعطيت للقطاع الخاص ستسبب أزمة اجتماعية، وأكثر من هذا فإن جمهورية الصين الشعبية كدولة عمال ستفقد ماء وجهها لو أن جواهر التاج الستالينى قد تم القذف بها خارج النافذة.

العامل الثالث: تمثل فى أن مدخرات القطاع المنزلى تراكمت فى البنوك فمعدل الادخار العادى للشعب الصينى غير واعٍ لمثلث المخاطرة والحمق الذى يوقف شعر الرأس، إنهم مشاركون غير أذكياء، ساهموا فى المحافظة على البنوك، كذلك الصينيون أصحاب الولاء حافظوا على النظام من السقوط. فى نهاية التسعينيات بدأت قنبلة موقوتة فى التحرك تحت هذه العوامل الثلاثة فالبنوك أفلست وصارت عاجزة عن الدفع والديون السيئة صارت خمسة أضعاف وهذا ممكن أن يحدث فى نظام اشتراكى وفى ظل غياب الصحافة الحرة. ما تدفعه البنوك للمصانع حتى المرتبات أدت للفوضى الاجتماعية وجزء من تحويلات البنوك للمصانع جاءت للخزانة الحكومية كضرائب وحدث بالطبع الفساد فى دولة الحزب التى أخذت ما تستطيع أخذه.

لكن رأس المال لم يذهب لاستخدامات إنتاجية، مازالت لمصانع الدولة الأولوية ضد الرشادة الاقتصادية لصالح استمرار النظام الشيوعى لدولة الحزب وحقيقة المشروعات الخاصة مؤسسة على بقائها صغيرة نسبيًا، وفى عام ٢٠٠١ فإن أكبر مشروع فى الجنوب الغربى يساوى فقط ٦٠٠ مليون دولار (قارن هذا بالهند التى بها مشاريع خاصة تساوى ما بين ٥ إلى ٧ بلايين دولار) مصانع الدولة لا تتقلص بل فى بعض الحالات فإنها تنمو كسرطان فى جسد الأمة هى كلها بيوت من ورق يتم تنميتها وتشجيعها من خلال فلسفة (دخان ومرايا) دولة الحزب الأبوية التى تعلق أملها على سلبية الشعب الجاهل وتفضيلها المفترض للخبز على السياسة الحرة، كل شخص جاء ليبدى إعجابه بسياسات ماو الجماعية حتى لو كانت نتائجها الاقتصادية متدنية، وعدد أقل لاحظوا أن جيانج بالنسبة لمصانع الدولة يكرر الإيمان نفسه. رئيس الوزراء (زورونجى) قال فى المؤتمر الخامس عشر للحزب عام ١٩٩٧ أن مشاكل النظام المالى ومشاكل خسارة مصانع الحكومة سيتم حلها خلال ثلاث سنوات، السيد (نيكولاس لاردى) وهو حسن الاضطلاع وجد أن ذلك فيه قدر كبير من التفاؤل، فبعد مرور خمس سنوات لم يحدث ثمة تقدم يعتد به.

وبالنسبة لعام ٢٠٠٣ فإن دولة الحزب ما زالت تسيطر على الاقتصاد أكثر من أى دولة من دول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD وبالتأكيد أكثر من أى دولة من دول شرق آسيا غير الشيوعية. السلطة غالبًا تكسب أية حرب مع النقود و(اليوان) ليس بالعملة الحرة وكل الصناعات الكبرى مرتبطة بقوة مع النظام البيروقراطى البنكى للدولة ودولة الحزب تبدأ فى الشك عند ازدهار أى مشروع خاص وقد قال أحد رجال الأعمال الناجحين لـــ(جون ديربى شاير) فى عام ٢٠٠٠ أنه طالما أن أعمالك أقل من

حجم معين فإنهم يتركونك لحالك ولكن إذا كبرت وجذبت انتباه السلطات فإنهم يطرقون بابك فاتحين أيديهم مثل الذباب يأتى اللحم.

واحدة من مقاطعات الصين الجديدة (هاى نان) ولدت كطفل فى فترة الإصلاح عام ١٩٨٨ أريد لها أن تكون نموذجًا لحكومة الصغيرة والمجتمع الكبير، حيث أقامت فقط نصف عدد الإدارات فى باقى المقاطعات وأنهت العلاقة بين المقاطعة والمدينة ورغم هذا بعد مرور عقد من الزمان فإن الحكومة الكبيرة أكدت نفسها شيئًا فشيئًا والمركز فى بكين يريد مناظرًا فى (هينان) لوزاراته ولجانه الثمانين، واليوم فإن اقتصاد الدولة هو أكبر قطاع فى (هينان) حيث فى الزراعة فقط هناك ٧ مقاطعات فيها عدد أكبر من البيروقراط محسوبة كنسبة من الحجم الإجمالى للسكان أكثر من الجزيرة المعدة لتكون نموذج عرض واستعراض للحكومة الصغيرة، ومُسودة علاقة الدولة بالمجتمع كما كتب (ثينج شونجى) فشلت فى أن تتحقق فى هينان وصارت هذه حالة تبين كيف أن الحكومة كبيرة وضعيفة فى الوقت نفسه.

لما بدأت فترة الإصلاح كان هناك ٣,٧ ملايين بيروقراطى فى هيكل حكومة الصين وحسبما كتب (خلد اريك بوتسجارد) المتخصص فى الإدارة الصينية أنه فى عام ٢٠٠٠ ارتفع عدد البيروقراط إلى ٩,٧٢ ملايين مع ترك ٢٤ مليون عامل ممن ليسوا موظفين مدنيين. وفى خطوة مع الحديث الكثير عن خفض حجم دولة الحزب فإن الهيكل الإدارى الفعلى لدولة الحزب أصبح أشد انتفاخًا.

<u>التغيير الثالث</u> الذى فجره دينج كان هو الخطوة نحو الدستورية كانت طريقة دينج هى تحقيق النتيجة المرغوبة دونما نظر إلى الصورة والنظرية أو إلى الرشد، هذا كان فى تقاليد القانونية المتمسكة بالحرفية وفى إحدى المرات وصف أسلوبه السياسى بأنه "أنا أعبر النهر بلمس قدمى للحجارة هذه مرة وهذه مرة حتى أحفظ توازنى وأصل إلى الناحية الأخرى" الجانب الآخر

الذى يصل إليه دينج هو النجاح الاقتصادى والتنمية الاقتصادية وهو يعرف أن للقواعد ضرورة.

بعد ١٩٧٨ القانون الجنائى والقانون المدنى جرى إدخالهما وبدأ نوع من إمكانية توقع السياسة العامة والتنبؤ بها من هنا للحياة الخاصة، هذا لا يعنى أن الحقوق الفردية موجودة أو أن الديموقراطية صارت على الأبواب، دينج لديه تذوق قليل للحرية السياسية، فالكلمات مازال يمكن اعتبارها جرائم كما وجد كثير من القسس والديموقراطيين. وفى كل الأوقات فإن استقرار ووحدة المجتمع الاشتراكى ترجح على أى اعتبارات أخرى.

فى عام ١٩٨٦ شرعت بكين المبادىء العامة للقانون المدنى والذى حمل تأثير الغرب خاصة القانون الألمانى، بعدها جاءت ثلاثة قوانين خاصة عن مسئولية المنتج مختلفةً فى الروح عن المبادئ العامة: قانون جودة المنتج وقانون المنافسة غير الكاملة وقانون حماية المستهلك. هناك طريقتان واسعتان ممكنتان للتعامل مع مشكلة السلع المعيبة والتى تسبب ضررًا لمن يشتريها، واحد لحماية حق المستهلك فى التعويض بعد شراء منتج معيب، والثانى ردع المنتجين والبائعين عن السماح للمنتجات المعيبة بالوصول للمستهلك.

القوانين الثلاثة الصينية عن الموضوع اهتمت فقط بالجانب الأخير فبكين كانت مهتمة فقط كعادتها بإدارة المجتمع ككل وليس بالعلاقات بين الأفراد. الوظيفة الرئيسية للقانون مسئولية المنتج كما كتب وليام جونز هو التعامل مع مشكلة عيوب الإنتاج فقط ثانويًا لتنظيم حقوق الأفراد المضارين من السلع المعيبة والوسيلة العملية التى طبقتها دولة الحزب هى اختيار حالة محددة، حيث إن سخانا انفجر وقتل طفلين توأم وركزوا عليها الضوء، نادرا ما يعتمد المواطن الصينى على التعويض بعد شراء منتج معيب.

وفى ربيع ٢٠٠١ فإن شخصا أصم أبكم لا يعمل وهو فى مشكلة مع أقاربه تم اعتقاله بسبب نسف مبنى مكون من أربعة شقق وقتل ١٠٨ من أفراد الشعب بما فيهم أقاربه فى (شيجيازهوانج) عاصمة مقاطعة (هيبى) على بعد ساعتين من جنوب بكين، بالطبع تم إعدام الشخص المسئول ولكن شخصا ثانيا تم كذلك إعدامه رميًا بالرصاص، كانت هناك بائعة المواد المتفجرة (هاو فينج كين) تبيع المواد المتفجرة لمستخدمى المقلاع عمرها ٤٥ سنة وأم لفتاتين وهى لا تعرف الشخص الذى باعت له هذه المواد ولا تعرف أنه سينسف المبنى، قال لها إن لديه منجما صغيرا مثل غيره فى المنطقة وهذه السيدة لم يكن لديها بالطبع ترخيص ببيع المواد المتفجرة والمادة ٢٥ من القانون الجنائى تجعل بيع وصنع وتخزين ونقل المتفجرات غير القانونية يخضع للعقاب من ٣ إلى ١٠ سنوات، ومن مقاطعة هيبى فإن (كريج سميث) كتب فى صحيفة نيويورك تايمز "إن شخصا ما وجد مدانا فى صنع وبيع المتفجرات غير القانونية كان يجب عقابه، والسيدة (هاو) أخذت رصاصة فى رأسها لأسباب لا تمت إلى العدالة بين المواطنين الأفراد".

فى صين جيانج توجد عمليات قمع حسب حاجة الدولة فى ظرف ما وخلال هذه الموجات العامة فإن الأسلوب الأساسى هو تحديد شخص معين لتشجيع الآخرين أو بالصينية لتقتل الفرخة فتخيف القردة، وقبل عملية نسف المبنى كانت الصين قد شهدت سلسلة متلاحقة من هذه الإنفجارات والمأساة حدثت فى ١٦ مارس وفى ١٨ مارس فإن صحيفة الشعب اليومية ذكرت الحقائق وتم الإعلان عن مكافأة مرتب ٨ سنوات لمن يجد المجرم وبدأت الصين عملية مطاردة للوصول للمجرم خلال ٧ أيام، وفى ٢٥ مارس الجريمة صارت حملة سياسية كان المقصود - كما قالت صحيفة الشعب - أنها حرب لإرهاب النفوس من أجل ردع الأعمال غير القانونية وأن ذلك هو صراع بين الحق والباطل وكما هو الحال مع القانون الصينى فمن الصعب

التأكد أن من يجب عقابه قد جرى عقابه والمجرم هنا من المفترض أنه أصم أبكم قيل إنه تحدث بلهجة مختلطة لما سألوه وصاح لما عذبوه (الأسئلة ليست مهمة إننى أنا من تريدونه) إذا قارنا مع نتائج الانفجار الذى قتل ١٠٨ من الشعب والمناخ المرتبط بتهديد دولة الحزب وقبضتها على المدينة فإن السيدة هاو لم يكن لديها النية السيئة ولم يؤخذ هذا بالاعتبار الكافى وبعد إعدامها ظهر إعلان من ستة أقدام فى حروف كبيرة فى مدينة هاو انقضوا بقسوة على جرائم العنف ونسف البيوت والقتل، ورغم هذه الموجة التى أخذت هاو بعقوبة تذكر بالحملات السياسية فى عصر ماو فإن الهدف اختلف كثيرا لكن التكنيكات والأساليب مازالت لم تختلف كثيرا وهاو قتلت ليس لأن عقوبتها كانت متناسبة مع الجريمة التى ارتكبت لكن لأن مصالح دولة الحزب تطلبت أن تخدم هدفا أوسع وأبعد مدىً.

لقد كان الوجود المستمر للقائد الأعلى يمثل قيدا حادا على الخطوات المتجهة نحو الدستورية، بطبيعة الحال فإنه لا دينج ولا جيانج حققوا أو طلبوا وضعا مثل وضع الإله الذى كان يملكه وحققه ماو وهذا يعود لاختلاف الشخصية وبسبب رد الفعل السيء تجاه تحكمية وسلطوية ماو وكذلك المطالب المرتبطة بعصر التنمية الاقتصادية. إلا أن كلا من قائدى عصر ما بعد ماو بعد عقد فى السلطة بدأ يأخذ أساليب وقواعد الإمبراطور الجديد، بدأوا يتجاهلون الإجراءات الحزبية (عقد اجتماعات مطولة) ليأخذوا طريقهم هم بدأوا يضعون عقائد ونظريات وفكرا اختفت تفاهته وراء الصوت العالى وبأن القائد الأعلى يملك الحقيقة فى يد والسلطة فى يد أخرى ومثل ماو بدأوا يسبحون وراء الكاميرات، عبادة القائد الأعلى وتشخيص السلطة يوجد كاتجاهين فى طريق واحد، ولما سمع الفيلسوف المجرى "جورج لوكاتش" عن إدانة ستالين فى موسكو عام ١٩٥٦ فإن تفكيره لم يكن حول الشخصية ولكن عن تنظيم الحزب الشيوعى وكما قال لوكاتش "لقد صورت ستالين

بنفسى فى قمة الهرم والتى تتسع تدريجيا نحو القاعدة وهى المكونة من ستالينيين كثيرين وعندما ينظر لهم من أعلى فهم مجرد أشياء وعندما ينظر لهم من أسفل فإنهم الخالقون والأوصياء لعبادة الفرد وبدون مقاومة وتحدٍ لهذا الأسلوب فإن عبادة الفرد تبقى حلما سلبيًا" والأمر نفسه جرى مع ماو من حيث السلطوية والقوى الكلية وحتى اللاأخلاقية، ومن أسفل فإن القبول المؤسسى لهذه الأمراض الديكتاتورية بدأ يدخل بطريقة أقل فى الثقافة السياسية فى شكل تعايش مع نوع من عبادة الفرد كذلك أيضًا مع دينج، وفى ثوب جديد تكرر النموذج أيضًا مع جيانج ففى المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعى عام ١٩٩٢ تحدث جيانج حول أساسين فى تاريخ الحزب الشيوعى الصينى ماو كان القائد للأساس الأول ودينج الثانى وبعد خمس سنوات خلالها استمر دينج مع عدة خطوات لتحريرالنظام السياسى وإضفاء صفة ليبرالية عليه، وفى المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى اكتشف جيانج فصلا جديدا للحزب الشيوعى الصينى بدأ يقدم نفسه على أنه الأساس الثالث وكان هذا برهانًا فاضحًا على أن الإصلاح الاقتصادى لن يكون معه إصلاح سياسى فالقائد الأعلى مازال موجودا ماو، دينج، جيانج وأطفال الهان سيتعرفون بالتأكيد على أبيهم الجديد.

ولما عاد إقليم ماكاو من سيطرة البرتغال فى سنة ١٩٩٩ بعد سنتين من عودة هونج كونج فإن الاستعادة الأسرية كانت ملموسة واضحة، قصيدة عن ماكاو مع الموسيقى يغنيها فى كل الصين طفل عمره ٨ سنوات "أنا كنت بعيدا عن صدرك طول الوقت.... أمى! هم أسروا فقط جسدى أنت مازلت تحفظين روحى.... أمى! أريد أن أعود.... أمى!" لقد استخدموا كلمات إمبريالية وصداها واضح، البرتغاليون أخذوا جزءا من جسد أطفال الهان لكن روح الهان لا تنقسم، مرة ثانية قضية (نحن وهم) مازالت قائمة ومفيدة سياسيا.

ومن الناحية المؤسسية فإن كلا من دينج وجيانج لامسا حائط موضوع الوراثة كما حدث مع معظم الأباطرة وكما رأينا فى الفصل الثالث أن حقيقة الوراثة التى تتكرر باستمرار هى المناورات والمؤامرات والإرادات المتصارعة كل هذا جاء للعب على الساحة، عندما سقط ماو ولما كبر دينج وصار ضعيفاً فإن النموذج صار مختلفا، الاعتقالات كانت محدودة، الصراع حول الوراثة كان بعيدا عن العنف ولكن الموازاة السياسية استمرت، اثنان من كبار رجال دولة الحزب تم تطهيرهما، وضعوا واحدا تحت الاعتقال المنزلى بتهمة التلهف على مستقبل الوراثة، واثنان أيضا من كبار رجال الحزب أنهى عملهما لسبب مماثل وفى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى عام ٢٠٠٢ فإن معضلة عدم انتخاب القائد الأعلى تبدت واضحة على المسرح فإن جيانج استقال ولكن ليس كليًا وهو جينتاو صار رئيسا للحزب ورغم هذا فإن جيانج استمر فى منصب سياسى أعلى حسب طلبه (القائد الأعلى) واللجنة الدائمة التى تتحكم فى المكتب السياسى زاد عددها من ٧ إلى ٩ لتسمح للمجموعة الموالية لجيانج واستمر جيانج على قمة الجهاز العسكرى وبدا أنه لن يكون مستقبلا سهلا لــهو جينتاو الذى ينقصه التفويض من الشعب الصينى ليبرز بسهولة من ظلال جيانج ويصبح إمبراطورا حقيقيا.

فى عصر ما بعد ماو من المعترف به أنه بعد عام ١٩٤٩ فإن الاستبداد الإقطاعى استمر يملأ الصين ورغم أنه غير معترف به من جانب الصين الرسمية فإن الاستبداد لم يختف فى السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين فالحجاج يتقاطرون لمنزل (جيانج) فى (يانج زو) حيث تم إنشاء متحف للقائد الثالث العظيم للحزب الشيوعى وكما قال أحد المقيمين المحليين لصحفى " فإننا لم نعتقد أن جيانج هو شيء له خصوصية ومن الصعب أن نعرف من سيكون الإمبراطور القادم " هناك تغيير سياسى كبير يحوم حول

الصين لكن الباب الخلفى لنقل السلطة لهو جينتاو فى عام ٢٠٠٢ لم يكن مفتاح هذا التغيير وكل المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى يبدو كأنه نموذج للمفارقة التاريخية لدولة الحزب الصينية.

والتغيير الأخير لدينج كان هو الدعوة إلى فتح الصين حتى يتواجد غير الصينيين كذلك رأس المال والأفراد، وصارت الصين أكثر استعدادًا من مجرد قبول أساليب من الخارج كما كان ماو مستعدًا لها، إن انفتاح دينج يعنى نهاية للمبدأ السابق حول الاعتماد على النفس. دينج وجيانج لم يتجها فقط للغرب استراتيجيًا كما فعل ماو فى أواخر فترته ولكنهما نظرا اقتصاديًا وكذلك روحيًا للغرب، وهذه الخطوة التاريخية أنتجت آخر صور التعاون مع الدولة الصينية، نظام دينج وجيانج حركا قواهما مع توقف أحيانًا من أجل شراكة مع رأس المال والتقنية الأجنبية ودينج خاصة وبطريقة واعية حاول أن يعيد خلق الخلطة بين الشرق والغرب والتى جاءت بالنجاح إلى سنغافورة وهونج كونج.

كانت هناك حدود وقيود شديدة لانفتاح دينج على العالم - من غير الصين - وآثار جانبية حُكم عليها أنها غير مقبولة للدولة الصينية، ومازال ضباط البوليس ورجال الأمن لا يرون فى الأجانب أو أكثرهم إلا مجرد جواسيس، هم ذباب وحشرات يحدثون أزيزًا وطنينًا من خلال الباب المفتوح، لقد تعلمت هذا فى بكين عام ١٩٩٢ عندما قابلت القائد السابق لحركة تيان آن مين الديموقراطية (شين تونج)، وكان آنئذ تلميذًا فى جامعة بوسطن وكان يقوم بأول رحلة له فى الصين منذ أحداث تيان آن مين، وسافر إلى عدة مقاطعات ولم يوقفه أحد لعدة أسابيع، لكن فى بكين اعتقلوه فى منتصف الليل فى منزل والدته. وقد وصلنى تليفون تحذيرى فى فندق (جيان بو) قبل أن يقطع البوليس خطوط التليفون عن منزله وكان المفروض فى صباح ذلك اليوم أن يلقى شين تونج خطابًا أمام مجموعة تتضمن صحفيين أجانب فى

قاعة فندق (جيانجو) وبالطبع لم يحضر وكنت أنا الوحيد الذى عرف أنه أعتقل الساعة ٩ صباحًا ولما حاولت أن أشرح للمجتمعين لماذا لم يكن موجودًا وقدمت بالإنجليزية والصينية نص ملاحظاته عن الديموقراطية فى الصين فإن رجال الفندق ورجال الأمن المرتدين الملابس المدنية أوقفوا الاجتماع قائلين إننا نخرق القانون، والمنشورات لم تُوزع واقتادنى رجال الأمن بملابسهم المدنية لأعلى أغلقوا على حجرتى ثم جاءنى رجال أمن بكين، وجاء دبلوماسى أمريكى للمساعدة لما وصله تحذير من الصحافة الأجنبية وبمساعدة رجل كاميرا يابانى تم جذب الدبلوماسى إلى حجرتى وقال رجال البوليس إننا نعقد مؤتمرًا صحفيًا غير قانونى وأننا نوزع منشورات، قلت لهم إنه ربما كنت سيئ الحظ وأعطيت مواد حول الشئون الصينية وأن ذلك حدث بسبب سوء الظروف التى ترتبت على اعتقال (شين تونج) بالليل. وقال لى أحد رجال الأمن إننى أتيت بأفكار ديموقراطية إلى الصين ورددت بالقول إن الصينيين أنفسهم لديهم أفكارهم عن الديموقراطية وقالوا لى: ماذا لو أن صينيًا ذهب إلى أمريكا كما أتيت هنا أنت وقدم مواد ضارة إلى الشعب الأمريكى فرد عليهم الدبلوماسى الأمريكى بأن الصينيين فى الولايات المتحدة يمكنهم أن يقولوا ويكتبوا ما يشاءون. وبعد ساعتين تم الوصول إلى صفقة بمقتضاها يتم إطلاق سراحى إذا تركت الفندق وذهبت للسفارة الأمريكية حتى الصباح ورغم هذا، فى حوالى منتصف الليل وصل حشد من رجال الأمن إلى حجرتى فى الفندق وقالوا لى إنك مطرود من الصين وأخذونى لمبنى قريب من المطار وحاولوا أخذ اعترافات منى ولم أكن أعرف ما هى الجريمة التى ارتكبتها ورفضت الاعتراف. عند الفجر قالوا لى أنهم لا يمكنهم طردى قبل أن أعترف وفى النهاية وافقت على التوقيع على تصريح يشير إلى النشاطات التى قمت بها بما فى ذلك بعض الوجبات مع (شين تونج)، وفهمت أن البوليس سيضيف جملة إن هذا غير قانونى وضار بالشعب الصينى (مُنشق وغيره) وكان ذلك فى النسخة الإنجليزية لاعترافى.

وفى النسخة الصينية طلب منى التوقيع على نهاية الوثيقة وفهمت من الحروف الصينية أننى كسرت القانون الصينى، وعلى مدرج مطار بكين تم تصويرى بالفيديو عند صعودى على سُلم الطائرة وكان موضوعًا على باب طائرة مُتجهة إلى هونج كونج. وخلال الـــ٢٤ ساعة السابقة، فإن انفتاح الصين على الغرب بدا لى محدودًا، ورجال الأمن ليس لديهم شىء مُشترك مع الصينيين – فى المدن – الذين يلتقى بهم السياح الأجانب ومن حيث أهدافهم وعقليتهم فإنهم الرسميون الآباء والأمهات لدولة الحزب التى لم تتغير.

الدولة الصينية لا تحتاج الفيديو فقط لإرضاء الرئيس ولكن الاعتراف. وفى سنة ٢٠٠١ عندما كانت (جاو زهان) الأستاذ التى يعيش فى الولايات المتحدة قد أوقفت فى مطار بكين بتهمة التجسس وأعلنت دولة الحزب أنها اعترفت بصراحة بجرائمها، هذا هو اللحن الرئيس الذى تتعامل بكين به مع المتهمين ولكن ما معناه؟ فى الصين إذا كنت متهمًا يجب الاعتراف لسبب أساسى. طالما أنه لا توجد كنيسة كاثوليكية دونما اعتراف فكذلك لا يوجد حزب شيوعى صينى دون اعتراف، إنها تأكيد لعدم الخطأ والعصمة من جانب السلطة العليا، إنها تجديد للإحساس بالمهمة من جانب الكهنوت السياسى لجعل الضعفاء والمواطن والفرد يعترفون ويصرحون. وفى كل مرة يتم إجراء الاعتراف الذى يحتوى على غير الحقيقة كما تم فى اعترافى بالنص الصينى فإن الشخص المسئول يقدم إسهامه الذى يُضاف لجبال الأكاذيب التى تأسست عليها دولة الحزب الصينية.

وبعد ١٤ أسبوعًا عندما تم الإفراج عن (شينج تونج) وأُعيد إلى بوسطن فإن الصحافة الصينية قالت أنه طالما المهادنة واللين معه وأنه تاب لدرجة ما. وفى مطار بوسطن عندما التقيته قال لى إن كلا التصريحين غير صحيح. أسرة الكينج الملكية فى عام ١٧٢٧ منعت الصينيين من العيش

خارج الصين وجمهورية الصين الشعبية تحت حكم جيانج تُكره المتحدثين الصينيين والمفكرين على العيش خارج الصين.

وفى مجال المعلومات والنشر فإن دولة جيانج قد اشتدت وطأتها فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، فالصحف وبيوت النشر كان يتم إغلاقها كل شهر لنشرهم وجهات نظر غير صحيحة سياسيًا، والصينيون الزائرون للصين وبعضهم مواطنون أمريكان جرى إيقافهم بسبب اتهامات مزيفة بالتجسس، والمحاكمات الأولى بدأت بمتهمين لاستخدام كلمات تخريبية على شبكة الإنترنت.

وفى عام ١٩٩٦ فإن صحيفة الشعب اليومية واجهت انخفاضا فى التوزيع مما جعل صورتها باعتبارها الصحيفة الأولى من الصعب الحفاظ عليها رغم أن عدد الصين يربو على ١,٢ بليون شخص لكن توزيع الصحيفة ٨٠٠ ألف نسخة. وبالمقارنة بالولايات المتحدة ٢٩٠ مليون نسمة وول ستريت توزع ١,٨ مليون يوميا وU.S.A Today توزع ٢,٢ مليون. والأسوأ فى بكين أن معظم الـــ٨٠٠ ألف نسخة لا يشتريها المواطنون من جيوبهم الخاصة لكن من خلال وحدات العمل فى دولة الحزب.

وباعتبار أن الحزب يشرف على صحيفة الشعب اليومية فإنه لا يتجه نحو حل المشاكل من خلال تقديم القصص الثقافية الموضوعية والحية لأن ذلك سينفى ويخل بالمهمة التعليمية التثقيفية للحزب الشيوعى. وبدلاً من ذلك فإن إدارة الصحيفة تتجه إلى طلب المزيد من اشتراكات الأجهزة الحكومية. فى عشرة أيام فإن دورة توزيع الصحيفة تضاعفت إلى ١,٦ مليون حسب أرقام الحكومة وشعر موظفو الحكومة وهم الأب والأم الرسميون شعروا بالتحسن إلا أن التوزيع فى الشهور التالية نقص مرة ثانية وكان الحل لديهم هو خلق الاعتقاد والقناعة لدى الشعب بأن ذلك غير مرتبط بالرغبة أو عدمها فى قراءة الصحيفة أو بما يخدم فقط الصورة الذاتية للدولة الصينية.

وعندما يفكر الإنسان لماذا يشترى قليل من الشعب الصحيفة اليومية؟، من تغطيتها التى تثير الغيظ للمشاكل وعلى سبيل المثال تغطيتها للمشاكل المتعلقة بمطار هونج كونج الجديد فإن هذا المطار يمثل تسهيلا عظيما وهو مبنى على أرض فى مرفأ هونج كونج استغرق البناء سبع سنوات بتكلفة عشرين مليون دولار لكن افتتاحه سنة ١٩٩٨ ارتبط بصعوبات ومشاكل من الصعب تصديقها حيث إن شاشات الوصول والاستقبال لا تعمل بالكفاءة اللازمة ويتم توجيه حقائب المسافرين إلى أماكن خاطئة ولما تأخرت رحلات الكارجو بقيت البضائع بصورة سيئة فى المدارج، والبحث الدقيق عن المعلومات أبرز الكارثة واضحة لكل العالم ما عدا الشعب الصينى كما علق (وانج رو شوى) وهو نائب مدير تحرير صحيفة الشعب الذى ذكر أن الشعب فى الصين ليست لديه أى فكرة عما يحدث فى هونج كونج. وبالنسبة للمشاكل السياسية الحساسة فإن الصينيين يتم إعطاؤهم فقط الأخبار الحسنة فعن افتتاح المطار كتبت صحيفة الشعب اليومية عن الأتوبيسات فى المطار وعن أحسن وسائل متابعة الأحوال الجوية وأفضل أجهزة التعامل مع المسافرين وعن مدارج المطار التى تعمل ٢٤ ساعة ولكن لم يتم نشر أى شىء عن الفوضى التى رأتها هونج كونج. وكما قال وانج أنها مشكلة دائمة وقد تم طرد وانج من الحزب الشيوعى قبل أن يتحدث بصراحة بأن الإعلام الصينى ينشر فقط الأخبار الحسنة وليس السيئة والأسوأ من ذلك فإن المسئولين الصينيين لا يحبون نشر الآخرين للأخبار السيئة عنهم وكل هذا يحدث خلال الفترة التى تطلب فيها بكين دخول منظمة التجارة العالمية واستضافة الأوليمبياد ٢٠٠٨ ولكن يبدو أن ذلك ليس مما يثير الدهشة، ودولة الحزب الشيوعى الصينية لديها إحساس بالحتمية التاريخية الكفيلة بتحقيق التناسق العالمى والانسجام والشفافية فلماذا ننشر الحقائق والأرقام التى تضع موضع التساؤل مثل هذه الحتمية؟ فى ٨ أغسطس سنة ٢٠٠١ تليفزيون الصين المركزى أعلن أن دولة الحزب لديها سبع لاءات للتغطية الإخبارية. أى دار نشر يمكن إغلاقها

لو نشرت تقارير: تنفى الدور الإرشادى للماركسية، فكر ماو تسى تونج، أو نظرية دينج إكسياو بينج، معارضة المبادىء الإرشادية (المطلقات الأربعة)، الخط الرسمى لسياسات الحزب الشيوعى، كشف أسرار الدولة، تهديد الأمن القومى أو المصالح القومية، معارضة السياسات الرسمية حول الأقليات القومية أو الدينية، الإضرار بالوحدة القومية أو التأثير على الاستقرار الاجتماعى، الدعوة للقتل، العنف، الإباحية، الخرافات والعلوم الزائفة، نشر الشائعات أو الأخبار الكاذبة، التدخل فى أعمال الحزب والحكومة، انتهاك دعاية الحزب أو تنظيمه أو النشر القومى أو قواعد وتنظيمات الإعلان.

وتقول الصحفية (داى كينج) والتى قضت وقتا فى السجن بسبب آرائها أواخر عام ٢٠٠٢ "فى الإعلام الصينى فإن أخبار الطقس والتقارير عنه هى التى يمكن الاعتقاد فى صحتها".

وهناك حادث جرى مساء فى نهاية ١٩٩١ يشير إلى أن جيانج هو أقل شجاعة وأكثر يسارية من سلفه دينج. أخبار العاشرة مساء على التليفزيون الرسمى قالت إن افتتاحية هامة ستعقب الأخبار وستنشر اليوم الثانى فى صحيفة الشعب اليومية فى الساعة الحادية عشر مساء أعلن التليفزيون أن الافتتاحية سيكون عنوانها (الكل من أجل الإصلاح والانفتاح) سيتم إعادة إذاعتها وحذرت رؤساء التحرير أن يصححوا الخبر. فى الداخل فإن دينج تابع الإذاعة الأولى بالتعليق واستشاط غضبا على الجزء الأخير من عبارة (وفى تنفيذ سياسات الحزب للإصلاح والانفتاح يجب الاستمرار فى المبادئ الأربعة ويجب ألا ننسى التمييز بين السيد إشتراكية والسيد رأسمالية) واتصل دينج بسكرتيره وخرجت رسالة من مكتب دينج من المكتب السياسى ثم لرئيس تحرير صحيفة الشعب اليومية المعدة للمقال الرئيسى طالبًا حذف الكلمات (ونحن لا يجب أن ننسى التفرقة بين السيد اشتراكية والسيد رأسمالية) ثم أعيدوا إذاعة كل شيء وهنا تساءل رئيس تحرير الصحيفة لأن

السكرتير العام لم يقل إن هناك شيئًا ما خطأ قد تم توبيخه وتعنيفه قالوا له لا تقل لماذا فقط افعل ما تؤمر ما جاءك هو من قمة القمة وتم نشر التعليق بدون الفقرة التى تضع خطا بين الرأسمالية والاشتراكية والتى أغضبت دينج ونشرت فى اليوم التالى بهذا الشكل.

دولة الحزب فى عهد دينج-جيانج كانت أقل أيديولوجية من دولة ماو كما كان الحال مع أسرة مملكة السونج وخاصة فى سياستها الخارجية والتى كانت كذلك أقل أيديولوجية منها فى عهد أسرة تانج، والأسباب لهذا الاختلاف فى الحالتين متشابهة دينج وجيانج مثل أسرة السونج كان عليهم أن يخففوا من غلواء العقيدة لأن كثيرا من الممثلين على المسرح السياسى لا يعتقدونها، أسرة السونج سهلت الأمور فى مجال العقيدة الكونية الكونفوشيوسية فى سياستها تجاه اللياو، الجين وغيرها لا يعنى أن الدولة الصينيةمفلسة ويجب تغييرها مثل هذا دولة الحزب الشيوعى الصينى لم تتكسر من عام ١٩٤٩ حتى اليوم هى توقفت عن القول إن الإمبريالية الأمريكية لها قدم فى القبر وأن الحرب حتمية وأن العالم كله يحب الشيوعية الصينية لكن وظائفها لم تتغير بين الخمسينيات وبداية القرن الواحد والعشرين فى عهد دينج وجيانج، عندما خبا نجم الماركسية فإن اللينينية بقيت ووجدت دولة الحزب الأداة اللازمة لدعم إحساسها وشعورها باللقب والمبادئ الأساسية الأربعة تترجم المبدأ وقد وضعت علامة فاصلة بين ما يجب احتماله وما لا يجب احتماله، والأربعة هى: الطريق الاشتراكى، ديكتاتورية البروليتارية، أفكار ماو تسى تونج والماركسية اللينينية وفى الحقيقة فإن الكليات الأربعة هى الدستور غير الرسمى لجمهورية الصين الشعبية.

وخلال الأسر الملكية فإن الأباطرة تكرر اتجاههم من الكونفوشيوسية الأخلاقية إلى السياسة الواقعية فالخمسين سنة الأولى فى الصين الشعبية شهدت تغييرا مقارنًا من المادية التى جرى توظيفها باعتبارها كونفوشيوسية

جديدة إلى الدينجية التى يتم توظيفها كذلك كقانونية جديدة ولكن ماذا كان محتوى الدينجية التى اتبعها كذلك جيانج؟ لو كانت المادية صيغة ماركسية، مع نكهة ووجهة نظر أو رؤية مادية فإن الدينجية كانت صيغة لينينية مطعمة بالقومية والتنموية للداعين إلى تقوية أنفسهم فى القرن التاسع عشر.

فى عام ١٩٨٠ كان ليو شاوتشيى أقرب المقربين لماو والذى سارع إلى الموت خلال الثورة الثقافية جرى إعادة تأهيله وأعيد إليه الاعتبار من جانب نظام دينج، وفى الستينيات جرى تطهيره باعتباره رأسماليًا، بعد ذلك عام ١٩٨٠ أطلقوا عليه الثورى الماركسى العظيم، الألفاظ لا معنى لها ولكن استخدامها كان شيئا مهما لقد كان ليو عادة أورثوذوكسيا ماركسيا منظما وعندما كان ماو محبطا أوائل الستينيات وقلقا فقد حاول مس التوازن بين الكونفوشيوسية الجديدة (اشتراكية ماو الأخلاقية) والقانونية المتمسكة بالحرفية (دكتاتورية لينينية) واتجه بثقل تجاه الأولى وهنا تم التخلص من ليو فالانشقاق بين الاثنين صار حتميا وانتهت حياة ليو بسرعة.

وعندما أعيد له اعتباره عام ١٩٨٠ تحدث الكثيرون من المعلقين الأجانب عن الرأسمالية القادمة إلى الصين تحت حكم دينج، وهذا لم يكن نقطة إعادة الاعتبار بعد الوفاة لليو أكثر منها أن دينج كان يؤشر إلى ترجيح الميزان بعيدا عن الكونفوشيوسية الجديدة (الماوية) والاتجاه نحو القانونية الحرفية (القانون والنظام اللينينى).

ولقد أسهمت وتضافرت عدة قوى لصنع وتكوين جمهورية الصين الشعبية، واحدة منها هى السعى الحثيث للتحديث الاقتصادى وهو الشيء المهم لكثير من دول العالم الثالث فى القرن العشرين، وقد أعطاه ماو منحىً مثاليا وكان يجب تعديله لكنه على أى حال شارك فى هدف الحداثة.

القوى الثانية من وراء صنع جمهورية الصين الشعبية هو الاعتقاد فى الشيوعية، والثالث هو تقاليد الدولة الأوتوقراطية فى الصين مثل أسرة الكينج ومحاولتها التوفيق وأقلمة التقليد الإمبريالى مع تحديات الغرب وعملية التحديث، ولهذا فإن الصين فى سعيها لهدف التحديث الاشتراكى بنت على كل من تقاليد الدولة من جهة ودولة الحزب ما قبل ١٩٤٩.

فى نهاية القرن العشرين كانت هنالك قوتان إضافيتان تفاعلتا مع ثلاثى القوائم السابقة من التأثيرات. القومية التى تلاعبت بمشروع حرب الأفيون لكنها حقيقة ترجع وتجد بذورها فى الخلاف الصينى السوفيتى ثم سقوط الاتحاد السوفيتى الذى كان فيه جزء من التحذير للصين وجزء من إعادة الحساب ثم الوضع النفسى الثقافى الذى يدين الولايات المتحدة كقوة وحيدة عظمى فى هذا العالم.

القوة الثانية الإضافية هى وضع الصين الاقتصادى المهم فى آسيا والذى أثر فى التفكير حول الاشتراكية والسياسة الخارجية.

المشكلة بالنسبة لسياسة جمهورية الصين الشعبية أن هذه القوى الخمس لا تنحاز جميعها بسهولة، فحركة التحديث الاقتصادى الصينية مهمة لكل الصينيين ولكنها تصارع وتناقض جهود الحفاظ على الواجهة الماركسية. إن رؤية الصين قوية وغنية تلعب دورا مهمًا وقياديا فى آسيا مثل الترحيب بالشعب الصينى وأيضا بما يحقق التناسق مع أهداف الصين التاريخية ولكنها تعرض للخطر العلاقات مع الغرب والمطالب الموجودة بالنسبة للأخلاقيات الاشتراكية. هناك وجهتا نظر جرى القضاء عليهما داخل العقلية الصينية ففى أعقاب سقوط دولة الكينج جرى الهجوم على العقلية الإمبريالية وبعد نصف قرن فإن المثالية الماوية جرى بيعها للصينيين باعتبارها الشىء الجديد الذى يحل محل الإمبريالى القديم الذى جرى رفضه، والحل قد صار مشكلة ثانية.

فماذا إذن حققت ثورة الصين الشيوعية؟ من وجهة نظر بكين هى حققت الإشتراكية بالطابع الصينى، إنها مختلفة عن اشتراكية الاتحاد السوفيتى إنها تستمر فى الوجود فالصين ليست فى طريقها نحو الرأسمالية إنها تبنى شيئا عبقريًا جديدا لاشتراكية السوق، هذه الصيغة الصينية من أجل الازدهار فى ظل السلطوية ستكون هى القاعدة الأساسية التى تنطلق منها بكين إلى قيادة العالم.

ووجهة النظر الثانية أن الإنجاز الوحيد للثورة الصينية هو تقوية ودعم وحدة العالم أو الفضاء الصينى، الحركة الشيوعية برزت فى مواقف وظروف تتميز بمحاولات الاحتكاك الأجنبى مع الصين هذه الأزمة للوحدة القومية تم بنجاح مواجهتها عام ١٩٤٩.

وهناك وجهة نظر ثالثة يمكن تسميتها (إلى أعلى التل ثم أسفله ثانية) إن السنوات منذ عام ١٩٤٩ تقع فى جزئين ١٩٤٩-١٩٧٦ وفترة ما بعد ماو، حاول ماو إعادة صياغة المجتمع وتصدير الثورة للعالم، دينج وشيانج وهو جينتاو قاموا أساسا بتفكيك ما بناه ماو فى ربع القرن الأول لهذه الثورة التى لم تحقق تغييرا مستمرا. صين ما بعد ماو استعادت بأشكال كثيرة الطرق التى مشى عليها صن يات صن وشيانج كاى تشك.

وهناك كذلك وجهة نظر رابعة تختلف مع الثالثة فترة دينج وجيانج أخذت من (لى هونج زهانج) وغيره من مجموعة (المقويين لأنفسهم) فى القرن التاسع عشر، فنظام نانجينج من ١٩٢٨ عمل كأنه بمثابة الجسر بين الفترتين فترة زعماء وأمراء الحرب وفترة ماو وكانت فترة توقف وانقطاع فى طريق عملية تطور الصين من إمبراطورية ملكية إلى دولة حديثة.

كل هذه التحليلات الأربعة أو الإجابات لم تحسب ما حققته أهداف ثورة ١٩٤٩ فى الصين وأقل من ذلك عملية تنظيم العالم ١٩٢١ عندما تم إنشاء الحزب لقد كان من المحتم علينا أن نواجه ما لم يتم تغييره سياسيًا.

إن ماو هو أفضل شاهد لتطور النظام الشيوعى للوراء تجاه التقليد الأوتوقراطى فلأربعة آلاف سنة لاحظ سنة ١٩٢٣ عندما كان عمره ثلاثين عاما أن سياسة الصين اختارت دائمًا المشروعات الكبرى الضخمة بمناهج كبيرة وكانت النتيجة دولة قوية خارجيا لكنها ضعيفة داخليا، قوية ومتماسكة فى القمة وخاوية عند القاع. لكن بعد وصول ماو للسلطة فقد لام وأرجع كل ضعف الصين إلى الإمبريالية الغربية فقد صرح ماو وعمره ٥٦ سنة أن الصينيين عادة أمة عظيمة وشجاعة وصناعية وفقط فى العصر الحديث رجعوا للوراء، وهذا يعود بالكلية للظلم والاستغلال من جانب الإمبريالية العالمية، هنا ماو غير لهجته من أجل أن يجعل الدولة الحزب الأوتوقراطية تبدو شرعية.

إن غموض إنجازات نهاية القرن العشرين داخليا فى الصين ينبع من الإستحالة الكاملة للجمع بين اقتصاد السوق مع دولة لينينية، ثورة ١٩٤٩ جاءت للسلطة بحزب شيوعى احتكر القوى السياسية، وإصلاحات ما بعد ١٩٧٨ فتحت جزءا من الاقتصاد لقوى السوق لكن الأبوية السياسية واقتصاد الإدارة والحكم الذاتى صعب جمعها معًا. إن اتباع طريق فى السياسة وطريق آخر فى الاقتصاد لا يؤدى لرحلة مريحة أو سهلة أو لوصول سالم مريح فى النهاية.

الإصلاح بعد الثورة يعنى أن شيئا ما خطأ قد حدث ولكن هذا لا يمكن قبوله علنا من جانب الحزب الشيوعى. التوتر بين الرشد الاقتصادى وجواهر التاج القيصرية الكين – ستالينية لدولة الحزب التى وصلت لقمتها فى عصر جيانج زيمين حول مصانع الدولة والموجودة منذ ١٩٤٩. والحجج فى

الحزب الشيوعى حول الوثبة الكبرى للأمام تعرض هذا التوتر، ورغم هذا يوجد خلاف بين الصراع والنضال السياسى الاجتماعى فى دولة ماو وكذلك فى دولة دينج وجيانج، فى الخمسينيات والستينيات السلطة المتفردة وقوة شخصية ماو غالبا ما قمعت الرشد الاقتصادى، بعد ١٩٨٠ الميزان اتجه لصالح الرشد الاقتصادى.

تحت حكم دينج وجيانج فإن المطالب المتميزة لجواهر التاج سالف الإشارة إليها صارت تحت الضغوط من ثلاثة جوانب:

١- الفرص المهدرة فى فترة ماو لا يمكن إنكارها.

٢- ألعاب فترة ماو السياسية طالما رفضها الشعب والحملات القتالية حتى النهاية فقدت بريقها كذلك لدى الجماهير.

٣- وأخيرا فإن إقليم شرق آسيا ككل قد تطور وصعد اقتصاديا بعد حرب فيتنام وبدت الصين كمن يلهث وراءه ولا يوجد وطنى يستطيع أن يجارى ذلك.

وفى المحصلة النهائية فإن فترة دينج/ جيانج وتعاون الصين مع رأس المال الأجنبى ليست هنالك بعد، هل الولايات المتحدة واليابان والدول الأخرى تخدم أهداف الصين دون معرفتها؟ أم هل الصين الشيوعية طرحت نظرية الأبوية السياسية الصينية فى سبيل الدخول للاقتصاد الدولى؟

الفصل السابع

بكين تتلاعب بتراث الإمبراطورية

(الصين فى نظام الأشياء العادى لا يمكنها الذهاب لمدة طويلة كإمبراطورية مستقلة أو حتى كدولة، فى الحقيقة هى ليست دولة إنها تسكنها شعوب من أجناس مختلفة وكذلك أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم فى التفكير وحتى اللغة هى كذلك مختلفة)

The Glob, London 1897

فى عام ١٩٩٧ فإن أكثر الأسواق حرية وأكبر مدينة ضد الشيوعية فى العالم، المستعمرة الإنجليزية هونج كونج نصف عائلاتها لاجئون من جمهورية الصين الشعبية ذهبوا بهدوء تحت جناح الدولة الماركسية اللينينية نفسها، وبعد ٦ سنوات تحت حكم بكين (دكتاتورية الشعب) هونج كونج سميت (أكثر اقتصاد حرية) من جانب مؤسسة (هيرتيدج) ومجلة وول ستريت جورنال التى تحدد السوق وذلك فى مؤشراتهم للحرية الاقتصادية لعام ٢٠٠٤.

وفى الحقيقة فإن التناقضات تظهر من كل بعد من أقاصى جمهورية الصين الشعبية، فى المقاطعة ذات الأغلبية المسلمة (سينكيانج) فإن الرسميين الشيوعيين ذوى الاهتمام بتدفق البترول منها إلى الساحل الشرقى للصين بعد لحظة يحذرون من خطر انشقاق سينكيانج عن الأرض الأم. وفى (لهاسا) عاصمة التبت على بعد أكثر من ألف ميل جنوب مساجد سينكيانج فإن الحكام الرسميين يستمرون فى معركة عمرها ٤٠ سنة مع الدالاى لاما وهو حاليًا

رئيس حكومة فى المنفى فى الهند حول ما إذا كانت التبت تدخل ضمن ممتلكات بكين.

ومن الناحية التاريخية فإن الصين الحالية اختلفت بين الوحدة والتفتيت غالبا على أسس أو بنسب متعادلة، وداخل هذه التأرجحات التى كانت بصفة عامة عنيفة فإن تغيرات فى أغلبيتها أكثر سلمية حدثت بين المركزية فى العاصمة الإمبراطورية وانتقال السيطرة عليها فى المحيط، هذا الجزر المحدود الذى حدث فى نصف القرن فى جمهورية الصين الشعبية بين المركزية والمحيط كانت أحيانا مقدمة لانحدار الأسر المالكة والتجزئة، ولكن ليست كذلك العادة فى كل الأحوال.

ولو أخذنا ٣ حالات بين المركزية وإلغاء المركزية خلال ألف عام فإن (وانج مانج) كان موظفًا كبيرا أمكنه الوصول إلى العرش فى العام ٩، حيث أدار سفينة ضيقة ومحكمة وقام بسياسات جديدة ولم يتحمل أى انحرافات، كما أنه بقوة وعنف وعدوانية رد على الفوضى فى Xiongnu الصحراوية، وغير أسماء بعض المناطق والموانئ الرسمية وألغى عمليات بيع وشراء الأراضى. إلا أنه بسرعة حدث فيضان كارثى للنهر الأصفر مما حرك معه التمرد وقضى على طموحات وانج مانج المركزية وتم اغتياله فى قصره عام ٢٣. وبعد ألف سنة فإن (وانج أنشى) كان هو من أمسك بحبل العجلة الدائرة خلال فترة الإمبراطور (شين زونج) من أسرة السونج حيث بدأ فى عام ١٠٦٩، وشملت التجديدات فى عصره الإصلاح الضريبى وبدأ الموظفون المركزيون يتلاعبون بالتجارة المحلية باعتبارهم (بيروقراطيين منظَّمين) كانوا مؤمنين بكسر كل الحدود والأسوار بين العام والخاص. وقام (وانج أنشى) كذلك بإنشاء لجنة للتخطيط المالى وقام بزيادة عدد البيروقراطيين إلى النصف، إلا أن المجاعة ساعدت على تقليص فترته وسلطته الفعالة إلى سبع سنوات.

وبعد ألف سنة أخرى أخذ ماو بخناق الصين وكان ربما هو الأكثر فعالية أيديولوجيًا واقتصاديًا ومركزيًا من الجميع، وفى فترة ماو فإنه قام بتحديث ما قام به (وانج أنشى) من حيث البحث عن الإصلاح بأخلاقيات واحدة وتوحيد للعادات، لكن وفاة ماو موازية لسقوط وانج مانج ووانج أنشى، تبعها نقل السلطة إلى الأقاليم ودعم التوجه نحو المصالح الخاصة وانخفاض الدخل المركزى كنسبة من دخل الحكومة، إن سمعة كل هؤلاء الثلاثة الأقوياء تراوحت كما تراوحت الصين بين نظم ومشروعات أو اتجاه للمركزية والعودة للمحلية.

والواقع أن قوة ونفوذ وهيبة المركز كانت موضوعا للتغيير والتقلب فالتحكم المركزى الشديد يتبعه حكم متسيب، والتنسيق والتناغم بين العاصمة والحدود خلال عقد واحد يمكن أن يتحول إلى ثورة فى العقد التالى، منطقة من غير (الهان) يمكن أن تضرب ضربة شديدة من جانب الثورات والانفجارات القومية فى السياسة الداخلية أو الخارجية. وقبل وبعد سقوط آخر أسرة حاكمة ١٩١٢ فإن التقلب والتغيير صار سريعا جدا، فإن الدفع نحو حكومة محلية وظهور رجل عسكرى قوى فى الأقاليم ومشروعات الفيدرالية تعطى كلها براهين دالة على التوتر القديم بين الملكية القوية والملكية المتساهلة.

إن أفضل رواية لدى ماو تسى تونج هى تلك التاريخية المسماة رواية (الملكيات الثلاث)، وجاء بها أنه بعد انفصال طويل المفروض حدوث وحدة وبعد وحدة طويلة المفروض أن يحصل انفصال.

واليوم فإن بكين تريد دعم فضائها الإمبريالى الشاسع وذلك من خلال التلاعب بخمسة متغيرات: التغيير الاقتصادى والاجتماعى، العقيدة الشيوعية، العلاقات الخارجية، الأدلة من التاريخ والآثار، الفرص اليومية للحكم فى المحيط أو المناطق من غير (الهان). وكما كان الحال فى سياسة أسرة الكينج

فى مناطق الحدود التى كانت الحساب الأمنى، النفقات واحتمالات وتوقعات الدخل وهو تماما سياسة حكومة جمهورية الصين الشعبية حاليًا.

وقليل من أجزاء الصين الأصلية أو الصين الشعبية الداخلية فيها اتجاهات أو نزاعات انفصالية. (جواندونج) تعطى مثلاً لمقاطعة عنصرية ولكنها سياسيًا بلا أسنان والظهير الشمالى فى مقاطعة shanxi وهى قوية فى تقاليدها السياسية لكنها متأخرة اقتصاديًا وفى التسعينيات نمت فيها فكرة شعبية المقاطعة أو الإقليمية ولكن دونما تعبيرات انفصالية ولربما يتوقع الفرد ضجرًا وتململاً من قوة ضغط بكين على الجنوب الشرقى الساحلى فى مقاطعة فوجيان والتى تشارك تايوان فى ثقافتها وتتكلم لغتها وتقع على بُعد ١٠٠ ميل منها وكلام أهل فوجيان يختلف عن الماندارين كما تختلف اللغة السويدية عن الإنجليزية ولكن رغم ذلك لا توجد ثمة إشارات عن تايوان عُظمى أو فوجيان عُظمى رغم حقيقة أنه فى التاريخ الحديث أن تايوان كانت أقرب إلى أن تكون جزءًا من فوجيان (أو جزءًا من اليابان) أكثر منها جزءًا من الصين. وفوق ذلك فإن الشعور المحلى المعنوى المتزايد وعدم الرضا عن بكين فى جواندونج وشانسى وفوجيان لم يتضمن دافعًا أو مولِدًا للاستقلال كما حدث فى بعض مقاطعات الصين فى العشرينيات من القرن الماضى واليوم فإن نقل الولاية والسلطة فى حد ذاته ليس نصف الطريق إلى التجزئة فلو أن مقاطعات الهان اليوم اتجهت للانفصال فليس ذلك من ناحية إرادتهم أكثر منه بسبب أن بكين سقطت فى أزمة حول خسارة قبضتها على الصين الخارجية والمحيط الخارجى ومنشوريا الآن شمال شرقى الصين فى معبر بين أقاليم الهان وأقاليم غير الهان والتى كانت تاريخيًا أرضًا لجنس المانشو الذى غزا الصين عام ١٦٤٤ لكنها صارت بعد ذلك صينية وهى اليوم مستقلة فعليا بصعوبة أكثر من جواندونج.

إنه العنصر العرقى والذى يمكن أن تراه بكين باعتباره الخطر على الوحدة القومية. وعدم الرضا من جانب شعوب الأقليات فى الغرب والجنوب الغربى والشمال يوجد فيها الاحتمال لتجزئة وتقسيم جمهورية الصين الشعبية. هنا وكما كتب (إدوارد فريدمان) أن تجارب المركز نفسها عندما اخترقها المحيط فى سيكيانج والتبت ومنغوليا الداخلية وغيرها من مناطق غير الهان فإن المسألة القديمة للإمبراطورية هى الموضوع الحالى كذلك.

من هو الصينى؟ وما الصين؟ كلها أسئلة تتم الإجابة عنها بعد رغم النجاح الاقتصادى والاجتماعى لفترة دينج وجيانج. هنا فى قرية قرب (ليانج شان) فى جنوب غرب مقاطعة سيشوان هناك امرأة فى قرية وهى عضو فى مجموعة عرقية اسمها yi لا تستطيع أن تقرأ الصينية ولا تستخدم العصى فى الأكل ولديها اعتقادات وثنية لكن بكين تسميها صينية ليس؛ لأنها من الهان ولكن لأنها مواطنة فى جمهورية الصين الشعبية وحكومة الصين تأخذ نفس وجهة نظر أهل التبت رغم أن معظمهم ينكرون أنهم صينيون بأى معنى، وهنا نرى تلفيقًا لمشروع إمبريالى.

هل (شين شويفيان) رئيس تايوان صينى؟ هل (لى كوان يو) الرئيس الأسبق لسنغافورة صينى؟ بأى شكل معمارى نيويورك أ.م.بى صينى؟ الهوية الصينية يمكن أن تتقاطع مع هوية ثانية، فى دراسة للرأى فى تايوان عام ٢٠٠٠، ٤٥,٥% أجابوا أنهم تايوانيون و١٣,٦% قالوا أنهم صينيون و٣٨,٥% قالوا أنهم تايوانيون وصينيون. وماذا عن الممرضة الأمريكية الصينية المولودة فى فيتنام وحتى الآن هى مواطنة فيتنامية تعيش قرب منزلى فى بوسطن وماذا عن أستاذ عجوز فى ضاحية سان فرانسيسكو يتكلم الصينية فقط ويأكل الأكل الصينى بالعصى ويتمسك بالكونفوشيوسية؟ وباعتباره مقيمًا فى الولايات المتحدة فلديه الكارت الأخضر لكنه لا يستطيع قراءة ما هو مكتوب عليه بالإنجليزية.

في هذه الأمثلة والنماذج فإننا غالبًا نرى عوامل متصارعة من اللغة والثقافة والقانونية والعرق التي تجعل من السؤال من هو الصيني سؤالاً مُعقدًا، هي ليست مثل سؤال من هو الإنجليزي إذا طُرح منذ قرن في المناطق البعيدة التي تتكلم الإنجليزية مثل استراليا وكندا. مفهوم الصيني يمكن أن يكون سياسيًا، عرقيًا، ثقافيًا، كما كتب (أندرو ناثان) على عكس العالم المتحدث بالإنجليزية، فإن العالم الصيني ليس لديه لغة مشتركة للحديث، وكما كان الأمر حقيقيًا منذ قرون فإن الدولة والحضارة بعيدان عن وجود الحدود المشتركة، هل كان على (كين شيهوانج) أن يعاود الظهور اليوم حتى يُسأل عن الرأي في النظر إليه كمواطن صيني؟ أم هو من قومية أقلية؟

وكما أن الصين قد وجدت أكثر الطرق فعالية لسياستها الداخلية منذ ١٩٤٩ فإن السؤال حول من هو الصيني قد عاود الظهور فإن الديناميكية الاقتصادية لجنوب شرق الصين قد أعطت ضوءًا جديدًا على تماسك الصين، السياسة تتحدث عن وحدة الصين والاقتصاد لا يقول الشيء نفسه، عادةً الصين الشعبية هي إمبراطورية متعددة ومتنوعة، حتى تعريف الصين الأم اليوم كما كان غالبًا فيما قبل هو أمر يثير النزاع والاختلاف.

أجزاء ومناطق كبيرة من الصين الشعبية لم تكن تاريخيًا جزءًا من الصين، وخلال أسرة الكينج كانت في حاجة إلى مزيد من الأراضي من خلال التوسع الإمبريالي كما أن بريطانيا حصلت على هونج كونج واليابان حصلت على تايوان من خلال التوسع الإمبريالي. وفي النصف الغربي من جمهورية الصين الشعبية فإن اللحى والمساجد واقتصاد الخيل والخلطة التبتية للبوذية والزراعة هي على الأقل مع الشاي بالزبد وثورة تبت (الياك) لا تبدو كلها على الإطلاق صينية. وليس فقط الجزء الغربي من الصين أجنبيًا عن

الحضارة الصينية فإنه يثير ثلاث حضارات تفخر بها: التبتية، المونغول، التركية.

الصين الشعبية وإمبراطورية الكينج يحملان قدرًا من المقارنة مع روسيا فإن الإمبراطورية القيصرية مثل الكينج كانت كبيرة (سدس مساحة الأرض) وكانت الروسية عبارة عن الجمع بين الطموح العالى فى الحدود والحياة غير الليبرالية وغير الصناعية فى الداخل مثل الكينج. وفى الحالة الصينية، عندما بدأت جمهورية الصين الشعبية فقد فقدت الصين أجزاء من منغوليا عام ١٩٤٦ بفضل ستالين ولكن إمبراطورية الكينج أُعيد ولادتها باسم الإمبراطورية الصينية الشيوعية الجديدة والآن، فإن شعب الهان يمثل أكثر من ٩٢% من شعب الصين و٦٠% من أراضى جمهورية الصين الشعبية يقطنها فى الغالب ٥٥ أقلية وربع هذه المجموعة فى الغالب من التبتيين وسدسها فى الأغلب من التُرك وعُشرها فى أغلبه المونغول. وأكبر ٣ مقاطعات فى الصين وهى سيكيانج والتبت ومنغوليا الداخلية كلها تمثل الحضارات غير الصينية. وقد وضعها ماو بصراحة شديدة حيث قال "نحن نقول إن الصين دولة واسعة فى إقليميتها غنية فى مواردها وكبيرة فى سكانها وكأمر حقيقى فإن قومية الهان حيث سكانها هم الأكثر وقوميات الأقليات حيث إقليمها واسع ومواردها غنية". بكين تريد أن تجعل هذه الأجزاء الغامضة تذوب من خلال نقل الهان إلى إقليمها وفى أثناء ذلك فإن السكان غير الصينيين غالبًا يفضلون الإستقلال عن الحكم الصينى.

ما الأجزاء من جمهورية الصين الشعبية التى تقع قرب الحافة البحرية؟ وما الأجزاء التى فى الظهر البرى الأرضى؟ فى شوارع وقرى الجنوب الصينيون يقولون لك أن تايلاند تنتمى للصين، وفى الشمال الشرقى ربما تسمع عن كوريا باعتبارها من أبعاد الإمبراطورية الصينية منفصلة الآن. حكومة الصين الوطنية فى تايوان حتى مؤخرًا تعتبر أن جمهورية

منغوليا وهى دولة مستقلة وعاصمتها اولانباتور كجزء لا يتجزأ هى ومنغوليا الداخلية (المعروفة من جانب بكين بمنغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتى) من الصين الأم.

غالبًا منذ آلاف السنين وتكرر هذا خلال القرن التاسع عشر والعشرين فإن الصين غيرت رسم حدودها الأرض/الحافة وهى وجدتها أيضًا متغيرة عن طريق الآخرين، فى حكم أسرة الكينج وصلت إمبراطورية بكين إلى مداها الأوسع (فى العصرالشيوعى تجاوزتها جمهورية الصين الشعبية حيث استعادت ما خسره الكينج) بلاط المانشو فى القرن الثامن عشر مد سلطته إلى منغوليا وسيكيانج والتبت، لقد ضاعف حجم فضاء أسرة المينج التى ضمت بالأساس شعب الهان وعمليًا كان توسع الكينج عبر الأراضى إلى مناطق الشمال والغرب.

ويا للعجب فإن إمبراطورية الكينج الضخمة وغير المُسيطر عليها كاملاً ومتعددة الثقافات بعد فترة صارت دولة تسمى جمهورية الصين الشعبية فكيف تأتى للكينج فى الجوهر تقديم هذه الحدود إلى جمهورية الصين الشعبية؟ الدور الأساسى لعبه (شيانج كاى تشك) وكما كتب (وليم كيربى) عن الفترة الجمهورية أن أسرة الكينج سقطت لكن الإمبراطورية بقيت، والانتقال تم إكماله من خلال قادة الاتحاد السوفيتى. ستالين الذى كان يسيطر أساسًا فى الأربعينيات على شمال سيكيانج ويحكمها باسم جمهورية شرق التركستان (أحمد جان كاسيمى) سهل الطريق لماو ليأخذ كل سيكيانج عام ١٩٤٩. نيكيتا خروتشوف فى الخمسينيات أخذ الاتحاد السوفيتى خارج منشوريا وورث ماو إمبراطورية مثل manna من السماء. وكان طابع ستالين فى تشكيل جمهورية الصين واضحًا فى مؤتمر يالطا فى فبراير ١٩٤٩ ومن خلال معاهدة الصداقة الصينية السوفيتية بعد ذلك بستة أشهر ففى يالطا تم الاعتراف باستقلال منغوليا الخارجية وبامتيازات موسكو فى

منشوريا التى فقدتها لصالح اليابان فى ١٩٠٤، واستعيدت كشرط لدخول الاتحاد السوفيتى فى حرب ضد اليابان وبعد المؤتمر تفاوض ستالين مع الحكومة الصينية وبدهاء خاطب شيان كاى تشك فى أربعة أشياء تهمه: تهديد الشيوعيين الماويين، وضع الصين فى ثلاثة أقاليم من منغوليا الخارجية ومنشوريا التى يمكن أن تقع فى يد ماو بمساعدة سوفيتية، وشمال سيكيانج (حيث شعوب التُرك قد أقاموا دولة مستقلة).

ستالين لعب اللعبة ٢ X ٢ ووعد الصينيين ألا يطوقوا سيكيانج وألا يساعدوا ماو فى الحرب الأهلية فى المقابل أخذ موافقة الصينيين على استقلال منغوليا الخارجية وامتيازات السوفيت فى منشوريا. هذا الجزء من تنظيم العالم مع نصر ماو السريع على شيانج كاى تشك فإن إمبراطورية الكينج مع تعقيداتها الشديدة صارت هى إمبراطورية الصين الشعبية وكما كتب (وليم ميلوورد) فإن مفهوم الصين اليوم لم يظهر عام ١٩١٢ ولا حتى فى أواخر القرن التاسع عشر ولكن تم اختراعها من خلال التوافقات التدريجية من جانب الهان الصينيين منذ أواسط أسرة الكينج حتى فكرة الصين الكبرى مع الكونتورات الطبيعية والعرقية لإمبراطورية الكينج. صن يات صن وشيان كاى تشك وستالين كانوا ضمن من سهلوا حدوث ذلك.

إن ما تم فى نهاية السبعينيات من اختيارات تعاكس سياسات ماو المركزية حدثت وكأن الحاضر هو عملية إعادة صنع الماضى وارتبط بها ظهور نظريات متغايرة عن أصول الشعب الصينى وطبيعة أسرة الكينج. فى فترة ما بعد ماو التى قاومت كل المفاهيم الشاملة لدولة المركز وشهدت تساؤلات من جانب الأساتذة الأجانب وكذلك بعض الأساتذة الصينيين فى سيشوان وأماكن أخرى بعيدة عن بكين حول البذور الواضحة والمحددة للجنس الصينى فى إقليم النهر الأصفر وذلك لصالح نظرية البذور الثقافية المتعددة للصين. فطبقات المقابر فى سيشوان أثبتت كذلك أن أحداث منطقة

الجنوب الشرقى القديم ساهمت فى تشكيل الشعب الصينى وعليه فالهان يمثلون موزاييك كما أثبتت الدراسات ووصلت لنتائج، وبالإضافة للمتخصصين الغربيين فى الشئون الصينية الذين درسوا وتعلموا عن جاذبية التعدد والتنوع فى المجتمع الغربى واكتشفوا التعددية المنهجية، ومن هنا بدأوا فى فحص السجلات لعصر أسرة الكينج والتى لم يعد ينظر إليها كإطار مناسب للنظام الصينى أو كأوتوقراطية من الحائط للحائط، فباستخدام مصادر جديدة للغة المانشو فإن المراجعين وضعوا تركيزا أقل من غير (فير بانك) على استيعاب الصين للمانشو والآن ينظر إلى لغة المانشو خلال فترة الإمبراطور كيانج لونج وفى سينكيانج فى القرن الثامن عشر فإنه نادرا ما وضع الكينج الصينيين الهان فى مكان السلطة على داخل آسيا والأمر كذلك صحيح مع حكم الكينج فى التبت ومنغوليا ومنشوريا، المانشو كانوا ناجحين فى توسيع مجال الصين وكانوا ثقافيا أقل نجاحا فى مقاومة إثارة وجاذبية الهان، والكونفوشيوسية كطريقة حياة، وكما أن هنرى الرابع فى فرنسا تحول إلى الكاثوليكية عام ١٥٩٨ كأفضل طريقة ليسيطر على البلاد كذلك المانشو وقوادهم صاروا طامحين ليكونوا حكماء كونفوشيوسيين لقد أبدوا المرونة على كل حال فى قبول الميكانيزمات أو الآليات غير الصينية فى التعامل مع المونغول والتبتيين وغيرهم فى الظروف الجغرافية والطبيعية الخاصة.

(ليمان ميللر) خلص إلى أن الكينج كانوا إمبراطورية متعددة الأعراق تستخدم روتينيات وأساليب ومؤسسات حكم مختلفة ومتعددة، التعددية هنا ليست سياسية ولكن عرقية والبعض يقول إن أسرة الكينج كانت إمبراطورية أكثر منها ملكية.

وكما كتبت (إيفيلين راوسكى) كانت هناك مواءمة خلاقة لمشاكل الحكم والتى لم تكن مجرد تكرار لدورة الحكم الأسرى الملكى.

اكتشاف ١٧١٧ لأطلس الملك (كانج إكسى) يحدد الأسماء داخل الصين بحروف صينية لكن فى نوع من القبول للكلونيالية تحدد الأسماء لبعض جهات فضاء المانشو أثناء فترة الكينج.

ولإعادة تفسير أسرة الكينج من القمة إلى القاع فى ضوء صدى التعددية اليوم وكذلك اللامركزية يعتبر شيئا غير حكيم، ومن الناحية الفعلية فإن وجهات النظر الجديدة هى مجرد تعديل وليست للحلول محل وجهات نظر (فيربانك). ويصر (ميللورد) على أن الكينج أقاموا نظاما لتقديم الاحترام ودفع الجزية فقط للأجانب وقال إن فيربانك أساء فهم هذه المسألة، صحيح أن نظام الجزية يؤكد تماسك أساليب الكينج فى التعامل مع الشعب فى درجات أقل على السلم بالنسبة لوجهة نظرها الهيراركية ولكن يبقى من الصحيح أن دولة الصين لم تقدم ثقة واضحة بين العلاقات الدولية والسيطرة على الخاضعين لها. قال ميللورد إنه خلال فترة أسرة الكينج فإن السؤال حول من وما هى مكونات الصينى والصين أنها أمور مشكلة إنها أيضا مشكلة بغرب جمهورية الصين الشعبية اليوم .

الإمبراطورية التى تحققت خلال أسرة الكينج يجب فهمها ليس فى إطار عرقى بل باعتبارها نموذجا معينا للدولة، لقد كانت دولة إطارها الأساسى أخذه المانشو من التقاليدالصينية، لقد وظفوه لتحقيق إدماج سياسى طويل الأمد لآسيا الداخلية وشرق آسيا، هذه الدولة كانت لديها رؤية لنحن وهم على الخاضعين للإمبريالية الصينية والترك وغير الهان كذلك. نظرية نظام العالم الصينى كما يراها ميللورد مضللة وأقل من ذلك أيضًا لو فكرنا فيها كنظام سياسى صينى والذى هو تفسير عقلانى إذا أخذنا فى الاعتبار الخط الضبابى وغير الواضح بين الشئون الداخلية والشئون الخارجية.

دولة الصين لديها عقلية مملكة وسطى بسبب طبيعتها الموروثة، وهذا لا يعنى أن سياسة بكين الخارجية هى تكرار لأسرة التانج أو أسرة السونج

لكن وجهة نظر جمهورية الصين الشعبية العالمية تجد جذورها فى أسلوبها للحكم ورغم الرفض المغالى فيه لوجهة نظر فيربانك فإن الفهم الطبيعى والأولى لما فعله الكينج يوضح تماما جذور النظام الإمبريالى الصينى اليوم. ولتحديد فضاء الكينج فإن ميللورد يستبدل دوائر فيربانك الداخلية المركزية بمجموعات متتالية من الوحدات العرقية، هذا يوازى وحدات البناء building blocks للإمبراطورية الصينية الشيوعية فى الفصل الأول. وفى المركز من مشروع الكينج تتركز بشكل صريح سلطة الدولة وليس الصينية التى رفض كثير من الأساتذة الهان توسعات الكينج فى الأقاليم الغربية.

لقد أعاد الكينج أساسا هندسة الدولة الصينية فى تقاليدها القانونية المتمسكة بالحرفية، والمدى الذى وصلت إليه هذه الدولة هو كذلك مثل بكين اليوم لم يكن يتمشى مع حدود الحضارة الصينية، كونك مسلما لا يمنع التونجانز من قتال الكينج ضد الكوكانديز. وكونك صينى لا يمنع الرسمى من الهان من الزواج من امرأة من اليوجور، واليوم فكونك (تبتى) لم يمنع (ناجابو ناجوانج جيم شيب) من الخدمة المخلصة للحزب الشيوعى الصينى لعقود كثيرة بدأت مع اتفاقية النقاط السبعة عشر عام ١٩٥١.

الكينج لم يكونوا خاصة عنصريين وكانوا أقل فى هذا المجال من بعض الممالك والأسر الصينية، كانوا يريدون فقط السيطرة والرخاء وليس الانتصار العنصرى، بدأوا بفكرة المينج حول مسلمى الغرب (الكلاب) وانتهوا بأن سموهم الخاضعين للإمبريالية أو رعايا الإمبريالية، وفى هذا الإطار فإن الإمبراطورية الصينية اليوم فى وضع مشابه وكما كان الأمر فى أثناء فترة الكينج فإن الأمن والمال مهمان لحكم سينكيانج كعرقية والأمر الأساسى لفهم الكينج والإمبراطورية الشيوعية ليس الثقافة أو العرق إنها رؤية وأسلوب حكم وسيطرة المركز. الدولة الصينية كانت ومازالت تطاردها فكرة الوحدة وهذه المعضلة هى قديمة قدم الدول المتحاربة وهى حديثة

ومعاصرة مثل قمع بكين للمسلمين فى سينكيانج بعد ١١ سبتمبر، وكما قال (لو شى شونكى) فى القرن الثالث قبل الميلاد "لو أن هناك وحدة فى الرأى فيمكن الحكم بسهولة ولو أن هناك خلافات ستكون هناك فوضى، الوحدة تقوى الأمن والاختلاف يؤدى للخطر" وكان لدى الإمبراطور كيان لونج رؤية عن المسلمين والهان وكيف يمكن الجمع بينهما سياسيا فى وحدة عظيمة (طالما الأسماء توحدت فليس هناك شىء غير عالمى).

ولكن من يقوم بالتوحيد وعلى أى أساس يتم؟ تعددية حكم الكينج يمكن مقارنتها بالعملية ذات الاتجاهين الجارية اليوم بين هونج كونج ودولة بكين وبين تايوان وجمهورية الصين الشعبية، هناك إقليم واحد لدولة بكين (هونج كونج) وإقليم خارجها (تايوان) ولكن كليهما مرتبط بمركز جمهورية الصين الشعبية ترسل وتستقبل النفوذ، فالاسم يتم توحيده من جانب الإمبراطور وعلى أى حال سواء كان حاليًا فى الداخل أو ليس كذلك فكلاهما من وجهة نظر الحزب الشيوعى الصينى وحدات بناء فى الصين العظمى.

لقد ذهبت وانتهت إمبراطوريات العالم الأخرى متعددة الأعراق، الإمبراطورية النمساوية المجرية والاتحاد السوفيتى كانوا ضمن أواخر العهد بهذه الإمبراطوريات رغم هذا فإن جمهورية الصين الشعبية تذكر العالم بأنها تتوقع الحصول على المزيد من الأقاليم أكثر مما لديها حاليًا، تايوان سيتم الحصول عليهاو أقاليم أخرى ستتبع والفكرة وراء ذلك ثيولوجية سياسية تسمى (الصين الواحدة) إنها خيال خلقته لتنكر حقيقة أن الصين متنوعة وكذلك المفارقة التاريخية لجمهورية الصين الشعبية وطريقتها فى الحكم، هناك صين واحدة فقط كما تقول القضية من العصور القديمة والتبت وسينكيانج هى أجزاء منها وتايوان رغم ما يبدو لا يمكن أن تكون كيانا ذا سيادة وهناك اختلافات حول القضية تغطى كذلك منغوليا ومنشوريا.

وفى المواد ذات الصفة التاريخية وكذلك فى التقارير السياسية السرية فإن هناك مناطق أخرى تقع كذلك أمام الصين الواحدة بما فيها أجزاء من سيبريا الروسية وبعض الجزر شرق وجنوب جمهورية الصين الشعبية وكما قال ماو عام ١٩٦٤ "منذ مائة سنة فإن المنطقة شرق بحيرة بايكال صارت إقليما روسيًا ومنذ إذ فيلاديفوستك ، خوباروسك، كامتشاتكا ومناطق أخرى صارت أقاليم روسية، إننا لم نقدم حسابنا لهذه القائمة بعد" ولو صارت الصين قوة عظمى فإن كشف الحساب هذا سيتم تقديمه، عام ١٩٧٣ بدا ماو وكأنه جعل الإقليم الذى سرقته موسكو أكبر فقد اشتكى إلى كيسنجر أن "الاتحاد السوفيتى قد أخذ لنفسه واقتطع مليون ونصف كيلو متر مربع من أراضى الصين" وخلال السبعينيات والثمانينيات فإن الحزب الشيوعى نفسه الذى يحكم الصين اليوم ادعى أن أجزاء كبيرة من كازاخستان وطاجيكستان هى أقاليم صينية.

الصرخة المحددة فى أدبيات وأحاديث الصين الدولية عن صين واحدة تمثل نقطة نزاع وجدال بين الصين والدول التى تريد التعامل مع تايوان فإن صينًا واحدة تغطى شبكة وراء تايوان إنها التوقيع النهائى لفكرة وحقيقة الإمبراطورية الصينية الجديدة، فلكى تكون عضوا حقيقيا فى الفضاء والنظام الصينى لأى مكان فى العالم يجب عليك الاعتقاد والإيمان بفكرة صين واحدة تطبق على التبت وكذلك على تايوان، وأى حكومة أجنبية لا تردد كل سنة الكتاب المقدس عن صين واحدة فإنها تتدخل بذلك فى الشئون الداخلية للشعب الصينى وهذا فى الحقيقة يمثل صوتا إمبرياليًا.

والحقيقة أن صينًا واحدة لا يوجد ثمة ما يساعدها من التاريخ أو الثقافة فلطالما خرق ماو نفسه وكرر ذلك الخرق بقاعدة صين واحدة ففى عام ١٩٣١ عند إعلان الجمهورية السوفيتية قال ماو "من الآن يوجد دولتان مختلفتان تماما فى إقليم الصين" وعندما كان شيان كاى تشك رئيسا لجمهورية

الصين فى نانجينج أضاف ماو "واحدة هى المسماة جمهورية الصين والتى هى أداة للإمبريالية والثانية هى جمهورية الصين السوفيتية وهى دولة الجماهير والعمال والفلاحين والجنود" وفى عام ١٩٢٠ قال ماو "من الأفضل تقسيم الصين إلى ٢٧ دولة" ماو كان يعبر عن موقف فعلى بالإضافة إلى تفضيل أيديولوجى وكان يردد عدة سيناريوهات للتاريخ الصينى وقد كان هناك أكثر من مطلب واحد لحكومة الصين كل واحد بقيمه وتكوينه، الشعب فى تايوان وهونج كونج ومنغوليا الداخلية وغيرها يقول ذلك أيضا يمكن أن يكون حقيقيا فى العصر الحالى ولكن الحكومة الصينية تغضب لذلك، فصين واحدة تساعد الصين فى المبالغة عن طول عمر الهوية الصينية ودرجة التماسك فى الحضارة الصينية وشرعية نظام جمهورية الصين الشعبية.

ومخاوف بكين من هذه الأشياء تجعلها حساسة حول أى بحث وتدقيق عن الصين الواحدة، فى عام ١٩٩٨ الـ(واشنطن بوست) نشرت مقالتى التى وضعت فيها موضع التساؤل (صحة الصين الواحدة)، وكان رد الفعل والذى له مغزى ظهر فى صحيفة بكين اليومية (جوانجمينج ريباو) ترفض تصريحى عن صين واحدة باعتبارها مثالية أكثر منها حقيقية وقال (لى رونج) بحدة "هذا فى الحقيقة وجهة نظر مضحكة وتريد الخلط بين الأبيض والأسود والقول بأن الآيل فرس". وفى تساؤلى فى الواشنطن بوست عن صين واحدة كنت مثل النملة التى تريد إسقاط شجرة كبيرة ولكن هذه النملة التى لا أهمية لها كانت جزءا من مؤامرة لتقسيم الصين وتخريب العلاقات الصينية الأمريكية كما قالت الصحيفة الصينية وكلا الأمرين كان غير صحيح فهل يمكن لنملة أن تقسم الصين؟

فكرة الصين تشبه فكرة الإمبراطورية البريطانية كلاهما ككيان طبيعى مادى يكبر ويصغر بمضى الوقت قبل وأثناء وبعد حكم إنجلترا لدرة التاج البريطانى وهى الهند فإن فكرة الإمبراطورية البريطانية وجدت، تايوان

والتبت وفيتنام وكوريا وغيرها من أجزاء الصين دخلوا وخرجوا إلى الحكم من جانب بكين، أحيانا كانت الصين الأساسية يحكمها الإمبراطور وبيروقراطيته فيما الصين الخارجية ومعظمها مناطق غير صينية لها علاقات بشكل ما مع البلاط الصينى وفى أثناء ذلك فإن فكرة الصين استمرت.

ونظرة على (بورتو ريكو) تعط مثلا على وضع الصين الفريد فهو مجتمع يختلف عن باقى المجتمع الأمريكى لدرجة تقارن بالخلاف بين ٥ أو ٦ مناطق من التى تعتبرها بكين جزء من الصين وباقى الصين، بورتو ريكو حاليا جزء من الولايات المتحدة تحت إجراءات تنظيمية خاصة مع وضع (الكومنولث) ومعظم البورتوريكيين يحبون النظام الحالى ولكن بعضهم يريد الاستقلال عن الولايات المتحدة وبعضهم يريد الدولة الكاملة داخل الولايات المتحدة، فلماذا يوجد توتر بسيط يحيط بهذا الموضوع سواء فى بورتو ريكو أو فلوريدا أو واشنطن؟ لأنه مقبول من كل شخص أن أى تغيير فى وضع بورتو ريكو سيتم من خلال صندوق الانتخاب، كمشروع من أسفل فإن أى تغيير من بورتو ريكو هو موضوع يمكن التعامل معه ولا أحد فى واشنطن يعتبر من يريدون الاستقلال فى بورتو ريكو انفصاليون.

وداخل الدول المحيطة بجمهورية الصين الشعبية يوجد توتر كبير حول الأوضاع مقارنا بوضع بورتو ريكو لأن بكين لا ترى موضوع السيادة كأن له صلة بإرادة الشعب، وهنا يظهر مفهوم الصين الواحدة ففضاء الصين يتكون ليس من شعوب ذات سيادة ولكن من وحدات بناء داخل الهيكل الإمبراطورى، بكين تقول إن كل الشعب الصينى يؤيد مفهوم جمهورية الصين الشعبية عن الصين الواحدة، والحقيقة أن ذلك غير معروف فلم تتم استشارة شعب الصين الشعبية حول هذا الموضوع، وفى تايوان؛ حيث جرت استشارة الشعب فإن المصوتين اختاروا زعيمين متتالين لم يوافقوا على

مفهوم الصين الشعبية لفكرة الصين الواحدة، خلال ذلك فإن بكين تمتعض وتنتحب على الإمبريالية الأمريكية وتقول إن من يؤيدون استقلال بورتو ريكو صاروا أهدافا لخدمات المخابرات الأمريكية وغالبا مسجونون سياسيون كما أن شواين لاى سمى هاواى تابعة للولايات المتحدة وأن الأمريكان سنة ١٩٥٧ حاولوا أن يجعلوا من تايوان أرضا تابعة لهم مثل هاواى.

صيغة بكين عن صين واحدة تبدو مهددة من داخل الصين وخارجها ودرس التاريخ يشير إلى أن حسابات وخطوط الصين دائما تتغير وبانتظام، وجهة نظر الصين الحالية على صين واحدة هو أمر تحكمى، وهناك ثلاثة من قادة الصين فى القرن العشرين صن يات صن، شيانج كاى تشك، وماو تسى تونج كل منهم رسم خريطة مختلفة للصين. كل منهم خلال فترة حكمه غير رأيه حول ما إذا كان إقليمًا أو أكثر هو جزء من الصين، لماذا تايوان فى صين واحدة لجمهورية الصين الشعبية (فى إحدى المرات قال ماو إنها ربما اتجهت نحو الاستقلال) ولماذا منغوليا الشمالية خارج الصين الواحدة (وكان شيانج يريدها داخلها)؟ هناك إجابات لهذه الأسئلة ولكنها لا توجد داخل إطار سماوى معد سلفا لصين واحدة.

الزوجات الصينيات كوحدة موضع للتساؤل تجعل الاختلافات العرقية أمرًا يمكن تجاوزه وتبعده عن المناقشة من أجل عظمة ومجد بلد تم بناؤها من أعلى، هذا الجزء من البناء كأسلوب لحكم المجتمع المتعدد الأعراق تسيطر على الفكر السياسى الصينى وحيث إن الفلسفة الماركسية بدأت فى الأفول وركدت فإنها رؤية لإمبراطورية يقودها الهان، شعوب الأقليات ينظر إليهم كاريكاتوريًا ويصفق لثقافتهم بينما يتم إبعادهم عن صناعة القرار وتحت النظام الشيوعى كما قال (أنطونى دانيالز) "كل الأقليات ترقص" الصين مثل الاتحاد السوفيتى قبلها تخفى عدم احترامها للفرد من خلال النشر والدعوة للتنوع فى تنظيماتها وتركيباتها الشكلية وهناك بديل لوحدة أجزاء البناء وهى

التى يتم كسبها من خلال ولاء الأفراد الأحرار بالتأكيد هذا هو المفهوم الوحيد للدولة التى يأخذها علم السياسة على محمل الجد وكما كتب (إريك نوردلينجر) "فقط من خلال جعل الأفراد أساسًا لتعريف الدولة يمكن لما تتضمنه الهيجيلية - المعنوية والمادية - يمكن تفادى ما تتضمنه الهيجيلية - ماديًا ومعنويًا - حين الإشارة إلى تفضيلات الدولة" موقف مواطن تم وصله بصلة، تبرهن أو تظهر الاختلافات بين وحدات أجزاء البناء بينما فى روح هيجل فإن التاريخ هو المصير والوحدة تتركز حول الفرد. الصين لا تعترف بوجود الأفراد مثل الصينيين الكوريين أو الأمريكيين الصينيين أو التبتيين الصينيين، بكين تتحدث فقط عن الأقليات القومية والوحدات العرقية والتى أعضاؤها أشخاص صينيون، الإعلام الصينى يتحدث بانتظام عن "إخواننا ومواطنينا التبتيين والتى لا تبدو متسقة مع تسمية التبتيين كقومية والتى تعنى أنهم ولدوا من نفس الأبوين. بالإضافة لذلك فدولة الصين تصل لما وراء الصين وتسمى الشعوب من أصول صينية (الصينيون عبر البحار) نادرا ما يسمون استراليين صينيين أو سنغافوريين صينيين هم فقط صينيون عبر البحار، وكأنهم حقيقة ينتمون إلى بكين وصحيفة الشعب اليومية تحدثت عن الكوريين الصينيين فى (سول) وهم يحتفلون بعودة هونج كونج إلى الصين عام ١٩٩٧ تحدثت عنهم كأنهم الصينيون عبر البحار فى كوريا.

وفيما بعد سنة ٢٠٠١ وجدت نفسى فى متحف بهيج فى (ووهان) والتى تحوى مقبرة (ماركيس يى) وهو سياسى من عصر الدول المحاربة وضمن الكنوز هناك مجموعة من ٦٤ جرسًا من البرونز، كلها تشكل أوركسترا يتم الضرب عليها بحبل وكل جرس منها يعطى صوتًا مختلفًا يعتمد على مكان الضرب، وقال أحد الرسميين فى متحف مقاطعة (هوبى) متفاخرًا "يو يو ما موسيقى صينى عبر البحار يلعب كونشرتو بصورة مطابقة على الأجراس فى هونج كونج. إنه شىء رائع".

قلت للمرشد السياحى إننى أحب الأجراس وأنا سعيد بالكونشرتو وإنه عمل موسيقى عظيم ولكن (ما يو يو) ليس صينيا عبر البحار إنه أمريكى صينى وهنا ساد الصمت غير المفهوم يؤكد ويفلسف قوة عملية غسيل المخ التى تمت من جانب دولة الحزب الصينية، قوة تحويل الوهم إلى عقيدة.

وهناك عازف الكمان الشهير (لين شو ليانج) زار (تاى بيه) فى ديسمبر لتقديم فنه كما قالت أسبوعية تايوانية فى يناير ٢٠٠٢ أنه ولد فى تايوان وأن الموسيقى الأمريكى أمتع الحاضرين وساعدهم على نهاية سعيدة لعام ٢٠٠١ ولما زار يو يو ما نفسه تايوان عام ٢٠٠٢ أشارت الصحافة هناك إليه باعتباره الموسيقى الأمريكى الصينى.

وماو عندما كان يتحدث بصفة خاصة كان يعترف بضيق أفق الثقافة الصينية وأن الصينيين يعزلون الأجانب وأشار إلى هنرى كيسينجر عام ١٩٧٣ "على سبيل المثال فى بلدكم تتواجد جنسيات عديدة لكن فى الصين كم أجنبيا تراه؟" ورئيس الوزراء شواين لاى الذى كان يجلس قريبا رد قائلا "قليل جدا" قال ماو "لديكم ٦٠٠ ألف صينى فى الولايات المتحدة وليس عندنا ربما ٦٠ أمريكيا هنا" وبالتناسب لم يتغير شيء كثير حتى الآن.

الطلبة الأفارقة فى الصين يعانون عنصرية لا يمكن إنكارها على يد الطلبة الصينيين والسلطات الصينية منذ عقود كثيرة فبمجرد تولى (زهاو زيانج) رئاسة الحزب الشيوعى قال سنة ١٩٨٨ إن التفرقة العنصرية عادية جدا لكل العالم ما عدا الصين، وقد اندلعت مظاهرات فى نانجينج بين الأفارقة والصينيين ودمغ الطلبة الصينيون زملاءهم الأفارقة بالتخلف والجهل وعدم الثقافة والسُكر وقال أحد الصينيين عن الأفارقة أنه عندما ينظر إلى وجوههم السوداء فإنه يحس بعدم الراحة "و عندما أراهم مع نسائنا فإن قلبى يغلى"، والمشكلة ترجع وراء الانغلاق الثقافى إلى منطق الإمبراطورية السلطوية.

مؤلف كتاب (طالب أفريقى فى الصين) واسمه (إمانويل هيفى) وجد أن إنكار الفردية فى النظام السياسى هو تهمة أساسية أكثر من الاتجاهات العنصرية للشعب الصينى، ومن وجهة نظر الحزب الشيوعى الصينى فإن الفرد من الصعب أن يقوم بخيار يؤثر على وضعه كمواطن، الدولة الصينية هى التى تقوم بالاختيار، الأمريكى الصينى أو الصينى الأمريكى هو أمر يخص الفردية وشعب الأقلية الكورية وشعب الأقلية التبتية هى مكونات إمبريالية وكما كتب (هانز بوش هايم) عن النظم الفاشية والشيوعية فإن المادة الإنسانية الخام هى مجرد أجزاء فى البناء أو هى عناصر هيكلية والحكم الشمولى لا يمكن كأمر مبدئى أن يعترف بإدارة الشخص لنفسه وهى الأمور التى ترتكز عليها الليبرالية.

كتب (ستيفن ساج) فى كتابه المسمى (كما فى كل إقليم من حواف الصين) حول مقاطعة جنوب غرب الصين الكبيرة (تاريخ سيشوان هو جزء من تاريخ العالم) ومازال كذلك تاريخ هونج كونج، كوريا، منغوليا، فيتنام، منشوريا، تايوان، التركستان الشرقية، وغيرها من المناطق التى سيطرت عليها الصين فى وقت أو آخر، رغم هذا فهذه الحقيقة تأتى ضد وجهة نظر الصين أن أى إقليم مسته الصين فقد دخل فى العائلة الصينية وصار تاريخه جزءا من تاريخ الصين، والأوربيون لا يأخذون بهذا الرأى ففى عام ١٨١٠ حكمت فرنسا النابليونية وسط إيطاليا ومعظم الأراضى الواطئة والمقاطعات الإيلليرية وكل مناطق الضفة اليسرى لنهر الراين كذلك وأساسًا حكمت وسيطرت على إسبانيا وسويسرا ودوقية وارسو الكبرى وغيرها من الأراضى غير الفرنسية ورغم هذا لا تناقش ولا تصارع فرنسا فى خسارتها لكل هذه الأماكن.

وخلال عام ١٩٩٦ وفى محاضرة فى هونج كونج عن طبول فيتنام القديمة البرونزية فإن أحد الحاضرين الصينيين لاحظ أنه ما دامت فيتنام

تنتمى للصين خلال حكم أسرة الهان فإن الطبول صينية وليست فيتنامية، ولما نشرت أكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية ترجمتها لكتاب (تاريخ جامعة كمبريدج للصين) فإنها بسوء نية بدلت خريطة أخرى لصين المينج عن تلك التى فى أصل الطبعة الإنجليزية، وبدلا من وصول المينج غربا حتى يونان وسيشوان وجانو فإن طبعة بكين جعلت المينج يتوسعون حتى جبال دامير وشمالا وراء بحيرة بيكال وهذا يمثل كذبًا كبيرًا، وهو يبرز ويكشف مقدار المظهرية الحالية والماضية للدولة الإمبريالية الصينية.

والجغرافى الصينى المعاصر (تان كيكسيانج) رسم خرائط تاريخية تبين الخطوط بين الصين ودول جنوب شرق آسيا وأنها كانت منذ ٢٢٠٠ سنة كما هى اليوم، وأقاليم شعوب كثيرة على الحدود مع الصين كانوا منفصلين عنها صارت بكل بساطة مقاطعات صينية، وهذا يمثل خيالا إمبرياليًا وليس بحثا تجريبيا، فخرائط تان تضع يونان وجوانجكسى داخل الصين فى حين أنهم لم يكونوا صينيين حتى خلال فترة المينج، مملكة الهان الشرقية تعطى الصين شمال بورما وشمال فيتنام، وتقلص الصين تحت أسرة المينج جرى إخفاؤه من خلال دمج ممالك يوان والمينج معا، كما لا تعطى تقديرًا لتوسع الدولة الصينية خلال فترة الكينج أو الحملات العسكرية التى جرت خلالها، كل ذلك يتضمن أنهم يريدون القول إن الفضاء الصينى أعطته السماء ببساطة وحقق ذاته على مر القرون.

(بيتر بيردوى) لاحظ بحق "أن الخرائط تحكم الشعوب وليس فقط الأرض وأنها أدوات ثمينة للسلطة"، فى عام ٢٠٠٢ فإن خريطة متحف شنغهاى لشعوب الأقليات ضمت جزر The none sha، Xisha، Dong sha، وكلها جزر جنوب شرقى الصين ومعظمها ليست بأى معنى أقاليم صينية. كما أن الكتاب الرئيسى لطلبة المدارس الوسطى الصينية تضمن تايوان (تحت اسم ليو كيو) فى خريطته لأسرتى السوى والتانج فى الصين.

وفى انتظار إكراه الصين على قبول حقائق قوة الغرب واليابان فإن صناع الخرائط الصينيين رسموا العالم وصوروه ليس كما كان، لكن كما يريدونه أن يكون، وبعض التفكير بالتمنى مستمر حتى اليوم.

ولنأخذ قضية دولة Parhai من أعوام ٦٩٨ حتى ٩٢٦ والتى تقع جزئيا فى شمال شرق الصين الشعبية (منشوريا) وجزء فى روسيا وشمال كوريا، شعب هذه الدولة اسمه بالصينى (بوهاى) تكتب بنفس الحروف مثل خليج بوهاى القريب منها وكانوا خليطا من الكوريين والمالجال (يسمونهم بالصينى موبيه) وهم شعب من الستة وخمسين قومية الرسمية فى الصين الشعبية فما تاريخ هذه الدولة؟ الآثار بانتظام تغير وجهات نظرنا حول التاريخ، رغم هذا فإن هذه الآثار تستخدم كمشروع قومى، قومى جدًا وبصفة خاصة فدولة الحزب لديها عقيدة وسلطة لا يمكنها القبول بسهولة بتذبذبات فى الفهم التاريخى على أساس الدراسات، والنتيجة فى حالة الصين أن الفهم التاريخى يكون تحت رحمة وضحية العلاقات الدولية الجارية، هذا التاريخ يُضحى به من أجل السلطة والقوة كما كتب (فيليب كوهين)، وأن ذلك أمر لا يمكن الفكاك منه بالنسبة للصينيين فى العصر الحديث.

الأثريون الكوريون الشماليون والجنوبيون يقولون إن أصل هذه الدولة يقع فى Kojuryo (وهى دولة جذورها فى شبه الجزيرة الكورية) والأثريون من روسيا والصين يرون دولة Parhai كدولة مالجال، وفى نهاية القرن السابع كما يقول تصريح صحفى لصين جيانج زيمين فإن شعب المالجال فى شمال شرقى الصين هو الذى أنشأ مملكة Parhai وبالطبع فإن البحث الأثرى يمكن أن يحل الخلافات حول أصل هذه الدولة ولكن الصين لن تسمح للكوريين أو أى أثريين أجانب من الدخول إلى الأماكن الأثرية فى هذه الدولة والتى تقع فى داخل جمهورية الصين الشعبية.

أستاذ التاريخ الكورى (صونج كى) هو المتخصص فى دولة Parahai تم نقله من متاحف الصين ومناطق الآثار خلال التسعينيات لأنه أراد أن يدرس الآثار المقدسة لدولة Parahai خلال التسعينيات وقال هذا الأستاذ "إن أحد المتاحف سمح له بالدخول ولكن الموظفين تبعوه أينما ذهب ومنعوه من كتابة الملاحظات وفى النهاية قالوا له إن عليه المغادرة أثناء جولته".

الجوهر السياسى لغلق بكين باب البحث الأثرى هو أن الأقلية الكورية التى تعيش شمال شرق الصين (منشوريا) حسب البروفيسور الأستاذ صونج يعتبرون كوريا بلدهم الأم وبكين لا تسمح أن تسمى مواطنين صينيين من أصل كورى أنهم صينيون كوريون إنها لا تسمح لهم بالوجود فى الحفلات التى تقام لكبار المسئولين الكوريين الزائرين للصين.

ويشكو الأستاذ (صونج كى) وهو من قومية بكين الرافضة للآخر والتى تريد أن تعتبر أن كل ما حدث فى إقليم الصين اليوم يستخدم لدعم ما يقال رسميًا عن التاريخ الصينى الأن، وهذا التصور ينحو لضم تاريخ الأقليات مما يدعم الأساس الأيديولوجى الذى يطالب بعرق صينى واحد، والآخذ بهذا الرأى لا يستطيع أن يرى دراسة الآثار كمجرد متابعة علمية والنظر لدولة Parhai كجزء من كوريا وروسيا (كتاريخ) سيعنى لدولة الحزب الصينية تقسيم هذه الدولة السابقة وفصلها عن أمها الصين والتى هى الآن جمهورية الصين الشعبية. وخلال فترة ما بعد ماو القومية فإن بكين أخذت هذا الأسلوب الإمبريالى إلى ماضى منشوريا ولخطوة أبعد فبدأت فى الادعاء بأن تاريخ Kojuryo هو جزء من التاريخ الصينى والحقيقة أن هذه المملكة (٣٧ق.م. إلى ٦٦٨) والتى ظهرت فى منطقة منشوريا ثم نقلت عاصمتها إلى بيونج يانج هى واحدة من ثلاث ممالك تنتمى لتاريخ كوريا. وفى تناول غاضب أدى إلى إنهاء مؤتمر كورى صينى حول هذه المملكة عام ١٩٩٣ فقد تساءل أثرى كورى شمالى "هل التاريخ يتغير لمجرد أن

الإقليم تغيرت اليد التى تحكمه؟" العقل الإمبريالى يعتقد أنه هكذا، ولوى عنق التاريخ لدعم الفكر الإمبراطورى واضح أنه أمر لا يمكن للصين أن تقاومه.

ولكن هل التعصب للإقليمية هو هكذا إلى ما لا نهاية؟ كما كتب الأستاذ (صونج كى) هو، لو أخذت قطعة أرض هل تاريخها يصبح تاريخى وإذا فقدت هذه الأرض هل أفقد هذا التاريخ، بالتأكيد أن تاريخ Parhai الذى يختلط بشعوب Kojuryo وMalgal لديه مكان فى كل من تاريخ كوريا والصين؟ والصدام الآن يحدث بين الأجندة السياسية للصين والاعتقاد التاريخى لكوريا الجنوبية.

فبعض المؤرخين الصينيين يأخذون رأيا حصيفا بالنسبة لموضوع Kojuryo كجزء من الصين حيث كتب (زهانج بيبو) أنه لما تحولت عاصمتها لـــ(بيونج يانج) فى التاريخ الكورى، كانت القضية قضية تاريخ واحد واستخدامين اثنين ولكن فى القرن الواحد والعشرين فإن دولة الحزب الصينية جعلت موقفها صعبا حولParhai وKojuryo ففى عام ٢٠٠٠ فإن الأستاذ صونج عندما زار متحف مقاطعة (هيلونججيانج) لم يسمح له بكتابة ملاحظاته حول الجزء المتعلق بـــParhai، وفى عام ٢٠٠١ أخذ صورة لفانوس من الحجر فى معبد فى Parhai فى عاصمة هذه الدولة القديمة وتم تغريمه بمبلغ ٢٥٠ دولارًا لمخالفته، وتخطيه الحدود وقال هذا الأستاذ إنه تحت حكم الحزب الشيوعى الصينى ووجهة نظره حول مناطق تخوم الصين فإن الصين" لن تحتضن أبدا التاريخ الموضوعى".

رأت أسرة الكينج أن منشوريا هى مكان بيتها ولما صار المانشو صينيين فكيف ترك هذا وضع منشوريا؟ مع الكثير من مناطق الحدود الصينية فقد ترك المصير إلى سيولة السلطة الدولية، وروسيا توقفت عن جعل منشوريا محميتها من خلال الهزيمة العسكرية اليابانية للصين عام ١٨٩٤-١٨٩٥، ثم روسيا ١٩٠٤-١٩٠٥، وخلال القرن العشرين وحيث

روسيا واليابان تضغطان على الصين الضعيفة ومع اختفاء إمبراطورية المانشو فإن معظم الشعب فى منشوريا لم يعرفوا لأى دولة ينتمى وطنهم الأم كمكان له هويته الخاصة به ويسعى للسيادة.

الغزو اليابانى ١٩٣١ ألحق الضرر بحالة منشوريا كوجود مستقل ورغم هذا فإن (براسنجيت ديوارا) قال "إنه لو أن دولة منشوكو اليابانية كانت إمبريالية فى نياتها فقد كانت قومية فى شكلها" ويرى المفارقة فقد كانت فترة الحكم اليابانى لمنشوريا إحساسًا بالهوية كما لم يحدث، حتى الحزب الشيوعى الصينى خلال الثلاثينيات استخدم المصطلح الصينى لمنشوريا باعتبارها موقعا جغرافيًا معترفين بعلاقاتها غير المحددة وغير المؤكدة مع الصين. وكما قال دبلوماسى أمريكى فى برقية من الصين فى يوليو ١٩٤٩ فإن الشيوعيين الصينيين اعترفوا بالوضع الخاص لمنشوريا فوضعوها تحت نمط مختلف لنظام الحكومة عن ذلك الذى ساد فى الصين proper.

وشيانج كاى تشك كان مستعدا لترك منشوريا لليابان وحسب الكتب الرسمية الصينية الشيوعية كورقة تفاوض مع ماو تسى تونج. وأمير الحرب (زهانج زيولين) أراد إنشاء إقطاعية مستقلة فى منشوريا لكن العسكريين اليابانيين ضربوه. المنطق والعدل وإرادة الشعب أى من هذه جميعا لم تقرر مصير منشوريا، الصين الشعبية اهتمت بمحو أى ذكر لمنشوريا كاسم جغرافى وبالنسبة لبكين فإن منشوريا هى مجرد قطعة بناء فى جمهورية الصين الجديدة، فالكوريون والمانشو وكل من يعيش فى المقاطعات الشمالية الشرقية هو بالتعريف صينى، وفى منشوريا كما فى غيرها الصين أصبح يعنى أى فرد تحت سيطرة إمبراطورية الصين الجديدة.

صن يات صن فتح الباب لهذا الاستيعاب الإمبريالى من خلال صياغته للخمسة أعراق المتحدة فى الدولة الصينية وهذه الأعراق الخمسة كانت هى: الهان (كقيادة)، التبتيون، المانشو، المونغول، الترك، صن صك عبارة أخرى

ذات معنى فاشستى (دولة قومية عظمى) وهى التى تغطى وراءها المشروع الإمبريالى لجمهورية الصين الشعبية، هى إذا دولة رائدة وعرق رائد.

ولاحظ (ديوارا) فى عبارة لينين الشريرة (العداء للإمبريالية هو أعلى مراحل القومية) لقد تعلمت الصين نظام الدولة القومية من الغرب والاتحاد السوفيتى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين وجعلتها الإطار لإمبراطورية صينية، وفى الفترة التالية للحرب العالمية الأولى وحتى نهاية القرن العشرين أيديولوجية الدولة القومية التى صارت هى المنتصرة (لتلحق بقيم العصر عليك أن تصبح دولة) كما قال ديوارا متدثرة بملبس الأمة أو الدولة بدت الصين الشعبية أنها ضد الإمبريالية حيث اللغة المريحة للحكم الذاتى والأقليات القومية ووحدة البلوريتاريا (وأننا لن نسعى إلى الهيمنة) وكل ذلك لا يغطى على لعبة الساحر، فبصياحها ضد الإمبريالية تخفى الصين أفعالها الإمبريالية، وقد استطاعت الصين أن تدمج منشوريا والتبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية وبدا كل هذا وكأن المجتمع الدولى لا يعارضه واليوم فإن كلمات ومصطلحات مستقاة ومستدعاة من فترة أسرة الكينج تستخدم الثقافة والعقيدة للسيطرة على شعوب المحيط والفضاء الصينى وجعلهم يفهمون ويعرفون القوانين وهم يعتبرون - من جانب المؤرخين فى الصين الشعبية - مناسبين للتعامل معهم كأقليات قومية.

وبالطبع فى القرن الواحد والعشرين فقد دخلنا مرحلة جديدة فالدولة القومية ذاتها صارت تحت الضغط فسيادة دولة صغيرة يتم انتهاكها من جانب قوى دولية عديدة، العولمة مرة ثانية صار لها زخمها. وضمن الدول الكبرى فإن الصين تطحن بعيدا عن هوية الدول الصغرى من خلال ضمهم فى إمبراطورية باسم معاداة الإمبريالية وثورية الدولة وكما يقول ديوارا فإنه على عكس الأيديولوجية فإن القومية والإمبريالية مرتبطتان بقوة. درس الماضى هو أن لعب القوى الخارجية أكثر من الشعور بالهوية المفتاح

لمصير الإقليم الذى دخل أو خرج فى الإمبراطورية الصينية أو منها، هذا حدث عندما عظمت بريطانيا إمبراطورية الكينج وضمت هونج كونج ١٨٤٢ وفى عكس الاتجاه عندما حدث اضمحلال لبريطانيا فتركت هونج كونج فى الثمانينيات. لقد فعلت ذلك فيما التبت سقطت لصالح أسرة التانج سنة ٧٤٥ وعلى العكس عندما خضعت الهند وبريطانيا وأعطتا الفرصة لبكين للمطالبة بها وبعد عام ١٩٤٩ ادعت الصين التبت، لقد فعلت ذلك عندما ضعف شيان كاى تشك فأعطى الفرصة لإنشاء دولة التركستان الشرقية فى شمال سينكيانج عام ١٩٤٤ وقلب المائدة عندما أعطت مناورات لينين الفرصة لماو ليضم كل سينكيانج فى الصين الشعبية وفعلت الصين ذلك وقال ماو لــ(إدجار سنو) أن منغوليا ستكون أوتوماتيكيا جزءا من الصين الاشتراكية اللامعة ووجد لدى ستالين خطة أخرى مما جعل ماو سنة ١٩٥٢ يتحدث بضعف عن حدود جمهورية الصين الشعبية مع دولة الشعب المنغولية. وهناك المزيد من الرجات قادمة فى المستقبل حسب تطور الموازيين الدولية ستؤثر بلا شك على أقاليم الصين الغامضة.

الفصل الثامن

إمبراطورية بحرية

(الصين الكبيرة التى وجدت منذ ٤٠٠٠ سنة ليس لها مؤسسة، حتى لو قلنا هناك صين فهى فقط الصين بالشكل ليس بالحقيقة لأنه ليس لها أساس... وأساس أى دولة كبيرة هو محلياتها الصغيرة... إنهم الأفراد المواطنون الذين يكونون أساسا للمواطنة ككل.)

ماو تسى تونج ١٩٢٠

مشكلة تايوان يجب حلها وتسويتها كما تقول بكين ويردد هذا القول كذلك دبلوماسيون من اثنتى عشرة دولة ولكن ما المشكلة؟ وما الحلول الموجودة لها كما تحددها الدكتاتورية الصينية؟ ألم تزدهر تايوان؟ إنها ديموقراطية مستقرة مع أكبر متوسط دخل فردى فى آسيا، يعيش فيها ٢٢ مليون نسمة، وتشترى سنويا فى المتوسط من الولايات المتحدة مثل ما تشتريه الصين الشعبية التى لديها ٢,١ مليار نسمة، ومع ٢% من سكان الصين فالناتج القومى الإجمالى لها عام ٢٠٠١ بلغ حوالى ثلث إنتاج الصين، وأكثر من هذا فالعلاقات بين تايوان والصين تمثل قصة نجاح للتعايش السلمى منذ عام ١٩٥٠.

وبينما حاربت الصين مع كثير من جيرانها فلم تحدث حرب بين جمهورية الصين الشعبية وتايوان، مشكلة تايوان هى عدم رضا الصين بالوضع الراهن حيث تصر على أخذ تايوان من نفسها، وكتب (نيكولاس كريستوف) فى China wakes "شيريل وأنا لسنا متفائلين حول مستقبل

الصين الأم فيما نتحرك فى شوارع تاى بيه" معنى هذا التصريح أنه يفترض نوعا من الانفجار، تايوان تغطى مستقبل الصين ولكن بكين تقول إن الصين الشعبية تغطى على مستقبل تايوان. من الأقاليم الغامضة فى الفصل السابع فتايوان هى قضية رئيسية لدولة منفصلة عن الصين الشعبية لكن الصين تطلبها بغباء وقوة، وموضوعات الفصل السابع تأتى معا مثل خيط متشابك منتفخ أمام عين الإبرة، ادعاءات تاريخية، تسمية الإمبريالية، ديموقراطية ضد الأوتوقراطية، صين واحدة، وعى عال بالأعداء، سياسة وحدات البناء فى مواجهة مواطنة الأفراد، تأثير توازن القوى على الحدود.

أحيانا كما أقسم ماو تسى تونج وهو شاب فإن مسألة الانتماء للصين أو عدم الانتماء لها تخيم على الإرادة الشعبية والعدالة الاجتماعية، وقبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية بثلاثة عقود فإن ماو تسى تونج تصارع مع ولائه لمقاطعة هونان من ناحية ومشاعره الوطنية تجاه الصين من ناحية أخرى. ولما كان ماو فى السادسة والعشرين من عمره قال عن وحدة الصين "إننى قد أعطى مساندتى لو أن هناك ثورة عامة فى الصين ولكن هذا أمر غير ممكن، إننا لا يمكننا أن نبدأ بالكل ولكن يجب أن نبدأ بالأجزاء" هدف ماو الأخير هو صين أعيد إحياؤها ولكن اهتمامه الأساسى فى عام ١٩٢٠ كان هو أى نوع من الحكم يجب أن يكون فى الصين.

وحدة الصين منظورًا إليها كهدف مثالى أو كقاطرة تاريخية لا يمكن إيقافها لا تلغى أهمية الإرادة الشعبية والعدالة الاجتماعية ودفع الحزب الشيوعى لضم تايوان فى جمهورية الصين الشعبية التى أنشئت ١٩٤٠-١٩٥٠ هى جزء من البعد المعنوى الأخلاقى. تايوان فى الأربعينيات (من القرن العشرين) وقفت فى علاقات غير معينة مع الصين لدفع الغزو اليابانى وتسوية الحرب الأهلية على الأقل؛ لأنها صارت مقاطعة فى الإمبراطورية الصينية فقط عام ١٨٨٤ وفى معظم السنوات كانت تحكمها طوكيو، هذا

الغموض جرى تخطيه بحقيقة أن الجانب الخاسر فى الحرب الأهلية وهو الحزب الوطنى لشيانج كاى تشك هرب من جنوب غرب الصين ليضمن استمرار وجوده باعتباره جمهورية الصين على أرض تايوان، وبوجود شيانج فى تاى بيه فإن الصين حصلت على المساعدة والزخم عندما خططت لضم تايوان فى عملية إتمام المراحل الأخيرة للغزو الإمبراطورى وكان هذا واضحا بقوة من خلال غياب أى موقف من جانب الولايات المتحدة ضد الحزب الشيوعى الصينى واستمرار تقدمه إلى جزيرة تايوان، لقد اعتبرت واشنطن أن مصير حكومة شيانج فى تاى بيه هو فى إطار المرحلة الأخيرة للحرب الأهلية التى بدأت عام ١٩٤٦، وقد تغير إطار موضوع تايوان دراماتيكيًا ١٩٤٩-١٩٥٠ عندما هاجمت كوريا الشمالية كوريا الجنوبية، ومنذ ربيع ١٩٥٠ فإن ماو كان واعيا بقوة ومتعاطفا مع كيم إيل صونج وخططه لمد ثورته للجنوب (يجب أن نساعد كيم الصغير) كما قال ماو لستالين فى موسكو، جيش كوريا الشمالية كان مازال يعمل مع جيش تحرير الشعب الصينى، كيم طلب مساعدته لتوحيد كوريا فوافق ماو وستالين بأستاذيته وأنانيته كان يضغط على ماو؛ لأن يكون أكثر قوة مع الولايات المتحدة منذ ١٩٤٨ لكن موسكو لم تكن تريد التدخل المباشر فى الحرب الكورية كما قال ستالين لشواين لاى بينما القوات الصينية مستعدة للذهاب إلى كوريا "بالنسبة لكم كصينيين من السهل مساعدة الشعب الكورى ولكن بالنسبة لنا فإن ذلك مستحيل لأننا غير مستعدين للحرب العالمية الثالثة".

وفى تصور ماو للتدخل فإنه تلاعب به متصورًا أن عدم تدخل الولايات المتحدة عند تحرك كوريا الشمالية لأخذ سيول وكان يأمل كذلك أن الولايات المتحدة لن تتدخل إذا تحرك ماو كذلك لأخذ تايوان وفى سلسلة من التصريحات المؤسفة فإن الرئيس ترومان ووزير الخارجية دين أتشيسون قد أعطيا لماو وستالين وكيم سببًا للاعتقاد أن الولايات المتحدة ستترك مسافة،

ولكن الولايات المتحدة تدخلت وبسرعة تحول كيم إيل صونج لموقف الدفاع، وبسبب هجوم كيم على كوريا الجنوبية فإن سياسة الولايات المتحدة تجاه كوريا وتايوان قد انقلبت رأسا على عقب، والجنرال (دوجلاس ماكرثر) قام بتقوية الصلات ودعمها بين كوريا وتايوان عندما طار من طوكيو إلى تاى بيه بمجرد بدء الأزمة الكورية. وبكلمة واحدة فإن علاقات تايوان مع الوطن الأم تغيرت عندما صار مشروع بكين للتوحيد ذا هيكل ومعنى أبعد من إنهاء الحرب الأهلية الصينية.

عندما قرر الحزب الشيوعى الصينى التدخل فى كوريا فإن ماو أرسل برقية إلى رئيس وكالة أنباء الصين الجديدة يأمره بالبعد عن أى تصريح مهم بأن تايوان سيتم أخذها فى إطار فترة زمنية محددة حيث كتب "لاحظ من الآن أننا سنتحدث فقط عن نيتنا فى الهجوم على تايوان والتبت، لكن لا تقل شيئا عن موعد الهجوم" هذه البرقية التى صارت متاحة مؤخرا هى دليل دامغ فى التاريخ الدبلوماسى حول قوة الردع. اعترف ماو أن إطار موضوع تايوان قد تغير وهو الآن ليس أقل من (ماك آرثر) يقبل حقيقة الصراع الدولى الواسع بين القوى الرأسمالية والاشتراكية، إنها تسمى الحرب الباردة.

فى منتصف القرن العشرين فإن حكمة تايوان تكاد تكرر نمطا مألوفا فى التاريخ الصينى فهناك عناصر للمقارنة أثرت فى الغالب فى علاقة الإمبراطور بالتبت، سينكيانج، منغوليا، شرق سيبريا، تايوان وغيرها من دول المحيط المجاورة.

قيادات أسرة المينج لم يفكروا أو يتصرفوا وكأن تايوان هى جزء من الصين وفى أسرة الكينج فقد كتب (جون ويلز) "أن البلاط والرسميين مستعدون للسماح للهولنديين بإعادة احتلال تايوان والتى لم تكن قط جزءا من إمبراطورية الصين وسيكون من الصعب أن يتم حكمها" ومنذ ألف سنة فإن دولة الساحل الشرقى لـــwoyueh استخدمت دولة غير صينية وهى دولة

الخيتان ضد أسرة السونج، وفى وقتنا الحالى فإن تايوان منذ الحرب الكورية استخدمت الولايات المتحدة خاصة وكذلك اليابان مثل دولة woyueh التى استخدمت الخيتان لتحقيق الحرية العملية فى موقف لا يمكن توفيقه والمفاوضة منه.

مفهوم الصين الواحدة بدأ يلف يده حول عنق تايوان مؤخرا. الحزب الشيوعى التايوانى الذى تأسس سرا فى شنغهاى عام ١٩٢٨ وله صلات بالحزب الشيوعى اليابانى بدأ حياته مع استقلال تايوان كبند لبرنامجها السياسى، هذا حدث تحت نفوذ وتأثير لينين ومساعدته القوية كما أيده كذلك ماو والحزب الشيوعى اليابانى وتحرير مصير الشعوب. وبعد ٣ سنوات فإن الحزب الشيوعى التايوانى حدث فيه انشقاق والحزب المعاد تنظيمه صار فرعا فى الحزب الشيوعى الصينى وقادة الحزب الشيوعى التايوانى كلهم تايوانيون لديهم عضوية فى الحزب الشيوعى الصينى بالإضافة لعضويتهم فى الحزب الشيوعى التايوانى، بعد ١٩٣١ فإن هدف استقلال تايوان ظل على المائدة الحزبية وتم احتضان ثلاثة مبادئ (شعب تايوان أو جنسية تايوان)، (ثورة تايوان)، (استقلال تايوان)، والحزب الشيوعى التايوانى احتضن استقلال تايوان مؤيدا بالحزب الشيوعى الصينى فلم يكن بأى شكل مجرد تكتيك أو مرحلة أولى يتبعها توحيد الصين، البرنامج السياسى أيد استقلال تايوان مع تحليل مطول للتطور التاريخى للقومية التايوانية بما فى ذلك الفترة التى كانت أسرة الكينج تحكم تايوان رسميا. الثورة الصينية ترى مناقشتها فى البرنامج باعتبارها منفصلة عن نضال تايوان لتأسيس جمهورية تايوان. وخلص (شين فانجمينج) من دراسته للوثائق ذات الصلة إلى أن الحزب الشيوعى الصينى من ١٩٢٨-١٩٤٣ "لم تكن على موائده ولا فى قراراته وسياساته أى اختلاف حول ما إذا كانت تايوان قومية يجب أن تكون

مستقلة، وأن حزب ماو كرر الإشارة إلى تايوان على أنها واحدة من الدول الصغيرة والضعيفة".

ووراء نقاشات الحزب الشيوعى التايوانى فإن الحزب الشيوعى الصينى فى مجالسه ووثائقه اعترف بقومية تايوان. وفى المؤتمر السادس للحزب الشيوعى الصينى ١٩٢٨ جرى الحديث عن التايوانيين باعتبارهم منفصلين عن الهان كعرق منفصل، والحزب الشيوعى الصينى وضع كوريا وفيتنام وتايوان معا كقوميات تتجه نحو الوجود الاستقلالى، وفى واحد من أهم خطابات ماو فى الثلاثينيات فإنه ولخمس مرات استخدم عبارة "القوميات فى كوريا وتايوان وغيرها".

وفى ١٩٤١ نجد أن (شواين لاى) يقول "يجب التعاطف مع حركات التحرير من أجل استقلال الدول الأخرى وسنساعد الحركات المضادة لليابان فى كوريا أو تايوان أو ضد الألمان أو ضد الإيطاليين" وبالنسبة لشيان كاى تشك فإن حكومته فى نانجينج، ودولة الصين لها قنصلية فى تاى بيه فى الثلاثينيات مما يعنى ضمنا انفصال تايوان، فقط بعد ١٩٤٣ عندما قرر روزفلت وتشرشل وشيان كاى تشك فى القاهرة أن اليابان عند هزيمتها يجب أن تسلم تايوان للصين هنا فقط فإن الحزب الشيوعى الصينى تحدث عن تايوان باعتبار أن مصيرها هو جزء من الوطن الأم (الصين).

ووراء الحرب الباردة فإن هناك إطارًا ثالثًا، أجندة إعادة توحيد جمهورية الصين الشعبية ظهر فى التسعينيات فقد أخذ موضوع تايوان بعدا يتخطى العلاقات الثنائية بين جمهورية الصين الشعبية ومختلف الدول الأخرى حتى الولايات المتحدة كنتيجة للقرارات الشجاعة نهاية الثمانينيات من جانب (شيانج شينغ كيو) ابن شيان كاى تشك الذى خلف والده عام ١٩٧٥ لتحويل تايوان إلى ديموقراطية.

وأولئك الذين كانوا معارضين للحزب الوطنى (جيو ميندانج أو PMT) خرجوا من السجن وصاروا يديرون المكاتب الرسمية واختلاف الرأى بدأ يظهر فى الصحافة والجرائد التى كانت أحادية الاتجاه، وبدأت دولة الحزب تشق طريقها نحو التعددية السياسية والمنشقون السابقون والمنفيون والسجناء السياسيون بما فيهم المحامى (شين شويبيان) صار لامعين فى الحزب المعارض الجديد، والحزب الديموقراطى التقدمى وبعد وفاة (شيانج شينج كيو) عام ١٩٩٦ فإن تايوان قد شهدت أول انتخابات رئاسية مباشرة فى تاريخ الحضارة الصينية، وفى الانتخابات الرئاسية التالية عام ٢٠٠٠ صار (شين شويبيان) رئيسا لتايوان وحزبه التقدمى الديموقراطى الذى كان فيما مضى ليس أكثر من مجموعة من أشباه الهواة قد أنهى سيطرة الحزب الوطنى الطويلة على الحكم.

تايوان صارت دولة ولنكون متأكدين فإن عوامل أخرى غير تطبيق الديموقراطية لعبت دورها فى وضع الجزيرة الجديد، فالتعامل الناضج باستمرار مع الدول المجاورة فى الإقليم باعتبارها دولة ذات سيادة فى السنوات التى تلت توقف تاى بيه عن الحديث عن إعادة أخذ الوطن الأم. والاقتصاد التايوانى أثبت ماديا أنه غير معرض للأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧-١٩٩٨.

وفى الوقت ذاته كان القلق من جانب منظمة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان) واليابان فيما يتعلق بالصين وحديثها عن الجزر المتنازع عليها (جزر اسبراتلى) وكتبت مقالة فى بكين تقول "توجد فقط دولة ذات سيادة فى بحر جنوب الصين إنها الصين التى تملك وتمارس اختصاصها الكامل فى إقليم البحار الجنوبية" وكان هناك العامل البسيط وهو مرور الوقت، الصين الشعبية تحاجج بعقلانية أن نظام جمهورية الصين فى تايوان جرى وراثته تاريخيا لجمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ ولكن بعد النصف قرن التالية

ظهر الفشل الصينى فى أخذ تايوان، هنا خطأ الحجة عن الاستمرار الإقليمى. وكتب (هو بينج تى) عن تعاملات أسرة الكينج مع القوى المحيطة "إن الوضع الحقيقى لأى منطقة فى المحيط المجاور للصين يعتمد على قدرة الصين على ممارسة السيطرة الفعلية"، وفى الثمانينيات فإن وضع تايوان تغير نتيجة فشل بكين فى الممارسة الفعلية لسيطرتها على تايوان وترتب على ذلك التأخير الطويل والذى تعقد بظهور المؤسسات الديموقراطية التى طورتها تايوان وطورت معها وجهة نظرها عن انحسار الصراع التاريخى بين جمهورية الصين وجمهورية الصين الشعبية.

وفى ديسمبر سنة ١٩٩١ فى باكورة عصر تايوان الديموقراطى، فقد زرت تايوان خلال انتخابات مجلس الشعب وكتبت "أن القوميين فى الحقيقة لا يدفعون إلى إعادة التوحيد وأن التقدميين لا يدفعون نحو الاستقلال وكما فى الديموقراطيات الأخرى فإن كل حزب يدعم مثاليته فقط للدرجة اللازمة لإقناع الناخبين أن اهتمامه الغالب هو الرفاهية الحقيقية للشعب فمن غير المتوقع تماما أن تايوان ستعلن استقلالها أو وحدتها مع الوطن الأم، الأغلبية فى تايوان لا توافق على كلا الطريقين البعيدين" وبعد ١٢ سنة فإن العملية الديموقراطية جعلت هذه النقطة أكثر اتضاحا.

والنتيجة هى تقويض أجندة إعادة الوحدة للصين الشعبية، لكن دولة الحزب الصينية عينها كليلة لرؤية كيف أن العملية الديموقراطية تخلق السيادة، إنها تسىء فهم العلاقة بين الانتخابات والسيادة حتى إنها تقول "السيادة على تايوان هى لكل الشعب الصينى وليست لبعض الشعب فى تايوان".

وفى الحقيقة فإنه حيث تزدهر الديموقراطية كما فى تايوان مؤخرا ولدرجة ما فى هونج كونج فإن السجادة يتم سحبها من تحت مفهوم الصين للشرعية، فجولات الانتخابات فى تايوان قد أوضحت لكل ذى عينين سيادة

الإقليم ورسخت من هويته كدولة جزيرة ويجب أن أقول ببساطة كما قال الرئيس (لى تنج هوى) عندما قابلته يوم ٢٨ يوليو ١٩٩٩ "أنا رئيس دولة ويجب على أن أسعى من أجل المصلحة القومية لبلدى".

ومن ناحية أخرى فإن صيناً واحدة كانت نتاجا للصورة الذاتية للدولة الإمبريالية اللينينية وهو شيء شاذ فى عالم اليوم ، صين واحدة يذكرنا بفترة كان البلاط الصينى فيها يعمل على تنظيم العالم المحيط حسب مبادئه هو، وهى لا تناسب فترة مصدر التغيير فيها وأسس العلاقات الخارجية تكمن فى التطور الداخلى للمجتمعات.

بكين لا يمكنها أن تؤول أو تفسر التدخل فى الشئون الداخلية إلا من خلال مصطلحات إمبريالية، عندما يذهب الدلاى لاما إلى براغ أو واشنطن أو سيدنى وتتحدث معه حكومة أجنبية فإن هذا تعده الصين تدخلاً فى شئونها الداخلية ولكن المبدأ يبدو مختلفا عندما يزور رئيس حكومة تايوان شين شويبيان الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ فعندما توقف فى لوس أنجلوس فى طريقه إلى أمريكا الجنوبية طلبت بكين ألا يقابل أى مسئول أمريكى بما فى ذلك أعضاء الكونجرس، ففى فهمهم للتكييف الإمبراطورى فإن الشيوعيين الصينين فشلوا فى رؤية ذلك كتدخل فى الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.

فى ديسمبر ٢٠٠١ أدلى الرئيس تشين بحديث إذاعى لأول مرة من جانب رئيس تايوان إلى مستمعين فى الوطن الأم وقال "إن حلمه أن يرى قادة الجانبين يسلمان على بعضهما"، كما أشار إلى مواطنيه الذين يرتبطون برابطة النسب معهم فى مقاطعة فوجيان وقال يأمل أن تكون لديه الفرصة ليبحث عن أصوله فى المقاطعة يومًا ما. وقد سألت الرئيس شين كيف سيربط بين الملاحظتين إذا قابل جيانج زيمين فقال إنه لا يوجد صراع بينهما وقال وهو يأخذ وثيقة من محفظته الشخصية إن "هذه صورة من شهادة ميلادى قدمها لى تليفزيون تايوان قبل يومين من ولايتى لمنصبى كرئيس

للدولة وحتى أبحث فى فوجيان فإنى أحتفظ بها فى محفظتى الشخصية".
وبوضع الملاحظتين عن أصوله ودوره كحاكم منتخب وحديثه الإذاعى فقد بدا وكأنه يضرب فى مقتل مفهوم الصين الشعبية بصين واحدة إنه من أصول صينية نعم لكنه أيضا الزعيم والقائد لديموقراطية هى ليست جزءا من ديموقراطية الصين الشعبية وباعتباره من أصول صينية فإنه كرئيس لجمهورية الصين عليه أن يناقش مع الرئيس جيانج زيمين قضايا السلام والتقدم عبر مضيق تايوان.

منذ ثلاثين سنة كنت متحدثًا فى (كلتيك) فى (باسادينا) ومشاركًا معى (بينج مينجمين) أستاذ القانون وأحد قادة استقلال تايوان وأحد رواد الحركة التى جاءت بشين شوبيان للسلطة عام ٢٠٠٠ وكانت فترة مثيرة بعد قمة نيكسون مع ماو والعلاقات الأمريكية الصينية كانت قصة نجاح للعقد كله وكان ضمن الحاضرين بعض من أبناء الطبقة المتوسطة الأمريكيين الصينيين ممن أعجبهم أن الصين الشيوعية لم تعد بعد عدوًا، ومن مسافة آمنة فى كاليفورنيا أحسوا أن صينًا واحدةً هو مفهوم عقلانى لنيكسون ليعترف به، البرفسور بينج الذى قضى وقتًا فى سجون شيانج كاى تشك لأفكاره الوطنية عن تايوان تحدى هؤلاء الأمريكان الصينيين قائلاً لهم "لديكم صورة فى عقولكم عن الصين وسهل عليكم التحدث عن صين واحدة ولكن أى صين وبأى طريق وخطوات محددة نحقق هذا (صين واحدة فى خيالكم)" والبروفسور بينج تعتبره بكين انفصاليًا وقال لصينى آخر "ألست خائنًا لأنك صرت مواطنًا أمريكيًا أكثر منى لأنى أريد تايوان منفصلة عن الصين" عام ١٩٧٢ كانت وجهة نظر بينج غير عادية فى تايوان، واليوم هو رأى الأغلبية، هذا التغيير جعل من تايوان موضوعًا بين بكين وواشنطن.

والافتراض وراء إعلان شانغهاى الذى وقعه نيكسون وشواينلاى عام ١٩٧٢ أن الصينيين على الجانبين أى جانبى مضيق تايوان يتمسكون بصين

واحدة، ماو وشيانج كاى تشك ربما مازالا نظريًا يتقاتلان حول العرش الصينى، هذا الافتراض لم يعد صحيحا فى التسعينيات، ٣/١ إلى ٢/١ تايوانى لا يوافقون على هذا مما يعنى أن من ٨ إلى ١١ مليون يعارضون إعادة التوحيد مع النظام الشيوعى فى بكين، التغيير لا يؤثر على رؤية الدولة الإمبريالية لكنه يجنب الدول الديموقراطية بما فيها تايوان واليابان والولايات المتحدة. والبيانات الثلاثة الموقعة بين واشنطن وبكين فى الأعوام ١٩٧٢، ١٩٧٩، ١٩٨٢ فيما يتصل بتايوان فقد جرى إنهاؤها، تايوان التى كانوا يشيرون إليها كانت ديكتاتورية، تايوان اليوم ديموقراية ورغبات شعبها قد صارت معروفة.

السياسة الأمريكية الخاصة بتايوان عام ١٩٧١، ١٩٧٢ تختلف عن السياسة العامة، لقد قالت إدارة نيكسون للشعب الأمريكى عام ١٩٧١ أن تايوان هى قضية لم يتم حلها وتخضع للقرار الدولى المستقبلى وكان ذلك عقلانيًا ومتسقًا مع الوفاق الأمريكى الصينى ولكن فى الجلسات المغلقة فإن نيكسون وكيسنجر أنكرا هذه السياسة بطرق ثلاثة، هم قالوا لشوان انلاى إن واشنطن توافق وتقبل بأن تايوان جزء من الصين ولن يساندوا استقلال تايوان وسيعترفون بصين شعبية دبلوماسيًا (هذا يتضمن استخدام صيغة بكين عن صين واحدة) وفى فترة نيكسون الثانية، فإن الديموقراطية فى تايوان خلال العقود الأخيرة قد أطاحت بهذه التعاهدات التى يقف لها شعر الرأس إلى سلة المهملات.

القادة الأمريكيون جرى إغراؤهم بالأسلوب الإمبريالى الصينى شاعرين بالامتنان لماو وشو، فرق نيكسون وافقوا وقبلوا بأن بكين لن تُسلم فى مبادئها. من حيث الحقيقة والفعل فإن دولة صين الماضى والحاضر كثيرًا ما تستسلم للأجانب فأتذكر أنه فى الأعوام ١٩٦٤ و١٩٧١ و١٩٧٣ نرى على لوحات الإعلانات على المرتفعات والصخور فى الصين الشعبية مكتوب

بالحروف (بكل تأكيد سنحرر تايوان) فى هذا الوقت قالت بكين إنها لن تُطبع العلاقات مع أمريكا ما لم تتوقف كل مبيعات السلاح لتايوان، وفيما بعد فإن بكين استسلمت وأنهت الحديث عن تحرير تايوان وأنشأت علاقات دبلوماسية مع أمريكا فيما الأخيرة مستمرة فى بيع السلاح لتايوان (ويعبر الكاتب عن الأسف والازدراء) يبدو أن الموقف العام للخارجية الأمريكية عام ١٩٧١ يبقي صحيحًا عام ٢٠٠٣ فبالنسبة للسياسة الأمريكية فموضوع تايوان قضية لم تحل وخاضعة للقرار الدولى وداخل هذه الصيغة فإن بكين يمكنها التوحيد إذا كانت قادرة وكذلك فإن تايوان يمكنها الاستمرار فى وجودها المستقل إذا كانت قادرة والولايات المتحدة واليابان يمكنهما معًا إذا أرادا أن يمنعا الإمبراطورية الصينية من ضم تايوان.

الجزء الأكبر من مشكلة تايوان هو من صُنع الصين الشعبية ومن العجيب أن نقرأ لـــ(روبيرت روس) الذى يقول "إن تايوان هى مصلحة حيوية للصين" ورغم هذا فهى لا تحمل مصلحة حيوية للولايات المتحدة، وروس يعتبر الصين قوة مُحافظة ورغم أننا نقرأ فى ورقة بكين البيضاء للدفاع وصفًا للمسرح الدولى يقول "يوجد عدم توازن خطير للقوة النسبية للدول، لم يحدث ثمة تغيير جوهرى فى النظام الدولى السياسى والاقتصادى غير العادل وغير الرشيد" وتحذر الورقة البيضاء من القضايا التى تُركت دون حل على مدار التاريخ وتشكو من أن المسرح الدولى يتميز بأن الكبير يأكل فيه الصغير أو يتنمر عليه وقوة مُعينة تفرض إرادتها على الآخرين (ويعلق المؤلف متسائلاً: أهى حقًا نظرة محافظة؟)

فى الحقيقة إن توازن القوى فى شرق آسيا سيتغير كليةً إذا انتهى وجود تايوان ككيان منفصل، فإن ثقة اليابان فى علاقاتها الأمنية مع الولايات المتحدة ستقل، والفلبين وفيتنام والآخرين سيعيدون النظر فى رأيهم عن الصين وبعض أجزاء شرق آسيا ستتجه نحو الهند لتوازن الموقف مع الصين

رغم هذا الشعب الصينى ليس لديه حاجة لاستيعاب تايوان وتايوان ليست بأى حال تهديدًا للوطن الأم لكن تايوان والوطن الأم يفيد كل منهما الآخر اقتصاديًا فالتجارة بينهما وصلت إلى ٣٢ بليون دولار عام ٢٠٠١، تايوان التى كانت مستقلة عن الصين لكنها ليست معادية لها كانت كفنلندا للاتحاد السوفيتى أو بنما للولايات المتحدة يمكن أن تكون فى مصلحة بكين، تايوان هذه ربما تدخل فى اتفاق أمنى مع الوطن الأم وتكون خطرًا أقل على الصين بالنسبة لتوازن القوى فى شرق آسيا بدلاً من أن تكون دخانًا ومسلحة حتى الأسنان ومؤيدة من الخارج.

ولكن على مدار السنين فقد رأينا أنه يناسب الدولة الشيوعية الصينية الاحتفاظ بمضيق تايوان متوترًا، إنها تطلق صواريخ قريبة من حواف شمال وجنوب تايوان وتتحدث عن قادة تايوان بلغة غير لائقة، وهى لا تعطى شعب الوطن الأم تفاصيل انتخابات تايوان، وتحشد قوة عسكرية ضخمة من مقاطعة فوجيان المواجهة لتايوان.

وفى تايوان فإن موضوع العلاقات مع الوطن الأم قد صار فى صميم السياسة الديموقراطية، ولكنها فى الوطن الأم فإن العلاقات مع تايوان هى شئون دولة ولا علاقة لها بإرادة الشعب إنها خاصة بسياسات الحزب الشيوعى ومشروعه الإمبريالى والكاتب المنفى (ليو بنيان) لاحظ أن قادة الصين فى التسعينيات "هؤلاء الرجال فى السبعينيات والثمانينيات من أعمارهم هم محاربون، وحياة وحب وسعادة مئات الآلاف من الشعب لا تعنيهم" وهذه النقطة هى التى افتقدها (روبرت روس)، امتصاص واستيعاب تايوان ربما هو مصلحة حيوية للدولة الشيوعية الصينية ولكن ليس للمجتمع الصينى.

وكتب (لويس هنكن) "فى العلاقات بين الدول فإن تقدم الحضارة ربما يُنظر إليه كحركة من القوة إلى الدبلوماسية ومن الدبلوماسية إلى القانون"،

المستقبل الضعيف أو الذى يُضعف جمهورية الصين الشعبية لأخذ تايوان هو ربما دراسة حالة من وجهة نظر (هنكن) فى عام ١٩٤٩ ١٩٥٠ كانت القوة هى اسم اللغة لكل من مشروع إعادة التوحيد لبكين، ثم وقف المشروع بعد انفجار الحرب الكورية. وفى السنوات التى احتضنت البيانات الثلاثة لواشنطن وبكين ١٩٧٢ ١٩٨٢ كان اسم اللعبة هو الدبلوماسية. وفى التسعينيات وما بعدها منذ سقوط الشيوعية الأوروبية وحلول الديموقراطية فى تايوان فقد صار القانون بأوسع معانيه جزءًا لا يتجزء من العلاقات عبر مضيق تايوان.

وأثناء تسليم هونج كونج من الإنجليز إلى الصينيين فى ١٩٩٧ تحدث جيانج زيمين عن إنجازات الإقليم باعتبارها تعود إلى أبناء هونج كونج المواطنين وأبناء ظهيرها الأرضى، ولم توجد ثمة إشارة ولو من بعيد للمؤسسات البريطانية ودورها، وفى الحقيقة فإن جيانج بدا منكرًا لحقيقة أن هونج كونج لديها تاريخ، وتحدث عن ٦ ملايين من أبناء هونج كونج المواطنين الذين عادوا لأحضان الأرض الأم كأن هؤلاء الناس كانوا يوما ما تحكمهم الصين، رغم أنه لما بدأت قصة هونج كونج كان الإقليم مدينة صيد تتكون من ٥ آلاف فرد، وجيانج أشار للفترة تحت الحكم البريطانى كقرن واحد من التغييرات والتقلبات، لو كان تاريخ هونج كونج ببساطة دولة هونج كونج البائسة تحت الاحتلال كيف أمكن للإقليم يوم تسليمه أن يحقق دخلا للفرد عشرة أضعاف ذلك الذى حققته جمهورية الصين الشعبية، وعندما أخذت بكين الإقليم كان هو ثالث المجتمعات الآسيوية ازدهارا (بعد اليابان وقريب جدًا من سنغافورة).

وفى منتصف ليلة ١ يوليو ١٩٩٧ عندما صارت هونج كونج صينية فإن الناتج القومى الإجمالى فى الصين الشعبية ارتفع بنسبة ٢٠%، وببساطة فى العقد السابق على مغادرة بريطانيا فإن متوسط دخل الفرد فى هونج كونج

ارتفع لأكثر من ثلاثة أضعاف، لقد أنتج تعاون الشرق والغرب أفضل بناته وكما قال مخرج أفلام يابانى "لربما لم يكن الشرق والغرب فى حالة حب فى هونج كونج لكنهما كانا فى حالة عشق". لقد كان حدث ١٩٩٧ بالنسبة لجيانج مجرد ريشة فى قبعة دولة الحزب الصينية، كان يومًا للعظمة والمجد للبلد الأم، كان انتصارا لسياسة الهوية، مع العرق أكثر من قيم المجد القومى، أكثر من حرية الفرد، وأخذ الثمن فوق الحقيقة التاريخية، دولة الصين الشيوعية كانت تتوسع والقانون الغربى فى حالة تراجع.

والحافز وراء احتفالات بكين كان هو سور الصين العظيم لأنه يمثل رمزًا لكل من الاستبداد والوطنية وكلاهما توأمان لا يمكن فصمهما فى الصين، وقد أوضح (والدرون) الاستخدام المحدود للسور باعتباره حاجزًا لكن سلطته وقوته هى باعتباره رمزًا فنقل أسطورة السور العظيم والفجوة بين الصينيين والبرابرة ستكون أقل وضوحا كما فهمت وعرفت أسرة المينج، واليوم إذا انتهت أسطورة الصين الواحدة يصبح إدعاء الصين الإمبراطورى مشكلة كما عرف هو جينتاو.

وهونج كونج لديها القليل الذى يرجع إلى جذورها ولكن لديها الكثير مما هو فى حالة تحول، رجال الأعمال الأجانب يوقعون عقودا ويذهبون، ١٢ مليون سائح سنويا يأتون ويذهبون خلال أيام، البريطانيون وصلوا من بعيد ليحكموا هونج كونج وغادروها عام ١٩٩٧ السكان أنفسهم يأتون ويذهبون، سكان هونج كونج نموا سريعًا فى منتصف القرن العشرين أساسا لأن الشعب هرب من الصين، فى نهاية الأربعينيات كان سكان المستعمرة ٦,١ مليون وهو نفس عددهم قبل الحرب العالمية الثانية، مع الثورة الشيوعية قفز عام ١٩٥٢ إلى ٢,٢٥ مليون، ١٩٦٠ ثلاثة ملايين، ١٩٨٠ خمسة ملايين، وفى السنوات حتى ١٩٩٧ مئات الآلاف من المهنيين تركوا هونج

كونج للولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغيرها، واليوم يوجد ٢,٦ مليون فى هونج كونج مثلما أن هناك (تبتيون) فى جمهورية الصين الشعبية.

فى عام ١٩٤٤ حث ستالين ماو تسى تونج أثناء زخم الثورة على ضم هونج كونج ولكن ماو كانت لديه وجهة نظر حصيفة أن يجعل البريطانيين يقومون ببنائها، وأن يجعل منها محطة تسمع على العالم، وأن يحقق من ورائها عائدا نقديا. فتحت حكم الملوك (الخيتان) وغيرهم من البرابرة فقد زودوا البلاط الصينى بالخيول مقابل الحرير والشاى، وفى النصف الثانى من القرن العشرين فإن هونج كونج زودت الصين بالعملة الصعبة مقابل دجاج جواندونج والخضروات والماء، وهونج كونج كسوق ومعرفة فنية عالية ورأس مال كانت السبب وراء تفوق جواندونج على مقاطعات شمال الصين فى أوائل سنوات الاصلاح الاقتصادى، وهو ما يفسر أيضا كيف أن (شنزن) كمنطقة اقتصادية خاصة بين هونج كونج وجواندونج ارتفع شأنها فوق جواندونج فى التسعينيات.

وعلى عكس التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية وهى ثلاثة أقاليم أخرى غامضة تناولناها فى الفصل السابع كل منها كانت بانتظام مسرحًا للعنف، لكن هونج كونج كانت فى سلام منذ انتهاء الاحتلال اليابانى فى الأربعينيات، ومن الستينيات لم تتوقع لندن أن تتمسك بهونج كونج لمدة أطول ومن الثمانينيات فليس لديها إرادة لتفعل ذلك. لقد عرفت هونج كونج فى عصر ماو لحظات اهتزاز وقلقلة خلال المجاعة التى جاءت بها القفزة الكبرى للأمام عام ١٩٥٩-١٩٦٠، حشود الجماهير احتجت فى جواندونج طالبين عبور الحدود إلى هونج كونج الإنجليزية، وصرخ بعضهم أنهم يريدون الاحتفال بعيد ميلاد الملكة إليزابيث فى مستعمرة التاج! وخلال الثورة الثقافية فى الستينيات فإن الحاكم الإنجليزى لهونج كونج لم تفاجئه مكالمة تليفونية من بكين تخبره أن الجيش الشيوعى الصينى فى طريقه لأخذ الجزيرة.

ولكن هونج كونج كتعاون ناجح بين التصنيع الصينى والمؤسسات البريطانية جرى التمسك به واستمراره، وتغير وجه هونج كونج بعيدًا عن السياسة فإن المستعمرة استمرت فى إعادة اختراع نفسها اقتصاديا بمهارة وحذق، لقد تغيرت من مجرد صخرة عارية (كما قال عنها اللورد بالمر ستون) لما دخل البريطانيون عام ١٨٤٢ إلى مدينة صيد ومكان للجوء ومكان متواضع للتجارة، وباب دوار للثورة الصينية وقاعدة تصنيع رخيصة وموئل للتمويل، ومحطة إعادة تصدير للسلع، ومقصد للمتبضعين والسياح، وكل هذا بعد فترة تحول، وتم عمل الكثير من القليل فليس لديها موارد ولا توجه آمن ولكن مجرد استجابة ولكن على أفضل وجه لعالم لم تقم هى بصنعه.

وفى النهاية فقد كانت بريطانيا هى التى اتفقت على تنظيمات وترتيبات لمواءمة وضع هونج كونج طالما أن موعد انتهاء إيجارها يقترب فى الثمانينيات، وخلال التسعينيات وعندما تسمم الجو بين الصين وكل من هونج كونج وبريطانيا بسبب مأساة تيان آن مين فإن بكين صارت تخاف من شيئين، هونج كونج ربما أرادت تسميم الأرض الأساسية (الصين) فى اتجاه الحرية والديموقراطية (ماء البئر لن يتحرك ويدخل لماء النهر)، كما حذر الشيوعيون فى توصيفهم لدور هونج كونج المتواضع فى علاقتها مع الأراضى الواسعة فى الشمال، ولسوء الحظ فإنهم فكروا أن تدخل هونج كونج فى شئون الصين كان مثل أن شخص يفتح فمه ليعبر عما يعتقده فى الحرية والديموقراطية.

والصين كانت بحق غاضبة عندما جاءت الساعة الحادية عشرة عندما جاءت بريطانيا ببعض الأشياء الليبرالية بهدف حماية الإقليم من الرياح العنيفة لحكم بكين، فقد شكا (لى شونان) أكبر رسمى صينى فى هونج كونج أن بريطانيا تلعب ألاعيبها بالحديث عن الحاجة لتدويل هونج كونج كإعداد

لمستقبلها وقلقها على الإرادة الشعبية فى هونج كونج، ومن الصحيح أن لندن بتعيينها كريس باتن كمحافظ لهونج كونج عام ١٩٩٣ قد ضربت ضربتها الجديدة لدفع الديموقراطية وللمشروعات الكبرى مثل المطار الذى يتكلف عشرين بليون دولار، وكان السبب عصبية بريطانيا حول كيف أن هونج كونج والعالم سيهضم وصول الصينيين للحكم عام ١٩٩٧ فى ضوء الظلال الكئيبة التى أحدثتها مأساة تيان آن مين فى بداية التسعينيات.

الصين خائفة من الانتخابات وقال لى زعيم هونج كونج الديموقراطى (مارتن لى) "إن الصين خائفة من الانتخابات وأن قادة الصين أكثر خوفا منا فى هونج كونج أكثر مما نحن خائفون منهم" وعبرت عن الشك فى أن دفع الديموقراطية فى هونج كونج خلال التسعينيات يمكن أن يؤدى إلى أى شىء غير الإحباط بعد أخذ بكين غير الديموقراطية لهونج كونج عام ١٩٩٧ وعلق لى بالقول "إن الديموقراطية فى هونج كونج تشبه بابًا من ورق فى مطعم يابانى" وكما علق لى "أنك يمكنك المشى خلال هذا الباب ولا أحد يوقفك إذا أردت، ولكن إذا احترمت الناس على الجانب الآخر من الباب فإنك تدق الباب وتطلب السماح قبل الدخول، ونفس الشىء مع هونج كونج والصين".

ومن المثير أن نذكر أن (ألكسندر غرانثهام) المحافظ السابق لهونج كونج قبل كريس باتن والذى حاول دفع المستعمرة إلى الديموقراطية تراجع عام ١٩٥٢ جزئيا بسبب الخوف من أن السياسة الصينية يمكنها اختراق المجلس التشريعى لهونج كونج.

شهدت التسعينيات دراما الكلمات والقوانين والتى وراءها تغيير القبضة الإمبراطورية، لم يحدث من قبل أن أمة (بريطانيا) تسلم لأمة أخرى قبل تواجدها (الصين) ليس مجرد شريط أرضى ولكن مجتمعا كاملا مزدهرًا، والذى يعرف مقدمًا منذ سنوات تاريخ التسليم. وبالعكس فإن التبت وسينكيانج ومنغوليا كان الصراع على السيطرة عليها هو غالبًا غير مبرمج وعنيف.

ولعقود فإن بعض الدول كانت لديها مخاوف أن الصين ربما تحاول أخذ قطعة صعبة وعصية من إمبراطورية الكينج البحرية وهى تايوان ولكنها وجدت أنها قد تبدلت بهونج كونج والتى كانت غير مثيرة بالنسبة لبكين ومهتمة فقط بالأعمال والتجارة عادت إلى حكم الصين أولاً، هونج كونج التى صارت غنية تحت القانون الإنجليزى تم الحكم عليها بمستقبل جديد بالقانون الإنجليزى، وتايوان التى طالما عاشت بسيف القوة تستمتع باستقلالها بفضل ذلك السيف.

هل هونج كونج اليوم فى وضع من يدفع الجزية ويقدم فروض الطاعة والولاء لبكين؟ تاريخيًا فإن الأقاليم التى تدار مباشرة تدفع الضرائب للبلاط الصينى والأقاليم المستقلة ترسل بعثات لتقديم فروض الطاعة والولاء، هونج كونج التى مازالت درة ذهبية لاقتصاد الأرض الأم أو على الأقل لجيوب بعض الرسميين تبدو بينهما، بكين تعامل الرئيس التنفيذى للإقليم كموظف مقاطعات وجيانج رأى أن حفل التسليم عن الصين أكثر منه عن هونج كونج ولما أثير موضوع شائك مثل كيفية التعامل مع احتجاجات (فالونجونج) شعرت بكين بسياسة هونج كونج تجاه البوذى المزاج الحساس أنها يجب أن تخدم ليس بالضرورة مصالح هونج كونج ولكن مصالح الأمن والاستقرار فى دولة المركز.

وفى بكين فى أكتوبر ٢٠٠٠ قبل اجتماع (تونج شى) الحاكم التنفيذى لهونج كونج التقى جيانج زيمين فى غرفة مملوءة برجال إعلام هونج كونج والصحفيين كانوا يعرفون أن جيانج قد أيد تونج لمدة ثانية فى منصبه والذى جاء فى مكان الحاكم البريطانى قبل عملية الانتخاب داخل هونج كونج قبل تسليمها للصين عام ١٩٩٧ قال شيانج إن الرئيس التنفيذى لها سينتخبه شعب هونج كونج.

وفى تقرير فى تليفزيون هونج كونج سئل جيانج هل هو أمر إمبريالى من بكين أن تونج يجب إعادة تعيينه؟ فوقف جيانج من على كرسيه غاضبا وقال "يجب عليكم يا رجال الإعلام أن تتعلموا أكثر، أنتم تعرفون الكثير عن الأرض وأنا أقول لكم لقد رأيت الكثير وأى جزء من الغرب لم أره" وهذه لم تكن إجابة عن سؤال التليفزيون ولكنها تعرض الخلط من جانب جيانج بين العدوانية وعدم الأمن، قال الديكتاتور "أنا لست صحفيا ولكن يجب أن أقول لكم الحقيقة حول الحياة إذا لم تكن تقاريركم دقيقة فيجب أن تتحملوا المسئولية" وكان ذلك تهديدًا. جيانج المهندس الشيوعى قال إنه لم يعط أمرا إمبرياليًا وصحافة هونج كونج ليست جيدة ويجب ألا تنتقده وتجاهل أن مساعدته لتونج لفترة ثانية كان بهدف أن يجعل من المستحيل لأى مرشح أن يصبح رئيسًا تنفيذيًا وكانت نهاية غير سعيدة للمشروع من أعلى والتى تم اتباعها فى التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية.

وخلال هذا فإن جيانج قال إن هونج كونج تنتمى لحكومة جمهورية الصين الشعبية، ووراء التناقض فى مفهوم الرئيس التنفيذى وانتخابه فإن جيانج كان من حيث لا يدرى يزمجر مستخدمًا معنى كلمة إمبريالى، واستأسد على أهل هونج كونج، وتعامل مثل الأوتوقراطى فى حالة قفزه، هو إمبراطور يتحدث ويواجه شعبا أقل من أقاصى محيط الصين.

وكما يقول المثل السائر فى أسرة الكينج والذى تطبقه بكين حاليًا أو تطبق صيغة جنوبية منه فى هونج كونج (استخدم الأقاليم الغربية لتحكم الأقاليم الغربية) أى استخدام أهل وشعب هونج كونج لحكم هونج كونج، بكين الشيوعية تعرض أساليبها الأقل نجاحا للحكم على منطقة بعيدة فى محيطها. مبدئيًا فى عام ١٩٩٧ فإن الحاكم التنفيذى احتفظ بـــ٢٢ سكرتيرا من الـــ٢٥ سكرتير وزارى رؤساء الحكم المدنى لإدارات حكومة هونج كونج، حتى الآن رغم الضغط الواضح على الرئيس التنفيذى لينهى تماما استقلال الإدارة

المدنية، وبكين عموما تراقب هونج كونج بالحكم المتساهل والذى اختاره الأباطرة للأقاليم البعيدة.

(تونج شى هوا) قلل للأسف من دور اللغة الإنجليزية فى المدارس وزاد من دور الحكومة فى اقتصاد هونج كونج لكن ليس من الواضح إذا كان فعل هذا تحت ضغط بكين، ويسمع الإنسان الناس فى جواندونج وسينكيانج وغيرها من المقاطعات يقولون أنهم يحبون هونج كونج كـ(دولة واحدة ونظامين) وتوجد عدة طرق للتعامل مع تعدد الخواص داخل شكل سياسى واحد حتى لبكين السلطوية حتى ليكون من المقبول التفكير فى هونج كونج كنموذج يمكن اتباعه فى التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية، ففى هونج كونج خرجت بكين عن إطارها حتى تبين كيف أن دولة لينينية يمكنها التعامل مع منطقة محيطة، لكن حقائق محدودة يمكن تعلمها حول الإمبراطورية الصينية الجديدة من حالة هونج كونج، الصخرة الصلدة تحولت لدولة عصرية حديثة وعلى عكس كل المناطق فى المحيط البعيد مع وضع الحكم الذاتى كانت أكثر تقدما بكثير عن باقى جمهورية الصين الشعبية فى مستوى المعيشة عندما دخلت النظام الشيوعى، وهونج كونج أكثر من ٩٠% منها من الهان على عكس أغلب الأقاليم الغامضة حتى الآن، لكن هونج كونج كانت لقمة سائغة وسهلة الهضم ومع رخائها وازدهارها ومؤسساتها الشرعية السياسية والقانونية والتعليمية ذات الفاعلية، وأكثر من هذا فإن بكين ستستمر وكأنها تمشى على البيض فى التعامل مع هونج كونج لأنها تريد أن تغرى تايوان بنقاطها الجيدة فى الحكم الذاتى على نسق من يقول اهضم البطة أولاً إلى أن تصل إلى اللحم الحى. فى الحقيقة حتى الآن هونج كونج عليها أن تشكر تايوان لاستقلالها النسبى عن قبضة دولة الحزب فى بكين.

وأحد مظاهر اختلاف هونج كونج عن الأقاليم ذات الحكم الذاتى حاليًا داخل الصين هو هذا التأثير بينها وبين بكين فى طريقين، فى سينكيانج

ومنغوليا الداخلية والتبت فإن السؤال هو هل بكين يمكنها الاستمرار فى محيط مختلف الخواص فيما هى تقوم بالتحديث؟ وفى هونج كونج فإن السؤال هو ما إذا كانت بكين يمكنها أن تهضم دولة مدنية حديثة دون أن تؤثر بالسلب على صحتها هى؟ هونج كونج تقدم رأس المال والمهارات الفنية لكنها أيضا تضع وتقدم مشكلة لا تضعها التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية، فبكين تخاف من رياح الليبرالية من ناحية هونج كونج وفى هذا المضمار فإن ظلا يقع على هونج كونج لو هى تقدمت أكثر نحو الديموقراطية فإن خطرًا يظهر حين ترى بكين أن "البئر يلوث النهر"، وهو أمر جيد ولكن ليس لتكون مثلا يحتذى، هونج كونج ربما هى شيء جيد ولكنها كافية لتكون خطرًا.

وفى مجال التعاون بين الحضارة الصينية والقوى الأجنبية فإن هونج كونج هى اختبار لمدى قدرة الإمبراطورية الصينية على التعامل وتقبل تأثير العولمة، فى الماضى فإن التأثير على البلاط الصينى تضمن البوذية والمنغول والمانشو والطريقة السوفيتية، واليوم جاء الاقتصاد الدولى ذو التقنية العالية وفيضان المعلومات وفضائها المفتوح. هونج كونج وطريقتها فى الحياة يراه بعض من ذوى النفوذ فى الصين باعتباره هرطقة بالنسبة للقيم الشيوعية الصينية، وهذا أمر مختلف تمامًا عن الموضوع الثقافى العرقى فى التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية، هونج كونج لا تهدد طريقة الصين كما تفعل مناطق غير الهان فيما يبدو ولكن تجربتها مع الرأسمالية والاقتصاد الدولى المعولم تهدد أوتوقراطية الصين الشيوعية.

من المستبعد أن ذيل هونج كونج سيجعل ذنب الكلب الصينى يتحرك، فى الثمانينيات والتسعينيات فإن خطوط التأثير جرت كالتالى: المنطقة الاقتصادية الملاصقة فى (شنزن) تعلمت من هونج كونج وجواندونج تعلمت من (شنزن)، ومناطق شمال وغرب الصين تعلموا من جواندونج، لكن سحر هونج كونج باعتبارها القمة السامقة فى الغنى فى الفضاء الصينى جاءت من

كونها خارج الصين الشعبية، الثروة والقوة كانت منفصلة فى هونج كونج البريطانية، اليوم هى تقع داخل إقليم الصين والغنى والسلطة مندمجان والحرية لا يمكنها أن تتقلص. فى عام ٢٠٠٢ فإن الطرد والتخلص من الصحفيين من المستوى الأعلى بدأ بالفعل.

وفى بحثه عن معنى الصينية فإن المؤرخ (وانج جونجوو) وجد أن هونج كونج الصينية المزدهرة الحديثة الحرة يمكنها الادعاء أنها طورت صيغة حول الصينية الجديدة والموضوع هو هل سيتم مكافأتهم لهذا الإسهام؟ أم أن عليهم أن يدفعوا الثمن لأنهم ذهبوا على طريقتهم هم؟ وفى النهاية فإن (وانج) الذى عاش فى ماليزيا وأستراليا وهونج كونج وسنغافورة انتهى للقول بـــ"أنه ربما أن صينية الصين سيتم اعتبارها الوحيدة الأصيلة وغيرها من الخارج عليه العودة أو فإنهم سيواجهون للأبد أزمتهم فى المكان وفى الممارسة". وإذا كان ذلك كذلك فإنه يؤكد أن دولة بكين ستكون هى الحكم لكل شخص صينى.

تحت أى ظروف يمكن للاستقرار والازدهار فى هونج كونج أن يستمر لوقت طويل؟ هناك قائمة أساسية للظروف والشروط فى هذا المضمار يجب أن تصاحب النمو الاقتصادى الجارى فى الصين: الهدوء فى التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية، علاقات اليابان مع الصين تبقى ودية، عدم وجود أزمات فى مضيق تايوان تتطلب من الجيران الاختيار بين بكين وتاى بيه، لا عودة عن تفويض بكين الذى يعطى جواندونج فرصة للتنفس والازدهار. والأكثر أهمية فإن على الصين أن تلغى شرط مرور ٥٠ سنة لإكراه هونج كونج على أن تتجرع الدواء الاشتراكى.

والتناقض العجيب فيما يتصل بالصين منذ بدايات القرن الواحد والعشرين هو أنها بالرغم من أنها صارت أكثر أمنًا عما كانت عليه لقرون خلت فإن مزاجها يبدو مثارًا وحادًا ومخيفًا إنها تتحدث عن المنشقين وتقيد

حركة الشعب وتغلق عليهم وتشدد عليهم النكير لمجرد التلفظ بكلمات حول موضوع وحدة الإمبراطورية الصينية وتصل إلى حد القول إن القوى المضادة للصين تجعل مجرد بقاء الدولة موضعا للشك. ومن الصحيح أن الصين هى فى بيئة تحسد عليهاحيث أن حدودها الأرضية طولها ٢٢ ألف كيلومتر وسواحلها ١٨ ألف كيلومتر و٢٠ جارا قريبا و١٤ جارا مجاورا و٦ جيران تفصلهم عنها امتدادات بحرية ضيقة، لكن عصبية الصين إنما ترجع فى النهاية إلى خوف دولة الحزب من الديموقراطية والتفكك وانهيار الوحدة القومية، وكذلك فهمها للعلاقة بين هذين العنصرين.

وبالنسبة لبكين فإن انهيار وسقوط الاتحاد السوفيتى أوضح أن الليبرالية السياسية تثير مكامن الخطر على الوحدة القومية، وبدرجة ما فإن عملية الإصلاح خلال العقود الأخيرة لإمبراطورية الكينج قد أرسلت نفس الرسالة إلى الحزب الشيوعى الصينى، جورباتشوف لم يكن يريد أن تؤدى البريسترويكا لفناء وانتهاء الاتحاد السوفيتى، و(كانج يو وى) لم يكن يريد من إصلاحات المائة يوم عام ١٩٩٨ أن يضع علامة النهاية على أسرة الكينج ولكن كل الليبراليات السياسية كان لها آثار وانعكاسات وعقابيل لم تكن فى الحسبان على الوحدة القومية.

والصلة الثانية بين الليبرالية السياسية ووجهة نظر الحزب الشيوعى عن وحدة المحيط والفضاء الصينى قد ظهرت بجلاء داخل الصين فى كل وقت فيما بعد ماو، فإن كل قائد فيما بعده قد ذهب إلى تخوم وحافة الإصلاح السياسى وعندما شجعت (هو ياو بانج) فى عام ١٩٨٦ الإصلاحات السياسية المفتوحة قرر دينج أن هذه الإصلاحات ستهدد القبضة المحكمة للحزب الشيوعى على الفضاء الصينى، وبعد ٣ سنوات وخلال أزمة (تيان آن مين) فإن (زهاو زيانج) الذى اختاره (دينج) لخلافة (هو) الضعيف قد أرخى العنان وسهل لحركة الطلبة المحبين للديموقراطية ليقنع دينج أنه كان يسعى إلى بذر

بذور الانشقاق فى الحزب الشيوعى والدولة الصينية وقد رفض دينج كلتا الليبراليتين السياسيتين.

وفى عام ١٩٨٧ فإن زهاو زيانج مضغوطا عليه من جانب صحفيى هونج كونج حول خطط الصين بالنسبة إليها قال: "ماذا يخيفكم كثيرا؟" لقد وقع زهاو التصريح المشترك مع مارجريت تاتشر عام ١٩٨٤ التى وضعت الخطط لتسليم هونج كونج عام ١٩٩٧ ووعد بدرجة عالية من الحكم الذاتى لهونج كونج وعدم تغيير النظام الاجتماعى الاقتصادى لمدة خمسين سنة، لكن زهاو بعد سنتين من ملاحظته لصحفيى هونج كونج قد تم تطهيره من جانب دينج إكسياو بينج لأنه شق الحزب فى أعقاب ضرب حركة الطلبة الديموقراطية عام ١٩٨٩ وربما أن زهاو فى حالته غير المحسود عليها قد فهم بطريقة أفضل مما كان الحال عليه فى المؤتمر الصحفى عام ١٩٨٧، لماذا مستقبل حكم الحزب الشيوعى الصينى يخيف الكثير من أهل هونج كونج؟.

تايوان وهونج كونج يقدمان الصلة الثالثة فى إدراج بكين وفهمها للعلاقة بين الليبرالية السياسية ووحدة الفضاء الصينى، فإن هناك أعدادا كبيرة من أبناء الشعب فى هونج كونج وتايوان يوافقون على أن يكونوا جزءا من الصين فيما لو كانت الدولة الصينية ديموقراطية، لكن على العكس فإن الحزب الشيوعى الصينى يرى أن قضية الوحدة لا تنفصل عن النظام السياسى السلطوى. وفى التسعينيات ولأول مرة فى التاريخ فإن الديموقراطية قد حققت ظهورا ناجحا داخل الحضارة الصينية، وبالنسبة للسلطويين فى بكين فإن هذا التحرك والإثارة والموجة الديموقراطية فى إمبراطورية الصين البحرية هو أكثر رعبا من خصوم الديموقراطية إلى شرق أوروبا وروسيا.

تايوان وهونج كونج ليستا جارتين لهما خلفية صينية فى نظر الحزب الشيوعى الصينى لكن المدى البحرى الجنوبى الشرقى للصين وهما

تحتضنان أفكارا عن الحرية والديموقراطية غريبة على مجتمع الصين الاشتراكى، مرة ثانية "ماء البئر يهدد بتلويث النهر" ولهذا لا عجب حقيقة بل إنه منطقى أن الصين أطلقت على إلتزام (لى تنج هوى) بسياسة الانتخابات فى تايوان (انفصالية) وفى النهاية إن لم يكن فى النية المباشرة لقد كانت بالفعل كذلك.

والديموقراطيون من العرق الصينى فى تايوان وهونج كونج وغيرها من الأماكن يثيرون تقريعا تعليميًا وانتقاديًا مقصودًا من جانب بكين، لى تنج هوى وشين شو بيان فى تايوان ومارتن لى فى هونج كونج والديموقراطى العتيد (وى جنج سهنج) الموجود فى المنفى فى نيويورك كلهم يمثلون ألما فى معدة دولة الحزب الشيوعى الصينى، والحزب الشيوعى الصينى يعرف أن درجة عالية من الفردية توجد فى تايوان وهونج كونج وهى تخاف من تنامى هذه الظاهرة نفسها فى مدن الصين الشعبية.

حسنًا، ربما بكين خائفة بالفعل ودولة الحزب لا تمثل مجتمع الشعب الصينى لكنها تأخذ تفويضها من التاريخ المعين والمزور والملون باللون الماركسى وهو الذى يمثل ظهورا معاصرا لفكرة (السماء) وهذه تمثل المشكلة والمعضلة الحقيقية لحكومة لم يتم انتخابها قط.

ومن ناحية تايوان فلديها حكومة مؤسسة على سيادة الشعب وكما قال الرئيس (شين شوبيان) أن "آلية صنع القرار لدينا تعمل من القاعدة إلى القمة وأن الشعب له كلمة فى هذه العملية" وعلى الناحية الأخرى فإن شرعية حكومة بكين قائمة على المطلقات الأربعة للماركسية الفاشلة.

ومن المتصور أن أى إدارة أمريكية فى المستقبل ومعظم الشعب الأمريكى سيستمرون فى دعم الديموقراطية بالإضافة إلى أسلوب الردع بالنسبة لسياستها فى تايوان، نقطة البداية هى أن أى عملية لإعادة توحيد

تايوان مع الصين تعتمد على إرادة الشعب وباعتباره مشروعا توسعيا من أجل مجد الدولة الصينية فإنه غير جذاب وعبء الدليل سيكون على أولئك الذين سيسمحون لتايوان لتذهب بعيدا عن وجودها وأن تظهر أنها تفضل ذلك على الوضع الراهن، هناك إطار واحد فقط يوجد لإعادة التوحيد وليس مضادا لمصالح الولايات المتحدة وجيران الصين هو لو أن سيادة الشعب المختص فى الأرض الأم هى كما هو الحال فى تايوان.

إن دراما الديموقراطية وتطورها داخل ووراء الحضارة الصينية سيكون لها آثار غير متوقعة ومنشطة على الشئون الدولية، وعملية نقل موضوع تايوان للعالم متعدد الأطراف داخل تجمع آسيا والباسيفيك سيحدث، وتايوان ليست فقط تمثل قلقا للولايات المتحدة فبقاء ونجاح الديموقراطية فى تايوان هو أمر مهم للسلام والاستقرار فى شرق آسيا ككل والتحدى أمام واشنطن هو من أجل إيجاد تآلف بين دول آسيا والباسيفيك لتأخذ موقفا واحدا مشتركا باسم الاستقرار الحقيقى فى شرق آسيا ضد أى تغيير غير إرادى فى الموقف فى تايوان.

لو نسينا توازن القوى ومارسنا الاهتمام الفج فإن بكين ستأخذ ميزة البراءة لتجمع بين المركنتيلية التجارية مع التأثير والنفوذ والتوسع الدولى، ولو اتبعنا سياسة واضحة من الاهتمام للحفاظ على التوازن فى شرق آسيا المرتكز على التحالف مع اليابان وكوريا وأستراليا وغيرها فإن عمليتين ستحدثان، المزيد من الاعتماد الاقتصادى المتبادل سيستمر فى الضغط على نظام الصين الأوتوقراطى، وستتردد الصين فى توسيع إمبراطوريتها البحرية لأنها ستجد الولايات المتحدة الأمريكية واقفة لها بالمرصاد فى عرض الطريق.

الفصل التاسع

إمبراطورية السهوب

أرادت الصين من بناء السور العظيم أن تحافظ على شعبها وكما كتب لاتيمور "من البدايات المبكرة فإن الصينيين عندما اخترقوا فى العمق بيئة السهوب - البيئة السهلة الواسعة الخالية من الشجر- كانوا على وشك الابتعاد وترك الجسم الأساسى للأمة، ولكن فى الجنوب لم يبتعدوا أبدا عن الصين ولكنهم أضافوا إليها أقاليم جديدة وجمعوا شعوبها وحولوها بالتدريج إلى الصينية وهكذا صارت جواندونج خلال أسرة الكينج صينية، وكذلك فوجيان وجيانجكسى خلال أسرة السونج وجوانجكسى ويونان وجويدو أيضا خلال أسرة المينج، لقد صار الجنوب حدودا مفتوحة لعمق لا حدود له كما قيل مغلق صناعيا ولكن ليس مغلقا بنجاح كبير". والتركستان الصينى كما هو اليوم المقاطعة الغربية لسينكيانج كانت تسمى من جانب الأجانب خلال فترة أسرة الكينج، والنصف الأول من القرن العشرين تشكل النهاية الغربية للسهب (الإستبس) مع منشوريا فى النهاية الشرقية، وفيما بينهما كانت منغوليا مركز طريقة الحياة الأجنبية المختلفة عن الصين الداخلية كمحيط. والمفتاح الأساسى لمنطقة السهب هو السيطرة على الحيوانات من جانب الرجال والماشية والأغنام والخيول وأشكال مختلفة من الحياة الصحراوية، الحيوانات كانت بمثابة (Detroit) والـ(Boing) لتاريخ اقتصاد الإستبس. التبت التى تطل على الصين من الجنوب الغربى كانت بمثابة الجزء المزدهر حديثا من الحدود مع قواعد وتقاليد خاصة أعطتها لها الجغرافيا والدين.

وبفضل لعبة سياسة القوة وسياسة فرق تسد من جانب ستالين وماو تسى تونج فإن التبت وسينكيانج ومنغوليا الداخلية تم ضمها كمقاطعات صينية وهى أكبر وأوسع مقاطعات الصين، هذا تم أخيرا بطريقة عنيفة وحمقاء، وكدليل على اللامنطق أن أكثر من ٤ ملايين ضمن ٦ ملايين تبتى فى الصين لا يعيشون فى التبت، كما رسمت الصين الحدود بين التبت كمنطقة حكم ذاتى وغيره من الأقاليم الصينية، لقد علم ستالين تلاميذه الصينيين بدقة مثل الروس وعلى عكس البريطانيين والفرنسيين فإن الصينيين لم يحفروا إمبراطوريتهم وراء البحار، الروس والصينيون حصلوا على الأقاليم بطول حدودهم وهم مارسوا بالفعل ما سماه (ميخائيل خوداركوبسكى) "الاستعمار العضوى" الاستعمار الذى تشكل أساسا بالحاجة الدفاعية من أجل تأمين واستقرار حدود إمبراطورية. وكما كتب (ألكساندر شوباروف) عن الحالة الروسية بأن "العاصمة والإمبراطورية تصبح إقليميا لا يمكن التمييز بينهما".

لقد كان الإيمان المسيحى الأصولى الأورثوذوكسى (فى الحالة الروسية) والطريقة الكونفوشيوسية (فى الحالة الصينية) هما القيمة المعنوية فى العاصمة والحدود فى الوقت ذاته. بريطانيا الإمبريالية لم تسمح لسيلان أو هونج كونج أن تصطدم بالصورة الذاتية البريطانية، وكذلك فإن الإحساس الفرنسى بالذات لم يتغير بالحصول على السنغال أو تاهيتى ولكن وعى الصينيين والروس تأثر بعمق بوجود شعوب مختلفة على الجانبين، الإمبراطورية كانت هى بلدهم الأم كما قال (شوباروف) عن الروس والحال يصدق كذلك على الصين. الإمبراطورية الصينية لم تر بكين فيها أنها إمبراطورية لأنها لم تكن وراء البحار كان يمكن رؤيتها باعتبارها منطقة حاجزة للصين بالضبط مثل سيبريا ومنشوريا كان مرادا أن تكون منطقة حاجزة عن روسيا. فى هذه الظروف هناك حدود ولكن عدد محدود من الحدود العقلانية. وعن إقليم (التاى) فى سينكيانج اليوم يقول ميللورد "أن

عربة جيب تحمل صينيين رسميين تدور فى دائرة ربما يروك كمسافر، ويسألونك عن أوراقك، وربما يفتقدونك، ولكنك تعرف فى أى البلاد أنت".

ما يقال عنه اليوم آسيا الوسطى مع حضارتها التركية الواسعة كانت هى الباب الأول للصين خلال معظم الألفين وخمسمائة عام، (تورفان) وهى مدينة واحة حاليًا فى غرب الصين كانت كشنغهاى عبر الأرض من الشرق الأدنى إلى الصين، شمال الهند وجنوب روسيا وشرق فارس، فإن آسيا الوسطى قد سببت المتاعب للصين، ورغم ذلك فقد شكلت جسرا إلى الشرق الأوسط وأوروبا، وعلى العكس من ذلك فإن جبهة المحيط الباسيفيكى كانت أقل أهمية من الناحية الاستراتيجية للأسر الملكية الصينية حتى القرن الحادى عشر حين وصل الإنجليز وبزغ نجم الولايات المتحدة الأمريكية.

والولايات المتحدة كانت لفترة طويلة متكاسلة تجاه العالم الإسلامى فى آسيا الوسطى، ولطالما شعرت الصين أن الغرب لا يقدر المخاوف الأمنية لجبهتها الداخلية. أوزبكستان، كازاخستان، طاجيكستان، تركمانستان، قرغيزستان كلها تركت بلا إرادة منها لأجهزتها بسقوط الاتحاد السوفيتى، وقد شعرت بمدى بعدها عن أضواء السياسة العالمية وأهملتها واشنطن. وجاءت أحداث ١١ سبتمبر الإرهابية لتسدل أستار النهاية على كل ذلك، بعد هذا مباشرة فإن واشنطن بدأ نشاطها ينمو فى تشكيل المرحلة التالية فى آسيا الوسطى وجنوب آسيا. طشقند، سمرقند، بيشاور وغيرها من المدن الإسلامية القديمة كانت يوما ما هى المجاورة للصين وقد رجعت للمسرح مرة ثانية... ورأت بكين فرصة للحصول على التعاطف لمنهجها غير الديموقراطى وغير الناجح وكذلك لمنهج (وحدات البناء) من أجل الوحدة والأمن فى سينكيانج وغيرها من مناطق الحدود. وللدهشة البالغة فإن الصين تعاونت لدرجة ما مع حرب بوش ضد الإرهاب.

فى عام ٢٠٠١-٢٠٠٢ أخذت بكين دورها الإمبريالى بقدر من الشدة، حتى أنها تفاوضت ووصلت لنوع من المساومة فى مسائل مادية أساسية مقابل دعم إمبراطوريتها. الجيش الأمريكى تقاطر واحتشد على أفغانستان وهى المنزل الأوسط فى منتصف الطريق بين جنوب آسيا وآسيا الوسطى التى لها حدود مع الصين. واليابان فى استجابتها لذات الأزمة أكدت دورا أوسع للقوات اليابانية حول العالم، وروسيا التى وقفت فى الفترات السابقة مع الصين كمشرف على بوابات آسيا الوسطى بدأت تعبد الطريق للعمليات العسكرية الأمريكية التى يتم شنها من أوزبكستان وطاجيكستان.

وبدا هذا وكأن هم الليل الأزلى الصينى قد تحقق: حلف الناتو على حدود سينكيانج. الولايات المتحدة تحوط جبهة الصين الشعبية المعرضة للخطر. اليابان تنشر أجنحتها العسكرية مرة ثانية. أفغانستان عميل الدول المهيمنة. ولكن هناك جوهرة لها ثمن غال جدا اجتذبت جيانج زيمين، إنها الخاصة بمركز أوراسيا، إنها إقليم الحكم الذاتى ليوجور سينكيانج.

سيكيانج تغطى سدس خريطة الصين وتجاور ٦ دول وهى أكبر من كل من موريتانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا مجتمعةً فى هذه الأرض الغنية بالبترول والزئبق والصفيح والنحاس والحديد واليورانيوم وتبر الذهب والرصاص وهى متاخمة لأربعة عوالم بوذية ثقافية (الهان والمونجول والترك والتبت) على جانبى سيكيانج. والدلاى لاما كلمة مونغولية والدلاى لاما الرابع كان منغوليًا، وابتداء من القرن الرابع عشر بعد سقوط أسرة المونغول (يوان) قام الإسلام بخطى ضخمة فى سيكيانج، ورغم أن البوذية والعقائد الأخرى بقيت فإنه عندما جاء القرن السابع عشر كان الإسلام قد عم المنطقة كلها. ومثل المسيحية واليهودية فإن الإسلام يحاول التنسيق بين مجتمعين واحد لتربية الحيوان والثانى للواحة وخلق مجتمع مظهره المدينة والخيمة والحقل، بين التاجر والفلاح والراعى وكانت تلك مشكلة الصين مع

هذا الإقليم، لقد صار الإسلام متجذرًا فى الصحراء وواحات سيكيانج، لأنه أعطى القوة والعصبية الاجتماعية وهو ما لا تباريه فيه الكونفوشيوسية. ومعظم الشعب فى هذا الإقليم من العرق التركى يسمون اليوجور وهم حاليًا ٩ ملايين، وصاروا أغلبية فى الإقليم فى القرن السابع، وفى عام ١٩٤٤ ضموا منغوليا ثم فيما بعد عادوا وانسحبوا لحياة الرعى وحياتهم صحراوية متنقلة ويمارسون شيئًا من الزراعة، وهم شعب لديه حاسة أدبية وموسيقية شهيرة. ويتعلم الطلبة فى المدارس أن سيكيانج كانت صينية منذ الهان والحقيقة مختلفة وهم مسلمون غير متعصبين ويتبعون المذهب السنى. ويلاحظ الشعب فى بكين وشنغهاى وكذلك الطلبة الصينيون فى المدارس أن سيكيانج تتبع الصين منذ الهان والحقيقة مختلفة؛ فلمدة ألف سنة ومنذ القرن الثامن بدأت الصين تمارس سياسيًا بعضًا من النفوذ ولكن دونما سيطرة على منطقة سيكيانج ككل، وكانت أسرة الكينج التى كان همها شرق تركستان وضمها للصين، ثم جاء ستالين الذى قام بمساعدة ماو للسيطرة عليها. ومن وجهة نظر المسلمين فإن الصينيين متطفلون، ولما سمت أسرة الكينج منطقة سيكيانج بالحدود الجديدة كان ذلك يمثل إهانة لليوجور الذين كانوا لوقت طويل يعيشون فى حوض (تاريم) ومنطقة تورفان، وبالطبع فإن اختيار الكينج لتسمية الحدود الجديدة فيه إشارة إلى أن سيكيانج لم تكن تابعة للصين منذ أسرة الهان. والشعب فى شرق الصين ليست لديهم فكرة متكاملة عن المناخ الاستعمارى الكلونيالى فى سيكيانج والتبت رغم أن ماو سمى الوجود السوفيتى فى سيكيانج فى الثلاثينيات (كولونياليزم) فهل كان ذلك مختلفًا عن قبضة جمهورية الصين الشعبية؟ الذاكرة الاختيارية تخزن الخطر مثل خرافات الأسر الحاكمة التى جعلت من البرابرة مطيعين لما كانوا عدوانيين (ناقشنا هذا فى الفصل ٣).

والتاريخ الحديث لسيكيانج وما جاورها يستدعى ملاحظة (جوليان هاكسلى) "إن الأمة هى مجتمع وحّده خطأ شائع حول أصله وكراهية شديدة لجيرانه". فى القرن التاسع عشر حاولت روسيا وبريطانيا التأثير على السياسة فى سيكيانج، وفى بداية القرن العشرين فإن تركيا ساندت التتريك فى المنطقة، لكن المأساة كانت فى الأربعينيات عندما شجع الاتحاد السوفيتى المسلمين فى إقليم (إيلى) شمال غرب سيكيانج على إعلان الاستقلال عن صين شيانج كاى تشك.

وعبر الحدود فإن ستالين خلط وأنشأ جمهوريات فى آسيا الوسطى وفى العشرينيات صارت جزءً من الاتحاد السوفيتى وكأنه كتاب مُقطع إربًا مع طفل صغير، لقد اعتقد ستالين أنه يمكنه تجميع الهوية التركية بما فيها القازاق والقرغيز واليوجورثم ينقلهم من مكان لمكان لضمان إيجاد حدود غير عقلانية وأن ذلك كفيل من وجهة نظره بضرب سياسة التتريك. وقد أحد تعلم أمراء الحرب فى سيكيانج فى الثلاثينيات ثم جاء بعده ماو وتعلما جيدًا سياسة التعامل مع الأقليات من ستالين وأعادوا تنظيم الشعوب من غير الهان فى غرب الصين للتقليل من محاولات انفصالهم.

وكما كانت سيكيانج فى القرن التاسع عشر أكثر أقاليم الصين تمردًا على إمبراطورية الكينج، فهى اليوم كذلك أيضًا، هى الأكثر مقاومة لسياسة بكين فى سيكيانج، وحزب شعب التركستان الشرقى وهى مجموعة تتجه نحو الاستقلال وتعمل أساسًا من خارج الصين تدعى أن لديها ستين ألف عضو و١٧٨ فرعًا تعمل تحت الأرض داخل سيكيانج.

وكتب (دواك بارنيت) أن سيكيانج كانت تاريخيًا أكثر ارتباطًا بآسيا الوسطى منها بالصين وهذه مشكلة سيكيانج الصين. وفى التسعينيات، فإن نظام طالبان فى كابول درّب عددًا من الناشطين من مسلمى سيكيانج مستهدفًا نزع سيكيانج من الصين واستعادة دولة شرق التركستان والتى

استمرت موجودة حتى عام ١٩٤٥، والموقف فى سيكيانج هو العنصر الرئيسى الذى يشكل السياسة الصينية تجاه أفغانسان كما قال أحد المتخصصين الصينيين فى منطقة آسيا الوسطى وقد نشر رأيه فى دورية الشرق الأقصى فى ٤ أكتوبر ٢٠٠١. وجهود الصين مستخدمةً سياسة العصا والجزرة لإبعاد طالبان عن التدخل فى سيكيانج لم يحُل كل المشاكل، وعندما وصلنا إلى ١١ سبتمبر فقد كان لدى الصين سبب وجيه لترغب فى إدخال طالبان فى مزبلة التاريخ ومن هنا جاء حديث جيانج زيمين مؤيدًا لحملة الرئيس بوش ضد الإرهاب.

وفى سيكيانج نرى سياسة الأبرتايد بنكهة صينية، فكل المدن والشوارع لها أسماء صينية لا يستطيع مُعظم اليوجور قراءتها، والهان يلبسون الأزياء الموحدة، وكل كتب الكليات الدراسية والمدارس العليا هى باللغة الصينية، والتنظيمات التى وضعها الهان تخنق حياة المساجد، وعقيدة الإسلام (نقية خالصة وحقيقية) هى غالبًا صيحات فى خواء، وموظفو الهان يمنحون الصينيات أموالاً إذا تزوجن من اليوجور... وهذا لا يحدث كل يوم... وكل ذلك بهدف تذويب الهوية اليوجورية كما أنه غير مسموح لأى من سكان سيكيانج بالدراسة فى إيران أو باكستان. وكما قال عبد الحكيم، الرئيس التنفيذى لمركز شرق التركستان فى استنبول، فإن شعب اليوجور قد عانى لسنوات تحت وطأة التمييز والظلم الصينى، والكراهية العرقية هى مثل الماء الذى يغلى حتى درجة مائة والذى يمكن أن ينفجر فى أى لحظة. ومئات الانفصاليين يُقبض عليهم فى شهر مُعين وعدد منهم يتم إعدامهم فى بضعة أشهر بسبب تعاطفهم مع المسلمين فى سيكيانج، والصين فى كل فترة تحتج لدى كل من تركيا وأوزباكستان والسعودية وكازاخستان ولكن مُعظم الدول المجاورة تخشى من مد يد المساعدة إلى متمردى سيكيانج واليوجور يريدون مساعدة الدول الناطقة بالتركية لهم كما قال رئيس أوزباكستان فى لحظة

صدق وصراحة عام ١٩٩٨ مضيفًا أننا لو ساندنا هذا الهدف فإنه كفيل بتدمير علاقاتنا مع الصين العُظمى.

وفى زيارة قمت بها (المؤلف) إلى سيكيانج عام ١٩٩٧ وجدت مناخًا سياسيًا مثلما كان الحال فى شرق الصين خلال سنوات حكم ماو، الراديو والصحف تتحدث عن فكر ماو تسى تونج وصراع الطبقات وخطر الأعداء على الصين. وإن خوف الحزب الشيوعى الصينى من التفكك القومى وصل إلى أقصى مدى له فى سيكيانج وبينما كنت فى تورفان وهى فى مركز المقاطعة وجدت على القناة الرسمية الوحيدة للتليفزيون المقال الرئيسى بالصينية جاء فيه "إن كل صديق لنا فى الدوائر الدينية يعترف أن الحزب الشيوعى الصينى هو فقط الذى يمثل مصالح كل الجماعات العرقية فى الصين" وهذا فى الحقيقة هو الصوت الإمبريالى المُجرد العقائدى المتزمت والذى هو أبعد ما يكون عن الحقيقة.

وفى عام ٢٠٠١ اكتشفت الصين فرصتها ضد الإرهاب من ناحية وتأييدًا للإمبريالية حسب منطق الولايات المتحدة التى تقود تلك الحرب. والرئيس بوش ومُعظم الأمريكيين يرون أنفسهم يضربون ضد قوى واسعة من القوى المضادة للحرية، والصين ترى الحرب ضد الإرهاب هى دفاع عن وحدة الصين وبالإضافة للمصلحة العامة فى معارضة الإرهاب الإسلامى تستفيد كذلك من عملية الاختيار الانتقائى التى تمارسها الولايات المتحدة فى سياستها ضد الإرهاب. وهناك قادة غير ديموقراطيين احتضنتهم واشنطن وضمنهم باكستان وديكتاتورها العسكرى، وجيانج زيمين، وقد لحق جيانج بالتحالف ضد الإرهاب لأنه رأى فى ذلك فرصة لتقوية ودعم سيطرته على سيكيانج بما يدعم طموحاته لأخذ تايوان. وفى (كاشجار) و(يينيينج) وغيرها من مدن سيكيانج فإن المسلمين يضبطون ساعاتهم اليدوية مبكرًا ساعتين عن النظام الإمبريالى الصينى كعلامة على الانشقاق والانفصال،

وإن القلب لينخلع عندما لحق جيانج بالحملة ضد الإرهاب عام ٢٠٠١ معلنًا أن العالم لربما أدرك أخيرًا مشكلة الصين الانفصالية فى سيكيانج.

سيكيانج وتايوان ويفصل بينهما ألفى ميل هما مثل دفتى كتاب حول الصين وكلاهما حذرة منها (الصين) ومستوى الحياة والهيكل الاقتصادى وطريقة الحياة كلها أمور مختلفة فى كلتيهما واحدة مع مكة ونداء المئذنة والأخرى مع مناطق الرأسمالية فى منطقة الباسيفيكى، ولكن الحزب الشيوعى فى بكين يرى فى نفسه أفضل حاكم لهما، وكلا الدفتين تتبع استرتيجيات متعارضة تجاه بكين فتايوان تتبع الانفصالية دونما تساؤل صريح حول وحدة الإمبريالية الصينية والمناضلون اليوجور يريدون الانفصال وبعضهم يستخدم وسائل عنيفة فى معارضتهم لوحدة الإمبريالية ولكن حتى الآن دون أن يحققوا نجاحًا. عبد الحكيم من مركز شرق التركستان فى استنبول يرصد أن الاضطراب فى مضيق تايوان مصحوبًا بهبة عارمة وانتفاضة فى سيكيانج ولو هاجمت الصين تايوان فى الرابعة صباحًا فسيكون هناك ثورة فى سيكيانج وتمرد فى الساعة الثالثة وحتى كتابة وإعداد هذا الكتاب للطبع لا ندرى مدى استمرارية هذه الحقائق السياسية بعد ١١ سبتمبر، فالصين ليست بأى معنى فى معسكر الإرهاب ولكنها ليست كذلك فى المعسكر الليبرالى الديموقراى وهو ما تستهدفه منظمة القاعدة. وبالنسبة للحزب الشيوعى الصينى فإن مكان سيكيانج والتبت وتايوان كقطع بناء داخل جمهورية الصين الشعبية لا علاقة لها برغبات شعوب هذه المقاطعات، إنها ليست مشروعًا من أسفل ولكنها أوامر وتعليمات من أعلى وعنصر الزمن هو الذى سيحدثنا هل بكين عندما أخذ قمة السلطة فيها هو جنتاو بعد جيانج زيمين يمكنها حقيقة أن تستخدم حرب بوش ضد الإرهاب فى دعم تماسك الإمبراطورية الصينية الجديدة؟

لماذا قبل ١١ سبتمبر بوقت طويل كانت جمهورية الصين الشعبية تحشد قوات أكثر مما كان قبل سقوط الاتحاد السوفيتى فى سينكيانج (أكثر من مليون جندى)؟ ولا يمكن أن تكون بسبب خطر خارجى زاد فى التسعينيات، فعلاقات الصين والهند كانت أقل حدة فى التسعينيات مما كانت عليه منذ عقود، وجمهوريات وسط آسيا الخمس لم تمثل بالنسبة للصين إلا مشاكل قليلة مقارنة بما كان عليه الاتحاد السوفيتى. إنها تحمل تأمينا للإمبراطورية التى تفسر عسكرة سينكيانج بالإضافة للتبت ومنغوليا الداخلية وغيرها من الأماكن، وأسرة الكينج من قبل قدمت إطارا مشابها لذلك للتحكم الكولونيالى مع ما صاحبه ذلك من قلق مشابه ونفقات.

وقد صرح أحد المسئولين فى إمبراطورية الكينج "إن المركز يتنازل عن الشعب لصالح الغرب، والغرب يتنازل عن الثروة لصالح المركز" هذا هو منطق جيانج زيمين فى حملته عام ٢٠٠٠ لتنمية منطقة الغرب. وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان هناك أستاذ ومسئول رسمى اسمه (وى يوان) اقترح أن يملأ الفيضان السكانى الصينى منطقة سينكيانج "أن نطلب من الشعب الصينى أن يحول هذا الطين الرملى الغنى إلى صين أصلية وأن من شأن ذلك أن يسهل ممارسة سلطتنا وزيادة ثروتنا" هذه السياسة سميت الدفاع من خلال الاستيعاب وهى سياسة بكين الآن، فى القرن الواحد والعشرين الفائدة ستأتى على الأقل من البترول واستراتيجية سينكيانج الاقتصادية هى واحدة سوداء وواحدة بيضاء بما يعنى البترول بالإضافة إلى القطن.

هذا الدفاع من خلال الاستيعاب زاد من سكان الهان فى منطقة سينكيانج من ٥% عام ١٩٤٠ إلى ٤٠% اليوم واليوجورفى بلدهم الآن هم قومية واحدة ضمن ٥٦ قومية من العائلة الكبرى فى الصين.

وكثيرون شعروا بالفرق وهناك ملحة غير مهذبة فى أوساط اليوجورتقول "لو وقف كل الهان على سور الصين العظيم وبالوا فإن اليوجور سيغرقهم هذا الفيضان ويودى بهم" عدد الجنود الصينيين زاد والشعب كذلك زاد بمرور الوقت وكما كتب موظف رسمى فى مملكة الكينج فى سينكيانج عام ١٨٢٧ أن قوة المسلمين ستنقص بالتدريج وبالطبع لن تكون لديهم طموحات عالية. كما كتب مؤرخ فى بكين حول سياسات أسرة الكينج للسيطرة على الشعوب من غير عرقية الهان من خلال إعادة الحياة أو نهضة الثقافة والعقيدة وجعل السكان المحليين يعرفون القانون القومى وأضاف أن هذه إجراءات فعالة ولها دورها اليوم . وبالنسبة للحزب الشيوعى كما فى تنمية الكينج هدفها دعم وخدمة هدف استراتيجى، هذا لا يعنى أن التنمية الاقتصادية غير مرحب بها فسينكيانج تتقدم وإن بسرعة أقل من الصين الساحلية وتدعى بكين أن توقعات الحياة ارتفعت من ٣٣ سنة فى أوائل الخمسينيات إلى ٦٣ سنة عام ١٩٩٨.

وخلال حكم الكينج لسينكيانج فإن تبادل الهدايا بين الإقليم وبكين بدا مستمرا حتى النهاية الأخرى حيث تقع الحرب وفيما بين هذا وذاك تأتى التجارة والهجرة الداخلية والنظم والقواعد السوفيتية ورسم الخرائط والمساومة على التعيينات الرسمية واستمرار مشابه لوسائل التحكم. وتوجد اليوم مثلا امتيازات لليوجور فى مجال تحديد النسل، لكن بكين كانت متشددة فى إغلاق المساجد التى يدور فيها الحديث عن الانفصال. وكما كان الحال خلال أسرة الكينج فإن وسائل مقاومة تحكم بكين تراوحت من الخداع إلى التمرد. ومن جانب بكين فإن محاولات السيطرة وتكاليف إخضاع الشعوب غير الصينية واستثنائها من الجناح البحرى ولا مبالاة بكين تجاه الأماكن غير الصينية كلها واجهت الهدف الإمبريالى للإمساك بأى إقليم كان يوما ما

مدموغا بأنه يتبع الإمبراطور، كل ذلك ومشاكل أخرى وصعوبات وضعت تساؤلا حول قبضة بكين على سنكيانج فى عام ٢٠٠٣.

وعلى عكس التبت (ومعظم الأقاليم التى تركها الاتحاد السوفيتى) فإن سينكيانج فيها ملايين من الناس لديهم اتصالات عرقية ودينية وشخصية مع الجيران فى طاجيكستان وقرغيزستان وكازاخستان وأوزبكستان ويجد الحزب الشيوعى الصينى نفسه فى موقف صعب فى مواجهة هذا الموضوع لأنه يطبق ويمارس سياسة وأسلوب نحن وهم سواء مع غير الهان من بين شعوبها الصينية وكذلك مع دول وسط آسيا حتى قرغيزستان وهى الدولة الصغيرة من هذه المجموعة والتى تجاور الصين تسمح أحيانا بأن تجعل صوتها مسموعا ضد مضايقات بكين، ففى عام ١٩٩٧ احتجت الصين لدى خارجية قرغيزستان حول تقرير تضمنته صحيفة رسبوبليكا عن مظاهرات اليوجورو، تحدثت الصين عن تدخل وقح فى شئونها الداخلية وأن هذه الصحيفة أثارت مشاعر شعب الصين. هذه هى الاستجابة العادية للإمبراطورية الصينية الجديدة حول أى تقارير موضوعية تتناول فضائها الداخلى ولكن مما يدهش أن صحيفة رسبوبليكا هى مثل البرابرة خلال عصور الملكية الذين كانوا يوجهون ضرباتهم إلى ظهر البلاط الصينى. وقالت الصحيفة إنها تحتفظ بحقها فى نشر المواد دون مشاركة كاتبها الرأى كما تنشر الآراء المضادة والمعارضة ويمكنها أن تنشر مقالا لصينيين من سفارتها فى بشكيك عاصمة قرغيزستان يصفون أحوال سينكيانج طالما أنها لا تؤذى مشاعر الشعب فى قرغيزستان.

وحتى الآن فإن حكم الحزب الشيوعى الصينى فى سينكيانج هو ثانى أطول حكم إمبريالى صينى ولا يزيد عليها إلا مائة سنة من حكم الكينج الذى انته بالتمردات فى ستينيات القرن التاسع عشر. والاحتفاظ باستقلال الإقليم ثبتت صعوبته ففى الأربعينيات من القرن العشرين عندما شجع الروس دولة

مستقلة كانت لستالين دوافع مختلطة ثم قام بسحب السجادة من تحت أرجل النظام المناضل فقد تلاعب بالقادة الترك فى سينكيانج حتى يتمكن من أخذ موافقة تشيان كاى تشك على شروط مؤتمر يالطا. وعندما تحول توازن القوى لصالح ماو والحزب الشيوعى وستالين وقيادة ثورة الثلاث مناطق فى سينكيانج فقد تم التلاعب بالقواعد الأيديولوجية حتى تناسب الواقع الجديد ولبست بكين غير ملبسها للتمويه على العناصر العرقية بما فيها تلك المشاعر المضادة للهان، وقالت إن النظام كان ضد الكومينتانج الرجعى الإمبريالى، ويتلخص الموقف فى أن قضية استقلال شرق التركستان صار وكأنه لعبة كرة قدم دولية.

والقمع من جانب بكين عمق من إدانة وكراهية اليوجورللصينيين كما أنه من ناحية أخرى قد جعل التعاطف مع الانفصاليين يضمحل كما قال رجل أعمال شاب من اليوجورعام ٢٠٠١ فى كاشجار "إننا نريد فقط أن نجمع المال وأن نعيش فى سلام"،و ذكرت صحيفة نيويورك تايمز فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠١ أن الانفصاليين قد قاموا بالضغط على كل فرد.

التحديث هو سيف ذو حدين فكما تحولت سينكيانج إلى الازدهار وزادت أهميتها فإن خيارات اليوجور تزيد هى الأخرى ففترة دينج ربما أثارت ودعمت الهوية العرقية وتمخضت عن بعث دينى غير مباشر، فهناك كلية إسلامية فى إكسيان بدأت تعطى دروسا فى التنظيم الاقتصادى الإسلامى وأن المسلم المزدهر يمكنه أن يقوم برحلة إلى مكة وأن المال يشجع على الحركة واحترام الذات والفخر بالجماعة والإحساس بالباب المفتوح تجاه الغرب.

إن أى ادعاء بالنقاء والحقيقة إنما يمثل تحديا للماركسية العقيدية المتزمتة وكانت تلك مشكلة ماو مع المسلمين ولكن النقاء وللحقيقة فى مناخ كلمات دينج والدعوة إلى الغنى والمجد إنما تمثل تحديا لمفهوم بكين عن

الوحدة والاستقرار. فتاريخيا فى سينكيانج كان هناك طريقان للنجاح العسكرية أو البيروقراطية، وفى عصر دينج وجيانج فمع نمو السوق فإن طرقا جديدة للمشروع الخاص والاتصالات الخارجية قد جرى فتحها وهذا ما أعطى الفرصة لليوجور بالإضافة إلى الهان.

وكما تشكلت التبت بالبوذية التى كانت تعتبر أوكسجين دولتها، تشكل المجتمع التبتى بالطبوغرافيا: مجتمع منفصل وبعيد وصعب الاختراق، تخصصت التبت فى تربية الأغنام وزراعة الشعير والقمح الأسود وغيرها من المحاصيل التى تتحمل طبقات الجو العليا (مرتفعات). الجبال جعلت التبت محصنين وليس لديهم نزعة للتنظيم السياسى أو التوسع، فى الوقت ذاته فإن التبت باعتبارها أكثر سكانا من سينكيانج ومنغوليا (بلاد الخيل) أو منشوريا (المفضلة للماشية) لم تكن فى العادة منعزلة، وأحيانا كانت تقوم بالتعدى على الصين ففى القرن الثامن وخلال أسرة التانج اندفعت التبت القوية نحو الصين الغربية (و كان لها أيضا اتصالاتها مع الإمبراطورية العربية فى بغداد) وخلال أسرة التانج فإن الصين والتبت وقعا ثمانى معاهدات. وخلال إمبراطورية السونج فى القرن العاشر والحادى عشر تركت التبت وحدها ولكن فى القرن الثالث عشر فإن اليوان (منغول) جذبوها إلى الخط كتابع ذليل. وأثناء إمبراطورية المينج من القرن الرابع عشر، وقد استقبلت بعثات الجزية وتقديم فروض الطاعة من لاهاسا ولكنهم لم يحكموا التبت مباشرة. وفى أسرة الكينج الأخيرة فقد أرسلت تجريدات عسكرية إلى التبت للسيطرة عليها كمقاطعة، وفى أربعينيات القرن العشرين وبعد قرن من الاستقلال حيث إن الكينج والجمهورية تعاملتا مع مشاكل أكثر إلحاحا كان لدى التبت أوراق محدودة تلعب بها، وعندما كفت الهند وبريطانيا عن المقاومة كانت بكين قادرة على أحقيتها فى التبت بعد ١٩٤٩.

وقرأت بكين تحكمها الإمبراطورى على التبت وكأنه حدث خلال ألفى سنة من تاريخ الصين، وعند الحديث عن اليوان والمينج والكينج فقد سميت التبت خلال هذه العصور حكومة محلية وكان ذلك غير صحيح ولكنه يناسب الحقيقة اليوم، فتبت الصين وتبتنا هى من الجمل المعتادة فى بكين اليوم إنها تبت الصين وليست تبت الولايات المتحدة كما قالت صحيفة الشعب اليومية كما لو أنها تتحدث عن ملكية كولونيالية، وخلف هذا الحديث يكمن إدعاء هو أكثر من القانونى فأبوية الهان والماركسية تلقى نكهة على الموقف الصينى، والوجه القانونى يصنف تحت افتراض مسبق حول عقيدة الصين الواحدة بما يجعله يمنح وينطبق على دولة الحزب الشيوعى.

وخلال أسرة الكينج مثلما هو الحال اليوم كان يتناقش الصينيون حول الحدود الغربية وأنها ليس حقيقة صينية، وكما هو الحال الآن فإن الحجة تقطع طريقين، أحد الاستخلاصات هو أن التبت وسينكيانج وغيرها ليست فى فضاء بكين والثانى أنه يمكن جعلها صينية بإجراءات قوية وبهذا ستتبع الصين والأخيرة هى وجهة نظر الحزب الشيوعى ولكن ذلك على أية حال هو أمر غير مقبول فى لاهاسا وإلى حد ما فى ريف التبت.

وينتج عن ذلك قدر كبير من الفوضى فمبادىء الدولة القومية تجريدية (و موضع مناقشة) فالعلاقة بين الدين والسياسة تخلق الانقسام ولكن ليس من المفهوم بنفس الطريقة من الجانبين بالإضافة إلى المجتمع الدولى، التحليل الطبقى يفتح الموضوع لكن أحيانا فإن شجب الإقطاعية يبدو وكأنه نقض من جانب الهان للبرابرة وفى النهاية فإن هناك فجوة بالنسبة لطريقة الحياة وكما قال (روبرت ثورمان) المتخصص فى شئون التبت "فإننى عندما أقود سيارتى من شينج دو إلى لانزو فإننى أغير وجهة نظرى عن الحدود مع الصين، وأرى المستوطنات الصينية على سفح الجبال وليس فى أعلاها

والتجربة تغير تعاطفى الثقافى مع التبت إلى تعاطف سياسى" الجغرافيا فى النهاية هى فى جانب انفصال التبت.

ولكن على عكس منغوليا وسينكيانج والتى هى تقليديا ضد السيطرة الصينية فإن التبت ليس لديها ما تذهب إليه هى لا يمكنها النظر عبر الصين وحدودها وترى جزءا مفقودا من حضارة التبت، مملكة التبت العالية هى ببساطة وبراءة هى نفسها فملك لاهاسا فى القرن السابع لم يحقق التوازن فقد أخذ زوجة من الصين وزوجة من نيبال وحتى اليوم فإن التبت تقف بين الصين والهند غير متساوقة ولا متناسقة مع السياسة الأسيوية الداخلية.

واليوم كما كان الحال خلال أسرة الكينج فإن الصراعات على اختيار لاما جديدا وهو الشخص المقدس فى البوذية يمثل أهم مصدر للتوتر فى الإمبراطورية الصينية مما يضع بكين فى موقف ضد الرأى العام التبتى، فلا الدلاى لاما ولا البانشين لاما ترك تعليمات مكتوبة عن أى طفل يجب تعليمه وتتويجه بالنسبة للتبتيين بما فيهم ٢ مليون بقوا فى إقليم التبت ذى الحكم الذاتى، والدلاى لاما والبانشين لاما إذا هما قادة دينيون ودنيويون وبالنسبة لبكين فكلها شخصيات دينية.

وفى نظام أسرة الكينج فقد كانوا يفضلون إرسال الجرة الذهبية إلى لاهاسا، ولديهم أسماء الأطفال المرشحين على وريقات يتم التقاط الدلاى لاما أو البانشين لاما لها من خلال قيام مدير التبت بغمس العصى من العاج فى الجرة وإخراج ورقة منها. والتبتيون يفضلون وضع مختارات من الرفات الباقية من الحياة السابقة ومختلطة مع بقايا غير مهمة ويرون هل يستطيع أحد الأولاد أن يحدد ويعرف الأجزاء الصحيحة والأصيلة، وغالبا فإن لاهاسا تقول للشعب التبتى أن الطريقة التقليدية تم اتباعها فيما تقول لبلاط الكينج إن الجرة الذهبية تم استخدامها.

وفى عهد الصين الشعبية فإن كل شىء صار متوترا بسبب ازدراء بكين للدين وخوفها من أن البوذية ستستخدم كقوة ضد الصين. فبعد موت البانشين لاما العاشر (ربما مات مسموما) فى عام ١٩٨٩ وبينما هو جينتاو يدير أمور التبت فإن القادة الدينيين عينوا شخصا كبيرا اسمه (شادريل رينبوك) قريب من الدلاى لاما ليبحث عن أفضل طفل، ومن جانبها فإن بكين عينت شخصا مناسبا ومرنا من لاهاسا لرئاسة إجراءات البحث.

وزار ممثل الدلاى لاما بحيرتى (يانبولى) و(لاهامولاستو) المقدستين ليراقب إشارات تحديد البانشين لاما الجديد ولكن بكين أرادت استخدام الجرة الذهبية وهى أساسا عملية لوترية يمكنهم التلاعب بها وجعل الاختيار خارج أيدى الدلاى لاما وأرادت المؤسسة البوذية أن ترتب قيام الدلاى لاما فى الهند باختيار البانشين لاما الحادى عشر.

وفى مايو ١٩٩٥ فإن الدلاى لاما اختار طفلا اسمه (جيد هون شوكى نييما) من قرية بعيدة فى التبت بعد القيام بحفلات الاختيار والصلوات وأعلن الاختيار من الهند ورفضت الصين اختيار الدلاى لاما وقالت صحف بكين إن هذا الطفل ذا السنين الست هو شخص شرير ووالداه سيئا السمعة وفى إحدى المرات أغرق كلبا، وقيل لبعض رجال الدين البوذيين أنه إذا وجدت صورة هذا الطفل لدى شخص فإنه سيتم إعدامه وبعد ٦ أشهر فى اجتماع تم إعداده فى بكين تحت إشراف جيانج زيمين تم اختيار طفل آخر واسمه (جيالتسين نوردو) وسنه ٦ سنوات وأبواه شيوعيان وأعلن ولاءه للحزب الشيوعى فى الصين.

شادريل رينبوك الذى قام بالبحث بالنيابة عن الدلاى لاما اتهم بأنه انفصالى وعلى طريقة الثورة الثقافية فإنه هو والطفل المختار جرى انتقادهما فى التبت وأعلنت بكين فى جملة حادة "أن أية ديانة شرعية أيا كانت عليهاأن تجعل الوطنية هى المطلب الأساسى للمعتقدين فيها" وأن طفل بكين جرى

استقباله من جانب جيانج زيمين وقال له بأنه يتمسك بقيادة الحزب ليحصل على الحب العميق للأمة والشعب والاشتراكية، بعد ذلك فإن ذاك الطفل ذا الست سنوات جرى حبسه فى منزل مغلق فى بكين، وفى أوائل عام ١٩٩٦ فإن طفل الدلاى لاما اختفى عن الأنظار فى قريته وقالت بكين فيما بعد أنهم وضعوا ذلك الطفل تحت حماية الحكومة بناء على طلب والديه.

وخلال عام ١٩٩٦ كانت هناك مواجهات عنيفة فى المعابد الدينية بين الكهنة والسلطات الحكومية وانتشرت الدعاية للهجوم على الدلاى لاما ليس باعتباره قائدا دنيويا منحلا ولكن كقائد دينى بائس، وفى عام ١٩٩٧ تكشف أن شارديل تمت محاكمته لنشره أسرارا وتسريبه لأسرار الدولة وتقسيم البلاد وحكم عليه بـــست سنوات فى السجن. وبالتأكيد فإن بكين ستقوم بعملية إعادة تشكيل كل الأطفال المختارين حتى يكونوا متسقين مع أهداف الحزب الشيوعى ثم مستقبلا سيقوم بنفس الشيء لمن يظهر من الكهنة حتى الصلاة أو الجرة الذهبية باعتبارها التناسخ الجديد للدلاى لاما الحالى، وتعتقد الصين أن الدلاى لاما وليس التبت نفسها هى المشكلة وأنه بعد ذهابه فإن التبت ستتعاون مع الحكومة المركزية. وبعد مقابلة الرئيس بوش للدلاى لاما فى واشنطن فى مايو ٢٠٠١ قالت بكين إن الدلاى لاما يسافر بعيدا تجاه طريق الانفصال ومنذ مشى الزعيم التبتى على نفس طريق حماية التبت لنصف قرن فإن الإنسان ليتعجب أين يقوده هذا الطريق؟ لماذا لم تحل المشكلة؟ السبب الأساسى أن إمبراطورية رجل واحد هى أسرة رجل آخر، فالأبوية الهانية تواصل سيرها بصعوبة ولربما لمدة طويلة ستواصل هذا السير الصعب والتبتيون فى الطريق الخطأ، الحرس الصينى يوقفون تبتيا وحتى لو عرفوا لغته يطالبونه بالإجابة عن السؤال بصينيته الكسيحة، والمدارس العليا فى التبت تدرس اللغة الصينية كلغة أولى، وهناك سؤال للامتحانات فى التربية الوطنية يأتى عادة فى مدرسة متوسطة تبتية (هل تعتبر أن الدلاى

لاما هو زعيم دينى أم زعيم سياسى؟) ومجرد ظهور علم التبت على معبد جوكهانج فى لاهاسا فى فبراير سنة ١٩٨٩ أدى إلى القمع والثورة تاركا عشرات القتلى ومئات الجرحى والرسميون الصينيون يراقبون البوذية التبتية والتى تشبه قردا يقود الأوركسترا فلا أحد يحب الأجانب أن يحكموه فى أرضه والهان كشعب يكرهون التبتيين الذين يعيشون بينهم فى البيت.

الصيغة الماركسية للتقدم والتى تم أقلمتها لتعنى التنمية الاقتصادية فى وقت ما هى تأثير ونفوذ مختلط، ومع ترك الصلف والتعالى فإن التحكم الماركسى الصينى قام بتحديث التبت أكثر مما كانت ستفعله حكومة تبتية مستقلة، ولسوء الحظ لكل المهتمين فإن العطاء من يد متنمر ليس بالضرورة مرحبًا به كما اكتشفت اليابان فى مستعمرتها الكورية، والحوادث تعرض المشاكل طويلة الأمد التى تحدث شهرا بشهر، فمعرض رفات التبت فى المدينة المحرمة عام ٢٠٠١ كان بالصينية والإنجليزية وليس بالتبتية، وقال أحد العناوين أن التبت صاروا رسميا جزء من الصين عام ١٢٤٧، والصين أدانت البرلمان الأوربى فى أكتوبر ٢٠٠١ لما أعطوا الدلاى لاما الفرصة لمناقشة خطته لتقسيم الصين، وردت الصين بالقول وكأنها تدرس فى فصل بأن على الاتحاد الأوروبى وقف الأشياء التى تضر بشعور الشعب الصينى، وفى لاهاسا فإن دولة الحزب الصينية بدون ذكاء تبنى تمثالا أمام قصر (بوتلا) فى ذكرى تحرير التبت من جانب جيش التحرير الشعبى عام ١٩٥٠ والتعاطف الدولى الواسع ضد إخضاع التبت لم يترجم لتأييد حكومى لحكومة التبت فى المنفى ولا توجد حكومة فى العالم تعترف بالتبت كدولة (لكن أيضا لا حكومة معترف بها فى أوكرانيا عام ١٩٩٠، وفى عام ٢٠٠٢ فإن ١١٧ حكومة كان لديها سفارات فى كييف). وعندما زار جيانج زيمين لندن عام ١٩٩٩ فإن حكومة بلير اعتقلت من حاولوا التظاهر فى الشارع تأييدا لاستقلال التبت، ولما زار إمبراطور اليابان لندن عام ١٩٩٨ فقد سمح بلير

بمظاهرات ضخمة ضده. فى أوروبا وغيرها من أجزاء العالم لا توجد أرضية وسطى بين التأييد العاطفى من الجذور للتبت والشعور بعدم المساعدة فى الأوساط الرسمية، والعالم لديه الكثير والكافى من الدول الفاشلة كما يقال، فهل نريد الإتيان بالمزيد منها إلى الوجود؟ رغم هذا فإن التحكم الشديد من بكين فى التبت يهدد بخطر الانفجار المدمر للصين والتبت وغيرها من البلاد، ومن السهل تصور استقرار بلا حدود فى هونج كونج تحت سيادة الصين لكن ليس فى التبت، ورغم هذا فإن التقدم الكبير فى التبت ليس ممكنا تصوره دونما تغيير كلى من دولة الحزب الصينية، وهناك متاعب جديدة لبكين من أواخر القرن العشرين من جانب الرأى العام العالمى لحقوق الإنسان فى الصين، الدلاى لاما حرك ذلك من خلال اقتراحه إجراء استفتاء فى التبت لو أن الأغلبية الشعبية هناك سعيدة حقيقة وتريد العيش تحت الحكم الصينى وبكين ينقصها إجابة طيبة على هذه النقطة، وعندما تحدث الدلاى لاما فى البرلمان الأوروبى عام ٢٠٠١ اقترح الاستفتاء حتى يقرر الشعب رغبته حول العلاقات مع الصين فردت بكين "باعتبار أن التبت هى جزء لا يتجزأ من الصين فلا حاجة لإجراء استفتاء حول مستقبلها"، بكين تواجه موجة عالمية للحرية والديموقراطية بتأكيد صفتها الإمبريالية.

رغم هذا فإنه من السهل البقاء وتحمل الانتقاد العالمى للقمع فى التبت أكثر من تايوان لتجد لها طريقة لغزو مسلح لإقليم مسلح جيدا وتسانده الولايات المتحدة، وعلى عكس هونج كونج وتايوان فإن التبت ليست مصدرا للنفوذ والسيطرة الملوثة داخل الصين، الصين ستسمح للتبت فقط بالوجود المستقل أو شبه المنفصل مثل هونج كونج لو رأت ثمة مردود لفعل ذلك واليوم هى لا ترى ذلك، وغدا ربما يكون مختلفا.

من وجهة نظر تاريخية فإن الصين قوية فى علاقتها مع التبت لكن طالما أن الصين تزدهر وتتغير بسرعة أكثر من آسيا الداخلية فإن الخيارات

فى سياستها فى التبت ليست سهلة، قمع التبت يقوى الهوية التبتية وهى العقبة الرئيسية فى تحويل التبتيين إلى صينيين، رغم هذا فإن تحرير سياسة التبت وجعلها أكثر ليبرالية يسمح للتبتيين لاستخدام الحريات الجديدة للتمرد على الصين.

الدلاى لاما عام ٢٠٠٣ كان يريد القليل أكثر من الحكم الذاتى المادى الذى عارضته بكين منذ عقود فى النقاط السبعة عشرة عام ١٩٥١ هو لم يطلب الاستقلال الكامل للتبت ولربما هذا يعنى أن الصين تحصل على ميزة من جهودها لتحويل التبت نهائيا إلى حكومة محلية.

فى الصين الشعبية وكما قال الدلاى لاما فى زيارته لتايوان عام ٢٠٠١ "فإن آراء قادة الصين الشعبية يجب أن تتغير مع العالم" فهل هذا هو أمله فقط؟

السيناريوهات الأربعة المقترحة لمستقبل العلاقات بين المركز والمحيط والتى تم تقدير بعض الأمثلة منها البعد البحرى والاستبس، سيناريو واحد منها يرى الصين وقد أمسكت بكل فضائها خاصةً مُعظم الموروث من أسرة الكينج من خلال الديموقراطية والفيدرالية، ولو أن دينج أراد أن يُنقذ اللينينية مع الاستهلاكية فإن قائدًا مستقبليًا للصين سينقذ وحدة المحيط أو الفضاء من خلال الليبرالية، وبعض الاتحادات الفيدرالية ظهرت للحفاظ على الوحدة القومية والتى لم تكن بغيرها ممكنة. والاتحاد بتعريفه قائم على القانون والمجموعة العرقية والأقليات الثقافية والتى لها حقوق، وتحت السيناريو١، فإن النظام الفيدرإلى الجديد يبدو أنه أثبت أنه مناسب للمجتمع الجديد والاقتصاد والمنتج من جانب دينج وجيانج. والريف لم يتم تضمينه فى هيكل الدولة منذ نهاية عصر الملكيات وفى النهاية سينجح ويحقق سياسة مالية ودورًا سياسيًا داخل الإطار الفيدرالى، وباعتباره اتحادا متعدد الأعراق أتى للوجود على أرض الصين لأول مرة فإن تايوان يتم تشجيعها على قبول

وضعها باعتبارها واحدًا من أقاليم الديموقراطية الفيدرالية فى الصين وكما قال أستاذًا تايوانيا يُقدر هذه الرؤية "إن أقاليم الصين مختلفة، القوة والسلطة يجب نقلها إلى ناحية المحيط وشعب كل إقليم يجب أن يحصل على الحكم الذاتى حتى يرى كل هؤلاء الناس أن كرامتهم محترمة والصين يجب أن تكون كأوروبا" ورغم أن سيناريو ١ يرى الصين تزدهر فإنه غير مرغوب فيه ولا تحبذه المصالح الأمريكية.

وكتب (ادوارد فريدمان) أن "الكونفيدرالية الصينية يمكن أن تخدم أكثر مستقبل العظمة الصينية من النظام النقى المركزى العنصرى" ولسوء الحظ فإن دولة الحزب اللينينى شديدة العصبية والدفاعية لا تفكر بهذه الطريقة، فماو عام ١٩٣٧ أعطى مجرد تأييد كلامى للرؤية الفيدرالية وقال إن "الشعوب المحمدية والتبتية ستشكل جمهوريات ذات حكم ذاتى مرتبطة بالفيدرالية الصينية" ولكن حكم وسيطرة الحزب الشيوعى لم يمكنها الموافقة على هذه الرؤية.

السيناريو الثانى يعطى نوعًا من الهيمنة التدريجية للأعراق واللغات واللهجات والسياسات الاجتماعية وثقافات جمهورية الصين الشعبية، وهذا النسيج المتكامل يسهل من استمرارية دولة واحدة سلطوية داخل الحدود الحالية. إلا أن هذا التطور ينتج توترًا مستمرًا ولربما توترات مستمرة ولكن دون أزمات مناخية خلال بعض العقود. والنتيجة تعطى تعبيرًا مُحدثًا بوجهة نظر مفروضة بالقوة على الصينيين وماضيهم من جانب مفكرى الحزب الشيوعى الرسميين، تناسق عرقى يقوده الهان فيما تصحو الأقليات لتجد نفسها أساسًا صينية.

بكين وهى تدير هذا السيناريو تجد نفسها متجهة نحو تذويب التبت والمونغول واليوجور وغيرها من مناطق الأقليات من خلال هجرة الهان الداخلية، مع شئ من التنمية الاقتصادية للحفاظ على الأقليات سلبية ولتثبت

طول الوقت إعادة إنتاج واختراع مملكة الكينج وقد أحكمت قبضتها على الشعوب غير الصينية فى أصقاع الصين ومحيطها البعيد والتى تسمى حاليًا الأقليات القومية حيث يتحولون بسهولة ونعومة ليكونوا مواطنين صينيين، وتتضمن هذه الفكرة فى داخلها أن الهان وهم أكثر تقدمًا سيمكنهم استيعاب الشعوب المجاورة كما تتبع الليلة اليوم .

ولهذا فإن الصين تحت حكم (هو جنتاو) لو أمكن له أن يُصبح مؤكدًا ومستقلاً فالإمبراطور الأحمر سيحقق ما أمل فيه (لاتيمور) المتخصص فى آسيا الداخلية "سيكون من الممكن بعد هزيمة اليابان أن تجمع معًا وتجمد أرض الزراعة والإستبس والغابة من خلال الأساليب الفنية الصناعية والتى كانت تنقص الصين فى ماضيها وأن تنهى لأول مرة فى التاريخ الآسيوى التى كان يتم من خلالها أن تنتج البيئات اقتصاديات مختلفة تدعم بالتداعى وتغذى مجتمعات معادية لبعضها". هذه هى الرؤية الاندماجية والتى على الحزب الشيوعى الصينى إنجازها تحت السيناريو الثانى بنجاح رغم الصعوبات، وتحت هذا السيناريو فإن الصين الشعبية تحمل معها للأمام كلاً من العالمية وإمبريالية دولة الأسر الملكية الصينية، وبطبيعة الحال فإن بكين تتفادى مصطلح البرابرة لمصلحة شعوب الأقليات ومن الناحية الفعلية فإن أسرة الكينج قد قامت بتغيير السرعات فقد كانت طريقة الحياة تمثل اختلافا حاسمًا بين الصينيين وغيرهم بالنسبة للكينج. ويعتقد الحزب الشيوعى الصينى أن طريقة الحياة يمكن تغييرها وأن بكين ستثبت إمكانية هذا التغيير فى سيكيانج والتبت ومنغوليا وغيرها وهذا كله ممكن ولكنه غير متوقع.

السيناريو الثالث والعودة الرضائية إلى صين المينج المتساهلة وفى ظروف الليبرالية فإن أجزاء من الصين الخارجية ستصبح دولاً منفصلة بترتيبات صداقة مع الصين، والرسميون من أسرة المينج لم يروا ثمة منفعة أو فائدة من تبرير حكم هذه المناطق خارج الصين الحقيقية (proper

china) والتى حصلت عليها فيما بعد أسرة الكينج ولهذا فإن أسرة المينج حكمت صيناً أقل وأصغر من الكينج كما تُحكم الصين اليوم. وأصحاب النفوذ فى الصين الشعبية تحت السيناريو الثالث يشعرون أن صين مينج هى الصين الأساسية الأكثر اقترابًا وحدودًا مع العادات واللغة مما كانت صين الكينج أو الصين الشعبية كما يتم تعريفها اليوم، إنهم يخافون من المقاومة العالمية لجهود بكين للحفاظ على حدود الكينج. وهناك دول كبيرة صارت هكذا بطرق متعددة، بعضها بالغزو وبعضها بالامتداد غير العنيف للاستقرار الحر وهناك دول كبرى صارت أصغر من خلال طرق أخرى، فالصغر قد يحدث نتيجة الحرب كما حدث مع ولادة بنجلادش عام ١٩٧١ أو اتفاق طرفين كظهور سلوفاكيا وجمهورية التشيك عام ١٩٩٣. وتحت السيناريو الثالث الدولة الصينية تتفكك لنقطة تصبح فيها كتجمع لدولة كبيرة وعديد من الدول الصغيرة ويسودها قدر أقل من العنف بينما بكين والمدن البعيدة كهونج كونج ولاهاسا وكاشجار وتاى بيه وهوليهوت يتم جعلها أقل خشونة وأكثر نعومة من خلال رياح الحرية.

فى هذه الرؤية دول جديدة ليست معادية لبكين، وبمرور الوقت تصير هذه الدول مرتبطة بحكومة بكين بما قد يمكن تسميته الاتحاد الديموقراطى فى الصين، فى عُصبة من الدول ذات السيادة تعترف بأصولها الحضارية المتداخلة.

وهذه الصورة المتفائلة توافق المصالح الأمريكية وواشنطن وعواصم أخرى تشجعها ومثل السيناريو الثانى فهى ممكنة ولكنها لم تتحقق.

وتحت السيناريو الرابع ستحدث أزمة متعددة ومُركبة فى الغرب، ستحدث هبة عارمة فى سيكيانج أو التبت والصين قد تكون قريبة من فقدان السيطرة وفى ذات الوقت قد يتعاصر معها فى الساحل الجنوبى الشرقى حيث قد ترى كخيار لها اللعب فى الوضع التايوانى المتسم بالفوضى آملة من وراء

ذلك خطوة تجاه إعادة التوحيد، لكن جواندونج وفوجيان يلحقان بهونج كونج فى جر أرجلها حول حملة بكين فى تايوان على أساس أن تايوان هى الإوزة الذهبية فى التنمية الاقتصادية فى جنوب الصين يجب تركها وحدها وفى بكين يظهر الخلاف داخل الحزب حول هذه القضايا ومع البطالة الشديدة إثر سنوات عديدة من العضوية فى منظمة التجارة العالمية بما يقدم عناصر جديدة وعوامل ومكونات تؤجج الخلافات الداخلية فى الحزب مما يضعف من كفاءة الحكومة فى مواجهة المشاكل فى الغرب والجنوب الشرقى.

وتاريخ الصين يُعطى حالات مشابهة لتوافق فى الحوادث مثل هذا الذى قدمناه ولعل هذا هو السبب فى مرور الصين لفترات من عدم الوحدة والتجزئة بل وحتى البعثرة.

وكما حدث عام ١٩١٥ بعد أن جعل (يوان شيكاى) من نفسه إمبراطورا فإن قادة مقاطعات يونان وجويزو وجوانج كسى ولوا ظهورهم تجاه المركز وأعلنوا الاستقلال. وفى مرحلة الاتحاد السوفيتى الأخيرة التى بينت كم هى قنبلة موقوتة تلك العلاقة بين الإمبراطورية والأوتوقراطية وعندما ضعفت سيطرة جورباتشوف نسبيًا على مفاصل السلطة فإن البناء المصطنع لقوة الإمبراطورية قد تبدد وانهار فيما الشجاعة تجاه ضغوط ونير موسكو من ناحية بولندا قد أدى إلى تقوية الشجاعة فى أماكن أخرى مثل لاتفيا وليتوانيا وقد تحولت أزمات محلية ودولية فى ليلة واحدة إلى شىء رهيب. وهذه الحركات التى كانت بمثابة هذه الحركات قوت وغذت الصراعات الحزبية فى موسكو، والتحديث الاقتصادى أثبت أنه ليس ضمانًا ضد التمرد كما حدث فى تشيكوسلوفاكيا.

والعودة من خلال العنف إلى حدود أسرة المينج يمثل رؤية تراجيدية من خلال المناقشة، ورغم هذا فإن إحكام قبضة بكين على إمبراطوريتها مستمر فى رفض الخطوات تجاه التعددية السياسية، وتطور اقتصادى عكسى

سيكون قاسيًا، وميزان للقوى سيتجه ضد الصين فى شرق وجنوب آسيا فى الوقت نفسه. وفى بعض الطرق التحديث يجعل حكم الإمبراطورية الصينية الجديدة ليس أقل بل أكثر صعوبة لأن كل دين ولغة يتم التساهل معها يظهر خلاف فى المصالح الاقتصادية والاجتماعية، وأكثر من هذا الخلاف فى البيئة الاقتصادية بين الصين الأساسية ومناطق الأقليات لم تنته بسرعة فالحقول المُشبعة بالماء ليست مثل الإستبس العالى.

وبالإضافة لذلك فإن البيئيين يرون أسسًا غير سياسية فى تجزئة وتفكك الصين بما فى ذلك ندرة الموارد فى بعض أجزاء البلاد وانخفاض وانحطاط الشئون البيئية (الهواء والماء) بقسوة بما يتسبب فى الثورة أو حدوث فيضان داخلى للاجئين، كما يخشى البئييون من تشيرنوبل صينى يتضمن أسلحة بيولوجية أو نووية يتم حجبه عن التوعية والتحذير لغياب الإعلام الحر.

نمو الصين اقتصاديًا بقى سلطويًا وإمبرياليًا فى أهدافه مما يجعله يواجه عداوة فى بعض أجزاء الفضاء الصينى. وعملية نهضة روح الصين وإعادة إحيائها تحمل شعورًا قوميًا حاليًا من بكين، ولربما سيكون مثل قرع جرس الصباح للعصر الباسيفيكى، كل المجد يعود للصين العظمى والمستقبل يقع مع روح الصين الحديثة باسم القرن الجديد وفكرة اليابان الكبرى العظمى مازالت نقمة فى معظم شرقى آسيا وبعض شخصيات الصين وكثير من المتخصصين فى شئونها فى الغرب يتكلمون قليلاً وخفيفًا عن الصين الكبرى لشعوب كثيرة مجاورة كالفيتناميين والمونغول والقازاق والبورميون والأوزبيك، وهى على كل حال أقل من مشكلة اليابان فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

فى عام ٢٠٠٢ فإن أمريكا وروسيا كانا أكثر نشاطًا كلاعبين فى وسط آسيا أكثر من ذى قبل ودول أخرى كالاتحاد الأوروبى بدأت تعطى اهتمامًا جديدًا لوجهة نظر أوزباكستان من كازاخستان وجيران الصين الغربيين،

وكما زاد التركيز على وسط آسيا فإنه من الصعب تقبل وتحمل الصورة التى ترسمها الصين لسيكيانج وكل هذا من شأنه أن يضعف من القوة التحكمية فى الموقف فى ذلك الإقليم.

وفى تصور حدود السيناريو الرابع فإنه يتضمن اعترافًا بأن الصين ستكون أكثر حمقًا وربما غير محظوظة دوليًا وداخليًا لتفقد بعض أو أجزاء من الصين الشعبية بسبب تلك الأزمة متعددة الأبعاد لكن النقطة الأساسية هى أن دولة الصين فى وضعها الذى يحمل مفارقة تاريخية لن تكون قادرة على التعامل بنجاح مع هزائم متعددة.

وضع الصين المُعرض والقوى التى تلعب عليه وحجمها غير العادى وتعدديتها والطريقة العجيبة التى تم بها رسم حدودها وتحولها إلى دولة شيوعية ومجرد نجاحها فيما بعد ماو على صعيد التنمية الاقتصادية والاجتماعية فلربما كل هذا سيضع الإمبراطورية الصينية الجديدة فى خطر أن قيادة الحزب الشيوعى الصينى لن تكون مؤهلة للتعامل معها، وغريزة بكين التى لا تُهزم فى الحفاظ على القوة الأوتوقراطية للحزب الشيوعى فى المركز من حساباتها ستكون هى البداية لنهايتها ووضع حد لوجودها.

الفصل العاشر

السياسة الخارجية، أهداف ونظم إمبريالية

(السياسة الخارجية هى استمرار لسياسات الصين الداخلية)
وزير الخارجية كيان كيشين ١٩٩٠

(التفاوض فى بكين العاصمة الصينية يعطى الصينيين الفرصة لإدارة العملية بهدف تعظيم الإحساس بالتقدير والاعتماد والألم وعدم المساعدة والتى يبثونها لدى ضيوفهم)
السفير ريتشارد سولومون

فى يوم ما عام ١٩٧٢ كان رئيس الوزراء (لى كوان يو) جالسا إلى مكتبه فى مجمع إستانا فى سنغافورة يتحدث مع زائر عن الصين أرض آبائه فى بكين وكان ماو مازال يحكم، وقال له "من المؤكد أن الصين ستمد قوتها ونفوذها إلى جنوب شرقى آسيا" وسأله الزائر "هل أنت قلق من الصواريخ الصينية يا سيادة رئيس الوزراء؟" فرد "لا، ليس أبدا لماذا يضربون سنغافورة" وسألته "حسنًا، هل ستخرب بكين سنغافورة؟" رد (لى كوان يو) الذى سبق له أن حارب الشيوعيين فى السياسة السنغافورية "إنها جزء من أيديولوجيتهم لا يمكنهم تركها، هم يريدون سلسلة من الدول الشيوعية الأخوات حول حدودهم". فى هذه الأيام (كيو) رفض إنشاء علاقات مع جمهورية الصين الشعبية، وقد شعر أن سنغافورة التى يسكنها أساسا شعب من الصينيين تحتاج وقتا أطول لتنمية هويتها المستقلة باعتبارها غير صينية وحتى تفعل (بمساعدة اللغة الإنجليزية) وشعور بالولاء لسنغافورة يتجذر

فيها، وهو يشعر أن وجود سفارة بالصين سيخرب دولته الصغيرة. الزعيم السنغافورى يأخذ التاريخ كنصف حقيقة، فبعد ٣ عقود كان لدى بكين بضع أهداف أيديولوجية فى جنوب شرقى آسيا ورغم هذا فإن دولة الحزب الشيوعى الصينية احتفظت بشعور إمبريالى، هى تريد سلسلة من دول مطيعة حول حدودها بمهارة الصين من غير الجبر الأيديولوجى إلى الوسائل الاقتصادية والعسكرية، هدفها هو هو لم يتغير منذ عصر ماو وأقدم منه فى التاريخ الصينى الطويل هو جعل بكين النقطة المركزية فى آسيا. وللدهشة والمفاجأة فإن وجهة نظر الصين فى مركزيتها لتوسيع منطقة أوراسيا قد استمرت لمدة تربو على ألفى سنة.

فى عام ١٩٩٦ فإن رئيس الوزراء اليابانى السابق (مورى هيرو أوسوكاوا) قال فى حديث فى واشنطن "هناك حاجة لليابان لتتبه إلى الأهداف الباطنة لدولة الصين وما تسببه من عدم الاستقرار لمجمل كل إقليم آسيا- باسيفيك".

هذه الملاحظة توازى خشية (لى كوان يو) منذ ربع قرن، وفى الثمانينيات ترى وجهة نظر فى معظم آسيا ما رأه (لى كوان يو)، وحديث هوسيكاوا يعكس قلقا وخشية جديدة من الصين فى التسعينيات فى طوكيو ودلهى وهانوى وجاكرتا وغيرها من العواصم الآسيوية، بكين تضاعف الإنفاق العسكرى تتحدث عن ادعاءات فى أقاليم وراء حدودها وتعبر عن عدم رضائها عن العالم.

ماذا تريد الصين من جيرانها ومن مجتمع العالم؟ جزء من فهم المستقبل وتصوره بدقة يتم من خلال استعادة الماضى وهذا لا يعنى أن التاريخ هو مجرد إعادة نفسه، وكما أشار المؤرخ النرويجى (هارولد بوكمان) الذى يشير إلى أنه "يستخدم بطريقة الصفقة بهدف جعل متاعب التحديث ذات معنى"، والصين بينما هى تتغير مازالت هى الصين، مع

تحدياتها القديمة فى مجال الحكم وبعضها ترجع إلى الجغرافيا والقواعد الثقافية الفريدة، والانتقال من إمبراطورية أسرة الكينج إلى دولة الصين كما قال ميللورد "إن انتقال إمبراطورية الكينج إلى دولة الصين فإن القرن التالى بعد عام ١٩١١ لم يتم اكتماله".

وخلال القرن العشرين الأخير فيما الأمريكان يرون الصين باعتبارها مرآة أو حتى شيطانا شريرا أو حيوانا اقتصاديا يعتمد على ضغط اللحظة فإن دولة الحزب الصينية أخذت وجهة نظر طويلة الأمد عن الولايات المتحدة، فى أمريكا فإن المكون الرقمى العددى لسياسة الصين يملأ الجو مثل كتلة ثلج رقيقة، وفى الصين المكون الرئيسى للسياسة تجاه الولايات المتحدة لا يقال علنا ولآذان العالم فإن بكين تقول إنها تريد السلام والتنمية وتحبذ تعدد الأقطاب ولن تطلب أو تبغى الهيمنة، كما تقول إن كل الدول فى العالم متساوية وأن الأمم المتحدة هى الأمل للسلام والعدالة فى العالم، ورغم أن هذه القطعة الأدبية التافهة ليست سياسة خارجية، السياسة الخارجية هى بناء مندمج من الافتراضات والأهداف والوسائل، عمليا وفى الممارسة فبكين لديها أهداف مختلفة، استخدام العلاقات الدولية لحماية دولة الحزب فى الداخل، بناء الثروة والقوة بطريقة ميركانتيلية، رؤيتها كدولة مساوية للولايات المتحدة، جعل العالم والولايات المتحدة يعتقدون أنهم يريدون الصين أكثر مما هى تريدهم، الحلول محل الولايات المتحدة كقوة قائدة فى آسيا، وينبع من هذه الأهداف الثلاثة الأخيرة أن للصين معركة ومنازلة مع الولايات المتحدة الأمريكية (ما لم يقبل الأمريكان الوهم كحقيقة ويرتدوا ويرجعوا) إنها تخطط لتكون أقوى عسكريا كما يمكنها وأنها تعامل المؤسسات الدولية التعاونية كديكور (وأن ما وراء القوة هو الذى يحسب حسابه). الصين تتبع وتمشى وراء هذه الأهداف بإصرار، وإحساس بالتاريخ، ووسائل غير مباشرة، وموقفها من أمريكا مستمر سواء بوعى أو بدونه وهذه

تقاليد ورثتها من الدولة الصينية القانونية التى تهتم بالشكل وتتبع القانون، وبصفة غير رسمية وفى الجلسات الخاصة فإن دينج إكسياو بينج قد رسم استراتيجية للسياسة الخارجية فى السنوات الصعبة فى التسعينيات والتى عكست الأساليب التى تم اختيارها من جانب الدولة الصينية. فإن مأساة تيان آن مين فى يونيو ١٩٨٩ قد ضربت وأساءت بشدة لصورة الصين، والولايات المتحدة وأوروبا واليابان وقعت عقوبات على جمهورية الصين والقادة الأجانب ابتعدوا عن بكين وكما قال دينج أنه راقب ولاحظ بهدوء وكان ذلك هو الأسلوب الأول لدينج، بعد ذلك تتالت أربعة رسائل (تصرف بدقة وصبر) (إخف طاقاتنا واشتر الوقت) (كن حسنا بالحفاظ على هدوئك ولا تلعب دور القائد) هذه القواعد من تقاليد الدولة الصينية كانت مناسبة تماما للعالم بعد مأساة تيان آن مين هى نوع من الخداع المخطط له والمراد حيث فصلوا العاجل جدا عن المدى الطويل، لا شيء أكثر بعدًا عن الصخب يمكن للدبلوماسية الأمريكية تصوره.

وعندما جاء الحزب الشيوعى الصينى إلى السلطة عام ١٩٤٩ كان يخشى من عالم تسيطر عليه الإمبريالية، وكان شيانج كاى تشك قد وقع اتفاقات دولية ثنائية ومتعددة الأطراف وكانت تتضمن أن الصين دولة واحدة بين الآخرين. وتحت حكم ماو فإن الخطوات نحو النظام الدولى جرى عكسها، وفقط فى السبعينيات فى السنوات الأخيرة من حياة ماو ولما انهار التعاون بين الصين والاتحاد السوفيتى جاء نظام ماو استمرارًا لنظام نان جينج ودخوله إلى نظام الدولة القومية، ومن المؤكد أن الولايات المتحدة لم تمد يد الترحيب لجمهورية الصين الشعبية ولو أن العلاقات بين الحزب الشيوعى الصينى والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة قد اختلفت والولايات المتحدة أقامت علاقات مع الصين عام ١٩٤٩ فلربما كانت الصين قد طورت اشتراكية تُقارن باشتراكية يوغوسلافيا، لكان ماو قد أخذ موقعًا وسطًا بين

موسكو وواشنطن، ولو أننى أشك فى مثل هذا السيناريو ولكن لو افترضنا حدوثه فإن بلوريتارية ماو الدولية كان يمكن أن تنتهى وتذوب قبل عقدين من الزمان مما حدث بالفعل.

وبدايةً فإن رفض ماو النظام الدولى الحالى كان ماركسيًا حيث كان المسرح والعملية كلها برجوازية فى خط متوازٍ مع سياسته الداخلية والخارجية باعتبارها شيئًا واحدًا حيث رأى أن البلوريتارية الدولية هى البديل القادم للنظام البرجوازى الدولى، وقد قال ماو إن الغرب كان فى رحلة سريعة للانهيار كما قال إن المزيد من الدول المُدججة بالأسلحة النووية هو أفضل شيء من أجل السلام. وفيما بعد فإن رفض ماو للنظام الدولى تحول إلى الناحية الثقافية والعاطفية بسبب أن الاحترام بدأ يقل تجاه ماضى الصين المُشِع وما تعرض له شعبها من معاناة على يد الأجانب، وكانت النتيجة هى نظرة ما يُسمى "اذهب وحدك" تعبيرًا عن الماركسية مُضافًا إليها التقاليد".

المرحلة الأولى لسياسة جمهورية الصين الشعبية الداخلية شهدت تمسكًا بالمعسكر الاشتراكى وهى وجهة نظر ماركسية للمسرح العالمى وصلة وثيقة بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية ودولة ماو لم تجلس فى الأمم المتحدة ورفضت محادثات نزع السلاح وكانت دبلوماسيتها محدودة فى المعسكر الاشتراكى وغيرها من القوى المضادة للإمبريالية مثل إندونيسيا فى عهد سوكارنو. وفى إحدى المرات فإن وزير الخارجية wu xiuuan قال إن الأمم المتحدة ملأى بمقترحات تشوه الحقيقة، وسماها بورصة دولية قذرة فى قبضة قوة أو بضعة قوى وأن الوفد الصينى بينما شارك فى نقاشات الأمم المتحدة عن الحرب الكورية كان يغلب عليه ترك قاعة المؤتمر غاضبًا. وكل ذلك كان صيحات بعيدة فيما كان شيانج كاى تشك يمارس مشاركةً تعاونيةً فى الاجتماعات والاتفاقات الدولية فى مجتمع مختلف أيدولوجيًا.

وكانت سياسة الصين الخارجية فى بدايتها ذات تفكير عسكرى فبعد سنة من وصوله إلى السلطة أرسل ماو ٣٠٠ ألف جندى لكوريا. وبسرعة بعد إعادة توحيد الصين سنة ٢٢١ ق.م فإن الإمبراطور كين شيهوانج أرسل نصف مليون جندى لمهاجمة فيتنام والتأكيد على الناحية العسكرية ميز بداية الأسرات الملكية، وكانت أسباب ماو لدخول حرب كوريا عام ١٩٥٠ هى تقريبًا الأسباب نفسها لذهاب كين شيهوانج إلى فيتنام، إنها حماية الإنجاز الأخير للتوحيد واستعراض العضلات لسياسة جديدة فى مجال أوسع.

والتقوية والدعم المبكر لأسرة التانج تشبه كذلك العقد الأول من سياسة ماو الخارجية فخلال الخمسينيات جاء ازدواج الكونفوشيوسية الجديدة مع الدولة القانونية الجديدة. لقد عرفت أسرة التانج أن العلاقات مع (التوركى) غير متساوية وماو رأى الشىء نفسه مع الولايات المتحدة ولهذا فإن ماو مثل أول إمبراطور للتانج مارس الحذر تجاه القوة الأقوى أو الأعظم رغم عدم تغيير المبدأ، إن الولايات المتحدة تنحدر مع الإدانة التقليدية للعدو الطبقى وإحساس الصين بالسمو المعنوى الأخلاقى. وما قاله الإمبراطور (تاى زونج) عندما توسعت التانج "إننا لا نهاجم ولكن هم فقط سلموا" وهو ما قاله ماو عندما ضم التبت وهو ما قاله أخو ماو الصغير كيم إل سونج عندما غزا كوريا الجنوبية.

المرحلة الأولى فى السياسة الخارجية رأت قوة وعزمًا كما حدث فى كوريا وفى القصف على خليج تايوان، ولكن فى حدود قيادة موسكو. فى الخمسينيات لم يكن لبكين علاقات مهمة مع أية دولة رأسمالية، وجه مبتسم اتجه نحو الهند وإندونيسيا وغيرها من مجموعة باندونج (بعد مؤتمر فى اندونيسيا عام ١٩٥٤) لدول عدم الانحياز باسم المشاركة فى العداء للإمبريالية.

المرحلة الثانية لسياسة الصين الخارجية من أواخر الخمسينيات حتى نهاية الستينيات جاءت معها سياسة ثورية يمكن تسميتها الجبهة المتحدة من القاعدة، والمهم هو النضال داخل أركان التآلف ضد العدو وكانت الصين تتصور أن اليسار اللين لدول عدم الانحياز مآله أن يدفعه اليسار الثورى الماوى جانبًا ومن هنا فإن الأمن ضد العدو الحالى هو أقل أهمية من الثورة العالمية، وكان ماو مُحبطًا وغير صابر وتألم من إعادة إحياء مجد الحروب ضد اليابان وشيانج كاى تشك، وكان هذا العقد يتميز بالمشكلة داخل المعسكر الاشتراكى والتجاذبات بين موسكو وبكين وحيث أظهر ماو رومانتيكيةً ثورية ريفية تُعطى قاعًا وصدىً لمحبة النخبة الرسمية القديمة للزراعة والاعتقاد فى السمو الأخلاقى للحياة الريفية. وفى الداخل حاول ماو القفز إلى الشيوعية بإخضاع الفلاحين لمجتمع الكوميونات، وفى الخارج بدأ يستحث ريف العالم (فيما سُمى بعد بالعالم الثالث) ليحاصر مُدن العالم (الإمبريالية) والعداء للإمبريالية ما زال هو لب وقلب القضية لكن التحرير صار الكلمة رقم ٢، وموسكو المنهكة صاحبة الوضع الراهن كما قال ماو لا تستطيع قيادة النضالات العالمية للتحرر القومى للعالم الريفى (وهو فقط من لا يملك)، فقط الصين هى المؤهلة لتلك القيادة.

مثل هذا التحليل أزال البسمة من على وجه باندونج ودول عدم الانحياز وتم طرد بكين من جاكارتا لمحاولتها إسقاط حكومة إندونيسيا وحاربت الهند صديقتها السابقة، وبالثورة الثقافية فى مُنتصف الستينيات فإن ذوى الأعراق الصينية الموالين للشمس الحمراء الماوية كانوا يستخدمون القنابل والأقواس ضد السلطات فى بورما وكمبوديا الصديقتين.

وخلال المرحلة الثانية فإن ما ميز المملكة الوسطى من الحُمق بدأ يُحدث آثار صريره واضطرابه فى العالم المعاصر، لقد تحدت دولة ماو كل واحد وكل شئ فى الوقت ذاته ليس بالسلبية والعقلانية كما حاول الأباطرة

مواجهة البرابرة بل بالعكس، بالغضب والعصبية وكان باديًا المشروع والغضب مع العالم غير الصينى وأدان ماو قلق العالم من الصين. ومثل الكحول فى جوف مواطن يذهب للكنيسة فإن الثورة الثقافية أخرجت من النفسية الصينية أشياءها السوداء وحقائقها والتى لم يتم مواءمتها مع العالم ما بعد ١٩١١.

الستينيات جاءت فى تاريخ جمهورية الصين الشعبية بنهاية وأفول القانونية الجديدة المتمسكة بالحرفية لصالح الكونفوشيوسية الجديدة، وبدت مصالح الصين القومية وقد طغى عليها الاعتقاد فى العقيدة. ورغم هذا حتى خلال الثورة الثقافية فإن ماو قد أحبط المتطهرين البيوريتان باستخدام السوط القانونى وعندما أمسك الحرس الأحمر بوزير الخارجية (شين يى) فإن ماو تدخل حيث فقد يى ٢٧ رطلاً من وزنه وقال ماو إنه لا يستطيع أن يعرضه فى ظروفه أمام الزوار الأجانب وحتى فى وسط الدموع وصيحات الحرس الأحمر صيف عام ١٩٦٦ فإن (كين شيهوانج) لم يكن غائبًا حيث قال ماو "إننى بالتأكيد سأحمى شين يى ولكن يجب أولاً أن تدعوا الحرس الأحمر لقذفه بالنيران" وكان يُعبر بذلك عن ازدواجية القانونية الجديدة مع الكونفوشيوسية الجديدة.

وكما بدأت عام ١٩٤٩ بالمعسكر الاشتراكى وأكدت الجبهة المتحدة من أسفل ١٩٥٩ فقد بدأت عام ١٩٦٩ ما يمكن أن يُسمى الجبهة الموحدة من أعلى. وقد ظهرت مشكلتان خلال فترة الستينيات الثورية الفوضى الداخلية خرجت عن السيطرة، وفى الخارج فإن أعضاء من الجبهة المتحدة لم ينسوا أن بكين تلاعبت بهم فنهرو كان ضد الإمبريالية عام ١٩٥٦ لكنه صار برجوازيًا نتن الرائحة عام ١٩٦٠.

وفى الجبهة المتحدة من أعلى، والتى صارت المرحلة الثالثة من سياسة الصين الخارجية، فإن عدو هذا التحالف هو الهدف الأوحد أو الوحيد،

والأجندة لم تتضمن النضال داخل أركان الجبهة المتحدة. ستالين أعطى ماو مثلاً لجبهة التحالف من أعلى فى تحالفه فى الحرب العالمية الثانية مع الولايات المتحدة وبريطانيا ضد محور برلين روما طوكيو. موسكو وواشنطن لم تخربا بعضهما البعض ولم تنتقد كل منهما مجتمع الأخرى من أجل استمرار النضال ضد الفاشية إذن هو الوضع أو الموقع الجيوبوليتيكى فى النظام الدولى وليس التحليل الطبقى هو (الألفا والأوميجا) لهذا النوع الجديد من الجبهة المتحدة. ومن عام ١٩٦٩ عندما تحاربت الصين والاتحاد السوفيتى على الحدود فى شمال شرقى آسيا كانت موسكو هى هدف ماو للجبهة المتحدة من أعلى واحتضنت الصين أى دولة تقف ضد السوفيت بما فيها باكستان، وشيلى ما بعد الليندى وشاه إيران وغيرهم من اليمينيين العسكريين والنظم ضد الثورية، بكين فقدت المصلحة فى التدخل فى الشئون الداخلية للدول اليسارية غير الناضجة أو غير اليسارية بما فيه الكفاية، لقد وُضِع العالم على الحذر ليفهم أن بكين هى فقط دولة الواقعية السياسية (القانونية الجديدة) كما أنها أيدولوجيًا كونفوشيوسية جديدة.

لقد جلب ماو من العقيدة التقليدية القانونية (اعمل صداقات مع أولئك البعيدين وهاجم أولئك القريبين) لقد عاد إلى مشاعره التى عبر عنها فى قصيدة فى شبابه "فى الجبال الشمالية يتكاثر الأعداء الذين تملؤهم العداوة" فى الخمسينيات والستينيات وبطرق مُختلفة فقد حقق ماو وحدة السياستين الداخلية والخارجية ولكنه فصل بينهما، فى السبعينيات حيث تحالف استراتيجيًا مع الغرب والقوى المضادة للاتحاد السوفيتى بينما تمسك بالطريق الاشتراكى فى الداخل. نيكسون فى الخارج والتطهير فى الداخل.

وفى التقليد فإن التأرجح اللطيف بين الكونفوشيوسية والقانونية قد أدى إلى خروج ماو عن عقيدته دونما إلغاء دور العقيدة وعندما حلت موسكو محل واشنطن كعدو فإن ماو قال إن الاتحاد السوفيتى صار إمبرياليًا

اشتراكيا. وبهذا استطاع التمسك بنظرية الإمبريالية، كما قال ماو لسفير يوغوسلافيا ليريه كيف أنه شخص عملي "الأمريكان شريرون ولكنهم مخلصون يعتمد عليهم، والروس أيضا كذابون" وبسرعة فإن كلمة الهيمنة صارت أكثر مناسبة من الناحية الفكرية من كلمة الإمبريالية، ولكن ماو مازال يعتقد أن التاريخ لديه وفى جيبه.

المرحلة الرابعة لسياسة الصين الخارجية بدأت مع فترة ما بعد ماو ولدى استقرار القيادة على سدة الحكم عام ١٩٧٩ وتميزت بالاستقلالية، الاقتصاد، القومية. ومع دينج فإن السياسة الخارجية والسياسة الداخلية سارا معا، وفى الثمانينيات والتسعينيات فإن الهدف الأساسى لكلتا السياستين كان هو الثروة والسلطة والقوة للدولة كقائد لتبؤ الصين مكانا رئيسيا بارزا فى شئون العالم.

وأخذ دينج الادعاءات للماركسية وصراع الطبقات ضد الإمبريالية بعيدا عن السياسة الخارجية واتجه بها وجذبها بعنف تجاه العظمة القومية، وخلال فترة جيانج فإن الصين تفخر بسياسة خارجية مستقلة من أجل السلام. وفى التسعينيات رغم أن الصين كان تقديرها أقل بعد حوادث ميدان تيان آن مين وسقوط الاتحاد السوفيتى فإنها صارت أكثر نفوذا فى آسيا عما كانت قبل ذلك، كما أنها استطاعت تأمين هونج كونج فى جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٩٧.

وإذا كان دينج قد بدا وبرز كمحارب حيث حارب فيتنام وهدد تايوان واعتبر الطلبة فى ميدان تيان آن مين أعداء وتبنى موقفا انفراديا بالنسبة للجزر المتنازع عليها فى بحر الصين الجنوبى فإنه فى الحقيقة جاء إلى السياسة من خلال الحرب، فحرب الحدود بين الصين وفيتنام عام ١٩٧٩ كشفت عن استعداده للوصول إلى استخدام العنف والسلاح إذا واجه قوى

متصارعة، ولقد كشف وأظهر الاتجاه نفسه للحل العسكرى فى ميدان تيان آن مين عام ١٩٨٩.

وروح ملاحظات دينج فى مواجهة فيتنام عام ١٩٧٩ كانت قريبة من كلمات الإمبراطور (جاو زو) من أسرة التانج عندما هاجم تركيا المضطربة فى القرن السابع "منذ القدم وحيث الكل تحت السماء لم يتم تهدئتهم، فإننى أظهر الكرم تجاه برابرة الشمال حتى نؤمِن السلام على حدودنا، ولكن الآن طالما هم مزقوا الاتفاق فقد قررت أن أدمرهم ولن أدللهم بعد ذلك" والافتراض العام هو أن الصين تملك دور ووظيفة تنظيم العالم فى مناطق المحيط حولها، وبمهاجمة فيتنام فقد قال دينج أنه كان يعاقب هانوى التى أساءت التصرف.

عقلية ماو التى تكونت خلال العصر الكولونيالى وسط العنف المدنى والدولى لم تكن مؤهلة للعصر الاقتصادى للتسعينيات عندما صارت الدول أكثر اعتمادا كل منها على الأخرى وحقوق الإنسان والقلق حولها صارت لها الأولوية. جيانج زيمين كان مداهنا وقد قام بإرسال أوراق الاقتصاد والقومية مع شىء من النجاح ودونما كوارث، والخلطة الأبدية للكونفوشيوسية الجديدة والقانونية الجديدة تحركت للأمام ثم اتجهت ناحية القانونية الجديدة.

وفى عصر جيانج فإن القومية التنموية كرد فعل حسبما قال (جيمس جريجور) قد خلَفت الماركسية الثورية باعتبارها القوة العملية لسياسة الصين الخارجية والتى مازالت تقودها دولة الحزب اللينينية. ويوضح هذا ويكشفه التعليمات الجديدة التى أعطيت سرا للمتعاملين مع الأجانب والعالم الخارجى فقد قيل لهم أن يلغوا الافتخار وكلمات الكبرياء عما يسمى الثورة العالمية وتم التوضيح أن عليهم التوقف عن استخدام الكلمات الثورية كالاشتراكية والشيوعية الصعب ابتلاعها، وحيث إن التقاليد الصينية برزت من تحت وطأة الأيديولوجية الماركسية المستوردة فإن صغار الرسميين طلب إليهم أن

يتبنوا وينتجوا دعاية خارجية بطابع قومى صينى، ومنذ ٣٥ سنة مضت فإن (بنجامين شوارتز) قال "إن الوضع الخارجى الذى جعل الصينيين يعتقدون أن بلادهم ذات وضع نادر قد ولى وانتهى ولا يمكن استعادته، لكنهم يعتقدون أنها قد تصبح ثانية رقم واحد، وأن هذه خطوة كبرى نحو استرداد الخصوصية" وأن بنجامين يعتقد أنه ليس وحده الذى يرى الادعاءات الخاصة لقوى صاعدة فإن إدعاءات الولايات المتحدة للاستثنائية لا تنفصل عن نجاحها السريع والمبكر.

وقال شوارتز أن الثوريين خلال قتل صن يات صن كانوا يريدون استبدال نظام العالم الصينى بدولة صينية قوية وفى الحقيقة كان ذلك هو المشروع الأساسى للدولة الصينية خلال فترة الإمبراطور (كين شيهوانج)، وقال شوارتز "أن حكومة الصين الشعبية تهتم بالقانون الدولى عندما يناسبها" وكذلك فإن أسرة الكينج فى أربعينيات القرن التاسع عشر فعلت الشىء نفسه فديالكتيكية النظرية العالمية والمصلحة القومية هى أغنية قديمة، ومنذ القدم مع عصر كين شيهوانج وجد مبدأ السياسة الخارجية الذى يستخدم كلا من الأساليب القانونية وتلك الكونفوشيوسية، فبعد تعظيم القوة الداخلية فإن الإمبراطور ينظر للخارج ليخيف الأعداء ولتأتى إليه الخيول الجيدة ويقوم بالحرب ضد الصحراء. وداخل هذا الإطار يمكن أن ندخل كثيرا من ميركانتيلية الصين الشعبية، التأكيد على الاستقلال والحذر البيروقراطى والخشية المستمرة على الوحدة وأمن الإقليم الصينى.

وقد كتب (بيتر بردوى) "لا يمكننا أن نحدد خلاصات مباشرة حول الصين المعاصرة من أى تحليل لاستراتيجياتها الإمبريالية ما لم نعتقد أن قادة الصين الشعبية يعتمدون فعليا على النصوص القديمة ومن عصر المينج فى تخطيطهم الاستراتيجى، أو أن هناك مجموعة من الافتراضات فى وعيهم الباطن تم نقلها إليهم دون تغيير خلال قرون طويلة". وهناك احتمال ثالث أن

بكين تكرر مظاهر من سياستها الماضية؛ لأنها تواجه تحديات مشابهة أو مقارنة كتلك التى واجهتها الأسر الحاكمة المختلفة بسبب أن الدولة الصينية هى دولة (نحن وهم) السلطوية.

وتحديد قواعد السياسة الخارجية الصينية يتضمن: صعوبة فى ممارسة الأخذ والعطاء مع الدول الأخرى، التوافق المفتوح يحدث ولكنه يحدث بصعوبة، المصلحة الصغيرة فى الحلول الدولية للمشاكل، تفضيل تفادى المشاكل، القدرة على الانتقال من وجه العملة إلى الوجه الآخر من الغطرسة العالية إلى عكسها إذا كان القذف بالحجارة غير مجد، الحذر من الأعداء الذين ترى الصين الحرب معهم لتأمين مصالحها الواسعة.

كل هذه القواعد تنبع من التراتبية الهيكلية الهيراركية من طبيعة نحن وهم لدولة ملكية. والكل لاحظوا أن سياسة الصين الخارجية لم تكن قادرة على تسوية موضوعات الحرب العالمية الثانية مع اليابان ، كما أنها ترفض الأسلوب متعدد الأطراف للنزاعات حول بحر جنوب الصين، وكذلك حدوث تغييرات مفاجئة وعدم استقرار فى الموضوعات المتصلة بتايوان فى سياستها تجاه الولايات المتحدة، كما عبرت عن البارانويا حول عملية الناتو فى كوسوفو عام ١٩٩٩.

سياسة الصين القديمة الجديدة لها دور محدود بالنسبة للحلفاء ونحن نرى أن العلاقات الدولية كانت مفهوما ملتبسا ومشكوكا فيه للتطبيق على علاقات البلاط الملكى الصينى ووجهات نظره فى التعامل مع الشعوب المحيطة، وكما كتب (ويلز) "بسبب حجم الصين والوحدة البيروقراطية وقوتها العسكرية الدفاعية فهى نادرا ما احتاجت لتحالفات خارجية لحماية نفسها" إنه (العلّو والسمو المنعزل) هو ما ميز موقف الصين وهو الأمر المشابه اليوم.

لم تكن للصين أى صداقة مستمرة مع أى دولة ما عدا كوريا الشمالية (كم هى جائزة!) ما بين ١٩٤٩ وحتى الآن المحاولات نحو التحالفات خلال الخمسينيات والستينيات انتهت بمرارة، أقرب الحلفاء أو الشركاء فيتنام / الاتحاد السوفيتى / ألبانيا صارت أكثر الأعداء شجبا، الولايات المتحدة منذ نهاية عصر أسرة الكينج كانت قريبة من الصين فقط عندما يظهر فى الأفق عدو مشترك، الشراكة فى كل حالة كانت صعبة والعدو فقط يحفظها (بعض الشىء فى الشكل). ودينج تلمس وهو مرتبك ما يشبه تحالفا أو شبه تحالف مع الولايات المتحدة خلال إدارة الرئيس كارتر ولكن هذا التحالف لم يتبلور.

التراث المتماسك (اللزج) لعدم راحة الصين مع الحلفاء يؤكده ويبرهن عليه الخلاف الصينى مع موسكو ونتائجه. وكلما اختلفت الصين مع النموذج السوفيتى كلما قل عدد حلفائها وفى النهاية فإن الصين نبذت اثنى عشر حليفا عندما رفضت المعسكر الاشتراكى، وفى عام ١٩٦٣ فإن جمهورية الصين اعتبرت التناقض رقم واحد فى العالم كما لو أنه بين المعسكرين الاشتراكى والإمبريالى. وفى عام ١٩٦٩ غيرت هذا إلى ما بين الدول المظلومة فى جانب والإمبريالية الاشتراكية فى الجانب الآخر (الإمبريالية الاشتراكية تعنى موسكو وشركائها)، لكن هل اتجهت بكين ما بعد خلافها مع موسكو للعمل على تشكيل حلف؟ هى لم تتجه.

لماذا إذًا الاتجاه لعدم التمسك بالحلفاء؟ تاريخيا نجد ٤ أسباب:

الهيراركية التراتبية كطريقة للتفكير فى الحقيقة السياسية وإحساس الدولة الصينية أنها مسيرة إلى مستقبل معد سلفا أو مقرر مصيره، وكذلك نقص معين فى الإحساس بأهمية الثقافات والمجتمعات الأخرى ما عدا تلك التى تخدم حاجات الصين، والغموض المتكرر بالنسبة للتعريف الإقليمى للصين، كل هذه النقاط الأربع كان لها ثقلها الكبير خلال سنوات جمهورية الصين الشعبية مثل إحساسها بالعلو والسمو والنظرة باحتقار إلى فيتنام،

الإصرار على أن الاشتراكية هى مرحلة أعلى من الرأسمالية، التركيز العرقى بالنسبة للاقتراب من أفريقيا، ورفض إعطاء تفاصيل لادعاءاتها التاريخية بالنسبة لجزر اسبراتلى.

فى منتصف الستينيات (شوارتز) لم يستطع أن يرى ما نراه الآن بوضوح أن الصين يمكن أن تكون قومية وعندما تسمح القوى تتحول إلى مركز دولى (فى نظرها هى) وفى التسعينيات حتى عندما خبا الإيمان الماركسى فإن بكين بدأت تسمى نظامها ما بعد السوفيتى (اشتراكية مع سمات وخصائص صينية) وهنا إيماءة لإدراك الصين للنظام الدولى أن جبهة ما وراء البحار هى مجرد امتداد للجبهة الداخلية.

معاداة الإمبريالية أيام الشيوعية الدولية تحولت من أيديولوجية كوكبية إلى تغيير يعبر عن قومية الصين، الأجندة الأولية صارت داخلية، الحفاظ على الحزب الشيوعى فى السلطة وبناء اقتصاد الدولة، وكما رأينا فى الفصل السابع فإن النظام الدولى الصينى ربما من الأصح تسميته النظام السياسى الصينى، هدفه تأمين ثروة وسلطة الصين هو تحديث لأهداف أواخر القرن التاسع عشر، وله تضمينيات على مستوى السياسة الخارجية، فمنذ مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى عشر عام ١٩٨٢ فإن الحزب الشيوعى غير أولوياته لجعل التحديث يأتى قبل العداء للهيمنة، وبالطبع فإن صينا حديثة ستكون قادرة على الإمساك بالعصى (الموسيقية) الخاصة برئيس أوركسترا الهيمنة (من المفترض أنها اليدالضعيفة الأمريكية).

حتى هذه اللحظة فإن اقتصاد الصين مازال اقتصاد عالم ثالث متزوج من نفسية وطموحات دولة عظمى. والأولويات الأربعة لسياسة الصين الخارجية مرتبة تنازليا هى كالتالى: سيطرة النظام على الشعب، التنمية الاقتصادية، إدارة القضاية الأمنية حول حقوق الصين، الخطط التى تتضح

لصعود الصين لتحل محل الولايات المتحدة باعتبارها القوة المسيطرة فى آسيا.

الأهداف شىء والقدرة على إنجازها شىء آخر، الصين الملكية لها القدرة على المراوغة وكانت عاملا متغيرا فى التأرجح بين الغطرسة والعجرفة وبين التوفيق، بين الرؤية الكونفوشيوسية العالية وبين التدنى لمستوى قتال الكلاب. جمهورية الصين الشعبية أعادت للصين وحدتها وسارت خطوات تجاه التحديث ولكن لو طبقنا عليها المعايير الصينية -التوق للمساواة مع القوى القائدة- فإن القدرة مازالت متأخرة وراء الأهداف، ما عدا اللحظات السكرى خلال فترة الثورة الثقافية، كانت الصين على وعى بالفجوة بين الأحلام والقدرة على تحقيقها، وعندما ناقش ماو مسألة الأسلحة النووية مع وزير الثقافة الفرنسى أندريه مالرو قال (ست قنابل ستفعلها) وهو يعرف إن الصين لا يمكنها تحمل نفقات ترسانة كبيرة أو واسعة، إنها طوباوية القفزة الكبرى للأمام (سنصل للشمس والقمر لتغيير الأماكن) (سنتفوق على إنجلترا فى ١٥ سنة) كانت محاولة لتجسير الفجوة بين الهدف والطاقة والقدرة. وبالطبع فإن الوهم الذاتى للطوباوية يمكن أن يقتل الشعب كما قتله أثناء القفزة العظمى أو الكبرى.

وإذا وضعنا الطقوس والبندقية معا كما فعل الأباطرة فإن قادة الصين الشعبية حاولوا تحويل الضعف إلى قوة واستخدام العقيدة لتصوير هذا الضعف فى صورة القوة، وكنتيجة لهذه المهارات فإن الصين فى الأغلب الأعم تقدم نفسها بأكبر من الوزن الحقيقى لها. فالأجانب يأتون للصين وهم غير واعين بعظمة المملكة الوسطى وهو يعود إلى بلده وقد تم طبخه (مع كل الاحترام للصين) والنتيجة تخدم فى النهاية هدف المصلحة القومية الصينية.

عام ١٩٧١ فإن زوجين من القصائد الشعرية عن نيكسون وكيسنجر كتبهما رجل فى (إكسيان) وقد انتشرا فى الصين بطريقة غير رسمية وفيهما

تسمى الصين بالمرأة التى ترفع الحجاب عن الشيطان وكان ذلك شيئا ممتعا، وقد بدأت القصيدة الأولى بالقول "إن النار المتأججة للثورة تحرق العالم" "والزيت المغلى يصب فوق البنتاجون" "وزيارة للصين هى الطريق إلى حل كل ذلك". والقصيدة الثانية أيضا تصور الصين وخيريتها باعتبارها الإجابة عن مشاكل أمريكا الكبيرة والصغيرة وتقول القصيدة "من أجل الانتخابات الرئاسية القومية فى العام القادم فإن وعدين لم يتم إنجازهما، المفتاح للحصول على الأصوات هو زيارة الصين...".

وعن الرئيس نيكسون قال الشاعر "هو لن يتردد فى استخدام الزيت... زيت الرسم... وسيبيع رغبته الجنسية" وفى مواجهة مأزق نيكسون "زيارة كيسنجر لبكين جاءت برسالة فرحة" وعن زيارة نيكسون الرئاسية "بوجه عليه قناع مرسوم متخفيا فى صورة الجمال جاء ليتفاوض، ولكن مرآة رفع النقاب فى مدينة بكين هى فعلا عنيدة ومتصلبة".

فى النهاية فإن الصين قد أظهرت الشفقة والرثاء للزائر "ليس هناك طريق إلا الذهاب للكنيسة وفى عبادة عميقة والتضرع فى الصلاة، صل للسماء العالية وابتهل إلى الله: إحمنى يا رب خلال هذا الممر الصعب".

من المثير فى كل هذا الشعر الهزلى المضحك أنه هو صورة المسرح ولغة الدين والتقسيم الروحى الحاد والتمييز بين الصينيين والأجانب، فى السنوات الأولى للأسرة الشيوعية الصينية كما فى سنوات أسرة المينج الأولى طلب البلاط الاحترام والجزية والضرائب من كل شخص أينما كان، والمينج تعرضوا لموقف ضعيف فى الشمال والغرب لهذا ركزوا على دول البحار الجنوبية وماو واجه موقفا ضعيفا فى الشمال الشرقى وفى تأمل القوى الغربية ولهذا فإنه مد البساط الأحمر ليتلقى الاحترام من الأماكن البعيدة فى العالم الثالث.

وكما قال إمبراطور المينج عام ١٣٧٢ كما اقتبسناه سابقا "دول المحيط الغربى تسمى بحق الأقاليم البعيدة. إنهم يأتون إلينا عبر البحار ولكنهم من الصعب عليهم أن يحددوا السنة والشهر لوصولهم. وبغض النظ عن أعدادهم فإنه يمكننا أن نعاملهم على أساس مبدأ أن من جاء متواضعا يتم توديعه مكرما" غطرسة الملك وغناه يساويان ترحيب ماو بالشخصيات الآسيوية والإفريقية فى الستينيات والخمسينيات "عندما صعدت إلى الجبل لتقديم التضحيات والقرابين" كما قال إمبراطورمن التانج واصفا ومحددا حالة سعادة "مائة من البرابرة" جاءوا يقدمون الهدايا بالإضافة إلى ١٠ آلاف دولة جاءت تزور البلاط، والبلاط والمقاطعات سعداء والصين والبرابرة مبتهجون فرحون، نظام تقديم فروض الطاعة والولاء يعكس إحساس صين الأسر المالكة للمركزية والعلو الثقافى. وغير الصينيين والتى كانت أولا تعنى الصحراويين فى الشمال سيأتون إلى بلاط الصين وتتصل بهم الحضارة الصينية، هدف ثانوى كامن هو التجارة.

وابتداء من الحدود فإن الرسميين الصينيين يتولون شئون البعثات الأجنبية حيث يدفعون الفواتير ويصحبون الزوار للعاصمة ويعلمون الأجانب السلوك السليم وبروتوكول مقابلة الإمبراطور حيث على الزوار أن ينبطحوا على الأرض فى حالة سجود أمام ابن السماء ويجرى تبادل الهدايا وإبداء الإعجاب بها، كما يتم التوضيح بأن على الزوار المغادرة عندما يتم العمل التجارى، كل العملية توضح وصول سلطة وقوة الإمبراطور والمسئولين من جانب الدولة والمدى المحدود للنشاط غير السياسى.

فى عام ١٩٧١ قامت مجموعة من الأستراليين بعمل بعثة لبكين فوجدوا أنفسهم جزءا من عملية مقارنة شبيهة وكانت المناسبة عرضا من جانب (غوخ ويتلام) زعيم المعارضة فى حزب العمال للحديث مع القيادة الصينية.

شخص واحد من القبيلة البربرية، وهو أنا، اختارته بكين باعتباره قائد المجموعة كما أشار لى بهذا الوصف رئيس الوزراء شواين لاى خلال الزيارة، وبعد مغادرة رئيس البعثة البربرية (ويتلام) فإن قائد المجموعة وهو أنا تم احتجازه لمدة أسبوعين كمكافأة وكمصدر للمعلومات. وصلت (جوانزو) من بوسطن وخططت لقضاء بعض الأيام فى المدينة الجنوبية لكن وزارة الخارجية أصرت على رجوعى لبكين فورا للمناقشة. وحاول الرسميون القول إننى مدعو للصين وأننى ضيف، وهذه الكلمات لم تكن دقيقة لأنها تعنى التزامات. منذ آلاف السنين فإن أستاذ أسرة الهان الرسمى (بان جو) ميز بين تقديم الاحترام وبين الاتيان إلى الصين كضيف وأحيانا كان يتلاعب بالفرق بينهما لحفظ ماء الوجه وليجعل الإمبراطور سعيدا. لقد كان تقدمًا نوعيًا آنئذ أن الأستراليين كانوا ضيوفا وليسوا مقدمين لفروض الطاعة والولاء، والحقيقة أن (ويتلام) لا يمكن أن يكون مقدما لفروض الطاعة والولاء باعتبار أنه فى المعارضة وليس فى السلطة، وبالتأكيد كان الأفضل أن يكون ضيفا من أن يكون صديقا أجنبيا فإن لفظ صديق فى اللسان الصينى كان يستخدم كمضخة ماصة لسحب كل المشروبات والعصائر من الزائر، وحتى استخدام كلمة ضيف ودعوة هى كلمات ديكتاتورية تستخدم كقناع لسلب حرية الحركة بين الصين والعالم الخارجى.

الأستراليون نُقلوا من كوميونة إلى قصر الأطفال وبعض الزيارات الجانبية تم دفع نفقاتها من جانب دولة الحزب الصينية وبعض الاقتراحات قدمت حول الإتيكيت والصحفيون المرافقون تم إعطاؤهم دروسا لكيفية كتابة التقارير عن الصين ودعوتهم لتقديمها للمعارضة السياسية الاسترالية، والمآدب استخدمت كسلاح لخلق الإثارة والتسلية والترويع أحيانا للزوار، وخلال الوجبات اللذيذة وانتظار أطباق الطعام كان المضيف يقوم بتبادل

الأنخاب لتثقيف وأحيانا توبيخ وتعنيف البرابرة (الكرم سياسى!) كما تقول الوثائق السرية للدولة الصينية الشيوعية.

وعندما قام معهد الشئون الدولية بتنظيم مأدبة لـــويتلام وكان حاضرا فيها المفكر البارز (زهانج إكسيرو) والذى تحدث مع كأس من خمر الموتاى فى يده عن العلاقات بين الصين واستراليارغم المسافات الشاسعة التى تفصل بينهما وقال إكسيرو الذى حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا فى العشرينيات أن هناك (تقليدا من الاتصالات الثرية) مبرهنا على ذلك بتعداد الرياضيين والكتاب والعلماء وغيرهم وكلهم أستراليون زاروا الصين ولم يعط مثلا واحدا عن صينى شهير زار استراليا، وكما يدعى التاريخ الرسمى لأسرة المينج (فإن البرابرة يعشقون المنتجات الصينية كما أنهم يقدمون منافع عظيمة فى مجال التجارة، كما أن الطرق تعج بهم) وفى يوم ما من صيف ١٩٧١ على عشاء فى مدينة إكسيان قال لى (زهاو نان) وهو موظف رسمى فى الخارجية "كل شخص يريد الاتيان للصين ووزارتنا لا يمكنها الاستجابة مع الطلبات المقدمة من رجال الأعمال والصحفيين والسياسيين" وكلا التصريحين يحتوى على المبالغة، فكل منهما يريد أن يستعرض الأهمية التى تعطيها الدولة الصينية لنفسها وآخر التقاليع فى هذا المجال فى التسعينيات من القرن العشرين كانت تلك الإشاعة الكاذبة التى أطلقتها بكين أن الولايات المتحدة تحتاج الصين أكثر مما تحتاج الصين لها، كما تساءل أحد الرسميين الصينيين ١٩٩٨ على صفحات الجرائد "لو حدثت حرب تجارية بين الولايات المتحدة والصين، أليس من الممكن أن يتأثر النمو الاقتصادى الأمريكى والذى جرى منذ أكثر من ثمانين شهرا بشدة؟" ولكن الولايات المتحدة تبيع فقط ٣% من صادراتها إلى الصين!

إذا قارنا علاقات الصين بأستراليا فى السبعينيات وعلاقات الصين مع هولندا فى فترة أسرة الكينج، فإن كل علاقة خلال ثلاثة قرون تكشف عن

خطوة مشابهة من المصالح والطقوس فى سياسة الصين الخارجية، فالطقوس تخدم دعم وتكثيف النفوذ وتقليل الفجوة بين قدرات بكين وأهدافها.

وفى مواجهة شركة الهند الشرقية الهولندية فى أواخر القرن السابع عشر فإن الكينج كانوا يتعاملون مع أراضٍ بعيدة ولا يعرفون عنها إلا القليل واعتقدت بكين أن جاوة وهولندا هما مكان واحد. ومثل هذا عام ١٩٧١ فإن بيروقراطيين صينيين ممن نقابلهم لا يفرقون بين أستراليا ونيوزيلاندا. الكينج كانوا يحتاجون الهولنديين فى الصراع حول تايوان حيث انسحبت إليها بقايا أسرة المينج التى كان يقودها (زهينج تشنجونج هوكسينجا) المعادى للكينج، واستخدم الكينج رغبة هولندا فى التجارة كورقة تفاوض لتحقيق هذا الهدف. وفى عام ١٩٧١ حاولت بكين منع أستراليا من إنشاء علاقات دبلوماسية مع تايوان واستبدالها بعلاقات مع بكين مستخدمة مشتروات القمح كمكافأة وهنا فإن البلاط الصينى استخدم الطقوس الدقيقة لإثارة الإعجاب والتأثير على الزوار بالحضارة وادعاء الحكمة والصبر وإمكانيات الدبلوماسية الصينية.

فى عام ١٦٦٧ قامت سفارة هولندا بتقديم هدية عبارة عن ٤ طيور صغيرة من فارس و٤ ثيران صغيرة من البنغال ووافق الإمبراطور على رؤية الحيوانات الأربعة ولكنه لم يبد الموافقة عليها. وفى عام ١٩٧١ وبعد العشاء قال المضيفون الصينيون لـ(ويتلام) إن يمكث فى الفندق وهذا خلق فترة من التوقف وجدها الأستراليون فرصة لإعداد هداياهم وأسئلتهم إذا ما طلبوا للقاء الإمبراطور، وقرب منتصف الليل جرى طلبهم للقاء مع رئيس الوزراء شواين لاى.

وبعد سنتين من زيارة ويتلام للصين والتى ساعدته على الوصول لمنصب رئيس الوزراء فإن دراما مشابهة حدثت أثناء زيارته لماو فى المدينة المحرمة عندما تم خلق حالة من الفوضى بعدم تحديد خطط الزيارة

فإن الموظفين الصينيين قدموا ويتلام فجأة للقاء ماو الذى تحدث عن الآمال والمستقبل وتنوير أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر من المحيط.

الهولنديون لم يتركوا الفرصة مثل الإنجليز الذين جاءوا فيما بعد من حيث ضرورة المواءمة مع الطقوس الصينية مثلهم مثل الاستراليين كانوا أكثر بعدا عن الرسميات مع الصينيين أكثر من الأمريكان، ووجد ويلز أن الترجمة السيئة غالبا ما تقلل من فجوة القيم بينهما ومطالب الهولنديين اختفت فى الفجوة بين لغة بكين واللغة المحلية، ومثل هذه الأشياء الحلوة المرة حدثت كذلك فى مقابلات الاستراليين والصينيين.

فى عام ١٦٩٠ فقدت الصين وهولندا المصلحة المشتركة بينهما، تهديد (زهينج شنجونج) للـــ(كينج) حول تايوان انتهى ولم يعد الهولنديون يطلبون الثأر ضد زهينج وكانوا أقل رغبة فى الحرير والذهب الصينى، وكذلك فإن الإثارة المتبادلة بين الصينيين والاستراليين ضعف شأنها بعد انفتاح نيكسون على ماو عام ١٩٧٢ حيث صارت أستراليا (ويتلام) أقل أهمية لبكين من نيكسون الولايات المتحدة، وقد حقق الأستراليون مكاسب قليلة من التجارة مع الصين فى السبعينيات والثمانينيات، واستخدام الصين لطقوس لدعم وتعظيم المصالح اتجهت إلى أماكن أخرى.

الزيارات كانت تُعتبر انعكاسًا للحالة الداخلية فى المملكة الوُسطى كما كتب أستاذان روسيان متخصصان فى عدد من الممالك الصينية وهما (برى ليموف) و(ماتينوف) ١٩٨٣ "لماذا نجاحها الكبير أو الأقل نجاحًا فى تنظيم العالم" إن الأجانب يأتون إلى الصين من وجهة نظر الصينيين لأن الفضيلة موجودة فى بلاط الإمبراطور ومبكرًا فى تاريخ الدولة الصينية نجد فى أسرة الشانج أن النشيد الوطنى لم يجرؤ أحد على الإتيان دون تقديم واجب الطاعة، هذا التقليد كان يُقدم للممالك كما استعمله ووسع من نطاقه حاكم أسرة التانج (زونج زهى) فى قصيدة إلى بعثة من (دونهوانج) – حاليًا هى جزء من

الصين الشعبية - قال هكذا عن الزوار "أنتم تعطون الأقاليم للإمبراطور وأتيتم عبر الصحراء البعيدة لتؤكدوا لنا ولاءكم" وهذا الشعر نفسه ينظر وراءه فى بعثة من الماضى القديم وحيث يعرضون وعيًا ممتعًا عن الفجوة بين الطقوس والواقع (هكذا اليوم نحن نبتسم لنعيد ما فعلوه فى الماضي/ قبيلة ليو جاءت لتقديم واجب الخضوع تمنحه للبلاط/ كلب كبير اسمه نابو/ التاريخ لاحظ هذا لتقديم الولاء كهدية خاصة) وخلال فترة الكينج فإن الإمبراطور (جاوزونج) كتب قصيدة تماثل القديم: "كينج السماوى أيضًا يقبل تقديم الولاء من عشرة آلاف من الأرض فى حالة انسجام/ شكل الكتابة هو طرق العربات/ من يمكنه البقاء بعيدًا عنهم/ بين هؤلاء الذين نفوسهم كبيرة ورءوسهم مستديرة/ لا أحد فشل فى الوصول/ بلاط الشانج قبل هدية الجيد الأخضر/ لقد أرسلت السماء بركتها مائة مرة".

ماو أرسل هذه النماذج أو الرموز المعنوية لتنظيم العالم فى الخمسينيات وأوائل الستينيات، بكين تنظر فى المرآه لآسيا وإفريقيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية لتأكيد عظمة الصين ومجدها، إنها تشبه الذهاب فى بلاط لويس الرابع عشر. أول سفير إندونيسى إلى جمهورية الصين الشعبية قال فى زيارته لماو لتقديم أوراق اعتماده "شعرت أننى لا يجب أن أسأل ماو أى سؤال، إنه يشبه الإله وأنا أعتقد أنه يؤمن بمملكة السماء الوسطى" والرئيس سوكارنو شكا أنه دعا ماو لزيارة إندونيسيا ثمانى مرات دونما إشارة بالقبول.

وبالنسبة للفشل فى وصول البرابرة نلاحظ أن (جيانج كينج) زوجة ماو لما قابلت الرئيس نيكسون عام ١٩٧٢ تساءلت "لماذا لم تأت للصين قبل هذا؟" ولحسن حظ نيكسون كانت هناك دراما معروضة على مسرح العرائس لنساء يصارعن ملاك الأراضى وصرخت إحداهن فجأة وأحدثت ضجة لتفادى إجابة من جانب نيكسون على حرم الرئيس ما وتجعله يطرح فترة

المكارثية وحرب فيتنام للنقاش. وقد لوحظ أنه عندما ضعفت مملكة التانج كما يحدثنا تاريخ أسرة السونج فإن القبائل المُحيطة توقفت عن المجئ إلى الصين وهذا ما حدث لدينج وجيانج لعدة سنوات بعد مأساة تيان آن مين عام ١٩٨٩. وعندما تولى رئيس وزراء بريطانيا تونى بلير عام ١٩٨٩ زار الصين وصرح بأنه يريد أن تكون بريطانا صديق الصين رقم ١ فى أوروبا، وبهذا التصريح أغلق على نفسه حيلة إمبريالية قديمة كان هدفه الشئ نفسه مثل البعثات القادمة من لاهاسا خلال أسرة المينج : شكر الإمبراطور ثم طلب الميزات. بعض الميزات من أجل بريطانيا كانت معروضة من جانب جيانج زيمين، وبلير تحدث فى خطوط عامة عن الاستثمار البريطانى فى الصين الحالى وفى المستقبل، ورغم هذا فكما كتب (جوناثان ميرسكى) أنه "لم يتم التوقيع على عقود ولم يذكر أحد أن بريطانيا تستثمر فى الصين أقل كثيرًا مما تفعله فى بلجيكا الصغيرة". بكين تقدم وتزود فى آلية الصداقة التى تضم مع الصداقة أسلوب سوفيتى شيوعى وبكين تستفيد من إطلاقه. وبعد تعبير بلير عن رغبته فى الصداقة، أعلنت حكومة الصين أنه بالفعل صديق وقيل له إنه صديق حسن وتستطيع أن تقول لنا أى شىء تريده. وإن المُحصلة الأخيرة لإعلانى كصديق (وهو شىء غير مناسب فى مجال العلاقات الدولية أن عليك التزامًا بتقديم ما يقدمه الصديق والباقى كما قال ميرسكى هو أوبرا بكين).

فى هذا الشكل المسرحى الصينى فإن النتيجة معروفة الأبطال هم أبطال حتى النهاية والشريرون أشرار حتى النهاية وما يُحسب هو الملابس والأزياء والماكياج ودقة الحديث والحركة ونص الأوبرا الإمبريالى يتحرك من مشهد لمشهد حيث قدم بلير إلى جيانج قائمة بعشرين مسجون سياسى صينى وقال أحد المتحدثين الرسميين فيما بعد أن الصينيين ليس فى ذاكرتهم مثل هذه القائمة.

تسمية كل جانب بأنه صديق هى نهاية فى حد ذاتها بالنسبة للصين وربما أغلق بلير حقائبه وغادر عند هذه النقطة، لكنه استمر ومكث للأجراس والصفارات والعلامة الخيرة لهذا التصرف جاءت عندما سُمح لبلير بكتابة مقالة فى الصفحة الأولى من صحيفة الشعب وسمحت أوبرا بكين بأن تظهر للعالم بأنه فى توافق مع الطريقة الصينية وكما كتب (ويلز) "فإن وجهة نظر الصين حول إمبراطوريتهم هو أنها المركز الوحيد للحضارة"، ومن المؤكد من خلال التجربة هو مالم يتم إلا نادرًا تحديه من جانب زوار الصين، وكل ذلك كان يتم وجرت رؤيته تحت حكم أسرة الكينج. فى عام ١٧٩٣ امتنع ماكارتينى عن السجود التام أمام الإمبراطور كيان لونج وبعضهم قال إن نتيجة ذلك تمثلت فى النتائج الفقيرة لبعثته ولكن لم يكن هذا هو الحال عندما بعثت هولندا بعثتها بعد ماكارتينى حيث تم السجود الكامل ورغم هذا لم تأخذ أكثر مما أخذه الإنجليز من بلاط كيان لونج.

وزميل بلير (كريس باتن) المحافظ السابق فى هونج كونج كان يمكن أن ينصح بلير بأن الزيارة مسرحية وأنه سيترك المسرح ليجد أن الشارع لم يتغير. باتن أدرك وميز بين مستويين من الدبلوماسية الصينية، المسرح (الكونفوشيوسية الجديدة) والمصلحة (القانونية الجديدة).

ولمدة شهر كان على المحافظ باتن مواجهة موجات اللعنات من بكين، وفجأة توقف الهجوم ودولة الحزب تريد شيئًا ملموسًا لم تحصل عليه بالقدح والتوبيخ الشديد ولاحظ باتن وأدرك ذلك الميكانزم أو الأسلوب الذى جرى تجهيزه بدقة والمُغلف بالتهديد (عليك مواجهة كل النتائج المترتبة وفى الحقيقة فإن التهديد للمحافظ باتن لم يحقق نتائجه لقد كان مجرد تهديدات مسرحية (أنه لن تكون هناك علاقة بين السلوك السياسى الجيد فى عين الصين والإنجاز التجارى كما خلص إلى ذلك باتن). هونج كونج تحت حكمه لم تعان أية عقوبات من جانب بكين على الإطلاق وبعد أن ترك باتن منصبه كمحافظ

هونج كونج فقد كتب "أن هناك بعض الرسميين الذين يساوون الدبلوماسية مع واجب أن تكون فاضلا مع الأجانب" ولكن الصينيين يمارسون ببراعة ومهارة المستويين من الدبلوماسية والتى يمكن أن ترى من خلال مدح الأجانب المبالغ فيه. رجل أعمال من هونج كونج بدأ محادثاته مع رئيس الوزراء الصينى (لى بنج) بأن قال له "إنه أعظم قائد فى الحزب الشيوعى الصينى منذ ماو" فرد عليه رئيس الوزراء مقاطعًا "أنه ليس فى الحقيقة رئيس الحزب الشيوعى" وهذه الطريقة من النفاق والمدح الزائد نادرًا ما تجعل الصينيين يقدرون الأجانب, وبعض منتقدى باتن قالوا إن رفضه النفاق وموقفه من الديموقراطية فى هونج كونج يمكن أن تدمر الصادرات البريطانية للصين وهذا لم يحدث فإن القانونية الجديدة والواقعية ما زالت حية وقائمة.

فى عام ١٩٩٣ زار الدلاى لاما براغ والرئيس التشيكى (هافل) قضى أكثر من يومين هناك إلى جانب الزعيم التبتى, آلة الدعاية الصينية أطلقت مدافعها بأن مشاعر الشعب الصينى قد أهينت, وبعد سنة ولما سألت سفير التشيك فى واشنطن حول آثار وانعكاسات الزيارة على العلاقات فنفى على الإطلاق أنه بمجرد مغادرة الدالاى لاما لبراج فإن الستار قد أسدل على أوبرا بكين لقد لعب كل شخص دوره وتم مسح ألوان الزيت, وتم وضع الملابس فى أماكن حفظها.

إن النص الإمبريالى (للأصدقاء) و(القوى المعادية) لا يغطى فقط الدول الأجنبية ولكن أيضًا الأفراد الأجانب فبكين رأت فى جيمى كارتر أنه أفضل شيء منذ اختراع عصى الأكل لأنه أقام العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع جمهورية الصين الشعبية, وكريس باتن أطلقوا عليه "مومس الشرق" لأنه أعطى لهونج كونج شيئًا من الديموقراطية قبل أن يسلمها للصين, وهذه كلها مبالغات فى التشخيص وقد حدث معى أنا شخصيا (المؤلف) شيء من هذا

القبيل حدث حين لعبت دورى البطل والشرير فى نص مسرحى إمبريالى ففى عام ١٩٧١ تم اختيارى لأحصل على تأشيرة دخول للصين لأننى ساعدت بطريقة غير مباشرة زعيم المُعارضة (ويتلام) ولما أعطيت التأشيرة ومن خلال بعض المقابلات كان المتوقع منى مساعدة بكين فى خططها لزيارة ويتلام وطالبتنى بذلك وكالة الأنباء الرسمية وأطلقوا على لقب صديق جيد للشعب الصينى وفيما بعد أعطونى جائزة من مقاطعة سيشوان لكن الغطاء البطولى يعتوره القصور فى المعانى الداخلية فكارتر وباتن يمكنهما تغيير الدور فى لحظة إذا اقتضى النص ذلك حيث إن الأهمية هى الوظيفة التى تخدم مصلحة دولة الحزب فكل من اليساريين الغربيين واليمينيين يمكن أن يكونوا أعزاء على بكين حسب الموضوع المطروح فبعد مأساة ميدان تيان آى مين فإن الشخص الاسترالى الأمريكى الذى كان صديقًا وهو أنا (المؤلف) قد صار قوة معادية للصين. عام ١٩٩٢. الإعلام الرسمى الذى شكرنى مرة سمانى "منشقًا" والبوليس السرى قال إننى (أهنت مشاعر الشعب الصينى) وهو ما يعنى عدم الأمن بالنسبة لى وتوقع المعاملة الخشنة والعدوانية.

فى الاستراتيجية الكلاسيكية لـ(فرق تسد) الصينية فإن الأبطال والأشرار يتم تحديدهم لكل مرحلة تاريخية ففى السبعينيات لما طُرح موضوع الاعتراف بالصين الشعبية كنت أنا (المؤلف) فى الجانب الإيجابى وفى التسعينيات عندما كانت قضية الديموقراطية مطروحة داخل الحضارة الصينية تم نقلى إلى الجانب السلبى، لقد تغيرت أولويات بكين وقد أوضحت (آن مارى برادى) "أن الصديق الأجنبى" و"الجاسوس الأجنبى" هما توأمان سياميان. نظام معاملة النظام للخارج يوجد من أجل "إدارة التوازن بين متناقضين: كراهية الأجانب من ناحية والتذلل والتودد والنفخ فيهم من ناحية أخرى" بين السكان الصينيين والتلاعب بهذه المشاعر المتناقضة حسب

المقتضيات السياسية للوقت واللحظة والتعامل مع الأجانب وما وراءه والتفرقة بين الداخل والخارج موجودة فى الوثائق اليوم ففى الوثائق السرية يفرقون بين الداخل والخارج وحيث إن عصر هو جنتاو كعقلية حديثة كما أُعلن، فإن الساحل فى منطقة (بيداى) هى شرق بكين ما زال مُقسمًا لجزئين: واحد للصينيين والآخر للأجانب.

ومن الصعب أن نتخيل أى دولة أخرى تضع مثل هذه القواعد التى أعلنتها الصين عام ١٩٩٣: "من الممنوع الدخول فى سلوك غير أخلاقى مع الأجانب، ومن الممنوع الائتلاف مع الأجانب فى إعادة بيع منتجات الدولة بشكل غير قانونى ما لم يصدر ترخيص بذلك، من الممنوع زيارة السفارات الأجنبية والقنصليات وشقق ودور سكن وأحياء الأجانب، ومن الممنوع نشر أو التعبير للأجانب عن عدم الرضا أو أى وجهات نظر رجعية تهاجم الحزب أو النظام الاجتماعى".

إن سيكولوجية الحب والكراهية النفسية ثقافة صينية ستستمر ربما حتى يتم استبدال دولة الحزب الصينية بحكومة أقل تنظيمًا للعالم. وفى انتظار ذلك اليوم فإن ازدواجية الأجانب باعتبارها النقيض الآخر للنفس الصينية ستظل تعمل فى الإمبراطورية الصينية الجديدة وستكون عقبة كأداء فى وجه إندماج الصين فى المجتمع الدولى، والصينيين وغير الصينيين كأشخاص يتم معاملتهم على قدم المساواة فى جمهورية الصين الشعبية.

انخفاض وضعف الإيمان بالماركسية لم ينه وجهة نظر الصين الإمبريالية عن العالم، هل الماركسية تنص على أن أمريكا إمبريالية؟ حسنًا الماركسية فى حالة تحول فى بكين لكنها لا تمس خطوة إعلان أن أمريكا دولة مهيمنة لا يوجد فرق كبير فالصين تصرخ حاليا ضد الهيمنة، كما أن الصين فى عصر ما كانت تصرخ ضد الإمبريالية فاللهجة واحدة لكن كلمات الأغنية يتم مواءمتها، والأغنية تعنى حقيقةً عملية فرض العضلات

واستعراضها، والصين نفسها تريد أن تهيمن هى ذاتها، هى تريد إنهاء أمريكا فى آسيا وتأكيد أن لا شىء ضد رغبات الصين المدرعة والمسلحة بصيغتها التى لا تقولها وهو مبدأ مونرو، بكين تريد أن تكون فى آسيا مثل أمريكا فى أمريكا اللاتينية وكون الهدف مازال بعيدا فإن ذلك لا يقلل من مذاقه الحلو.

وعلى مستوى واحد كما رأينا فى أهداف السياسة الخارجية فى بكين فإن لبن الأم هو السلام والتنمية، وهذا حقيقى فقط كما تتحرك الصين، الصين تريد أن لا يتم إزعاجها وتعرف أن أجندة التنمية الاقتصادية تنتظرها. ورغم هذا وعلى مستوى آخر فإن بكين تريد أن تثأر للماضى، سياسة الانتقام وتفاصيله هى أمور سرية يتم حفظها حتى يتمكن الحزب الشيوعى من دعم كلماته بالأفعال ولكن هل هذا الهدف الثانوى تم برمجته أم هو فقط مازال رمزيا؟ السؤال يطرح لأن الأساطير عن الماضى مغطاة بشرعية دولة الحزب الشيوعى، أسس وجذور تعاملات الصين مع العالم الخارجى هى دائما راقدة فى الحرص واليقظة والحذر تجاه الجبهة الداخلية، ونفس تلك الاعتبارات تم ترجمتها من إدارة الشعب الصينى إلى التعامل فى المجال الأوسع: النظام، الهيراركية التراتبية، الطقوس، وحدة كل الأشياء، العقيدة الصحيحة. وربما فإن الأساطير تخدم الاستقرار الداخلى أكثر مما تغطى وتكون بمثابة علم على سياستها الخارجية.

ويرى البعض أن شرعية الماضى ربما ليست بالضرورة تعمل من أجل أجندة سياسة خارجية إيجابية وقوية، فتحت حكم الأسر الملكية يقال إن هناك ٣ عوامل سببت غياب سياسة خارجية طموحة: اللامبالاة، البراجماتية، الشعور أنه لا شىء مهم خارج الفضاء الصينى. أحيانا فى جمهورية الصين الشعبية نفس هذه العوامل أنتجت سياسة خارجية تتكون من القليل أو الأقل من الإدارة البيروقراطية والكلمات المزركشة والملونة.

ماذا أرادت الصين من كمبوديا سنة ١٩٦٦-١٩٦٧ فيما الحرس الأحمر الموالى لماو أثار الفوضى فى بنوم بنه؟ كيف انزلقت بكين فى صراع مع الاتحاد السوفيتى فى نهر (يوسورى) فى منشوريا عام ١٩٦٩؟ ماذا كان هدف الصين الحقيقى وهى ترغى وتزبد حول الطائرة الأمريكية EP3 فى حادثتها فى جزيرة (هاينان) عام ٢٠٠١؟ مجرد إثارة هذه الأسئلة هو فى الغالب إجابة عليها، فى كل من الحالات الثلاث يبدو أنه لا توجد سياسة واحدة، رغم هذا الشلل كإشارات ليست بأى شكل المحصلة الأخيرة أو التلخيص لسياسة الصين الخارجية، هل هذا الغموض للدولة الصينية يرجع إلى اعتبارات ورغبات باطنة ومآزق، والتى يجب أن تخيف جيران الصين؟ هل هى فقط مجرد أسلوب إمبريالى للسلوك وفى النهاية ليس له أسنان مثل اهتمام فرنسا بمهمتها الحضارية؟ هل هى أساسا دراما السياسة الداخلية؟ هل هى قومية منتفخة؟ لإضفاء الشرعية على النضال الأيديولوجى للأسرة الشيوعية.

الحقيقة أن دولة الصين تزن كل الاعتبارات الثلاثة الانتقامية، التقليدية كأسلوب لزيادة وتعظيم النفوذ وسعى لمزيد من الشرعية المتجددة وهذه الثلاثة كلها معا تكون السياسة الخارجية الحقيقية لجمهورية الصين الخارجية. الدولة الصينية مشروع من أعلى، وحارس على عقيدة تترجم إحساسها بالعلو والسمو تجاه شعبها إلى إحساس بالعظمة فى الشئون الدولية.

الفصل الحادى عشر

السياسة الخارجية
نصف إمبراطورية ونصف دولة حديثة

(بينما الهند بعد الاستقلال وصلت إلى صيغة توافق مع حكامها البريطانيين السابقين فإن الصين قد فسرت تغير التاريخ عام ١٩٤٩ بأنه اتجاه مجيد بعيدا عن قرن من الدونية المهينة إلى عصر لامع للصعود والتفوق على من غزوها من قبل)

تشوسى سوزوكى

فى كل مرة تحدث فيها ضربة بين بكين وواشنطن حول تايوان أو التبت فإن وزارة الخارجية أو البيت الأبيض تؤكدان لبكين أن السياسة الأمريكية حول صين واحدة لم تتغير، خارجية كلينتون فعلت هذا بعد زيارة رئيس تايوان (لى تنج هوى) المنخفضة المستوى للولايات المتحدة عام ١٩٩٥، والرسميون فى إدارة كلينتون يفعلونها كل مرة عندما يدلف الرئيس إلى حجرة (عادة حجرة نائب الرئيس) حيث يتكلم قليلا مع الدلاى لاما، وبكين تعترض، كما أن الرئيس بوش وفريق سياسته الخارجية فعلوا الشىء نفسه عام ٢٠٠٢-٢٠٠٣.

فلماذا الدولة الأولى فى العالم تتلو وتكرر على مسامع بكين وإثر إصرارها، تأييدها لصين واحدة؟ نحن لم نضمن الوحدة الإقليمية للاتحاد السوفيتى، على العكس لم نوافق على ضم لاتفيا وليتوانيا وإستونيا إلى فضاء

موسكو، والقادة الروس عاشوا مع هذا، فلماذا فى حالة الصين وهى إمبراطورية شيوعية مقارنة نقبل وجهة نظرها المثيرة للتساؤل عن حدودها؟

الدول الصديقة لإندونيسيا لا تتحدث عن إندونيسيا واحدة عندما يتم التساؤل عن حقوق المقاطعات المضطربة فى (آتشيه) وإيريان الغربية، كما أنه لا يتم سفح الدموع على منغوليا كدولة مقسمة رغم هذا هى واحدة، هل يجب وجود مبدأ لمنغوليا واحدة مثل صين واحدة؟ أم أن الصين حالة خاصة مثل قارورة المينج (vase) كما قال كريس باتن، وكل ذلك يفيد إمبراطورية الصين الجديدة، والصين يمكنها أن تبدو بمظهر وكأنها شبه مستعمرة سابقة حزينة أكثر منها إمبراطورية متعددة القوميات لتعيش فى القرن الواحد والعشرين.

وبعد انفتاح ماو- نيكسون عام ١٩٧٢ فإن واشنطن وبلا ذكاء تآمرت مع فكرة الصين عن نفسها كدولة ذات وضع خاص، وهذا قد تم لأسباب مفهومة، ولكن التأثير كان هو أن نكنس تحت البساط مشاكل أسرة الدولة اللينينية. أحيانا فإن الخشية التى يشعر بها قادة واشنطن عن بلاط بكين قد أدت إلى سياسات خاصة وعامة مختلفة، (إزبجنيو برززنسكى) مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر الذى تمت استشارته وقام بتقويم خطط دينج لمهاجمة فيتنام عكس إعجاب كيسينجر بالوسائل الرقيقة للديكتاتورية الصينية "أنا أردت سرا أن يزول تقييم دينج لاستخدام القوة بفضل بعض صانعى القرار الأمريكان"، وخلال الصراع التالى الصينى الفيتنامى فإن برززنسكى كان يقابل يوميا السفير الصينى فى أمريكا ويعطيه معلومات مفيدة حول الحرب وهذا ربما كان فى صالح المسألة القومية الأمريكية أو ضدها لكنه بالتأكيد كان نجاحا للصين بفضل مهارة دبلوماسيتها فى إقناع واشنطن بمؤازرتها فى معاقبة فيتنام.

حتى عندما هاجمت الصين فيتنام عام ١٩٧٩ فإن وزير المالية الأمريكى (مايكل بلومينتال) ذهب إلى بكين لإعداد تفاصيل لإعطاء الصين وضع الدولة الأولى بالرعاية تجاريا، وعندما انتقد باعتدال غزو فيتنام أبرق إليه برززنسكى "اصمت واهتم فقط بموضوعاتك التجارية" حقا لقد كان حريصا على قارورة المينج.

وأثناء زيارة دينج لواشنطن يناير- فبراير ١٩٧٩ فقد قال لكارتر "لو حصلت الصين على وضع الدولة الأولى بالرعاية فإن تجارة الولايات المتحدة مع الصين ستتضاعف عشر مرات أكثر من حجم تجارتها مع تايوان" لقد كان عرضا مضحكا لكن كارتر اعتقد بصحته، وفى الحقيقة أنه بعد عقدين من الزمان فإن الدولة الأولى بالرعاية للصين كان حجم التجارة فيها بعيدا جدا عن عشرة أضعاف حجم تجارتها مع تايوان، وفى عام ١٩٩٩ فإن صادرات الولايات المتحدة للصين كانت أقل من صادراتها لتايوان.

إن قصة سياسة أمريكا حول الصين منذ عام ١٩٧٢ كانت واحدة من قصص النجاح العقلانى لعدد من السنين، لكن فى رد الفعل مع ووتر جيت واستبدال نيكسون بفورد فإن أفضل السنوات قد ولت ومعظم الفوائد من الوفاق الصينى الأمريكى قد جرى حصدها وآخر صورة من كارتر إلى كلينتون إن بكين غالبا هزمت وتفوقت وقدرت على الاستمرار وصمدت أو خدعت واشنطن.

ويرجع هذا لعدة أسباب، فنظامها الديموقراطى يعوق ويمنع النظرة بعيدة المدى لسياسة الدكتاتورية فى بكين تجاه الولايات المتحدة. خسارة قوة السلطة والقرار من السلطة التنفيذية إلى الكونجرس خلال التسعينيات التى سمحت بالتأثير المتزايد والقوى لقوى الضغط ونتج عن هذا التشرذم فى الرؤيا الخاصة للسياسة الخارجية. وأهم من هذا كله عدم القدرة من جانب

البعض فى الولايات المتحدة أن يروا الأشياء من خلال السلوك الإمبريالى للصين.

الطقوس من أجل خلق الارتباك، خلق الانطباعات وإفقاد التوازن للجانب الآخر كل هذه أساليب وتكنيكات، والذخيرة الجاهزة تتضمن المآدب بدعوات مكتوبة والتلاعب اللغوى والتضليل وتحقيق الفوائد من خلال ما يمارس من عمليات غامضة، كل هذا تم كثيرًا فى الفترة من نيكسون إلى كلينتون مما أدى فى النهاية لخسارة الدبلوماسية الأمريكية بسبب استخدام الصين لتكنيكات هذه الذخيرة.

وهناك أسلوب ثان من خلال الصبر الطويل المدى وقد تم استخدامها فى سياسة تايوان فى السنوات الأولى من أجل الحصول على القوة المعنوية تجاه بريطانيا حول موضوع هونج كونج، وهذا الوضع يقدم الانطباع ويوحى بأن المبدأ لا يمكن تغييره بما يدفع الأمريكان خاصة للإعجاب بالعمق الثقافى الصينى، ويغمّى على عدم قدرة بكين أو انعدام إرادتها لأن تمزج الكلمات بالأفعال. هذان الأسلوبان قديمان قدم إمبراطورية الهان.

الأسلوب الثالث ينبع من التاريخ الحديث وهو الموقف الحزين (كمظلوم ومضطهد) بما يفترض أنه يعطى الصين اليد العليا المعنوية، وهذه الخدعة أو الحيلة والتى تصل إلى حد الشعوذة أو خفة اليد قادرة على وضع الصين فى جانب الجنوب المستَغل الذى لا يملك (have nots) والممنوعة من جانب الشمال القذر الغنى، والقضية هى أن الغرب يضمحل وأن العالم الثالث سيزدهر فى لحظة سقوط الإمبريالية الغربية، هناك شىء من التوقف بسبب الإحساس الماركسى بالتفوق ليصور الصين وصعودها الذى توقفه الأساليب المضادة للصين، وأن العالم الثالث منير بالفضائل بينما العالم الرأسمالى يعيش فى حمأة العنصرية والفقر والعنف (ويعلق المؤلف بسخرية على ذلك ويشير إلى أن الكثير من الصينيين يريدون ترك الصين والذهاب إلى العالم

الرأسمالى؟!). وأن الصين هى الوحيدة ضمن كل القوى التى ارتفعت لتصير رقم واحد ولن تسعى إلى الهيمنة. وفى الحقيقة فإن الصين تتفوق على نفسها ضد القوى العظمى وتحتقر العالم الثالث، ففى الكتاب المدرسى للتاريخ فى المدارس الوسطى فإنه ضمن ٥٢ جزءا عن التاريخ غير الصينى فإن هناك فقط ثمانية أو تسعة أجزاء هى عن العالم الثالث.

بكل هذا السلوك نحن نرى دولة صينية تنطوى على مفارقة تاريخية هى حالة خاصة فى السياسة الخارجية كما هى فى السياسة الداخلية، فليست هذه دولة تسمح بالتنمية الاقتصادية بمنطقها نفسه لتشكل المستقبل، هى ليست دولة حيث الرأى العام له أى مدخلات فى سياستها العامة، ولا هى دولة تعبر عن جوهر صينى داخلى باطنى لا يتغير، هذه دولة شيوعية تحاول البقاء من خلال التقاليد الأوتوقراطية بما يناسب أغراضها، هذه الدولة التى عينت نفسها دولة لينينية إمبريالية أبوية ليس الاقتصاد أو الثقافة فيها وإرادتها هما الهدف والمصير السياسية لا يحاسبها ولا يعقب عليها أحد وهذه هى البوصلة التى تتحسس بها المستقبل.

فى عام ١٨٩٥ جلس زعيمان سياسيان آسيويان فخورين عبر مائدةٍ فى ميناء شيمونوزيكى اليابانى (لى هونج زهانج) عن أسرة الكينج الصينية و(ايتو هيروبومى) عن حكومة عصر الميجى فى اليابان وكانت الحرب قد أعطت اليابان نصرًا على حكومة الكينج فى الصين وبدأت المفاوضات على اتفاقية شيمونوزيكى. اليابان كانت منفتحة على الغرب وكانت تبرز وترتفع فيما أن الصين كانت تحارب الغرب وكانت تترنح وغير مستقرة، وقدر إيتو وانتقد الصين بأنها منعزلة تميل إلى الخداع وغير متعاونة مع الأسرة الدولية، وفى إحدى الجلسات تساءل إيتو "لماذا لا تهتم الصين وتلتزم بالقواعد المتعارف عليها بين الأمم" فرد لى وهو شخص هام فى بلاط الكينج وينتمى للمجموعة المسماه "التقوية الذاتية" "إنه أمر صعب جدًا للخادم أن يقترح

تغييرًا على الإمبراطور" ولاحظ إيتو "أن الحكمة الإمبراطورية تحتم الاعتراف بضرورة هذا الإصلاح" فقال لى "كل تغيير سيأخذ وقتًا بالتأكيد".

كان عند (لى) اقتراح أن الوقت قد أزف الآن وأن الجنس الأصفر يجب أن يستعد ضد الجنس الأبيض لكن إيتو لا يرى ميزة فى تجمع ضد الغرب بين الصين واليابان وقال "أعتقد أنه من الحكمة أن تجعلوا أبناءكم وشبابكم أكثر معرفةً بالأشياء الأوروبية"، لكن الصين نظرت باحتقار إلى اليابان وأنها لا يمكن أن تتقبل منها نصيحة وكما كتب (اس سى مين) بين عن موقف الصين "نجاح اليابان فى وقت بروز وتزايد الصراعات الداخلية فى الصين بدلاً من أن يُنظر إليه كطريقة للخروج من المتاعب الصينية صار بالنسبة للصينيين فقدانًا لماء الوجه".

وبعد أكثر من قرن فإن الصين ما زالت تحاول إبعاد اليابان عن الغرب وما زالت ممزقةً بين احتقار اليابان وبين التعلم من نقاطها الإيجابية، ما زالت تقلد الغرب ولكنها ترفض الغرب، ومازالت حساسةً فى المواجهة.

إنجازات اليابان بعد الحرب العالمية الثانية لم تنه الغطرسة الصينية تجاه أخٍ أصغر ثقافيًا وعندما توصل الجانبان إلى توافق عام ١٩٧٢ فإن ماو تعامل مع رئيس الوزراء تاناكا باعتباره تابعًا، وشواى ان لاى أحضر تاناكا خلال البهو إلى كرسى الرئيس ماو الذى تساءل: هل أنهيت شجارك بعد؟ وأكمل دونما انتظار رد تاناكا "إن الشجار هو أمر جيد بالنسبة لك". فرد تاناكا بالقول: لقد قمنا بمحادثاتٍ ودية، وتجاهل الموضوع الصعب فيما إذا كانت الحرب الثانية بين اليابان والصين قد سببت كارثة (كما كانت ترى الصين أم مجرد متاعب كما كانت ترى اليابان). وعندما حاول تاناكا الاعتذار مباشرةً لماو على غزو اليابان فى الثلاثينيات للصين فإن ماو رفض وقال إن هذا الغزو هو الذى جعل انتصار الحزب الشيوعى ممكنًا عام ١٩٤٩! لقد وضع ماو نفسه فى طائرة فلسفية فوق مستوى السياسة، لقد كان

وهو الإمبراطور يتعامل مع الضيف اليابانى من خلال الطقوس حافظاً صورة اليابان رغم تقدمها باعتبارها نتاجًا يمكن إدارته من داخل الحضارة الصينية، لقد قام ماو بتحديث أفكاره لأهداف حالية، إنها القومية الثقافية اليابانية بأبعادها التى تتضمن الغنى والكرم وفى نفس الوقت الغطرسة والاحتقار، وفى خلال ربع قرن منذ محادثات ماو تناكا فإن طوكيو حاولت باستمرار ولكن دونما نجاح أن تحل مشاكل الماضى والمواضيع الرمزية والتركيز على الأجندة الحالية، فبالنسبة لدولة الحزب الصينية فإن اليابان ترمز لماضى الحرب العالمية الثانية كما أنها تدور فى الأفق كمصدر خوف فى المستقبل ولكن لا يمكن قبولها بسهولة كواقع حالى. فى عام ١٩٩٨ وأثناء زيارته لليابان فإن جيانج زيمين ألقى عدة خطابات حول ما سماه "أسئلة التاريخ" مركزًا على هجوم اليابان على الصين فى الثلاثينيات ودورها الأخير فى جعل تايوان خارج القبضة الصينية، وقضى وقتًا مع جمعيات الصداقة حيث حث على مقاومة التسلح والعسكرة، وكما لو أن عام ١٩٩٨ فإن البناء العسكرى الكبير فى شرق آسيا ليس قادمًا من الصين ولكن من طوكيو!، وشاكيًا من أن كتب التاريخ الرسمى فى اليابان شديدة القومية. ولم تحدث جيانج كما لو أن الحزب الشيوعى لم يواجه تاريخيًا تدبيرات الوثبة الكبرى للأمام المدمرة التى أدت إلى وفاة ٣٠ مليون شخص.

سياسة جيانج عن اليابان هى جزء من المسرح والتى أدانت ماضى اليابان العدوانى، وبكين تعرف كيف تتحرك كما يناسبها ومن هنا نقص الذاكرة التاريخية عندها للوثبة الكبرى للأمام ولكن مع اليابان فإن الشيوعيين الصينيين يجدون أن العودة للماضى هى أمر لا يمكن مقاومته كما أنها تسمح للأسلوب الإمبريالى بالاستخدام وتُغذى إحساس اليابان بالذنب بهدف تحقيق مكاسب عملية.

وجيانج أدرك بالطبع أن رحلته عام ١٩٩٨ كانت قصيرة وقليلة الفائدة ولكن الظهور الإمبريالى لم يسقط وفى ربيع عام ٢٠٠١ فإن رئيس وزراء اليابان الجديد كويزومى قال إنه ينوى زيارة ضريح (الشنتو) والذى يكرم شهداء الحرب فى ١٥ أغسطس، النهاية الرسمية للحرب العالمية الثانية، وفى يوليو وعلى هامش مؤتمر للآسيان فى هانوى فإن وزير خارجية الصين (تانج جياكسوان) احتج لدى نظيره اليابانى ليحول دون زيارة كويزومى المُترحة لضريح ياسوكونى. وبعد هذا الاجتماع قابل تانج الصحفيين اليابانيين وصاح "اوقفوا هذا!" مشيرًا لوجهة نظر الصين حول زيارة الضريح، وكما نشرت النيويورك تايمز فى ٢٦ يوليو ٢٠٠١ فإن كلمات تانج كانت باليابانية وبصوت آمر يتم استخدامه عادةً مع الأطفال.

ونتائج انفجارات تانج كانت مشابهةً للنتائج السلبية لزيارة جيانج عام ١٩٩٨ : لقد تم وخز اليابان فى كعبها. وذهب كويزومى للمعبد كما خطط رغم تأخره يومين عن موعد الذكرى وبعد أحاديث جيانج عام ١٩٩٨ عن الحرب العالمية الثانية فى اليابان فإن سكرتير عام الوزارة (بيرومو موناكا) قال مُحبطًا "أليست هذه مشكلةً منتهية؟" لكن عمليات اليابان القديمة لن تكون منتهية فيما الدولة الإمبريالية فى الصين قائمة وكما تساءلت الصحيفة اليومية "سانكى" فى طوكيو يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٨ "إلى متى علينا أن نكمل الاعتذار؟". حتى تتوقف الدولة الصينية باعتبار نفسها شرعية من خلال تلقى هذه الاعتذارات، حتى تُصبِح الإمبراطورية دولة حديثة.

الصين تنتقد اليابان فى موضوع الكُتب الرسمية التى تصحح التاريخ اليابانى لكن كتب الصين أيضًا تصحح التاريخ الصينى والكتاب التاريخى للمدارس الوسطى فى الصين يكرس ٩ أجزاء للغزو اليابانى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ولم تذكر هجوم الصين على اليابان خلال أسرة يوان. وفيتنام جاءت ربما أسوأ من اليابان فى التاريخ الصينى المتعدد المجلدات

والذى مثل كل الكتب المدرسية فى الصين هو كتاب دولة الحزب حيث لم يذكر شيئًا عن غزو أسرة الهان لفيتنام أو احتلال الصين لفيتنام لمدة ألف سنة! والمناقشة الوحيدة عن فيتنام فى ٤ مجلدات تتحدث عن حرب فرنسا والصين عام ١٨٨٥، لقد كانت فيتنام هى المكان حيث تواجه الطرفان، فرنسا غزت فيتنام كقاعدة لغزو الصين وكذلك فإن الغزو الصينى والحكم الاستعمارى فى كوريا تم إستبعادهما.

التاريخ السياسى الأخير للصين هو اختيارى والكتب الدراسية لا تذكر مجاعة الوثبة الكبرى للأمام وتُعطى الإنطباع بأن الحزب الشيوعى كان السبب فى نجاح حملة شيانج كاى تشك الشمالية عام ١٩٢٧ والتى وحدت معظم الصين، وأن الحزب الشيوعى كان يتولى الدولة الصينية ١٩٣٧-١٩٤٥ ضد اليابان.

والحقيقة أن انتقاد الصين لكتب التاريخ اليابانية ليس عن التاريخ لكن عن الحاضر والمُستقبل تمامًا مثل الكتب الرسمية الصينية التى هى كراسات دعاية سياسية تعليمية هدفها ليس فقط الإعلام والإخبار لكن أيضًا النعرة القومية، وصحيح أن الجدال حول التاريخ يُستخدم كوسيلة فى السيطرة على الصراع مع غير الصينيين، وهذا التكتيك أكثر خطورة فى الصين منه فى اليابان، لأنه فى الأخيرة على عكس الصين فهناك كُتب تدعمها وترعاها الحكومة وهناك بجانبها كُتب مستقلة وفى أبريل عام ٢٠٠١ فإن الحكومة الصينية قامت برعاية مجموعة من الجنود الذين حاربوا ضد اليابان حيث تجمعوا فى (هاربين) وأشعلوا النيران فى الكُتب الدراسية اليابانية، وكما قال أحد المحاربين القدماء "أنا لا أفهم ماذا تريد الحكومة اليابانية أن يكون مستقبل أبنائها الصغار بهذه الكتب التى تشوه التاريخ". وفى الكتب الرسمية الصينية فإن التشويه هو أسوأ ولكن لا يوجد ثمة من ينتقد هذه الكتب الذى يعوى ضد هذه الكتب.

أسرة السونج الملكية أصدرت عملاً سمته "نماذج كبرى من ذخائر الماضى" فى مجموعة متعددة من المجلدات أبرزت فيها موضوعين مستمرين فى السياسة الخارجية الصينية، حيث ربطت بين الثوابت التاريخية فى مشاكل حدودها فى القرنين العاشر والحادى عشر، الموضوع الأساسى فى المُقدمة التحريرية : إخفاء الضعف وإظهار القوة والثانى ادعاء المثالية من جهة والسياسة المثالية من جهة أخرى. ورغم أن حاكم الخيتان فى الشمال الذى قاد أسرة مملكة (لياو) كان مساويًا وندًا لإمبراطور السونج فإن وثائق أسرة السونج تسميه الوزير من الخارج أو الوزير الخارجى للبلاط الإمبراطورى لتجعل حدود القوة الصينية أمرًا يمكن احتماله. وفى كتاب السونج المُصمم لتوظيف التاريخ فى خدمة الحاضر يطرح ويؤكد تقليدًا للسياسة الخارجية يعود إلى أسرة (إكسيا) الملكية التى بدأت فى القرن ٢١ ق.م. ومؤرخو السونج لم يستطيعوا إنكار أن أسرة الهان لم تكن بالقوة الكافية لطرد الصحراويين (الإكسيونجنو)، والحل لديهم كان هو التفسير الخاطئ لثلاثة قرون ما بعد الهان قبل بروز أسرة (سوى) واختصرت فى خمسة أسطر فقط. فترة السونج تم إعادة تنقيحها من خلال كتاب السونج لجعل القوة والفضيلة يقتربان ما أمكن، والمقدمة الأولى والأطول كانت عامة حول الوزراء من الخارج حيث إمبراطور التانج المُسمى (كاى زونج) يميز بين أسرة الهان التى قامت بالاتفاق مع غير الصينيين وأسرة التانج التى لم تكن بحاجة إلى ذلك، وكتب عن الهان فى عام ٦٤٢ فى استجابة لنصيحة ألا يحنث بالوعد فى اتفاقات الزواج وأن الصحراويين (الأكسيونجنو) أقوياء والصين ضعيفة ولهذا فإن البنات كُن مزينيات تمامًا ومتزوجات، أما الآن فإن الصين قوية والشماليون ضعاف وألف جندى يمكنهم هزيمة عدة آلاف منهم ومن هنا فعقود الزواج يمكن الحنث فيها ونقضها حسب الإرادة فى فترات قوة الصينيين.

وكتاب السونج الذى يغطى الفترة عندما كانت التبت مساوية للصين كان عليه الاعتراف أن الإمبراطور نفسه (تاى زونج) دخل فى عقد زواجٍ بين الصين والتبت وكان عليه احترامه وهو شبيه بعقد زواج إمبراطور التانج وقائد اليوجور وتضمن الكتاب كذبة (نافعة) حتى يغطى الواقعية ويبين فى صورة الكونفوشيوسية ويقول إن اليوجور منذ عقد الزواج كانوا يقدمون "فروض الطاعة والولاء للصين دون توقف".

وإمبراطورية السونج نفسها فى معاهدة مع الخيتان عام ١٠٠٥ قبل ثمانى سنوات من ظهور المُقدمة العامة عن الوزراء الخارجيين كان عليها أن تعامل شركاءها على مستوى الندية، حيث الهدايا من الحرير والفضة تم تقديمها باعتبارها إما رمزًا للطاعة من الخيتان للصين أو رمزًا من الصين إلى الخيتان.

وكان على السونج أن يبتلع تقديم كوريا لفروض الطاعة والولاء إلى أسرة لياو (الخيتان) وليس الصين. وأيضًا فى الجنوب فإن بعض الممالك قدمت فروض الطاعة لفيتنام أكثر من الصين وفى هذا الموقف الصعب، وهنا نقطة إعادة كتابته والنظر فى التاريخ تعطى تأكيدًا بأن القدماء كانوا واقعيين دونما الوقوف عند كون الصينيين أصحاب فضيلة، وهذا الكتاب المهم المجموع فى أكثر من عشرين مجلدًا قدم سابقة عملية من خلال الخلط والمزج بين الكونفوشيوسية والواقعية القانونية، إنها تلتصق وتؤكد على العلو والسمو الصينى حتى وهى فى ذات الوقت تتضمن أساليب جرى اللجوء إليها عندما كانت الصين فى الحقيقة أقل سموًا وعلوًا، ومقدمة فى صورة الواقعية وكان على إمبراطور السونج أن يقبل أن الأيديولوجية أو العقيدة يمكن أن تختلف مع الواقع. وبعد عام ١٠٠٥ كتب (وانج جونجوو) فى تحليل رائع لهذا التجميع "بينما كانوا يتأملون فى استمرارية التاريخ الصينى بدأ الرسميون السونج يرون أن تقليدًا محترمًا كان هنالك للتعامل مع الواقع وحده

منفصلاً وبلا حاجة لتغيير اللغو الكثير، وعندما لا يكون أمامك سوى الإمساك بالخط لا يوجد ثمة نظام عالمى صينى، ولكن حتى لإمبراطورية صغيرة ربما لهذا فإن اللغو الكثير حول تقديم الولاء كان أمرًا مريحًا".

هذه الأعمال الفكرية والسياسية جرى أقلمتها وتوظيفها للاستخدام فى الصين الشعبية ليس للدواعى المدرسية ولكن لأن الموضوعين المُحددين بدايةً مستمران: التغير بين الضعف والقوة والثانى التطبيق المختلط للمثاليات السياسية والسياسات الواقعية.

لقد حدثت تغييرات كثيرة فى السياسة الخارجية منذ أسرة السونج وحتى اليوم، بما فى ذلك: أن اليابان الآن تتعامل مع كل ركن من أركان الكوكب الأرضى وتنتمى إلى ٤٥١ منظمة حكومية و٢٩٨٦ منظمة دولية غير حكومية. وهى تملك أيدولوجية ماركسية لينينية هى فى الحقيقة أكثر عالميةً من المجموع الكونفوشيوسى العقدى تحت السماء، وتقبل التعامل المستمر مع الأجانب فى بكين، ولديها القدرة العسكرية لتدمر دولاً بعيدة عبر البحار بما فيها "الساحل الغربى للولايات المتحدة كما تفخر الصين بذلك" كما دخلت الأمم المتحدة وعمليات حفظ السلام فى كمبوديا وتيمور الشرقية وموزمبيق والعراق/الكويت والصحراء الغربية وليبيريا وسييراليون.

ورغم هذا فلا يمكننا ببساطة رسم خط بين الممالك الصينية وجمهورية الصين الشعبية، فقد تغيرت أشياء كثيرة بين القرنين الثالث قبل الميلاد وعصر (كين شيهوانج). والفوضى فى القرن الثالث بعد سقوط أسرة الهان كانت صرخةً بعيدة من التانج فى أوج قوتها فى القرن الثامن، وأسرة السونج قبل وبعد هزيمتها على أيدى الجين ١١٢٦ / ١١٢٧ كانت ذات طبيعة حيوانية. ومن الناحية الاقتصادية فإن الصين تمتعت بقفزة للأمام فى العصور الوسطى سمتها (إلفين) ثورة اقتصادية ولكن أعقبها توقف حتى القرن السادس عشر. وسياسات الدولة النشطة اقتصاديًا لم توجد فى أسرة المينج

وفيما بين أسرة الكنج فى أقصى اتساعها فى القرن الـــ١٨ وانسحابها فيما بعد ١٨٦٠ كان هناك تغيير حاد، وهذه التذبذبات فى المستوى والطبيعة العامة يمكن مقارنتها بالتغييرات خلال فترة جمهورية الصين الشعبية بين عصر ماو وعصر جيانج. إننا نرى فى الصين القديمة والوسطى والمعاصرة ذلك التأرجح والتذبذب من التحكم الضيق إلى الفوضى بين التمسك بالخط والدفع نحو أقصى الأهداف، بين السعى للازدهار والسعى للمجد القومى بين الإقناع الأخلاقى واستخدام السيف بين الانتباه والحذر من العالم الخارجى وبين إهماله وتجاهله والشئ المهم فى ذلك كله هو الإمساك بالقانون الذى يقف وراء هذه التغيرات.

لآلاف السنين فإن كلا الموضوعين السابق ذكرهما كانا واضحين تمامًا فى هذه التغييرات المتكررة، أحيانًا الصين قوية وأحيانًا ضعيفة والصلة بين الاثنين تتمثل فى جهود الدولة الصينية لتعظيم نفوذها بإخفاء الخلافات وإعادة تغليف الضعف ليظهر فى صورة القوة. (بنيامين شوارتز) رأى أن أحد العوامل المتعلقة بالصعود والهبوط، كان هو العوامل الخارجية ويمكن البرهنة على ذلك المتغير فإن (الإكسيونجنو) الصحراويين كانوا تهديدًا وتحديًا للهان، والاتحاد السوفيتى كان تحديًا لماو. الخيتان كانوا عقبة أمام السونج وكذلك الولايات المتحدة عقبة أمام جيانج زيمين وهكذا. والمتغيرات الأخرى عند شوارتز كانت هى قوة الأسس الكوزمولوجية الداخلية، فأسرة الهان تمتعت بنفوذ بين بعض الشعوب المجاورة، وبعد سقوطها فإن الصين المُقسمة المجزأة تمتعت بنفوذ أقل، وشيوعية ماو كان لها نفوذ فى الخمسينيات والستينيات بينما شيوعية جيانج وهو جنتاو ليس لها ذات القبول أو البريق الأيديولوجى.

الموضوع الثانى المستمر منذ آلاف السنين للتغيير المتكرر لاستخدام دولة الصين المنافق للغة ممزوجة بالأخلاق وسياسة واقعية عارية وهذا

الازدواج (وهو أمر غير معروف فى شكل آخر فى التاريخ الدبلوماسى الأمريكى) هو قديم مثل الفرق بين كونفوشيوس و(الهان فيى) وهو مثل الخلاف بين رئيس الوزراء (زورونجى) يقول للأمريكان أن الصين "صديق يعتمد عليه" للولايات المتحدة فيما يقول تقرير سرى للجيش "سيثبت أنه من غير الممكن أساسًا تحسين العلاقات الصينية الأمريكية" هذه الثنائية الصينية الشيوعية للمثالى والواقعى تنبع من تقليد طويل وناجح بدرجة كبيرة".

فأسرة السونج كانت غالبًا محبطة إثر عدم قدرتها على فرض النظام الصينى العالمى كما أن الصين مُحبطة من الفجوة بين الثروة والسلطة، بين الصين والغرب. وبالنسبة للسونج فإن المواءمة مع الإحباط تضمنت الرجوع للخلف بالنسبة للأسس الكوزمولوجية الداخلية، اليوم النظير التحليلى والركيزة هو الصينية بالإضافة إلى الماركسية ويتجه المساران بسرعة نحو الجانب الأول (الصينية)، عامل القوة والضعف بالنسبة لأسرة السونج وغيرها من الأسر يتصل مباشرةً مع عامل المثالية والواقعية. والقدرة المتأرجحة كانت عاملاً أساسيًا فى التذبذب بين العلو واللجوء للتوافق، بين الرؤية الكونفوشيوسية العالية وبين اللجوء للواقعية القانونية وصراع الكلاب. هذه الثنائيات المُتصلة نجدها كذلك واضحةً خلال سنى وعقود جمهورية الصين الشعبية.

المقارنة بين علاقات ريجان وكلينتون مع الصين تكشف عن دولة الحزب الصينية وللدهشة فإن علاقات الولايات المتحدة مع الصين كانت أكثر نعومةً تحت إدارة ريجان منها تحت إدارة كلينتون، ليس هذا لأن ريجان كان أكثر اقتناعًا تجاه الصين الشيوعية من كلينتون وإنما بسبب البناء العسكرى والرسائل الأخرى المتعلقة بالقوة، ريجان فهمته بكين كقائد لن يكون مستعدًا للتسليم أو التراجع، ودولة الصين والتى لمدة ألفى سنة قد عرفت متى وكيف تنسحب لجأت لجانب التوفيق مع ريجان أما مع كلينتون الذى تردد وتذبذب

ونقد وتذمر باستمرار فى سياسته مع الصين فإن بكين قد اندفعت ببساطة للمزيد والمزيد.

زيارة جيانج زيمين للولايات المتحدة أكتوبر- نوفمبر ١٩٩٧ كانت هامة للعلاقات الأمريكية الصينية، وكذلك تعرض أساليب دولة الحزب الصينية التى تمجد ذاتها، والإعلان الصينى والأفلام التى غطت الزيارة عكست وركزت على نصر تاريخى وأن جيانج زيمين جذب قلوب الأمريكان، لقد رؤى يلعب على الجيتار ويشبك يديه معا فى بورصة نيويورك ويتحدث الإنجليزية إلى مستمعين من هارفارد ويبدو مجيبا على كل الأسئلة فى مؤتمر واشنطن الصحفى، والصحافة الصينية فيما بعد قالت أن جيانج يملك معلومات واسعة لأشياء قديمة وحديثة ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، يلعب الجيتار ويغنى فى أوبرا بكين وهو جيد فى السباحة والرقص، هو غير عادى ذكى، وله شخصية كاريزماتية، وهو محبوب ويستحق الاحترام، هذه هى الصورة التى إستقبلها الصينيون عن جيانج وأثره على الولايات المتحدة.

العملية المطلوبة من الدولة الصينية لتحقيق أهدافها خارجيا كشفت أثناء زيارة جيانج لجامعة هارفارد، ففى القاعة التذكارية تحدث عن الصين الموحدة منذ ألف سنة وهو تأكيد مضطرب، كما تحدث عن علاقات الصين مع غيرها من الدول ولكنه لم يذكر شيئا عن استيراد الماركسية اللينينية! وفى الأيام التالية لم أسمع أحدا فى هارفارد يعلق على ذلك، البعض ربما شعر أنه لم يتحدث عن الماركسية كعلامة على سياسته الليبرالية الكوزموبوليتانية فى فترة ما بعد الشيوعية، والحقيقة أن جيانج فى هارفارد كما كان خلال الرحلة أخفى بشكل أساسى أجندة سياسته الخارجية، وخلال ظهوره فى هارفارد كان دمثا حلو المعشر وتحدث بعض الإنجليزية، وبعض الناس من هارفارد تشبث بهذه النقاط لإعلان نجاح زيارته فى محاولة لجعل

الشيء الصغير أكبر من حقيقته، والبعض الأقل قرأ فى إجابته اعترافا بالخطأ حول ما حدث فى ميدان تيان آن مين، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك، فقبل ذلك بيومين وفى واشنطن ومع الرئيس كلينتون قال إن الحكومة الصينية منذ وقت طويل وصلت لحكم صحيح حول أحداث تيان آن مين وما قالته بكين يوم ٤ يونيو ١٩٨٩ فى السنوات الست منذ ظهور جيانج، والنقطة الأساسية أنه لم يكن يسلم بأى أخطاء. ولسوء الحظ فإن جامعة هارفارد لم تسمح بمناقشة مفتوحة مع جيانج وكانت هناك لجنة قامت بانتقاء الأسئلة المقدمة سلفا، وفى الخطاب فإن رئيس الجلسة قرأ أسئلة مختارة والتى لم تكن فيها أية أشياء مثيرة ولم تختلف عن تلك التى قدمت لجيانج فى واشنطن ونيويورك، ورغم هذا فإن اعتذارا تم تقديمه إلى جيانج حول حدة الأسئلة التى تم تقديمها وبعد سؤالين مختارين فإن سؤالا ثالثا أعلن وقال رئيس الجلسة إن الرئيس زيمين يريد أن يسمع من شخص أمريكى فوقف مواطن أمريكى اسمه (لى تون) هو أستاذ علم الفيروسات فى مدرسة هارفارد للصحة العامة وقال له رئيس الجلسة "أنا لا أعرفك، اجلس" متجاهلا أن أمريكيا يمكن أن يكون من أصل صينى. وتلقت اللجنة سؤالا لم يتم تقديمه لجيانج وكان السؤال هو "لقد قلت إن تايوان يجب أن تكون جزءا من الصين وأن الولايات المتحدة طالما منعت توحيد تايوان مع الأرض الأم، وإذا نظرنا إلى الماضى هل هو شيء جديد أن تايوان بفصلها عن الصين قد فقدت القفزة العظمى للأمام والثورة الثقافية؟" وفى راديو بوسطن قبل عدة أيام كنت قد قلت أن هذا سؤال مثير، وشخص من اللجنة التى تختار الأسئلة قال لى لما دخلت القاعة التذكارية "إن هذا السؤال قد استقبلته مجموعته وقدمه مستمع للراديو لكن اللجنة ربما اعتقدت أن السؤال سيكون مزعجا للديكتاتور الصينى". وتعبيرا عن الوهم الأمريكى الدائم فإن رئيس اللجنة قال لأحد الصحفيين "إننا نريد أن نوضح كيف نقوم بالمناقشة المفتوحة بطريقة

ديموقراطية سلمية دون خلق حالة من الفوضى" وهذا سيكون له معناه بالنسبة للمناقشات العامة فى الصين.

لا يوجد ثمة نقاش عام حول الأمور السياسية أو السياسة الخارجية فى الصين، ولم يكن هناك عمل فى هارفارد فى هذا اليوم فى القاعة التذكارية (الصور، عدم تهديد الأمن كلها ممنوعة) وكل ما له معنى للشعب فى الصين هو جيانج يتحدث أمام ستارة المسرح الخلفية تحت شعار كبير لجامعة أمريكية عظيمة، والإعلان الأحمر والأبيض هو واحد من صورتين كان يريدها حزب الدولة من الزيارة والشيء الآخر الذى كان يريده من الزيارة وناور من أجله هو وضع جيانج واقفا أمام جرس الحرية فى فيلادلفيا والمفاوضون الأمريكان الذين أعدوا للزيارة كما كتبت نيويورك تايمز أرادوا إبراز فشل موظفى كلينتون فى فهم مركزية الطقوس للدولة الصينية، وقالوا أنهم قد حيرتهم الطريقة التى استخدمها مناظروهم الصينيون حيث كانوا مهتمين جدا بتفاصيل البروتوكول والرمز.

خارج القاعة التذكارية كان هناك مظهر يثير الفرح وهو نقاش الصينيين ممن هم مع بكين أو ضدها، ولكن فى العموم فإن ذلك اليوم كان فرصة ضاعت على جامعة هارفارد، فداخل القاعة كانت هناك طقوس وخارجها متظاهرون يغنون وكل منها يتغذى على الآخر، ولو كان هناك حوار مع زيمين داخل القاعة التذكارية فربما خلق ذلك أرضية مشتركة، لقد كان مروعا أن نرى رئيس جامعة هارفارد يحيى ويرحب بزيمين باسم حرية الحديث ثم يجلس فى اجتماع كانت القواعد الأساسية فيه قد اقترحها نظام الدولة السلطوى الصينى وقبلتها جامعة هارفارد. وفى بكين فإن الإعلان الصينى لم يركز على اهتمام هارفارد بالحديث الحر، على العكس فهى أرغت وأزبدت وأرعدت بأن الشعب فى الولايات المتحدة يجب عليه أن يترك وأن ينسى عقلية الحرب الباردة. من واشنطن إلى كيمبريدج فقد تمتعت

دولة الحزب الصينية بأسبوع ممتاز، لقد تم التعامل مع جيانج زيمين باعتباره (قارورة) من عصر المينج.

قام الرئيس كلينتون برد زيارة جيانج إلى الولايات المتحدة برحلة إلى الصين فى يونيو ١٩٩٨ ومعه ٥٠٠ من فريق المساعدين و٢٠٠ صحفى بما مجموعه ١٢٠٠ شخص، تلك الزيارة التى رفعت بكين إلى عنان السماء، وكالة الصين الرسمية كتبت عشية وصول كلينتون "أن بعضا من أصحاب المشاعر المعادية للصين والسياسيين فى الولايات المتحدة مع كل أنواع الإعتذارات قاموا بالهجوم على سياسة البيت الأبيض المتعلقة بالتعامل مع الصين، كما حاولوا وضع العقبات أمام رحلته لبكين". بكين ساندت كلينتون كلية من الناحية السياسية، فى مقابل هذا فإن كلينتون اتجه نحو وجهة نظر بكين عن تايوان وعلاقات الولايات المتحدة مع الصين وألمح إشارة فى الرحلة لذلك إلى القيادة الشيوعية الديكتاتورية.

وفى بكين فإن كلينتون كان واقفا بجانب قيادتها التى لم تبد أى قدر من الندم من جانب الحزب الشيوعى على القفزة الكبرى للأمام ولا عن الثورة الثقافية وقال كلينتون "على الأمريكيين الاعتراف باللحظات المؤلمة فى تاريخنا حيث إن حقوق الإنسان جرى انتهاكها" واضعا نفسه حيث تريد الدولة الصينية وقد استمر فى قوله "يجب القول إن علينا الاستمرار للعمل من أجل دعم الكرامة والحرية والمساواة لشعبنا" لقد لعبت بكين وكأن الرئيس كلينتون بالنسبة لها هو آلة كمان ولو لم تكن فكرة (تعالى وصر صينيا) قد إخترعت أو تم اختراعها منذ ألفى سنة لكان من الواجب أن يتم نحتها فى قمة ١٩٩٨.

زهر الطاولة كان قد تم تحريكه قبل مغادرة كلينتون لواشنطن، متمنين وآملين فى اتفاق تجارة وحقوق الإنسان والبيئة والتى لم يتم تبلورها بعد، ولذلك فإن البيت الأبيض أعلن أن الرحلة بذاتها هى الرسالة، وكما قال

الممثل التجارى الأمريكى (فإن النتيجة المهمة الوحيدة للزيارة هى تقديم الصين إلى الولايات المتحدة) وكان ذلك هو ما يريده الجانب الصينى وكانت هذه الجملة تعنى (لا تصدقوا مشاعر المعادين للصين لدى بعض الأمريكان) والتى طالما ناضل الحزب الشيوعى الصينى لتحقيقه وإنجازه وكان كلينتون من جانبه سعيدا بمساعدتهم على إنجازه.

وكما قال أحد كبار المسئولين فى إدارة كلينتون "إنه ليس ذاهبا لمقابلة الشعب الذى هو فى السجن أو تحت الحبس فى المنازل هذا ليس طريق عرض الألعاب فى الجاليرى فى بلدنا" وكان ذلك حقيقة هو بالفعل، وكان هذا العرض الذى كان يتم جذب أطرافه من جانب دولة الحزب الصينية التى لعبت على الحرب ضد القوى المعادية للصين فى أمريكا. ولأسابيع قبل رحلة كلينتون مثلما حدث قبل زيارة زيمين لأمريكا فإن السلطات الصينية ساءلت وعذبت الصينيين بعضهم فى أمريكا وكثيرون فى الصين والذين يخشى منهم أن يقدموا مذكرات معارضة خلال القمة. (شين بانجزهينج) المتخصص فى البيولوجيا الجزئية والذى يعمل فى إدارة الغذاء والدواء كان فى زيارة لوالدته فى الصين قبل زيارة كلينتون وقامت قوات الأمن الصينية بإيقاظه وسؤاله عن المنشقين فى أمريكا وقال "كان واضحا بالنسبة لى أنهم لا يريدون حدوث أى شيء يقطع شهر العسل بين زيمين وكلينتون".

وغداة مغادرة كلينتون واشنطن قامت بكين من خلال التليفون بإلغاء تأشيرات الدخول إلى ثلاثة من مندوبى راديو آسيا الحرة والذين كانوا سيغطون الزيارة ورئيس محطة الراديو التى يمولها الكونجرس سأل البيت الأبيض السماح لثلاثة مندوبين بالسفر بالطائرة الحكومية التى تحمل رجال الإعلام لكن البيت الأبيض رفض متخفيا وراء متطلبات الطيران الدولى للحصول على تأشيرة صالحة لركوب الطائرة. وتجاهل ذلك أن المندوبين الثلاثة كانت لديهم تأشيرات صالحة. وفى موقف مشابه عام ١٩٩١ فإن

رئيس وزراء بريطانيا قال لبكين ببساطة أن صحفيا تريد الصين منعه سيأتى على طائرة بريطانية وقامت الصين بإعطائه تأشيرة فى المطار ولكن واشنطن تركت بكين تمنع ثلاثة مندوبين من راديو آسيا الحرة من تغطية زيارة كلينتون، لقد ارتجفت وتزلزلت واشنطن أمام (قارورة المينج)!

ودولة الحزب فاقت البيت الأبيض فى التعامل مع أفضل لحظات كلينتون فى الصين، فصحيفة الشعب اليومية فى تقريرها عن اللقاء الصحفى المشترك بين كلينتون وجيانج حذفت كلمات كلينتون الممتازة عن الحرية، والتبت، ومأساة تيان آن مين ١٩٨٩، فى اليوم التالى ذهب كلينتون إلى الكنيسة وتحدث مع جمع من ٢٠٠٠ شخص ولم تذكر الصحيفة هذا الحدث وفى اليوم التالى فإن الصحيفة لم تكتب كلمة واحدة عن حديثه الحر فى جامعة بكين، ولكن هل لم تحفظ بكين وعدها فى بث المؤتمر الصحفى بالتليفزيون وحديثه فى الجامعة؟ هى فعلت ذلك وحسبما ذكر (جوناثان كولاتك) فى تقريره دونما إعلان مسبق للشعب الصينى، وفى يوم السبت والأحد صباحا وقليل من الصينيين كانوا فى منازلهم وقليل منهم تابعوها على التليفزيون.

موظفو كلينتون أعطوا بعض المقاطع من ملاحظاته فى المناسبات الثلاث للصحافة الأمريكية لبثها حول العالم وكانت الإدارة الأمريكية تعوّل على تقدير الرأى العام للفيلم الذى رأوه لكلينتون فى المناسبات الثلاث ولكن يبدو أن الإدارة لم تدرك أنه بفضل سياسات صحيفة الشعب الصينية ومكتب جيانج زيمين فإن الرأى العام الصينى وهو الموضوع المفترض للملاحظات لم يتابعها، وبهذه الطرق فإن دولة الحزب الشيوعى الصينى حولت الضعف إلى نوع من القوة.

(جيم هوجلاند) فى صحيفة الواشنطن بوست كتب تقديرا غير ذكى لهذه المهارة المسرحية الصينية "زيارة كلينتون للصين قد تم تقديمها حول

عدة أساطير وأوهام لقدساير كلينتون الصينيين فى التلاعب به لأهدافهم والتى أسىء فهمها وكأنها أهدافه هو".

وقال كلينتون لمؤتمر صحفى فى هونج كونج بعد مغادرة الصين "ما كنت أريد رؤيته هو الحكومة الحالية التى يرأسها الرئيس ورئيس وزرائه وهما ملتزمان بالإصلاح ويركبان موجة التغيير ويأخذان الصين بالكامل إلى القرن الواحد والعشرين". الشعب الصينى ليس له كلمة فى اختيار الحكومة الصينية التى أسعدت وسرت كلينتون، لقد وجد كلينتون فى جيانج جورباتشوف الصين الذى لو نظر إليه بدقة وعن قرب لرأى فيه بريجينيف الصين.

وبينما تابع جيانج أهدافه غير المعلنة والذى ساعده على الاقتناع بها المقالة الافتتاحية فى النيويورك تايمز وأنه حقق واحدا منها "جيانج استخدم ظهوره مع كلينتون ليقدم نفسه كرجل دولة والذى يمكنه أن يقابل على قدم المساواة زعيم أكبر دولة فى العالم وأغناها وأقوى دولة" وهذا يقلب الضعف إلى قوة وهو هدف أساسى لدولة الحزب الصينية.

وفى لقاء مع النيوزويك بمناسبة زيارة كلينتون إلى الصين فإن جيانج انتهى بملاحظة خطط لها حيث قال "أريد أن أخلص بالاقتباس من قصيدة شهيرة من أسرة مملكة السونج... رغم جهود الجبال فإن النهر سيستمر فى الفيضان نحو الشرق" وهذا ليس إلا تحديثا لمبدأ أو حكمة ماو فى الثورة الثقافية الصينية "إن ريح الشرق ستعلو على ريح الغرب".

ديفيد سانجر فى النيويورك تايمز يبدو أنه فهم تلاعب بكين بكلينتون ولكنه لم ينتقد ذلك "هم يريدون صورة طائرة سلاح الجو رقم واحد تحلق بالضبط فوق اليابان كما قال فرحا عن خضوع كلينتون لطلب الصينيين ألا نقف الطائرة فى الطريق فى اليابان" وبعد عودة كلينتون مباشرة فإن رئيس

الوزراء (زورونجى) عبر فى حديث سرى عن سعادته بأن كلينتون "لم يتوقف فى اليابان فى طريقه للصين... وأنه نتيجة لهذا فإن اليابان قد فقدت ماء وجهها".

الرأى العام العالمى كما قالت صحيفة الشعب اليومية ثمَّن قمة جيانج كلينتون والصحافة الرسمية الصينية جمعت ما نشر خارج الصين لأن الرئيسين تقابلا على قدم المساواة، وأن بكين أذاعت مباشرة كلمات كلينتون التى تظهر جيانج وثقته فى أن كليهما جعل من آسيا أكثر استقرارا ومن العالم أكثر سلاما.

قمتا كلينتون وجيانج حملتا ملاحظات (والدرون) أن "الصين يمكنها التصرف بخصوصية فى علاقاتها معنا فقط عندما نعاملها بوضعية خاصة" هذه المناسبة مثلت عملية تلاعب ناجحة من خلال استخدام الطقوس والموقف المحزن والصبر لأقوى دولة فى العالم على مر التاريخ بدكتاتورية شيوعية تتوق لاغتصاب أى أمل ولو كان ضعيفا لتجديد شرعيتها.

وكما كتب أستاذان روسيان عن النظرة الأجنبية للأسر الصينية الملكية من التانج إلى المينج "فإن المبادىء الأيديولوجية المحددة الواضحة مع الطقوس المتسقة والمتناغمة ورغبة الأجانب فى استمرار العلاقات التجارية مع الصين ساعدت ومكنت الموظفين الإمبرياليين من خلق الوهم بعيدا عن النفوذ السياسى الفعلى للإمبراطورية السماوية الصينى". ومن خلال كل كلمة هنا يمكن القول بأن تفكير واشنطن كان تفكيرا بالتمنى حول الصين خلال التسعينيات.

والخلاف الوحيد أنه فى التسعينيات فإن الفوائد التجارية كانت أكثر تخيلا مما هى عليه فى الواقع فوزير التجارة الأمريكى قال إن الصين هى الطيف فى نهاية قوس قزح، ولكن بينما رأت إدارة كلينتون أن الصين

ستصبح رأسمالية وديموقراطية فإن بكين رأت نفسها تتجه نحو الدولة الميركانتيلية، كل عضلة فيها مرفوعة ومتجهة صوب كونها قوة عظمى تتجه نحو حجب الولايات المتحدة. وفى هذه العملية خلال التسعينيات فإن تجارة الصين مع أمريكا قد حققت فائضا ارتفع من ٦ بليون إلى ٨٣ بلايين دولار.

ومع مجيء جورج دبليو بوش لسدة الحكم فإن مجيئه لم يرخ الستار عن عرض (الدخان والمرآة) للدولة الصينية فى علاقات الولايات المتحدة مع الصين أخذا فى الاعتبار توالى الأحداث حول زيارة وزير الخارجية كولين باول فى يوليو ٢٠٠١ للصين. وغداة وصول كولن باول فإن أستاذين مسجونين لعلاقاتهما مع الولايات المتحدة ومتهمين بالتجسس بسرعة جرى ترحيلهما. هذه الإيماءة التى يمكن بسهولة تكرارها إذا اقتضت الظروف لم يكن لها ثمة تأثير على مصير آلاف من المسجونين السياسيين الآخرين. وفى بكين فإن لقاء باول مع التليفزيون تم نزع مقاطع كثيرة منه حيث حذف نقده لحقوق الإنسان فى الصين فى انتهاك واضح للاتفاق الذى تم مع السفارة الأمريكية بأن ملاحظات باول سيتم بثها بالكامل. وفى مجال التأثير السياسى فإن سحب هذه المعلومات من الرأى العام الصينى كان أكثر أهمية لصالح بكين من التحرير الاختيارى لعدد محدود من المساجين السياسيين لصالح أمريكا. وكل ذلك كان من الخدع والإيماءات الكبيرة والمتكررة من جانب دولة الحزب الصينية والتى كانت تستهدف أساسا استخراج القوة من ثنايا الضعف.

هذا العرض الشيزوفرينى الصينى للتعاون الجيد والتعاون السيء خلال زيارة باول كسب التأييد الحماسى فى الإعلام الأمريكى، وكما كتبت وول ستريت جورنال بعد عودة باول من الصين "فقط بعد ٣ شهور من المواجهة الاستفزازية على إسقاط طائرة التجسس الأمريكية فإن المناصرين للتعاون مع الصين قد كسبوا الجولة" لماذا هذه النتيجة؟ النجاح فى الحقيقة يعود إلى

دولة الحزب المتميزة بالحذق والحنكة، فى الصين فإن الآثار السيئة للاعتقادات كانت موجودة ولكن بكين حصدت المنافع من ظهورها بالكرم المتمثل فى تحرير سجينين اثنين، وبدا باول نفسه ضحية لهذه الألاعيب الماكرة، وقد سألته فى ٩ سبتمبر بعد شهرين من الزيارة عن حالة العلاقات مع الصين فقال "أنا قمت بزيارة ممتازة إلى الصين وهى مشجعة جدًا فى الحقيقة".

وهناك مدرسة فكرية حاليا ربما تضم باول أو بعضا من مساعديه فى الخارجية لديها مخاوف أن الرئيس بوش ربما يغضب بكين، ولو فهمنا طبيعة الحزب الشيوعى فإن هذا الخوف لا ضرورة له. ولا توجد طريقة للولايات المتحدة يمكن أن تحقق السعادة لبكين وخلق الاحترام لا يمكن تحقيقه من خلال ألف تنازل أمريكى، أحيانا لتكون متأكدا فإن بكين لديها المبرر لتكون غاضبة ولكن غالبا فإن غضب جمهورية الصين الشعبية وراء أى تحليل أو عدم مبالاة، ما يقرب من اللاهوت يوجد فى مشاعر الصين فوق كل ما لدى الدول الأخرى، لايجب الإضرار به أو إهانته، وعلى البرابرة أن يقبلوا ذلك فى أسرة الهان الملكية، وكذلك فإن الأمريكان مطالبون بفعل الشئ نفسه فى القرن الواحد والعشرين.

ووراء المشاعر فإن كراهية الأمريكان هى حساب سياسى بارد، ومع الماركسية التى لم تعد بعد أساس السياسات والاقتصاد فى الصين كيف يمكن لبكين أن تبرر استمرار احتكار الحزب الشيوعى الصينى المؤكد على المكتب السياسى؟ بالتأكيد فإنه دون الحزب الشيوعى فإن الدولة الصينى ستواجه التدمير على يد الإمبرياليين والمهيمنين الذين يسعون لوقف نفوذها وصعودها، ولهذا هل شر الولايات المتحدة قد صار أساسيا فى تشريع أو خلق شرعية جديدة لدولة الحزب الصينية.

ويمكن لبعض هذه الأسطورة أن تنفثئ لو أن الدول الأجنبية عاملت الصين كدولة عادية وليس كإمبراطورية شر أو كمملكة ساحرة شرعت لها السماء قواعد خاصة، ولو أكدوا هذه العلاقة مع الصين فإنها طريق من حارتين يعتمد نجاحه على كلا الطرفين. بكين تعمل من أجل إقناع العالم بأن علاقات ضعيفة معها هو عادة وللأبد خطأ الجانب غير الصينى، ورغم هذا فإن حسن العلاقات مع الصين كما لاحظ (كريس باتن) ليس سلعة يمكن تقديمها أو سحبها من جانب الصين ولكنها نتيجة لتراكم أعمال واتفاقات واختلافات يقوم بها كل منا ثنائيا مع الصين.

فى بداية عام ٢٠٠٤ فإن البعض شعر بأن العلاقات الأمريكية الصينية تعتريها حمرة وردية صحية بسبب ١١ سبتمبر، واشنطن وبكين وقفا معا ضد الإرهاب، وعلينا أن نكون واضحين الإرهاب منهج ووسيلة والديموقراطية كذلك منهج ووسيلة، وكلاهما قطبان متنافران، والضد هو أن الإرهاب لا يمكن مساءلته أو حسابه على أى تكوين أو كيان إنسانى، فيما أن القائد فى الديموقراطية يواجه المصوتين. (القاعدة) كمنظمة إرهابية تعمل مشابهة لحكومة غير ديموقراطية، وكالديكتاتوريات التى تذهب فإن حكومة الصين المفروض أنها عقلانية ولكن هى ديكتاتورية، هو جينتاو رئيس الحزب الشيوعى لم يواجه اختيارًا تصويتيًا من جانب الشعب الصينى أكثر مما واجهه أسامة بن لادن زعيم القاعدة مع الناخبين، القاعدة ستقتل أى شخص والصين تقتل وتعاقب على سلوكيات خاصة ولكن ليست هناك محاسبة أو رقابة لأى منهما، الدولة الصينية فى نفس الوقت هى عدو لفوضى الإرهاب المطلق ولكنها هى نفسها شبه جسم وأجهزة إرهابية، ومن هنا غرابة بكين كشريك فى حملة بوش ضد الإرهاب.

العناصر اليسارية حول العالم والمشتتة نتيجة وجود قوة عظمى واحدة وهى ليست خيارهم الأول يتحدثون عن إمبراطورية، ولا أحد ينكر مدى

اتساع ونفوذ وقوة الولايات المتحدة وراء حدودها، ولكن هذه الهيمنة كما تسميها الصين هى غالبا نتيجة للخيار الحر للأفراد، والقوة التى تدعم الهيمنة الأمريكية هى مهاجرة إلى أمريكا من كل العالم، وحرية المعلومات والقوى التكنولوجية والسوق الحر. الفرق بين دولة الولايات المتحدة التى تم تشكيلها وتغذيتها من الجذور والدولة الصينية التى هى صناعة من أعلى وهذا أمر ليس عارضا فى الحرب بين الإرهاب والمجتمعات الحرة.

هل ما زالت الصين تتعافى من ضعفها السابق من وجهة نظر الحزب الشيوعى الصينى؟ وهل بدأت أجندة إيجابية فى مكان أكبر فى العالم؟ السؤال يأخذنا للوراء من الدولة الصينية المعلقة مع الغرب والتى لاحظ (الكونت إيتو) فى (لى هونج زهانج) عام ١٨٩٥، مائة سنة منذ الكونت إيتو ولى هونغ زانغ حيث تقابلا فى شيمونو زيكى، بكين عام ١٩٩٥ أطلقت على (كريس باتن) لقب الثعبان والكذاب، وفى عام ١٩٩٨ انتقدت مذكرات كريس باتن المسماة (الشرق والغرب) "بهذه الكلمات الصين تستحق اللحترام والمعاملة على قدم المساواة وليس الكلمات السامة والعداوة على مستوى العالم" هذين الاقتباسين حول البريطانى الذى كان محافظا لهونج كونج من عام ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧ يوضحان التناقضات فى السياسة الخارجية الصينية، الصين تعطى العالم مواعظ ومحاضرات فى مجال فن تعليم الأصوات لكنها تريد الاحترام لدولة حديثة بجانب القوى الكبرى الأخرى.

عام ١٩٩٥ فى مؤتمر للجمعية الآسيوية فى هيوستن قال أستاذ صينى من جامعة بكين إن السياسة الخارجية للصين هى أساسا رد فعل لقوة الولايات المتحدة، هل هناك عمل سيكولوجى لم يتم أو أن الحزب الشيوعى الصينى يتلاعب بالمشاعر حول الغرب لأهداف سياسية (الولايات المتحدة محتاجة إلى عدو)؟

في ديسمبر ٢٠٠١ أستاذ صيني آخر للعلاقات الدولية من نفس الجامعة شكا إلى ندوة في جامعة هارفارد أن الولايات المتحدة مازالت تحاول تغيير الصين وبعد لحظة قال (أمريكا يجب أن تتغير) وكرر هذا التصريح ست مرات وقال "فقط الشعب الأمريكي هو الذي يمكن أن يقوم بالتغيير" وهذا الكلام يتضمن أن القوة العظمى الوحيدة قوية جدا لدرجة أنه لا يمكن للصين التأثير عليها، وفي النهاية فإن عدم معرفة المشروع الإمبريالي الذي بني من جانب الحزب الشيوعي الصيني وما تتوق إليه الصين لبادرة أو إشارة إلى أن أمريكا تحترم الصين.

لو أن المسألة هي الحالة الثانية فإن هذا شيء مرعب في ضوء معرفتنا بعظمة الصين كحضارة. وتذكر على أية حال أنه خلال القرن العشرين فإن الصين لم تفعل إلا القليل وقدمت مساهمات متواضعة للعالم، وكما إنتقدها الكاتب الصيني (ليو بنيان) "إننا نحن الصينيين لمدة ٢٠٠ سنة لم ننتج مفكرا كبيرا، بينما في أسرة الكينج فإن نماذج البورسلين الصيني والأثاث والمنسوجات وورق الحائط طالما اجتذبت الغرب، وقليل من الثقافة الصينية في القرن العشرين-فيما وراء الأفراد الموهوبين، والمطبخ الصيني وبعض الأفلام- قد اجتذبت العالم الخارجي" الأسوأ اليوم أن هناك وعي كما قال (لويل ديتمر) و(صمويل كيم) بأن الصين تحس بالدونية تجاه القوى الغربية في المجال السياسي القيمي وفي مبادئ السلوك الحسن والتي تمسكت بها الكونفوشيوسية باعتبارها العلامة الضخمة لعظمة الحضارة الصينية. الإمبراطورية الصينية القديمة مثل كل الإمبراطوريات تم خلقها بالقوة إلا أن تميزها واستمرارها عالميا يقع في الثقافة والأخلاق الاجتماعية. لقد فقدت الصين الفضيلة القديمة ولكنها فشلت في تعلم فضيلة جديدة ولهذا فهي نصف إمبراطورية ونصف دولة حديثة.

أما التوق الشديد للاحترام فلربما يدهشنا لسبب ثان: دولة الحزب الصينية لم تفعل سوى القليل حتى تحظى باحترامنا، خلال التسعينيات وحتى القرن الجديد الحكومة الصينية عارضت الولايات المتحدة فى معظم القضايا، وفى كثير منها هى تهاجمنا وفى بعضها بما فيها كوسوفو عام ١٩٩٩ وحادثة جزيرة هينان عام ٢٠٠١ دمغتنا الصين بأننا هتلريون وأكثر من ذلك. الصين عادة تخدع وتكذب على واشنطن (وبعض الحكومات الأخرى)، والصين تكاد تجعل شعر الرأس يقف بالأحزان التاريخية، وهى تأخذ بوجهة النظر بأنه فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر عندما كانت الصين أضعف من روسيا ومن الغرب فإن أى معاهدة وقعتها الصين لم تكن على مستوى الندية وبالتالى فهى باطلة. صحيح أن الصين وقفت بإيجابية ضد توسع الإمبراطورية الروسية أكثر مما فعلت فى إقليم الكينج فاتفاقية (نرشينسيك) عام ١٦٨٩ لم تكن بوضوح غير متكافئة.

لماذا كانت استجابة الهند للماضى الكولونيالى الطويل أكثر اعتدالا من استجابة الصين لماضى قصير شبه كولونيالى، الهند مثل الصين شهدت الهجوم المتكرر من الشمال لكن الهند على عكس الصين لم تتجه وتكرر الامتداد لحضارتها إلى الشمال. فى الهند كان هناك إحساس أقل بالتأهل للبروز الثقافى مما كان فى الصين، من هنا وكما قال (شوسى سوزوكى) فإن القوتين الآسيويتين استجابتا بطريقة مختلفة عند تحقق الاستقلال، الصين كانت مهتمة جدا بالانتقام فيما بدت الهند أكثر راحة وهدوءا تجاه القوى الاستعمارية الغربية، وكما كتب (نورتكوت باركينسون) "لو أن الإمبريالية تقود إلى الثورة فإن الثورة تقود إلى حتمية الإمبريالية الجديدة" كما لو أنه يتنبأ بمستقبل الصين.

استمرار الحزب الشيوعى بأسطورة الإمبريالية فى عصر الإمبريالية توقفت باعتبارها حقيقة أساسية ومفتاحا حول العالم يزيد الفجوة بين الصين

وأجزاء من العالم غير الصينى، الشعب الصينى تم قيادته على الطريق الذى يؤدى به إلى عداوة كثيرة وثقيلة للقوى التى من المفترض أنها ضد الصين، وبكين لا يمكنها النظرإلى اليابان المعاصرة دونما رؤية (أو التظاهر برؤية) إعادة الماضى العسكرى اليابانى فى الثلاثينيات والأربعينيات.

وفى الوقت نفسه فإن الأسطورة الإمبريالية هى قاعدة لطموحات الصين المستقبلية المظهرية، الشعور بالحزن، الدولة الخائفة، كلها تصب فى الدولة الانتقامية. القادة الصينيون يعتقدون أن ملكية الصين للجزر الإستراتيجية الغنية بالبترول مثل جزر إسبراتلى باعتبارها أساسا لا يمكن التفاوض حولها (منذ الماضى القديم هى إقليم صينى) كما يقولون، رغم أن خمسة من جيران الصين لديهم مطالب حول كل أو بعض من هذه السلسلة من الجزر، فإنهم فى الصين يستعلون ويتكبرون على ٦٠ مليونا غير صينيين فى آسيا وحول المحيط الباسيفيكى ويعتبرونهم جزءا غير محدد من الأشياء الصينية. ويوما ما يريدون أن يروا بكين وقد تم الاعتراف بها باعتبارها قيادة وزعامة هؤلاء الصينيين عبر البحار وأسرة أبناء الوطن.

الحزب الشيوعى مظهرى وحزين وخائف ولديه وجهة نظر خائفة تم نقلها إلى الداخل من خلال سكان الصين مما سيعقد من مرور الصين من الإمبراطورية إلى الدولة الحديثة. فى أعقاب ضرب الناتو للسفارة الصينية فى بلجراد عام ١٩٩٩ وثانية عندما اصطدمت طائرتان أمريكية وصينية قرب جزيرة هاينان فى عام ٢٠٠١ فإن قومية دولة الحزب المضادة للغرب قد تلقت مساعدة كبيرة إن لم تكن غير محدودة، وفى مدن الصين فليس لديهم أية معلومات من أحد الأطراف فى القضية وبالتالى صار الشعب فى جانب دولة الحزب.

وبعد ٥٠ عاما من الحكم الشيوعى وعلى رأسه ٣ أباطرة فإن كثيرا من شعب الصين مازالوا يعتبرون الديكتاتور فى شكل الأب أو متخفيا فى

شكل الأب، ومازالوا يرون الغرب باعتباره ضد الصين، ومازالوا ينظرون إلى آسيا باعتبارها الحديقة الخلفية للصين. دين الصينيين في ظل غياب وجود دين سماوى، وفى ظل حزب الدولة المتحكم فى كل المعلومات وطرقها ما عدا الإنترنت والذى يقوى نفسه بالرشاوى للدولة يمكن أن يقال بأن هذه هى الصين نفسها.

الفصل الثانى عشر

آخر أرجل الأوتوقراطية

"الأهداف القومية تم وضعها رغم أن الطبقة المثقفة غير مطيعة، الحكام واضحون لكن السياسات ليست ناجحة تمامًا، لماذا هذا الوضع؟"

سؤال امتحان فى أسرة السونج عام ١١٠٦

"رغم أننا كصينيين نغضب عندما يتندر اليابانيون بأن الصين ليست حقيقةً دولة، إلا أن علينا أن نهدأ ونفكر، هل وضعنا الأسس التنظيمية لدولة حديثة أم لا؟ فى مجتمع دولة حديثة توجد انتخابات ليشارك الناس فى السياسة، وحرية النشر لضمان الأخبار الدقيقة، وجمعيات مختلفة الأنواع ترسم معًا مشاعر مختلف شرائح المجتمع"

لوز هى، ١٩٢٩

"هذه شنجهاى، مدينة كبيرة على أرض الصين، كيف تجرؤ على القول بأننا الصين الشيوعية، لقد صارت الصين الشيوعية مجرد تاريخ، مثل هذا المُصطلح لا وجود له "

وزير خارجية الصين، فى ١٩ أكتوبر ٢٠٠١

إعادة الحياة أو إحياء الاحترام لصن يات صن وشيانج كاى تشك داخل الصين ووراءها جاء بعد الإدراك بأن الحزب الشيوعى فى نصف قرن كان مُجرد مرحلة وفى بعض الآراء خطوة للأمام للشعب الصينى وهو فى غيرها من الآراء ليس كذلك. ونصف القرن قبل انتصار ماو عام ١٩٤٩ لم يكن فشلاً وفوضى جرى علاجها بالحل خلال نصف قرن من حكم الحزب الشيوعى. على العكس فإن آخر سنوات أسرة الكينج وهى فترة الإقليمية التى أعقبت سقوط الكينج والمرحلة الجمهورية كلها شهدت خطوات بعيدة عن

الأوتوقراطية والعقلية الشمولية. ويرى (شيلى يومانو) أن فترة لوردات الحرب رغم أن بها تصدعات فقد حملت الأمل فى إعادة التوحيد دونما أوتوقراطية أو شمولية، وبالتأكيد فإنه بعد عام ١٩٤٩ فإن الأوتوقراطية والفكر الشمولى جاءا ثانيةً وأقوى مما كانا عليه.

ولنرى ١٥٠ سنة بعد حرب الأفيون ١٨٣٩ / ١٨٤٢ باعتبارها إمبريالية بالإضافة إلى ثورة جعلت الصين تبدو تتويجًا ونهايةً لما بعد قصة ١٨٤٠. صين جديدة وصلت أخيرًا، ووجهة النظر تلك تُخفى شيئًا كثيرًا، إنها انتقال تاريخى بأن قوة الصين نمت خلال فترة جمهورية الصين الشعبية. الصين رُبما أفضل دوليًا مما كانت عليه خلال قرنين، لقد صارت لاعبًا اقتصاديًا فى شرق آسيا وذات وزن أعظم مما كانت عليه منذ الإمبراطور (كيان لونج) فى أوج عظمته. لكن قوة الصين المتزايدة فى القرن العشرين لا تفسر باللعبة الأخلاقية بالإمبريالية مضافًا إليها الثورة.

الإمبريالية والثورة ليستا مصطلحات واضحة تمامًا وكلاهما مستخدمان فى مجال جدل الحديث، الأسر الصينية الملكية مارست الإمبريالية- تلاعب العواصم بالشعوب المجاورة فى المحيط - ليس بأقل مما مارسته إمبريالية الغرب مع الصين. بعض الأسر الملكية الصينية قتلت من غير الصينيين على الحدود أكثر مما قتل الأوروبيون من الشعب الصينى فى حربين للأفيون. حملة أسرة المينج إلى يونان فى عام ١٣٨١ ليست بأكثر أو أقل من أنها عملية ضم وهضم لهذه المنطقة الجنوبية الغربية ثم سيطر عليهاالملوك المحليون والبرابرة باعتبارها مُقاطعةً تحت حكم المينج فالخرائط الرسمية لجمهورية الصين الشعبية تقول بقوة إن المينج وسعت نفسها إلى يونان.

واليوم فإن التركيز على الإمبريالية والثورة يفتقد إلى مُعظم القضايا الأساسية التى تواجه الصين بعضها فى صميم الحكم فى مجتمع كبير جدًا وضخم ويتغير بسرعة، وبعضها يرجع إلى أمراض الدولة الصينية والتحديات التالية تؤكد ذلك واقفةً بكل وضوح:

سكان متقدمون فى السن:

الصين تتجه ديموجرافيًا وبسرعة نحو مرحلةٍ ستؤثر بشدة على دخل الحكومة والتماسك الاجتماعى. عام ٢٠٠١، ١٠% من السكان كان عمرهم ٦٥ فأكثر والمُتوقع عام ٢٠٣٠ أن ٢٥% من السكان سيكونون فى هذه المجموعة كبيرة السن، المعاشات والرعاية الصحية وغيرها من الخدمات ستكون تكاليفها عالية جدًا. طفل واحد الآن فى شنجهاى ووالداه هما أيضًا من عائلة الطفل الواحد كلهم نتاج دولة الحزب وسياسته المتعمدة، غدًا ستكون عند هذه الأسرة ستة أشخاص معتمدون عليه، الوالدان وأربعة جدود. توقعات الحياة الأفضل تنمو وفترة حكم ما بعد ماو وجدت من الحكمة خفض النمو السكانى ولكن ما تتضمنه النواحى الاقتصادية والاجتماعية لثلاثين سنة قادمة فإن عدد كبار السن الذى سيصل إلى ٣٠٠ مليون هو أمر يوقف شعر الرأس.

العلاقات العسكرية مع القوى المدنية :

أحد الإنجازات السياسية لجيانج زى مين تتمثل فى شراء ولاء العسكريين من خلال برامج الإنفاق الهائل على التسلح والأجور العسكرية وبذلك يحصل على السلام والأمان مع الجنرالات، ومثل هذه الاستراتيجية ربما لا يمكنها الاستمرار مع الكساد أو الصراع السياسى الكبير.

اتساع مشاكل الرعاية الصحية:

كثير من ريف الصين هى مناطق صراع اجتماعى داروينى، عندما نصل إلى العلاج الكفء المرضى والجرحى. الإيدز لا تتم مواجهته على المستوى الواجب، تخزين المشاكل للمستقبل ومع ظهور أوبئة جديدة فإن الصين ستكون بذلك هدفًا سهلاً وميسورًا للأوبئة. منظمة الصحة العالمية تعتبر النظام الصحى الصينى هو واحد من أسوئها فى العالم وتتدنى إلى رقم

١٤٤ بين أعضاء منظمة الصحة العالمية. ومعظم مرضى الفلاحين الذين يحتاجون لمستشفى لا يتم قبولهم لأنهم ببساطة لا يدفعون. ومرض السارس في عام ٢٠٠٣ كان مقدمة لكوارث صحية قادمة على الطريق.

النزوع الثقافى كوسيلة للنهوض السياسى:

اللامبالاة تجاه الحياة العامة، وهو تقليد صينى طويل الأمد كان يتم تشجيعه فى البداية من جانب نظام ما بعد ماو، وتم استبداله بجماهير تحتقر الأيدولوجية وتتوق إلى الازدهار، وهذا الحذر واللامبالاة السياسية يمكن أن ترحب بسلطوية مخففة "دع الآخرين يهتمون بالأمور العامة بينما أهتم أنا بالأسرة والعمل والفن" وإن ذلك ربما ينتج استقرارًا، ولكن الاستقرار الحقيقى يصل بطريقة غير مباشرة عندما تكون صمامات الأمان موجودة للتخلص من أى تهديدات مُحتملة للاستقرار. ففترة بريجنيف فى الاتحاد السوفيتى عندما كانت قيادة موسكو تزخر بالمهندسين، كما هى القيادة الصينية اليوم ، (التسعة الكبار من القادة كلهم مهندسون) كان ذلك وقت بريجنيف مثل جيانج وخلال ١٢ سنة مضت منعت الاضطرابات فى قمة الحزب الشيوعى. والاستقرار فى الحقيقة ميز الساعة الحادية عشرة لوجود الاتحاد السوفيتى، واللامبالاة السياسية والتى مؤقتًا تخدم الاستقرار يمكن أن تكون هى ذاتها قنبلة موقوتة، وإهمال المواطنة يجعل الأمراض تنمو دونما كوابح داخل الدولة، وهذا مما يساهم فى ظهور خطر الفاشية أكثر من الديموقراطية لتحل محل النظام الشيوعى.

مشكلة الشرعية والخلافة فى غياب الانتخابات:

حتى من الناحية النظرية فإنه لا توجد فى الصين سيادة الشعب، إنها التاريخ (مُجمدًا فى المنطلقات الأربعة) والتى من المفترض أنها تُعطى الحزب الشيوعى تفويضًا باحتكار القوى السياسية. وفى الظروف الحديثة

والمُعاصرة فإن هذا كفيل بتزايد التوتر والصراع، وفى النهاية عدم الاستقرار، والفجوة الاقتصادية المتزايدة بين القفزة فى الساحل والداخل القارى المتباطئ، مما يضيف إلى عدم مصداقية دعاوى دولة الحزب الشيوعى الصينية بأنها مؤسسة على العمال والفلاحين.

أهمية العلم والتكنولوجيا لمستقبل تقدم الصين :

وجود مناخ حرية التساؤل والبحث تدعم هذه الأهمية ومنذ ثلاثة عقود كتبت (إيلفين) "إن القوة التكنولوجية الخلاقة للشعب الصينى لها بذور عميقة وقد ضعفت هذه القوة وربما نامت فى هدوء لمدة غالبًا لاعتبارات عملية، وبينما هى تستيقظ ببطء فربما نتوقع لها أن تدهشنا". إنها ستفعل فى يوم ما ولكن ليس تحت القمع الشيوعى.

غياب نظام بنكى أصيل :

البنوك الكُبرى فى الصين تعيش حالة الإفلاس والقروض يتم تقديمها على أسس غير تجارية، ٣٠% من قروض البنوك هى قروض سيئة، والجمهور ليس لديه المعلومات الكافية مما يجعل الادخار المنزلى يتدفق فى بنوك الحكومة المنحرفة عن السواء، والقلب الصناعى المالى المتعفن يضيف إلى ندرة الدخل فى المركز. وهناك صراع سرى يجرى بين بكين العاصمة من ناحية والمقاطعات الهامة من ناحية أخرى حول الدخل ولربما بكين ستكون الخاسر فى هذا الصراع.

المخاطر على البيئة :

نصف أنهار الصين تعيش حالة التعفن، الأرض القابلة للزراعة تتناقص والاستثمار فى الزراعة غير كافٍ، ومع وجود ٩ من أكثر المدن

العشرة فى العالم الأكثر تلوثًا فى الصين، فإن هواء المدن فى الصين يعوق مستقبل النمو الطبيعى للأطفال. المناجم الصينية لديها أسوأ سجل من حيث الأمان، والأسلحة الذرية مبعثرة فى أكثر من ست مقاطعات وهى مُعرضة للاستخدام السيئ لو سادت حالة العصيان بين هذه المُقاطعات وبكين العاصمة. هذه المشاكل غالبًا لن يتم مواجهتها لأنه لا توجد صحافة حرة كما أن أعمال الدولة لا تعرف البتة مبدأ الشفافية.

وفى كلمات (جوديث شابيرو) "القمع السياسى والعجلة الخيالية الطوباوية، والشكلية الدوجماتيكية، ونقل وإخلاء وترحيل وإعادة توطين الأفراد المدعوم من جانب الدولة، كل هذا قمين بأن يشوه علاقة المُجتمع مع الطبيعة".

ولم يتم بحث هذه المشاكل والقضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإيكولوجية من جانب دولة الحزب الشيوعى التى يبدو اهتمامها مركزًا على الثورة وضرب الامبريالية وصعود الصين الذى يحاول الأمريكان وقفه بل إن مُعظم هذه المشاكل قد صار أكثر صعوبة فى ظل طبيعة دولة الحزب الصينية والتى تسيطر عليها فكرة التحكم والسيطرة الأحادية.

ويبدو من غير المُتنازع عليه الخلوص بأن الأفكار السياسية سيتم إحياؤها فى الصين بعد طول انتظار الصين، فنظام فرانكو فى إسبانيا وسوهارتو فى إندونيسيا وسالازار فى البرتغال وشيانج كاى تشك فى تايوان، كل هذه النظم قمعت الأفكار السياسية، ولكن عندما سقط النظام فقد نهض حيًا النقاش والجدل السياسى، وحضارة الصين منذ ٢٥٠٠ سنة عاشت بالأفكار وهى اليوم تحت السطح وعلى الإنترنت حيث توجد النظريات السياسية المختلفة التى تثير الدهشة، و٩٠% منها لا تتماشى مع وجهة نظر الحزب الشيوعى الصينى العالمية وكلها يتم الهمس بها ووزنها.

لكن ما القوى السياسية التى ستبرز من هذا الدولاب المتسارع للنقاش السياسى الصينى والذى طالما عانى من غلق الأبواب؟

إحياء اشتراكية مُستمَدة من أوروبا هى الأقل إمكانية فى حدوثها، والأقل إمكانية فى الحدوث أيضًا فى اليسارية الريفية على أساس أفكار المجتمع الصينى التقليدية. الليبرالية المُتجهة للغرب تحوم حول الصين منذ حركة الرابع من مايو عام ١٩١٩ وحاليًا حركة تيان آن مين لعام ١٩٨٩ هى ممكنة وإن كان صعبًا حدوثها، وهناك فلسفات عالمية أخرى لا يمكن إهمالها علمانية وعقلانية صينية وربما تتصل بأفكار (الرؤيا).

وعندما أعلن (لى هونجزهى) زعيم فالونجونج "إننا نعيش فى عصر خسيس أو حقير أو جدير بالإزدراء" ربما كان يتضمن ذلك إشارةً لاستبدال الوضع الراهن للحزب الشيوعى مع البديل (لما فوق الطبيعة) لخيار فالونجونج.

الحرفان الصينيان للثورة يعنيان سحب التفويض وعندما حدثت الثورتان الفرنسية والأمريكية استخدم الصينيون مُصطلح gening لكل منهما، ولما سقطت دولة الكينج ١٩١١-١٩١٢ سحب التفويض هو ما حدث أيضًا كما تم وصفه بالصينية بعد ٣٨ سنة، وشيانج كاى تشك بدوره خسر التفويض لبناء جمهورية ما بعد الكينج مستخدمًا أفكار صن يات صن. ماو تسى تونج أخذ الشرعية الصينية معه ١٩٤٨-١٩٤٩، وفى السنوات التالية والمُستقبلة فإن شكلاً ما من أشكال سحب التفويض سيحدث مرة ثانية، فالاشتراكية الصينية كما حددتها المُنطلقات الأربعة هى فى مرحلتها الأخيرة.

فى أكتوبر عام ٢٠٠١ أكد لى المدرس المحلى فى (شونجكينج) الذى قادنى حول المدينة، أكد لى على رغبة الشعب فى حياة مريحة. وأننا نرى إعلانات ضخمة فإعلانات عن الشقق السكنية مع حمامات السباحة والحدائق

والمطابخ الحديثة "الشعب هنا لا يريد ثانيةً الثورات الثقافية ولا الحروب, إننا نريد هذه الأشياء المادية ونرفع أصابعنا راجين أن يستطيع جيانج زى مين أن يحفظ الأمور هادئةً كما هى, وفى المستقبل لا أحد يعرف ماذا سيحدث" وبالطبع وانا لا أعرف كيف ومتى سينتهى الحكم الشيوعى فى الصين أكثر مما يعرفه المدرس فى مدرسة (شونج كينجو) لربما أيضًا مما يعرف زعيم الحزب الشيوعى الصينى هو جنتاو من حيث إعطاء السيناريو والتاريخ.

فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا خلال ١٩٨٩ / ١٩٩١ فإن قوتين تفاعلتا, فشل دولة الحزب فى تقديم طريقة حياة للشعب وتدنى قبول الشعب للأساطير التى تدعم النظام. فى الصين الاعتقاد فى الأساطير التى تدعم النظام تآكل بشدة لكن دولة الحزب قد سهلت مستوىً متحسنًا للحياة لجانب لا يُستهان به من السكان. وفى الجرأة على توقع نهاية الحكم الشيوعى يجب أن نعترف بقوة النظام الشيوعى بعد نصف قرن فى السلطة وأنها انتعشت وتخطت كارثة تيان آن مين عام ١٩٨٩ وخلال ٣ سنوات تعافت من عدم التوازن واستعادت توازنها وخطها السياسى وفى أقل من عقد بعد الحادث صارت واثقةً وفعالةً فى سياستها الخارجية. ولكن لماذا لم يسقط النظام بعد كما سقط الاتحاد السوفيتى؟

لقد كانت هناك دروس تعلموها من سقوط موسكو كالعيش مع التناقضات, وهو أمر أقل صعوبة للعقلية الصينية منه للعقلية السلافية, الصينيون كانوا لفترة طويلة قادرين على أن يكونوا فى حياتهم الشخصية متمسكين بـــ(الداوية) والحياة البسيطة المُخلِصة وعدم التدخل فى أحداث الطبيعة وفى الوقت نفسه يكونون فى حياتهم العامة كونفوشيوسيين. وبالإضافة إلى ذلك فإن الصينى عندما يدخل الحياة العامة أو الخدمة المدنية فإنه يصير واقعيًا والتأثير الأجنبى وغير الصينى على صين ما بعد ماو قد ساهم فى إضفاء طابع من الاعتدال على الدولة اللينينية الصينية, لقد حدث

زواج مُفيد بين اللينينية وتقاليد الأوتوقراطية الصينية. الدولة الصينية محمية دوليًا ومُعظم الصينيين لا ينقصهم قميص على الظهر أو آلات فى البيت، ودولة الحزبِ على وعى بمعضلتها وليس مُتوقعًا أن تنتحر بطريقة واضحة والكبرياء الصينى يمكن أن يساعد الدولة على الابتعاد عن الشيوعية النابعة من أوروبا دونما فقدان لماء الوجه.

ويجب علينا أن نلاحظ أيضًا نقاط الضعف والتعرض لدى الصين فالشيوعية تجاوزت دورها فى التاريخ العالمى والنمو الاقتصادى والقومية البدائية غير كافيين لاستمرار طويل الأمد للنظام، ولا يوجد نسيج ثقافى يربط الحكومة بالشعب وجيش العاطلين الضخم يحوم وينمو والشعور بسكر السلطة والتفوق من جانب دولة الحزب على الشعب الصينى لا يُتوقع القبول به إلى ما لا نهاية، وهذه القومية نفسها والتى تبدو مريحة يمكن أن تجرف الصين بقوة تجاه الفاشية.

هناك ثلاث قواعد للدولة الصينية لا تؤهل للمجتمع المتغير والاقتصاد: الأولى أن دولة الحزب فى بكين هى مشروع من أعلى، هى ترى شرعيتها قادمةً من تفويض تاريخى مثل تفويض الأسر الملكية القادم من السماء. عمليًا كل شىء سياسى فى الصين تديره الدولة وأشياء قليلة جدًا هى التى تأتى من الجذور أو من أسفل.

فى ربيع ٢٠٠١ أتت اللجنة الدولية الأوليمبية إلى بكين للتفتيش عليها كمرشح لأوليمبياد ٢٠٠٨، وفى الإعداد لذلك فإن الحكومة قامت برش الطرق بالحشائش الخضراء بألوان خضراء زاهية، وتم إبعاد الشحاذين والهائمين من الريف بعيدًا والمصانع التى تصب دخانها الأسود وهو جزء عادى فى حياة بكين أوقفت عن العمل. هنا فرضت بكين الأمر الواقع والمصالح العليا للدولة تغطى على الأولوية المتدنية لحقوق المواطن.

والرسالة المُتضمنة فى أخبار دولة الحزب فى تليفزيونها الرسمى أنه فقط الحزب الشيوعى هو الذى يقف بين الشعب الصينى وبين المآسى التى ضربت الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا فى نهاية القرن العشرين، والفوضى تحوم حول أولئك غير المحظوظين الذين لا تتوافر لهم أو تنقصهم قيادة الحزب الشيوعى. "الوحدة والاستقرار" تبارك موظفى بكين البيروقراطيين هم آباؤهم وأمهاتهم، لكن هذا المشروع لم يوضع أمام الشعب الصينى للموافقة عليه.

القاعدة الثانية التى تهدد الدولة فى الصين هى انصهار العقيدة مع السلطة وسواءً رفضنا المفهوم الصينى الكورى أو التبتى الصينى فإن نائب رئيس تايوان (أنيت لو) قد وصف ذلك بأنه زَبد ونفاية الجنس الصينى، ووُجِد أنه من غير الممكن استمرار الحلف مع أى دولة أجنبية وإدراك وتصور حركة فالونجونج كتهديد للحزب الشيوعى فى كل القضايا والحالات فإن المُفترض أن عالمًا معنويًا واحدًا يوجد وأن مركزه الرئيسى هو دولة الحزب الصينية، وعندما تكون الحقيقة والسلطة كموضوعين من ينبوع واحد فإن المجتمع تنقصه حجرة أو قاعة للتعبير الحر وبالتالى فإن الفساد يذهب حتى السقف وطالما أنه لا يوجد ثمة من ينفخ فى الصافرة ودولة الحزب لا تسمح حتى بتحليل الماضى تحليلاً غير عاطفى. فى عام ٢٠٠١، فى شارع فى مدينة (سوزهو) وجدت (المؤلف) فى محل للعرض طبقًا من البورسلين الأبيض مرسوم عليه الرئيس ماو ولين بياو معًا وتسائلت "أليس لين رجل سيئ؟" وصاحبة المحل تعرف أن لين حاول قتل ماو فردت بالقول: من الأفضل عدم التحدث حول ذلك فقلت لها "إننى مندهش أن كلا الرجلين معًا على أطباقك" فهزت كتفيها قائلة "حسنًا إنه التاريخ أنت تعرف أنه التاريخ!" وفى الحقيقة فإن لين ليس جزءًا من تاريخ جمهورية الصين الشعبية السياسى

ولهذا يوجد على الأطباق التذكارية للسياح فى (سوزهو) ولكن نادرًا ما يوجد فى التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى الصينى.

الخطأ الثالث لدولة الحزب الصينية هو عدم قدرتها على تقويم الفرد أو معرفة قيمته، وقد كتب (هارى وو) وهو مُنشق كاثوليكى الديانة بعد دفن صديق له مات فى معسكر عمل حيث كان كلا الرجلين محبوسين "الحياة الإنسانية ليس لها قيمة هنا، ليس لها قيمة أكثر من عادم سيجارة طارت فى الريح ولو أن حياة الإنسان ليس لها قيمة حينئذٍ المجتمع الذى يشكل هذه الحياة ليس له هو الآخر بدوره قيمة" وبغض النظر عن الإنجازات الاقتصادية الصينية فإن هناك مرارة أخلاقية حول هذا المجتمع وفى النهاية فالأفق محدود.

مشكلة الفرد الذى ليس له قيمة فى شيوعية الصين عميقة، ماو كشاب كان يريد فردًا قويًا لإنقاذ دولة الصين، وحركة ٤ مايو فشلت أيضًا فى احتضان الفرد كغاية (تحقيق الذات) شيوعية الصين فقط أدت لتقوية وتكثيف الضعف فى التقليد الصينى الذى رأى الفرد من وجهة نظر وظيفية بحتة. واليوم الحزب الشيوعى لديه خوف معروف من النفوذ الأجنبى (التلوث الروحى) حيث الإنترنت تبدو واضحة باعتبارها فى النهاية تمثل خوفًا من اتساع الفردية بما يؤدى لإضعاف النظام الحالى وتقويضه.

هل يمكن للصين أن تتطور من الدولة الأوتوقراطية، أو هل على الدولة أن تسقط كنظام إمبريالى كما سقطت ١٩١١-١٩١٢؟ الفكرة الشائعة عن المتخصصين الغربيين فى شئون الصين أن بكين لو قادت نفسها صوب المُرتفعات بالتدريج فلن يلحظ أحد. وأنا أعتقد أن الجماهير الصينية وباقى العالم سيلاحظون عندما يخسر الحزب الشيوعى احتكاره للقوة السياسية. ولا يوجد نظام فى تاريخ الصين قد سلم السلطة بسهولة ودون إراقة الدماء، ولا أعتقد أن دولة الحزب الشيوعى ستكون الأولى فى هذا المجال.

السقوط يحوم حول النظام لأن الجوهر اللينينى له لم يتغير منذ بناه ماو فى (يونان) منذ ستة عقود. (مايكل اوسكينبرج)، عالم السياسة الرائد الصينى فى جيله فى مقالته الأخيرة عام ٢٠٠١ قال إن النظام السياسى الصينى "فى جوهره مازال هو الدولة اللينينية السوفيتية" ويفرق (جيو سوجان) بين الجوهر الصلب ومظاهره الشمولية وبين مظاهره العملية، الجوهر الصلب هو الحتمية الفلسفية، والأهداف التى لا محيد عنها ولا مناص منها، الأيدولوجية الرسمية، وديكتاتورية الحزب الواحد، وكل قاعدة هى واضحة فى فترة ما بعد ماو والمواهب العملية كما يقول (جو) تغيرت بحدة تحت دينج وجيانج، حزام الأمان تمت مواءمته من أجل الحفاظ على الجوهر.

الكثير فى الاقتصاد مازال يدار إدارة جزئية من دولة الحزب، هناك فقط وجهة نظر مقبولة واحدة من الشعب الصينى، ولا توجد منظمة اجتماعية كبيرة واحدة لها حصانة إلا تحت رعاية ورقابة الحزب الشيوعى ولا يحدث ثمة نقاش أو حوار حول السياسة الخارجية فى الإعلام الصينى. وكتب التاريخ الرسمية للمرحلة الوسطى فى المدارس تستهدف جعل التلاميذ يحبون الصين بشدة الحزب الشيوعى الصينى ومشروع الاشتراكية، ويقودهم للتمسك بالمنطلقات الأربعة للدولة اللينينية، ويقول الكتاب المدرسى "فقط باستعمال المفاهيم الماركسية يمكن تصحيح النتائج التى يتم التوصل إليها" وبصفة خاصة فقط من خلال التحليل باستخدام المادية التاريخية سنصل لنتيجة من وجهة نظر صحيحة. لماذا كان التلوث الروحى من الغرب يمثل تهديدًا لدولة الحزب فى الثمانينيات؟ وفالونجونج تمثل تهديدًا فى التسعينيات وما بعدها؟ لأن الحزب الشيوعى جاد جدًا وبشدة حول إدعائه بأنه المصدر الوحيد للحقيقة فى الدولة الصينية.

يحذرنا (جو سوجيان) من أن نخاف من التوصل لنتيجة مفادها أن النظام الشمولى يمكن تغييره بهدوء إلى نظام آخر. "الشموليون هم بالطبيعة

طوباويون وأهدافهم النهائية وادعاءاتهم لا يمكن تحقيقها ومن هنا فإنها تتضمن حدودًا لإدراكاتهم". تحقق النقص وعدم التحقيق حينئذٍ لا يعنى بالضرورة أن الحزب الشيوعى وحملته الشمولية سيموتا على العكس فإننا نرى الحديث حول الإصلاح السياسى الذى بدأ فى عصر دينج وظهور أجندة للإصلاح تظهر أن الهدف الاشتراكى لا طائل تحته ثم تختفى فيما بكين تنسحب وتعود إلى الإيمان. وأحيانا فإن التغيير العكسى يكون فى الحقيقة سريعًا ففى ٧ ديسمبر ١٩٨٤ فإن صحيفة الشعب اليومية قالت إن الماركسية اللينينية لا يمكنها حل المشاكل الحالية فى الصين وفى ثانى يوم قامت الصحيفة بتصحيح تصريحها بأن الماركسية اللينينية لا تستطيع حل كل المشاكل فى الصين وذكرت "إنه من الجوهر الشمولى أن الهدف لا يتحقق أبدًا" كما كتب (بوشهايم). وللاتساق مع ضعف مصداقية الهدف فإن جيانج أقل من ماو ودينج دائمًا يعيد إلباس الهدف وتقديمه فى حلة جديدة وفيما أن هو جنتاو تسلم الحزب من جيانج فإن النجاح الاقتصادى يوسع الهوة بين الهدف الاجتماعى والعقلانية الكاملة وراء متابعته.

والسبب الثانى حول لماذا يلوح ويحوم السقوط هو تراث الواقعية الأوتوقراطية. وفى تاريخ اللينينية كلما كان الماضى الأوتوقراطى طويلاً وقويًا كان الحكم الشيوعى فى القرن العشرين متماسكًا. بولندا وتشيكوسلوفاكيا خرجت وانسحبت بطريقة ذكية ورشيقة من حلة اللينينية أكثر مما فعلت روسيا، والصين ربما ينتظرها وقت صعب أو أصعب من روسيا. الثقافة الصينية ليست أكثر إمبرياليةمن معظم الثقافات الأخرى، كثير من الحضارات القديمة عرفت بطرق مختلفة الأوتوقراطية وتحرشت بالشعوب الأخرى، والأوتوقراطية الصينية تمثل مشكلة ليس لأنها صينية بل لأنها أوتوقراطية، والقضية هى أن تقليد الحكم والعقلية الموائمة قد تم تملكهما

من جانب الحزب الشيوعى فى عصر تمت فيه الإمبراطورية الأوتوقراطية.
نحن لم نر نهاية الدولة الإمبريالية الصينية ولكن ببساطة رأينا تحديثها.

والسقوط ربما يبدو غير ممكن الحدوث لقارئ يعرف شنجهاى وبكين وجوانزو، لكن النظم لا تسقط عادة بسبب الجمود، وهنا نلاحظ الفشل المستقر لحكومات بورما ولاوس، غالبًا النظم تسقط لأن طموحًا عاليًا تم كسره، إنه ليس بسبب النظام السياسى الصينى إن قعر البرميل هو الذى سيسقط لكن لأنه مُفعم بالتناقضات بين القديم والجديد، السياسة والاقتصاد، الخصوصية الصينية وصراع العولمة الكوكبية.

ماذا يعنى إصلاح الشيوعية؟ بالنسبة للحزب الشيوعى هو يعنى التمسك باللينينية بعد ترك كثير من الشيوعية، وزير الخارجية تانج فى شنجهاى عام ٢٠٠١ اعترض بأن الصين الشيوعية هى اصطلاح لم يعد موجودًا بعد، إنها لم توجد كاصطلاح قانونى لكن كحقيقة سياسية، هى موجودة ولم يتوقف اللحم الماركسى ربما ذهب ولكن العظام اللينينية ما زالت باقية، والرسميون الصاعدون فى الثلاثينيات والأربعينيات من العمر فى الحزب الشيوعى ومجلس الدولة لا يعتقدون فى الاشتراكية، هم على الأغلب براجماتيون لكن عمليًا هم أيضًا لينينيون تذكرة وجبتهم الغذائية تنبع من المُنطلقات الأربعة واللينينية فى الحقيقة حتى فى أيام لينين لم تكن أكثر ما كانت عن الاشتراكية كما كانت عن السلطة السياسية والقوة.

وفى المؤتمر الـــ١٥ للحزب الشيوعى عام ١٩٩٧ فإن جيانج زيمين قد حل شفهيًا التناقض العظيم لصين اليوم عندما قال "إن الإصلاح هو الثورة" ولكنه قال إن الهدف من الثورة الثانية ليس مفتوحًا للأبد وهذا لا يعنى إلا أن الإصلاح مراد ليس لنقض الثورة لكن لاستكمالها. إنه من الخطأ الإعتقاد أن استمرار الإصلاح هو ما نحتاج إليه لإنهاء الشيوعية فى الصين وكما كتب

(ر.ح. تاونى) "يمكنك أن تدمر البصلة قشرة قشرة ة لكن لا يمكنك تدمير النمر مخلبًا مخلبًا".

هل يعتقد جيانج فى قرارة نفسه أن النظام الشيوعى مصيره معروف؟ ربما هو لا يعرف، وقد قال دينج "إننى أعبر النهر بلمس الأحجار بقدمى تحت الماء". من المهم جدًا والحاسم فى هذه الصراحة الواضحة أن المناورة هى ليست فى وجود شاطئ على الجانب اللآخر أم لا. فى شرق أوروبا الإصلاح فى جوهره التخلى عن الاشتراكية والذى يمشى يعرف أنه يترك وراءه أرض الشيوعية ولن يعيد اكتشافها وراء مياه الإصلاح، ولكن من الممكن أيضًا أن عبور النهر للشعور بالصخور هو أسلوب تقدم به سلطوى محاولاً إنقاذ أهداف شمولية، وهذه بالتأكيد فى وجهة نظر (لى بنج) الذى كان قويًا فوق القمة الصينية لمدة عقد ونصف حتى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى الصينى عام ٢٠٠٢.

(هوانج ياشينج) المتخصص فى اقتصاديات التنمية الصينية قال وهو ممن له وزنه كثيرًا "هل الحكومة الصينية تعتقد فى الرأسمالية أو هى تريد اللعب حول الحدود وقريبًا من الرأسمالية"، وأضاف "أنه يعتقد أن بكين فقط تريد استخدام الرأسمالية لهدف سلطوى" وحقًا أن المشروعات الخاصة هى مقيدة ومرتبكة بطرق عديدة ومتشابكة ولا يمكنها النمو لتكون مشروعات كبيرة، والمشروعات الخاصة تخشى المصادرة لأنه بالنسبة لدولة الحزب الصينية فإن أفضل الشركات الخاصة هى أكثرها ربحًا والخيار المُقبض يواجه كثيرًا من رجال الأعمال الخاصين "إذا لم تقم بتحقيق الأرباح أو حققت أرباحا من خلال أعمال غير قانونية فإن الحكومة ستواجهك وربما تدمرك، وهناك باستمرار إنه حول القطاع الخاص تحوم حقيقة أن مُعظم المشروعات

مستقبل أى نظام سياسى خاصةً إذا كان ديكتاتوريًا بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى فى الثمانينيات والصين فى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين ليس بتوقع ذلك المستقبل على الأسس الشخصية والقصص التى تتردد من الجذور وخطابات كبار القادة والإحصاءات الرسمية. ومن المهم كذلك الإمساك بنظرية موقف الديكتاتورية أو الموقف الديموقراطى. تنافر النغمات لحملة انتخابية أمريكية ربما تفترض عدم الاستقرار لمراقب من بعيد, ولكن باستخدام نظرية الديموقراطية فإن المراقب سيرسم نهايةً معاكسة, إننا نحارب حملات البذور قبل تغيير الإدارات ولكن بكين تغير حكومتها (سرّا) ثم بعد ذلك تقوم بحملة من القمة إلى القاعدة.

بالطبع فإن من المنطقى التساؤل لماذا ديكتاتورية معينة قادرة على الاستمرار لفترة معينة, ومن المهم أيضًا استخدام النظرية لتحديد نقاط وخطوط الخطأ. بكين تحاول فعل شئ غير ممكن فى الجمع بين اقتصاد السوق والأبوية الشيوعية, والمشاكل المترتبة على ذلك لن تذهب وحدها. من الخطأ الحديث عن الإصلاح الاقتصادى والإصلاح السياسى كأجندتين منفصلتين فى الصين, الاقتصاد ليس ببساطة اقتصادا كما كتب (زهو اكسيكن) فى مقدمة الكتاب الشجاع الذى كتبه (هى كنجليان) "الاقتصاد مُكون من مضمون سياسى, اقتصادنا المُخطط هو نتاج نظام سياسى مُعين, وفى اللحظة التى يتفاعل فيها الاقتصاد المُخطط مع العالم الفعلى فإن كل خلية فيه تنضح سياسة والحديث عن الإصلاح الذى يتجاهل المحتوى السياسى للهيكل الاقتصادى هو مرة أخرى نسج فى مجموعة من ملابس الإمبراطور".

ومع أسباب جديدة فإن (آدم سميث) فى كتابه "ثروة الأمم" سمى اقتصاد السوق بأنه نظام الحرية الطبيعة, ومثل ذلك فإن الدولة اللينينية هى نظام القمع الطبيعى, وأى تفاصيل لا تلغى مُعضلة بكين الحالية. المجتمع والدولة يتفاعلان, والتوازن بينهما يتغير بمرور الوقت. وفى أزمة ١٩٨٩ فى تيان

القمع الطبيعى، وأى تفاصيل لا تلغى مُعضلة بكين الحالية. المجتمع والدولة يتفاعلان، والتوازن بينهما يتغير بمرور الوقت. وفى أزمة ١٩٨٩ فى تيان آن مين فإن علاقة المجتمع بالدولة كانت على حد السكين. الدبابات فى مواجهة الطلبة فإنها قد جعلت التوازن لصالح الدولة. المرة القادمة وفى ظروف مختلفة فإن التوازن سيتجه نحو المُجتمع وفى هذه الحالة فإن اقتصادا و سياسة جديدة سيولدان.

سنحدد فيما يلى عددًا من العوامل الرئيسية فى سقوط الأسر الملكية الصينية والتى تحمل شيئًا من مستقبل بكين:

- إنخفاض مستوى القيادة: الأباطرة الأول كانوا أساتذةً فيما أن الأخيرين منهم كانوا ضعافًا مستواهم متدنى فى دوافعهم وهم أحيانًا مجرد عرائس تابعة. هذا العامل ليس ربما تهديدًا لجمهورية الصين الشعبية فهو جنتاو هو ظل باهت لماو ولكن الصين لا تحتاج لماو والمشاكل الحالية لا تستدعى الأسلوب الماوى فى الحل وحكم الحزب الشيوعى لن ينتهى بسبب ضعف القيادة لكن لأن القيادة الشيوعية غير مناسبة لاحتياجات الصين .
- الفساد: استغلال المناصب للتربح يضع نهاية للحكم ويجعل الأسرة مقضيًا عليها وقد لخص (هو بنج تى) العلاقة بين الفساد والهجوم على حكم أسرة الكينج الأخيرة "لقد كان الاختلاس الواسع الانتشار منذ عصر كيان لونج ١٩٣٦-١٩٩٤ والذى حول الاستبداد الخيرى لـــ(كانج إكسى) ١٦٦٢-١٧٢٢ ويونج زهينج ١٧٢٢-١٧٣٦ حوله إلى استبداد شرير والذى كان وراء الكثير من أسباب الثورة والتمردات التى أعقبته.

الفساد هو تهديد خطير للصين وأى نظام شيوعى يلجأ للتساهل فإنه سيتجه حتمًا إلى الفساد، السلطة والمال عندما يتقاطعان دونما حكم القانون الإشرافى يولدان الفساد، وللسبب نفسه فإن وجود المال الأجنبى يضيف لذلك الإغراء، وكما قال دينج اكسياو بينج فإن تحقيق الغنى (هو شىء من المجد)،

والنتيجة هى أن الحظ لطالبى المال فى قواعد المجتمع وجيوب البيروقراطيين الملأى بالمال وهم الذين يحركون المناصب دائريًا. كل ذلك مما يشوه توزيع الموارد ويعوق اتساع السوق الصينى الداخلى، ويزيد من فرص عدم المساواة. ١% من سكان الصين يملكون ٤٠% من ثروته وكثير منها تم بناؤه من خلال أعمال الفساد، والنشاط الاقتصادى فى الثمانينيات كان فى معظمه من خلال رجال الصناعة الصينيين الذين تم تحريرهم مؤخرًا، نشاط التسعينيات يعود أكثر للقوى السياسية وتكوين الروابط والاتصالات. وإذا لم يتم إيقاف هذا الفساد فإنه سيدمر الدولة، ويُقال أن وقفه سيدمر الحزب الشيوعى الصينى، هذه الحالات الكُبرى الواضحة للفساد فى مال شرق الصين المتخلف هى دليل على منطق وأسلوب الفساد الشيوعى وفى حزام المفاسد حيث اقتصاد الأوامر والتعليمات هو الحاكم الأعلى فإن القوة تتجاوز المال المُتاح، ومن هنا فإن المتحكمين فى المناصب يتصارعون ويتكالبون على الأسلاب والمغانم. وفى عام ١٩٩٩ عندما انتهت اللعبة لعمدة (شينياج) المُتهم بالفساد وُجد فى منزله ما يساوى ٣٦ مليون دولار من سبائك الذهب، ومُرتبه السنوى من عمله كعمدة كان ٣٥٠٠ دولار فى السنة.

- **الصراع على الخلافة:**

معظم أنظمة الحكم كانت مهتمة جدًا باختيار الإمبراطور الجديد، والسبب الأساسى وراء ذلك يكمن فى غياب قواعد واضحة ومحددة عن الخلافة ولقد كان الأمر مشابهًا فى فترة جمهورية الصين الشعبية حتى الآن، وفى عام ١٩٧٦ فإن الصراع على مكان ماو لم يسقط الأسرة لكنها استبدلت بحكم ماو حكمًا آخر مختلفًا تمامًا، وفى السنوات الأخيرة فإن الصراع على الخلافة صار أقل حدةً فى بكين. ورغم هذا لا توجد قواعد لاختيار الزعيم الجديد للحزب الشيوعى والتى لا يمكن كسرها أو وقفها من خلال المبادرة السياسية. وفى عام ٢٠٠٢ فإن جيانج زيمين كان صدىً لحكام الصين

السابقين وكان لديه تفكير حول إتباع تفاهم سابق لترك منصبه أو كل مناصبه وتسليم السلطة لهو جنتاو. وفى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى فإن جيانج ترك منصب سكرتير عام الحزب ولكنه احتفظ بمنصب عسكرى أعلى، كما أنه ملأ الجزء الأهم من الحكم فى المكتب السياسى بمؤيديه. والحل الحديث لموضوع الخلافة هو الانتخاب ومن جانب كل أعضاء الحزب وهو ما لم يتم حتى الآن.

•<u>ثورة الفلاحين</u>: تقليديًا فإن الأسباب التى حركت التمردات ضد الأسر الحاكمة تمثلت غالبًا فى زيادة الضرائب والرسوم المفروضة بصورة تحكمية بما مثلته من مغانم مباشرة، كما أن السياسات التى غلب عليها طابع الغموض أدت إلى هبات تمرد من جانب الفلاحين. وقد وجدت (لوسيان بيانكو) أن القرن العشرين شهد كذلك أشياء مشابهة خاصةً فى مجال الضرائب مما ترتب عليه إشعال نيران التمرد. ووجد (توماس بيرلشتاين) ديناميكيات مشابهة فى القرى هذه الأيام فإن الضرائب تقتطع من دخل الفلاح ما بين ٢٠ و٣٠% وخلص إلى أنه لا نهاية لها ولا يمكن توقعها وهى ضريبة تنازلية. وهناك أجزاء من ريف الصين حاليًا صارت تعيش حالة من انعدام القوانين وقريبة من العنف. وهناك أحد الرسميين من بكين قال لبرنشتاين فى لحظة صدق "لا يمكننا تأييد الانتخابات فى الأرياف لأننا لو وافقنا فإن أحزابًا سياسيةً للفلاحين ستظهر وستغرق الحضر الصينى وتجرفه فى طريقها"، والقوة الغالبة للدين اليوم هى فى مناطق ريف الصين حيث إن التعاون بين الحزب الشيوعى ورأس المال الأجنبى يكاد ينعدم – وحيث ثلاثة أرباع أعضاء الكنائس من الإناث والذين ينمو بينهم ويزدهر الاتجاه الروحى الدينى.

وعدم رضا الفلاحين بسبب الضرائب المرتفعة يتم التعبير عنه بأسلوب سياسى غامض مما يمثل خطرًا على الحزب الشيوعى. إنها فقط ستهز النظام

ولكن لو تم الربط بين المصاعب فى الريف والتى تحوز على تعاطف الموظفين المحليين وتؤدى إلى البطالة فى المدن، وضغوط منظمة التجارة العالمية يمكن أن تجعل من ذلك ممكنًا كما أن الأفكار الدينية الغامضة جاهزة ومنتظرة بما فيها أشكال مختلفة من البوذية والمسيحية وعندما تضغط النظم كما يقول الديموقراطى (وى جينجتشينج) فإن الربط بين التاريخ مع الحاضر "فإن الحركات الدينية الشعبية والخرافات يصير لها مغزاها ويوجد الكثير من الطوائف مثل فالونجونج والتى تعنى أن الشعب لديه رغبة فى الإيمان بأيدولوجية ما ومصدر جديد للإرشاد، والحكومة تعترف بالخطر وتتجه لبحث المسائل لكيفية التحكم فى نموه".

- <u>الهزيمة العسكرية</u>: فى فجر الأسر المالكة وبداياتها فإن الانتصارات العسكرية كانت عديدة وبعد النشاط والقوة فإن دبيب الضعف ينتشر فى أوصال النظام بما يؤدى به بالفعل إلى الضعف، ونفقات الحملات تؤدى لمزيد من الضرائب على الفلاحين وتبدأ الحروب فى الخسارة، فأسرة الهان خسرت المعارك مع (إكسيون جنو)، والسونج واجهوا الهزيمة على يد الــ(جين)، والكينج ضربتهم بريطانيا فى حرب الأفيون فى ثلاثة أرباع الطريق خلال هذه الأسرة.

الهزيمة العسكرية لا يبدو فى الأفق أنها تحوم حول الصين الشعبية والحكم الأول لماو جاء بحروب مكلفة مع كل من كوريا الجنوبية، الهند، الاتحاد السوفيتى بالإضافة للمنازلات عبر مضيق تايوان والصين لم تلحق بها هزيمة عسكرية واضحة فى أى من تلك الحروب.

ومع بداية الحكم الثانى لصين دينج هاجمت الصين فيتنام دونما نجاح كبير، والصين الشعبية لا تواجه تحديًا مسلحًا فى الداخل، كما أن القوى الأجنبية لا تتصادم مع سيادة الصين، حتى الآن تسمح للصين باستخدام رأس المال الأجنبى والمعرفة الفنية دون أن تفرض السيطرة على شئونها. والخطر

يبدو فى أن مزاج القومية ربما يقود إلى حرب غير حكيمة وهذا قد يكون أمرًا مدمرًا فلو أن صين هو جنتاو مثل أسرة الكينج وجدت نفسها متوقعة حروبًا على جبهتين فإن الصين ربما تحارب لأسباب سياسية مع كل من تايوان، ومنطقة آسيا الوسطى، أو مع اليابان على الجزر المُتنازع عليها.

• **السياسات القانونية الواقعية لا ترضى الإحساس المعنوى للشعب الصينى:** حدوث فراغ وخواء فى مجال القيم يسبب قلقًا، وهنا فإن الأخلاقية الكونفوشيوسية يتم إعادة التأكيد عليها، وكان هذا هو النموذج فى عملية إحلال الكينج بالهان والتغيير من أواخر اليوان إلى المينج. وخلال عقود الصين الشعبية فإن ماو وعصره دفعا الكونفوشيوسية الجديدة، وعصر دينج تغير إلى القانونية الواقعية الجديدة وبعد مأساة تيان آن مين والقمع والأيدولوجية المتهرئة لم تستطع إنقاذ الشرعية إلا قليلاً، وفى نهاية عهد جيانج فإن الحاجة الماسة لمعنى جديد تمثل سحابة تحوم حول نظام الحزب الشيوعى الصينى، وإن جملة "أزمة الاعتقاد" قد ظهرت لتوظيف هذه الحالة.

• **التغيير الديمجرافى:** زيادة السكان فى الصين تكسر الكثير وستساعد فى شرح المصير المُتوقع الذى ينتظر الصين الشعبية، النمو السكانى السريع يضيف إلى الضغط على استخدام الأرض وكان أحد سببين رئيسيين مع ضغط الغرب واليابان، ونهاية عصر أسرة الكينج كان عدد سكان الصين عام ١٥٨٠ حوالى ٢٠٠ مليون نسمة وفى عام ١٨٥٠ وصل العدد إلى ٤١٠ مليون وتمرد الـــ(تايبنج) وثورة الفلاحين تجتذبت تأييدًا ضخمًا من جانب السكان المُشردين. وفى ومضة واقعية فقد ذكر ماو فى ملاحظاته إلى مستمعيه عام ١٩٥٣ بأن "سكاننا الـــ٦٠٠ مليون سيتعين عليهم الوقوف صفا عند الذهاب للشارع والشوارع ستتخم بالسكان وتعج بهم، كيف سنوزع الجرائد؟ كيف سنذهب للسينما؟ كيف سنذهب للحدائق؟ كل هذا سيصير مشكلة". وبعد ٤٥ سنة من ماو وحديثه فقد زاد عدد الصين ٦٠٠ مليون

آخرين كما أن الآن المشاكل التى توقعها ماو حدثت بالفعل وبعضها من أخطاء ماو نفسه. والذى كتب التاريخ الشخصى لماو وهو الاقتصادى الكبير (ما يِيننشا) والذى اصطدم مع ماو حول السياسة السكانية فى الخمسينيات كتب "لو أن أفكار (ما) عن ضبط النسل قُبلت واستمرت فى التنفيذ بدلاً من أفكار ماو والتى تقول- ناس كثيرون وأفكار أحسن- فإن عدد سكان الصين عام ١٩٨٦ – لما نُشر تاريخ ماو- كان سيكون أقل مما حدث بالفعل بـــ٢٥٠ مليون نسمة".

وهناك أمر لم يتخيله ماو فإن هناك ١٠٠ مليون نسمة يعيشون مشردين فى أماكن لا يريد لهم النظام أن يعيشوا فيها، وهؤلاء حتى هذه اللحظة يبحثون عن مأوى ويعيشون حالة القلق أكثر مما يعيشون حالة التمرد وهم فلاحون سابقون ويمثلون قنبلةً موقوتة لا استقرار ووحدة الحزب الشيوعى الصينى.

• <u>عزلة البلاط :</u> أحد الأباطرة جرى تضليله حول إمدادات الغذاء فى مقاطعة تعانى من القحط، وطفل وجد نفسه على العرش غير واع بمملكته يتلاعب به الطامحون إلى القوة والذين لا يقيمون ثمة اعتبار لصورة دولة الصين فى القرى الصينية، المؤامرة والثورة تكون دونما إنذار تؤكد وتبرهن أن المركز بعيدا عما يجرى فى بعض المقاطعات لأن صلته بها تكاد تكون معدومة. الإمبراطورة (دواجر) فى أغسطس عام ١٩٠٠ وأثناء تداعى أسرة الكينج هربت مذعورة خائفة وفقدت الإحترام من جانب الصينى العادى الذى يعرف متاعبها. ومن الناحية الفيزيائية فإن ديكتاتورية بكين اليوم تحسدها إمبراطورية (كين شيهوانج) الشمولية. المركز يستطيع الآن فعل أشياء لم تحلم إمبراطوريات العصور القديمة والوسطى أن تفعلها، حيث إن النقل الأفضل والاتصالات الإلكترونية السريعة والإحصاءات القريبة من الحقيقة جعلت الدولة الصينية الحديثة أداة فائقة الحدة للحكم، ورغم هذا فإن الحزب الشيوعى فكريا وروحانيا يبدو أنه فاقد الصلة مع معظم الشعب الصينى،

وأكثر من هذا رغم أن دولة الحزب لديها عادة علم بالظروف المحلية، فإن موظفيها المحليين يتعاونون مع بكين بحشو تقاريرهم إلى المركز، وعلى مستوى الثقافة الشعبية بما فى ذلك عنصر الدين فإن الحزب الشيوعى يبدو وكأنه يعيش فى كوكب آخر بالنسبة للريف. يشعر الشعب بأن العناصر الرئيسية للتقدم الأخير تمثلت فى المال الأجنبى والمنتجات الفنية والتكنولوجيا، وإسهامات الحزب الشيوعى كانت مجرد الامتناع عن الإضرار أكثر منه فعل شيء جيد، وطالما كان الدافع لدخول الحزب الشيوعى الصينى مثاليا فإنه اليوم دافع مهنى. الحزب الشيوعى يشعر بعزلته عن اهتمامات الأمة الفعلية ويعطى نظرية جيانج زيمين (التمثلات الثلاثة) إنها تطور جديد فى النظرية الماركسية حول بناء الحزب، فى عام ٢٠٠٠ كانت هناك حملة سياسية على نسق ماو لدفع نظرية جيانج، ومن ثمانية عوامل هددت الدولة الصينية فإن فكرة التمثلات الثلاثة أظهرت خوفا خاصا من الفساد ومشكلة الخلافة والخواء والفراغ القيمى.

قال الحزب الشيوعى إن قائده غير المنتخب يجب أن يكون ممثلا للقوى المنتجة الأكثر تقدما، والثقافة الأكثر تقدما، ولمصالح الشعب. وعلى الصعيد العسكرى فإن خلية الحزب فى كل وحدة تقوم بعمل دورات وحلقات لتطبيق نظرية جيانج العلمية لتسليح فكر الضباط والجنود وكسب الحروب، ويهمس بعض الخبثاء الصينيون (ألم يكن الحزب الماجد دائما ممثلا لكل شيء جيد فى الصين؟!) وواضح أن التمثلات الثلاثة لا علاقة لها بالماركسية، فالتحليل الطبيعى غائب عنها لكن العقيدة لديها كل شيء عن حزب يبتعد عن الانتظام فى العمل مع وضع اقتصادى اجتماعى متغير، حزب جيانج زيمين كان يحاول أن يلتقى مع المجتمع، يتحرك من كونه اقصائيا إبعاديا ليكون خلاقا ضاما (الحزب الشيوعى يمكنه بنجاح الإشراف على أى شخص وأى شيء).

فى أوروبا فكرة التمثيل ظهرت فى العصور الوسطى، وكان المفروض من الممثل أن يكون مرآة لهؤلاء الذين يمثلهم، إنه يقف من أجلهم، بعد ذلك أخذت فكرة التمثيل نكهة المحاسبة متأثرة بالانتخابات التى عقدت فى النظم المسيحية للدومنيكان والسستريكان وهذه المحاسبة هى التى صارت أساس الديموقراطية فى أوروبا. والحلقة الوسطى كانت هى نمو البرلمان، فمع البرلمانات فإن فكرة التمثيل أصبحت توأم فكرة سيادة الشعب.

لقد كان مفهوم المرآة التى لا تحاسب للتمثيل فى البداية متساوقا ومتلائما مع أبوية ابن السماء الصينى فى صيغتيه التقليدية والحمراء، الأب والأم يمكنهما ظاهريا تمثيل أبنائهم، كوادر الحزب الشيوعى يشعرون أنهم يمثلون الشعب، فكرة جيانج (التمثلات الثلاثة) والتى أكدها هو جينتاو فى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى الصينى باعتبارها تفكيرا مهما يعلن أن الحزب الشيوعى الصينى هو مرآة للنقاط العليا والمصالح الكبرى للمجتمع الصينى. ولكن الحزب لا يمثل أى شخص بمعنى أنه مسئول أمامهم، جيانج كان يقول ببساطة للحزب الشيوعى أن يفكر فى نفسه باعتباره متقدما للغاية، ومن هنا كان الخلط بين النظرية اللينينية للرواد الثوريين وللشعور الكونفشيوسى الأستاذى للتأهيل. التمثلات الثلاثة كانت مثل الطقوس والموسيقى التى استخدمت منذ ألف سنة لتؤكد لعامة الشعب أنهم يعرفون ما هو الجيد بالنسبة لهم.

والمشكلة أنهم لا يمكن أن يكون هناك تمثيل أو وحدة أو استقرار مستمر أو دائم حيث لا توجد سياسة، والسياسة هى نتائج التخطيط ورغبات الكثيرين كما كتب (بوش هاين) فى دراسته الكلاسيكية عن السلطوية "الحكم الشمولى يحقق خطة واحدة تضم كل شىء" أى خطة كلية دونما حرية تعبير وحرية اجتماع لا تحقق وجود حياة سياسية. فى الصين توجد بيروقراطية

سياسية لكن لا توجد سياسة، والتمثيل فى بعض الطرق ما فوق الطبيعة دونما اختيار انتخابى يعتبر تزويرا.

أى دور يبقى للحزب الشيوعى فى عصر هو جينتاو، كان عمره ستين سنة عندما كتب ذلك كرجل عجوز؟ لو أن حكم القانون جاء فإنه يترك إرشادات الحزب الشيوعى وتعليماته فى التراب، ولو أن الملكية الخاصة نمت هى والسوق فماذا يجدى ثمن التخصيص من جانب الحزب؟ وأين هو فى العالم الحزب اللينينى الذى حافظ على قوته بعد أن توقف الاقتصاد عن التوجيه من جانب الدولة؟

يرى (فاينر) أن المفتاح الأساسى لاستقرار النظام هو فى تلاقى ثلاثة قوائم من نظام عقيدى، وتخطيط اجتماعى وتشريعى، ومؤسسات سياسية، وأنها كلها ينبغى أن تكون متوافقة ومتطابقة حتى تستقر الدولة وتستمر "و عندما يدعى الحاكم السلطة ويكون الحكم غير جيد ولا يتسق مع النظام العقيدى للمجتمع فإن عليه أن يتغير أو أن يعتبر نفسه غير شرعى ويسقط" والكونفوشيوسية هى نظام عقيدى متسق مع الترتيب التصاعدى الاجتماعى للأسر الملكية الصينية ومع وجود الإمبراطور فى قمة المؤسسات السياسية.

ولكن فى صين اليوم فإن التخطيط الاجتماعى قد كسر الصلة وقطعها مع كل من نظام الاعتقاد ونظام التصاعدية السياسية والتحرك الذاتى الفردى قد نما فى المدن وصار الدافع هو تحقيق الذات فى الاقتصاد والحياة الثقافية وكلها صارت مثل صندوق الشرور لنظام الحكم الأبوى فى بكين، وفى بحث عن الشباب فإن الإحساس الشعبى هو (افعل ما تريد فعله) وهذا يمثل خروجا على وجهة النظر الشيوعية وكذلك بعض الآراء التقليدية التى تعتبر الفرد مجرد ترس فى آلة المجتمع (اختيارى ربما لا يكون نفس اختيار الآخرين ولكن أعتقد أنه صحيح، ولو لم يحالفنى النجاح أول مرة فلن أستسلم فيوما ما سأنجح)، وفى أحد الأيام بعد الظهر وجدت فى شوارع شنغهاى عام ٢٠٠٢

شعارا يقول (إنه ليس مستحيلاً) فى إعلان عن التعليم وشراء العقارات، هذا الشعور بالفردية ورفض التحكم ربما هو المنطلق للديموقراطية، وفى المدى المتوسط والطويل فإن الشمولية الصينية لا يمكنها أن تقاوم رياح التحديث.

مع استخدام الإنترنت فإن الفرد الماهر فى بكين أو على بعد ٢٠٠٠ ميل منها سواء كان عمره ثمانية أعوام أو ثمانين عاما، سواء كان يلبس حلة أو حتى ملابس داخلية فإنه يمكنه الاتصال بأى شخص فى العالم هذا ما لم يحدث فى التاريخ من قبل، كما يستطيع أن يتصفح الإنجيل بالإنجليزية أو الصينية ودون أن يعلم أحد أنه يقرأ فى مواد دينية، كما أنه يستطيع إذا كان مجتهدا أن يحصل على وجهة نظر ثانية وثالثة عن دولة الحزب الصينية وآرائها وتصرفاتها. لقد تبخرت المسافات وحتى النفى فقد آثاره، وغرفة الحديث والثرثرة يمكن أن تكون الأرضية العملية للديموقراطية.

وعلى الناحية الأخرى فإنه من الخطأ أن نرى استخدام الإنترنت وكأنه خطوة مباشرة نحو الديموقراطية، فكثير من الصينيين سيذهبون لمجرد اللعب أو لطلب فرصة تعليمية أو لجلب الأموال أو النظر للأجسام العارية، أكثر من ذلك فإن دولة الحزب قد أصدرت قرارا باستخدام الإنترنت بطريقة جماهيرية لتحقيق أهدافها بما فى ذلك الدعاية لسياستها، وعندما انتهى عام ٢٠٠٢ فإن الحكومة قد سجنت ٣٣ شخصا بتهمة تخريب سلطة الدولة بالتعبير عن أفكار سياسية خاطئة على الإنترنت. فالإنترنت يقوى الدولة ولكنه كذلك يمكّن للفرد، وحتى الآن فإن هذا الصراع الجديد يحدث على هامش التوتر بين الدولة والمجتمع حيث إن نسبة ضئيلة من الصينيين ومعظمهم ذكور وغالبا من المناطق الحضارية هم من يستخدمون الإنترنت بطريقة جدية أو كبيرة. غدا لو أتت نخبة غير موفقة وتفاعلت مع التعبير عن الأحزان والآراء من الجذور وقاع المجتمع فإن الاستخدام الشعبى للإنترنت يمكن أن يصبح عاملا سياسيا، ويوما ما فإن وقف التخريب فى استخدام

الإنترنت ربما يصبح لا فائدة منه مثل التشويش على الراديو أيام الحرب الباردة. والشمولية الشيوعية الصينية يمكن أن تفقد فجأة منطقها فى مواجهة تقديم الإنترنت للمعلومات فى التو واللحظة.

وفى ريف الصين يوجد قدر من عدم الرضا بين نظام العقيدة والنظام السياسى، وفى خلال فترة حكم الأسرات الملكية فإن الدين الشعبى كان يربط كل قرية مع الإمبراطور من خلال الفكرة الكونية الكوزمولوجية والعطلات كانت مرتبطة بالذاكرة التاريخية على عكس العطلات فى الصين الشعبية مثل يوم العمال ويوم الجيش والعيد القومى والأخيرة لها معنى ثقافى كبير ولا تقتضى سلوكا معينا ما عدا المنظم من قبل الكوادر المحلية، والتناقض مع النظام القمرى للسنة الجديدة والأعياد والاحتفالات التقليدية كما كتب مايرون كوهين (لا يمكن أن تكون أعظم).

فى الصين عام ٢٠٠٣ فإن الدين يعنى فقط ذلك الذى توافق عليه الدولة، وكل ما عدا ذلك فهو دين شعبى محلى مع آلهته فى العالم الخفى أو السماء أو الأرض ما لم نتكلم عن البوذية المنكهة المسماة (الفالونجونج)، وهى من وجهة نظر الحكومة هرطقة يجب أن تُحارب لأن القيادة السياسية فى الصين الحديثة ليس لديها إطار ثقافى ولا تشارك فيه كما أضاف كوهين "هذه كلها يعبر عنها فى شكل أوامر عارية" ولذلك فإن قوة الدولة لا يتم تسهيلها بالروابط الثقافية الطبيعية على العكس هناك ثقافة مفروضة (الالتزام بالشعارات والملصقات والتجنيد بالأوامر المرسلة وليس بالمعنى).

ومن أسفل فإن الدافع نحو إيجاد وإعادة خلق فلسفة عامة إعتقادية فإنها أحيانا تومض ثم تخبو مثل الطلب الضمنى أو الباطنى للخلاص من خلال حركة (فالونجونج) خلال أواخر التسعينيات، أو قضية الإمبراطور (لى) فى مقاطعة هونان عام ١٩٩٢، فإن (لى) يرعى الغنم ويسرق الجيوب ويبيع الأوانى والسكاكين فيما بعد فى فريق عمل اشتراكى وصار زعيما من خلال

الوعد بالهبات ومحاولة ملء فراغ القيم وراهن على قواه غير الطبيعية فى شفاء الأمراض واستخدام السحر فى إحضار الساعات وأجهزة التسجيل من هونج كونج، وبالتأكيد فإنه كان محتالا غشاشا كذابا ولكنه عندما ادعى أنه إمبراطور فكثير من الفلاحين وافقوا عليه وقبلوه، وقد أغرى الفلاحين بالذهب والمال للذهاب معه إلى جبل (بومى) فى سيشوان لدراسة فنون السحر وأعطاه بعض الفلاحين بناتهم كوصيفات له، ومن هنا فإن النقود والمعجزات والجنس استخدمت من أجل السحر والفتنة، وكتبت (آن أناجنوست) فى قصة البطولة الخاصة بالإمبراطور (لى) أن الصور الأسطورية التاريخية لإمبراطور هونان تعكس وتعبر عن المشاعر السياسية والتى لا يعترف بها ولا يعرف النظام السياسى الرسمى عنها، هذا البطل المنتظر فى الريف استطاع أن يربط الماضى الأسطورى مع الحياة المادية الحديثة، ومشى بعض الناس خلفه وهم أولئك المشتاقون إلى السوق والتسويق والمحرومون اليائسون من دولة الحزب التى لا ثقافة لها، ورغم مظاهره اللا أخلاقية التافهة فقد أنجز (لى) نظاما أخلاقيا سريع الذوبان بالعلاقة بين القائد والشعب والتى يفتقدها الحزب الشيوعى. ومع فقدان هذه الحالة المحزنة فإن دولة الحزب الصينية بعد وضع نهاية لهذه الدراما قد هرشت بإصبعها فى رأسها فى الثمانينيات المتقدمة علميا وبعد مرور ٧٠ سنة على نهاية النظام الإقطاعى الإمبراطورى الفاسد، فإن شخصا نذلا وغدا يستخدم هذه الكلمات كالإمبراطور (أمر عالٍ أو مرسوم سماوى) (روح ما فوق الطبيعة) ليضلل الناس، هل هذا غريب؟ إنه ليس كذلك (بالرغم من أننا نعيش فى عالم متقدم فإن نفوذ الأفكار القديمة مازال باقيا).

الشخص الكبير الذى يربط الحزب الشيوعى مع القواعد والجذور فى الصين هو ماو تسى تونج، ففى نظام الاعتقاد الشعبى الصينى تم إضافة ماو إلى هيكل آلهة الشعب الإيمانية. وفى نهاية القرن العشرين فإن سائقى

التاكسى فى بكين علقوا صورة ماو على عجلة القيادة لمنع ودرء الحوادث والبوليس والمجرمين، وعندما ضربت الفيضانات وادى (يانجزى) عام ١٩٩١ فإن الفلاحين استخدموا صورة ماو كشىء جدير بالتذكر كما أن البوذيين استخدموا لقرون صور وتماثيل (جوان ين) إلهة الشفقة طلبا للأمان وليحققوا الازدهار.

مليونير من مقاطعة أنهوى كتب إلى بعد قراءة الطبعة الصينى لقصتى مع ماو، يقول "كلما حصلت نقودا شعرت بالحنين إلى ماو". ومدير مصنع سابق فى (تيانجين) كتب اعترافا بالجميل والتقدير "بعد قراءتى كتابك عن ماو فقد قررت أن أستقيل من منصبى المرموق وأن أفعل شيئا مفيدا لقد أصبحت منظما" هذه الحياة السياسية بعد ماو تربط الهوية الجماعية للشعب كصينيين فى ظل غياب صلة عاطفية مع دولة الحزب. وحيث صار الناس (داويين) جددا يتوقون لجلب المال لكنهم مازالوا يعتقدون فى الأرواح، وجيانج زيمين وهو جينتاو ومجموعة المهندسين قد صاروا واقعيين جددا يسيطرون بمهارة على الجماهير التى تعتنق الفلسفة (الداوية الجديدة).

تساءل (أوين لاتيمور) وهو يتأمل بحث الصين فى القرن العشرين عن شكل سياسى جديد قائلا "كم من النسيج القديم يجب تدميره؟ كم هو مستقر هيكل حديث قائم على أسس قديمة؟" هذا السؤال مازال فى مرحلة الإجابة عنه، وشعر لاتيمور "أن تغريب حضارة الصين القديمة ستكون هى الأمر الحاسم أكثر من أحلام اليابان عن منطقة الرخاء المشترك أو الشيوعية السوفيتية"، والسنوات التى أعقبت وفاة ذلك المتخصص فى آسيا الداخلية عام ١٩٨٩ قد جعلت آراءه أكثر إثارة، فإن أفضل تعاون تم مع الصين وكان منتجا خلال القرن الأخير لم يكن الذى تم بالقوة من جانب اليابان أو بالشراكة الماوية السوفيتية لكنه ذلك الذى يجرى حاليا مع رأس المال الأجنبى، ورغم هذا لم يشهد التاريخ السياسى الصينى توقعا عاما لنتيجة التعاون الأجنبى مع

الصين، وبصفة خاصة مع الغرب وأفكاره أو مع الجبهة البحرية وكان أكثر صعوبة من التعامل مع آسيا الداخلية خلال فترات المغول والمانشو والتى امتدت لقرابة ٥٠٠ سنة، هذه الأسر تضمنت سيطرة سياسية على الدولة الصينية. والتعاون القصير فى القرن التاسع عشر والعشرين وحتى ذلك مع الاتحاد السوفيتى لم يأت باحتلال أجنبى لمركز القوة السياسية فى الصين، فقط الاستعارة الأيديولوجية والتلاعب والمشروعات المشتركة والضغوط والحقن بالقروض ربما تضيف إلى تعاون قصير الأمد.

والحياة فى عالم منظمة التجارة العالمية يمكن أن تكون اختيارا جيدا، ووجود حائط عظيم بين دولة الصين والقوى التى تلعب عليها من التعاون مع رأس المال الأجنبى لا يمكن استمراره، فمستقبلا فإن الصين ومعظم شركائها التجاريين سيستفيدون من دخولها منظمة التجارة العالمية وسيكون صعبا على دولة الحزب الصينية اتباع قانون الميزات النسبية الذى يقبع خلف التجارة الحرة. هذا القانون هو للرشد الاقتصادى بينما تعمل الصين بأسلوب الرشد السياسى كما كتب أحد الباحثين فى إحدى المجلات الحرة فى منطقة جنوب الصين عام ٢٠٠١ "فى مواجهة العولمة فإن الصراع الأولى ليس مع المشروعات ولكنه مع الحكومة"، هل بكين لا ستنتقص من أولوية القطن والقمح والسكر التى يقترحها قانون الميزات النسبية؟ أم تشجع صيد الأسماك وزراعة الزهور. ولكن مع فكرة السياسة من خلال الأوامر فإن بكين قد تعزف عن عدم تشجيع القطن والقمح والسكر لأسباب خاصة بالبطالة.

ولو أن بكين قد أخذت المخاطرة بالتمسك بقواعد التجارة العالمية فإن الطبيعة الوهمية للسوق فى معظم الاقتصاد الصينى ستفضح وتكشف متاهة من الدعم الخفى والعلاقات الداخلية وإمساك الحسابات المزدوجة والتزوير فى بورصة الأوراق المالية والإحصاءات المعروفة والمحاكم التى تخضع

للحزب الشيوعى وأسطورة تقلص الدولة فى عهد دينج وجيانج وسيثبت أنها غير حقيقية.

والاختلافات بين الأقاليم يتوقع أن تزيد وتنمو مع عضوية منظمة التجارة العالمية، وكما كتب (نيكولاس لاردى) "إن خسارة الوظائف فى الزراعة والصناعة والتى حدثت وتحدث ستؤدى إلى مزيد من استمرارها فى الشمال الغربى بينما جيل العمالة سيزيد وينشط فى (يانجزى) وأقاليم الجنوب الشرقى الشاطئية. وفيما سيعانى قطاع الزراعة فإن عشرات الملايين سيلتحقون بالجيش المشرد الذى لا يجد وظائف فى المدن ولا مساكن ولا مدارس وربما هذا من الناحية السياسية سيكون هو التهديد الأعظم للحياة فى منظمة التجارة العالمية فيما لو أن بكين قامت بتطبيق معظم قواعدها".

فئات المصالح الخاصة من إقليمية وقطاعية ستتوقع أو تطلب مساعدة إثر التفاعل مع الأسواق العالمية، وقد توقعت صحيفة جواندونج عام ٢٠٠١ دخول منظمة التجارة العالمية كحل لمتاعب وخسائر نظام قطار الأنفاق، لقد رأت أن مشاريع الدولة وقد انهار الجبل الذى تعتمد عليه، وأن عليها عدم الاعتماد على الميزانية فى التهام المخصصات.

وهناك أستاذ صينى زار الولايات المتحدة تنبأ بأن دخول منظمة التجارة العالمية سينقذ صناديق المعاشات الصينية وقال "يمكننا استخدام مهارات المشروعات الأجنبية لتحسين الخدمات الاجتماعية الصينية" وهذا فى الغالب هو تفكير بالتمنى.

وبكين بعد فترة إستراحة من التطبيق والالتزام غالبا ستظهر وتعرض أسوأ ما فى عالمين ممكنين، غياب حكم القانون سيجعل البيروقراطيين فى منظمة التجارة العالمية يصابون بالجنون وهم الذين يريدون أن يأخذوا الصين إلى الممارسات الدولية، ورغم هذا فإن التنمية المحلية وكما أسماها

(زهينج يونج نيان) الدولة الجديدة فيما بعد ماو ستجعل التمسك بقواعد منظمة التجارة العالمية أمرا مشكلا، فبكين ستقول لجنيف شيئا واحدا لكن (جوانزو) و(شينزن) ربما تتصرف بطريقة معاكسة لتأكيدات بكين.

وتوقع الاقتصادى (ريتشارد كوبر) "إن الصين غالبا ستكون فى حالة شديدة عام ٢٠٠٧ من عدم الالتزام أو التطبيق لقواعد منظمة التجارة العالمية، وبكين ستكون فى الوسط بين المتمسكين الأجانب بالتطبيق والمقاطعات والمحليين غير الملتزمين" فالتوافق مع قواعد منظمة التجارة العالمية سيتطلب من الحكومة الصينية التراجع عن السيطرة على الاقتصاد الصينى، ولكن حكومة صغيرة لا يمكن أن تكون فى دولة الحزب اللينينية وحتى الطبقة السياسية والتى هى عالية الذكاء فى الصين لا يمكنها أن تتهرب من الضجيج الذى سيتمخض عن هذا التناقض.

وهناك خمسة سيناريوهات تطرح نفسها حول السياسة الصينية خلال العقدين القادمين :

السيناريو الأول: ويرى استمرار السياسة الدينجية الجديدة التى ميزت سنوات جيانج زيمين، فبكين رفضت التحرك نحو التعددية السياسية وتعيش الصين حالة من التناقض بين السياسة والاقتصاد. الصين الشعبية تبقى موحدة إلا أن نقصِ الاستمرارية والأهداف الواضحة ليسا كافيين لاجتثاث النظام من جذوره والنظام يلعب لعبته بأمان فهو يقول للشعب الصينى اذهب واغتن، وتشجع الافتخار القومى، والعالم يندهش ويتعجب كيف أن الشيوعيين الصينيين الشريرين استطاعوا تفادى مصير الاتحاد السوفيتى. والولايات المتحدة فى حالة قلق وخوف من أن الصين وهى تنمو اقتصاديًا مع البقاء فى الحالة السلطوية ستحاول أن تحل محل أمريكا باعتبارها الدولة رقم ١ فى السياسة الدولية.

السيناريو الثاني: وتحت هذا السيناريو فإن بكين تنمو سياسيًا مع ظهور علامات ضعف على تصلبها. كما أن الصين تصل إلى حافة التفكك الإقليمى فيما أن الجنوب المزدهر اقتصاديًا والتبت وسيكيانج متململتان تسعيان من أجل الحرية بعيدًا عن المركز، والحزب الشيوعى لا زال يحكم فى الصين ولكنه مثل نظام بكين ما بعد (يوان شيكاى) ونظام (نان جينج) من عام ١٩٢٨ هى لا تسيطر فعلاً على قطاعات ضخمة من البلاد، ونفوذ الصين الدولى يتناقص. وهناك قليل من الدول تخشى من سيطرة الصين على آسيا ولكن الكثيرين يخافون من مغادرة جماهير غفيرة من الشعب من جمهورية الصين الشعبية إلى مرافئ آمنة فى كل الاتجاهات.

السيناريو الثالث: ويرى أن نظام الحزب الشيوعى الصينى يتحول بذكاء بشكل يشابه كوريا الجنوبية وتايوان فى الثمانينيات أى إلى نظام سلطوى لكنه متساهل نوعًا ما وأكثر اعتدالاً، ويبدو أنه يتجه لديموقراطية هشة أو منقوصة. التنمية الاقتصادية والتنوعات الاجتماعية تجعل من الممكن بدرجة ما وجود درجة ما من التعددية السياسية حيث يقل عدد المساجين السياسيين والصحف هى أكثر من مجرد صدى للنظام، وإدارة ذاتية للمهن، وعشرات الملايين من أبناء الشعب من الطبقة الوسطى يتمتعون بحقوق الملكية. والصين لديها صداعات وآلام أقل من جانب منتقد يها فى الداخل والخارج.

السيناريو الرابع: وهو متجهم وغير واضح بالنسبة للحزب الشيوعى الصينى، ودخول منظمة التجارة العالمية سيتمخض عن آثار سياسية واجتماعية لا يستطيع النظام التعامل معها والنمو الاقتصادى سيستمر ولكن عند مستوى أقل، وتآكل الإيمان بالشيوعية والجارى منذ مدةٍ طويلة سيصبح كاملاً وكما لاحظ الشيوعى الألمانى السابق (ويلى شلام) أن "المشكلة مع الرأسمالية هى الرأسماليون فيما أن المشكلة مع الاشتراكية هى الاشتراكية

ذاتها" وقد صارت هذه الملاحظة تتميز بالقبول الواسع. والجماهير التى كانت ساكنة من قبل صارت تسخر من الحزب الشيوعى الصينى باعتباره قضية محروقة، وأخيرًا فإن الشعب المتواضع يقول إن الإمبراطور صار عريانًا بلا ملابس وتداعى الحكم الشيوعى سريعًا سيحدث مثلما حدث فى موسكو عام ١٩٩١، ويوجد عدد من الحركات برزت بشكل مخيف وهى حركات شبه سياسية وشبه دينية غامضة وعلى مستوى المقاطعات. والقادة الأفراد من الحزب الشيوعى يحاولون تجميع أنفسهم ولكنهم أثناء عودتهم للصراع السياسى يرتدون ملابس القوميين المضادين للشيوعية وفى نفخة دخان واحدة فإن الأسرة الحمراء ذهبت وانتهت.

السيناريو الخامس: ويشهد نقاشًا وجدالاً يعلو فى الحزب الشيوعى حيث إن الهبوط الاقتصادى يقلل من الخيارات المُتاحة ويستتبعه انشقاق على أسس فلسفية فاليسار يتمسك بسرعة باللينينية كضرورة لوحدة الصين واليمين يتمسك بالماركسية كمجرد كلمة ولكن يزداد احتضانه للديموقراطية الاشتراكية وكما ذكر (وليم ماكجورن) "فإنه من غير الواضح أن قادة الصين يفهمون إلى أين سيأخذهم نظام السوق وإذا كان (فريدريك فونهايك) على حق فإنه من الأفضل أنهم لا يفهمون" والانشقاق يأتى لأن القادة اليساريين فهموا أن السوق واللينينية لا يتطابقان، ويختارون النظام اللينينى.

والنزاع طويل وجيش التحرير الشعبى يتقدم ليحل النزاع وعين الجيش على حماية الاستقرار وعلى ميزانيته وفلسفته، يناصر ويؤيد اليساريين ثم ينسحب إلى ثكناته العسكرية ويتم استعادة الوضع السابق بظروف خشنة ولم تُحل أى من المشاكل التى كانت قائمةً قبل الأزمة، ومع حادثة تيان آن مين كعلامة فارقة عام ١٩٨٩ فإن الدولة القديمة انتصرت ضد مجتمع واقتصاد جديدين.

والسيناريوهات الخمسة السابقة هى أقل احتمالاً فى الحدوث من السيناريوهين الآتيين وكلاهما يتصلان بالمرحلة الأولى فى السيناريو الخامس.

السيناريو السادس: ويرى أيضًا صراعًا فى الحزب الشيوعى الصينى فى مواجهة هبوط الاقتصاد بشكل يتحدى الحل والتسوية واليسار يتمسك بسرعة باللينينية بينما الإصلاحيون يتحولون لاشتراكيين ديموقراطيين. ويعرف اليساريون أن السوق واللينينية لا يتطابقان ولكنهما يريدان أن يعكسا الاتجاه، والمعادين لهم لبعض السنوات مثل بعض التشيك والمجريين فى السبعينيات والثمانينيات الذين رأوا أن عملية الإصلاح غامضة من حيث أهدافها ومراميها السياسية، ويعلنون الآن أن التيارات الاقتصادية قد دمرت عقلانية النظام السياسى اللينينى.

الجيش يتدخل فى الأمر فى النهاية، والجنرالات لا يقضون بين الفريقين لكنهم بأنفسهم يملأون الفراغ كزعماء سياسيين حيث يقوم جيش التحرير الشعبى بإخراج قادة الفريقين من على المسرح ويعلنون الحكم العسكرى وهنا نصل لمرحلة الفاشية. الحكومة الجديدة تؤيد الريف الصينى ويقللون من الوجود الاقتصادى الدولى ويضربون بيد من حديد على المنتجات الثقافية غير الصحية، والثروات التى حصل عليها أصحابها بطرق غير قانونية، والصراع فى المدن يقطع حياة النظام الجديد.

وحسب هذا السيناريو فإن الصين تنجح فى جعل اللينينية الماركسية كل منهما يترك صحبة الآخر وهذا يكرّس بالأساس لفترة فاشيستية هى صدى للإسهام اللينينى للفاشية الأوروبية فى العشرينيات والثلاثينيات، ومع القومية التى أُكرهت أن تقوم بواجب الحلول محل الإيمان الماركسى. وبكين الفاشية مثل هتلر وموسولينى تبرهن بأن القمع وما يشبه الرأسمالية يمكن أن يتعايشا.

وحيث إن الماركسية بدأ يخبو نجمها فى بكين فإن نقطتين تصيران واضحتين، الثورة الصينية لديها القليل لتفعله نسبيًا مع الماركسية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الشيوعية والفاشية تقفان على طرفى نقيض هما مغالطة وفكرة خاطئة للمفكرين الأوروبيين.

(جيمس جريبور) كان قريبًا من الحقيقة فى تعريف القومية الرجعية المُحرضة ضد الخداعات الحقيقية أو المُتخيلة للتدخل الأجنبى. القومية الرجعية هى ما ينتج السلطوية وهى التى جعلت من القرن العشرين هكذا عنيفا، الحرب والثورات فيه لم تكن بين الطبقات لكنها كانت بين الأمم والدول. هذا المفهوم يربط كلاً من موسيلينى وصن يات صن وستالين وماو وهتلر وكاسترو ودينج "الثورة البلوريتارية لديها القليل جدًا لتفعله مع الشمولية الشيوعية".

قد يفترض أحد أن الصين مع دينج وجيانج قد صارت أكثر انفتاحًا على الاقتصاد الدولى، لكن كذلك أيضًا كانت إيطاليا موسولينى، كل هؤلاء الرجعيين من دولة التنمية كانوا سيبحثون عن مكانٍ فى العالم الحديث والذين شعروا بحق أو غير حق بالحذر منه، بناؤهم القيادى تكون من أشياء مشتركة. لو كان ستالين مريضًا عقليًا كما تخيل الذين اعتذروا عن الاتحاد السوفيتى بعد ستالين فلماذا رأينا عبادة الأشخاص كذلك لدى هتلر وكاسترو وموسولينى وماو وغيرهم، كم هى سلسلة متلاحقة (طفح جلدى) فالمرض العقلى متعدد الثقافات فى الأماكن والمناصب العليا! لا فإن عبادة الشخص هى جزء من بناء الأوتوقراطية.

السيناريو السابع: يبدأ بنفس الطريقة مثل الخامس والسادس لكنه ينتهى مختلفًا فالجدل حول الموضوعات والقضايا الأساسية الاقتصادية والسياسية ينبع من الحزب الشيوعى الصينى ويتمخض عن انشقاق حول الأسس الفلسفية. واليسار يتمسك باللينينية، بينما اليمين يتحرك نحو التعددية

السياسية. والإصلاحيون يبدون بلا حدود ويخرجون علينا ليقولوا بأن التغييرات الاقتصادية قد دمرت العقلانية فى النظام السياسى اللينينى، فيما أن بكين تنشق وتظهر جماعات المصالح المحلية والإقليمية بما فى ذلك الفلاحون ورجال الأعمال فى الجنوب والجماعات الدينية، ووجهات النظر المُعبر عنها على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) والطلبات التى ترفع درجة التفاعل بين صراع النخبة وجماعات المصالح يصير حاسمًا وفيما أن الأزمة تتفتح صفحاتها فيوجد كذلك نزاع حول هل الديموقراطية صينية، وكذلك حول التبت وسيكيانج ومنغوليا الداخلية. وفى النهاية وفى وجه المُعضلة الواضحة يتدخل الجيش تقوده القوات الجوية والبحرية وجيش التحرير الشعبى يؤيد الاشتراكيين الديموقراطيين ويسقط جورباتتشوف الصين : هو جنتاو، وسيقال له بطريقة حادة وواضحة أن إصلاح النظام الشيوعى ليس هو برنامج العمل، فإن أسسه صارت عفنة. ويبدأ التطور نحو نظام سياسى جديد مع بروز مُدخلات جديدة من غير بكين، من الفلاحين ورجال الأعمال الخاصة والجماعات الدينية، ويظهر يلتسين صينى على التليفزيون يمزق وثائق عضويته فى الحزب الشيوعى، وبطريقة غير عنيفة نسبيًا فإن الأسرة الحمراء تكون قد وصلت لنهايتها وهذا هو الأفضل من سيناريوهاتنا سيحدث موقف حرج وحمامات دم ومن وراء ذلك النظام اللينينى وعدم سماح دولة الحزب بوجود للمعارضة، وتبرز المُعارضة وتنبع من داخل الحزب الشيوعى الصينى ورغم هذا فإن الأزمة السياسية ربما لا تأتى بمعاناة جماهيرية للمجتمع أو للاقتصاد، وتوجد فرصة كافية بعد بعض الوقت لتؤسس الصين فيدرالية ديموقراطية.

ورغم وجود أسس للأمل فإن العملية الأولية لإنهاء وتفكيك احتكار الحزب الشيوعى الصينى للقوة السياسية ربما تكون مثيرة للفوضى وغير حاسمة مثل تفكك الملكية عام ١٩١١-١٩١٢ فإن المركز ربما يضعف

لفترة، والسياسة فى المقاطعات ستتحرر مرة ثانية مع ما تبع ذلك من نتائج أو آثار والتى يمكن أن تزيد من الغموض أكثر من التوضيح للحالة القومية، فالسياسيون فى المقاطعات ربما لا يعودون إلى الغرائز الديموقراطية أكثر من كبار الشخصيات فى بكين بما فى ذلك السياسيون المستقبليون فى الجيش الذين يريدون رسم خريطة طريق الصين ما بعد الشيوعية، وكما لاحظ المؤرخ (هارولد بوكمان) فإنه "لا أحد يريد جديًا أن الديموقراطيين الصينيون كلهم فى المُقاطعات".

إن ضعف المركز سيأتى معه قضايا واهتمامات الفلاحين على درجة عليا من سلم الاهتمامات القومية، والمصالح الريفية والتى أصابتها حتمًا عوامل التفسخ والشروخ بين أقاليم الصين المختلفة سوف تعود بنفوذ مُتسِع فى أقالم الصين، فالقومية الصينية والتى تغلى بعاطفة من الحزن ضد قوميات أخرى معينة أو إحساس بالتفوق والعلو ربما تلعب دورًا كبيرًا على المدى القصير. والمُتوقع نكسة وعودة للوراء للصين إثر سقوط الحزب الشيوعى يمكن لها أن تزيد وتكثف القومية الرجعية خاصةً إذا ما انتهزت الفرصة دول أخرى مثل روسيا واليابان أو غيرها فرصة هذا الضعف قصير أو طويل الأمد من أجل مصالحها التجارية والإقليمية. وتحت العديد من سيناريوهاتى تلك فإن انتهاء حكم الحزب الشيوعى الصينى لا يعنى أن الصين ستكون مستقلة حرة أو سهلة فى التعامل معها، لقد قمت بالمحاججة حول الصلة المحسوبة بين اللينينية والتقاليد الإمبريالية باعتبارها المفتاح فى طبيعة الدولة الصينية، اللينينية تركب على الظهر والكتفين على تقليد أوتوقراطى تخليصى إنقاذى، ولكن خسارة الحزب الشيوعى الصينى لاحتكار السلطة السياسية لن ينهى بالضرورة البقايا الإمبريالية، فتحت العسكرية الفاشية للسيناريو السادس فإن التقليد الإمبريالى ربما يتم تدعيمه وظهوره بشكل مؤقت لأن الشيوعية كانت مجرد صيغة تحديثية من الأتوقراطية الصينية كما كتب (موشر) مع

شيء قليل من المبالغة "وموتها سيترك هذه التقاليد الأوتوقراطية كما هى دونما تغيير".

هذه كلها أسباب إيجابية وسلبية لاستمرار التقاليد الإمبريالية، والحزب الشيوعى يتعمد استغلال القيم من الماضى لكن التحديات الإيجابية للحكم ربما تقود حكومة الصين المستقبلة إلى ممارسات تستدعى الماضى الأسرى الملكى وبالإضافة إلى ذلك فإن عقلية الصين الشمولية موجودة وباقية على قيد الحياة. و(مونرو) أوضح أن شمولية ماو كطريقة للتفكير شاركه فيها سابقوه من غير الشيوعيين وبعد وفاته ربما حتى بين المنشقين ذوى العقول الإصلاحية. وربما من غير المجدى وغير الضرورى ولسوء الحظ لمستقبل الصين أن ترفض كل شيء فى الحياة العامة والفلسفة العامة لملكيات الأسر الصينية السابقة، الماضى سيعقد خطوات صين ما بعد الشيوعية ولكنه يتضمن عناصر يمكن أن تثرى مستقبل الصين. ومؤرخة أسرة الكينج (هيلين دونسان) تساءلت أن الصين لم تتكر وتتبرأ مما قبل حرب الأفيون ولكنها تتجه للتحسين وأشارت إلى مظاهر يمكن الإعجاب بها فى أسرة الكينج الوسطى من الجدية حول المصلحة العامة وإلى الإصرار على المجهود الفكرى المنظم كأساس للحكومة الجيدة. وصين اليوم هى فى حاجة ماسة لهذه القيم السياسية، ويوما ما فإنهم سيفرقون بين الديموقراطية كمفهوم وبين الديموقراطية فى حالة العمل والتجربة وفى تطور الديموقراطية البريطانية من الارستقراطية إلى الديموقراطية فإن بعض المصاعب العامة تكون واضحة وهذا يصدق على صين ما بعد الشيوعية والتى توقفت عن النهج الأيدولوجى بالنسبة لماضيها.

سلوك الصين الدولى سيتوقف على ما يحدث أو لا يحدث فى دولة الصين وما إذا كانت الصين ستكون مشاركًا بناءً أو هى خطر صاعد يتنامى. وكما كتب الأستاذ الإصلاحى (ليو جونينج) "سيتوقف لدرجة عظيمة جدًا

على مصير الليبرالية فى الصين، صين ليبرالية ستكون مشاركًا بناءً، وصين قومية وسلطوية ستكون تهديدًا صاعدًا".

هل يمكن لأمريكا فعل شئ للتأثير على الصين فى طريقها المتشعب؟، أمريكا يمكنها عمل شيء مختلف، لكن فى حدود. فالمستقبل السياسى للصين هو بالأساس فى يد الصينيين أنفسهم وكان ذلك صحيحًا لما كانت الملكية الكونفوشيوسية تترنح فى نهاية القرن التاسع عشر وسقطت عام ١٩١٢، وكان أيضًا حقيقيًا عندما حارب الماركسيون الشيوعيون الماويون والقوميون الشيانجيون فى الأربعينيات، وسيكون حقيقيًا أيضًا مرة ثانية عندما تصل الصين إلى عتبات مستقبل ما بعد الشيوعية.

وبالتأكيد فإن هدف سياستنا الخارجية كما كتب (ويليام كريستول) "يجب أن يكون المساعدة لتحقيق تحول سلمى لديكتاتورية بكين إلى ديموقراطية مثل ديموقراطية تاى بيه" ولكن يمكن أن نقوم بعمل موقف أسوأ ومُضلِل مع عقبات غير مرئية عن المستقبل. هدفنا ووظيفتنا أساسًا هو إنارة وإدارة الطريق، الشعب الصينى حاليًا يريد التعلم من الغرب ولكنهم يفعلون ذلك بطريقتهم وعلى قدر إمكاناتهم.

الولايات المتحدة هى ضوء وشعاع الديموقراطية الرئيسى والحرية الفردية فى عالمٍ اتجه مؤخرًا نحو الديموقراطية وحرية الأسواق. والضوء على التل المرتفع يؤثر فى العقل الصينى ويضغط على الحزب الشيوعى الصينى، يجب أن نتكلم عاليًا وبصوت مسموع عن القيم الأمريكية بما فيها الفيدرالية والحقوق الفردية، كما يجب فى الوقت نفسه التوقف عن دفع الحلول لمشاكل الصين الداخلية، فهذا يتطلب توقعًا وتصورًا اليوم وغدًا عن السياسة الصينية: التعامل كبيزنس مع حزب بكين الشيوعى مع الاستعداد فى الوقت نفسه للتعامل مع بكين أخرى قادمة على الطريق. وفى انتظار ذلك فإن قوة أمريكا العسكرية فى شرق آسيا هى المفتاح الأساسى لمنع

الإمبراطورية الصينية الجديدة من أخذ الطريق السهل واستبدال الحرية الفردية بالمجد القومى.

(لاتيمور) كان على حق لدرجة كبيرة للشعور بأن "تغريب حضارة الصين القديمة سيكون حاسمًا فى حل معضلاتها عن التقليدية والتراث والتحديث" وقد بين (جوزيف ليفنسون) كيف أن ثورات القرن العشرين قد غيرت إدراكات ومفاهيم الصين عن ماضيها، فلسفة يفترض أنها عالمية "وجهة نظر كونفوشيوسية بنكهة ملكية صينية " تحولت إلى مجرد جزء من تاريخ أمة واحدة "عندما توقفت الصين أن تكون هى العالم وصارت دولة أو تصارع من أجل أن تكون دولة واحدة". كما كتب ليفنسون "أن الكونفوشيوسية كانت مُقاطعة فى هذا العالم الكبير الذى يضم الصين كدولة" وفى تطور الثورات نفسها فإن الحزب الشيوعى الصينى رفض الماضى الصينى كقيمة كما رفض أيضًا الغرب، والشيوعيون الصينيون يفرقون بين غربين: الليبرالى والبلشفى، واختاروا الأخير الذى رأوا فيه الموجة المستقبلية للعالم، وهنا كان عالم جديد الصين تستطيع تطبيقه فى حل مشاكلها ولكن كذلك لتعلن للقرى الجائعة فى إفريقيا وأمريكا الجنوبية. ووضع الحزب الشيوعى الصينى ماضى الصين فى صالة عرض كتب عليها (إقطاعى) وأعلنت أن الولايات المتحدة والغرب الديموقراى محكوم عليهما بالمرحلة الجديدة للاشتراكية. وكما قال (ليفنسون) "فإن موقف الشيوعية كان انتقامًا من الماضى ومن الغرب" والقادة الجدد للصين ضد التقاليد، يساريون عالميون ضد التقليدية سقطوا وتناثروا فى أثناء وأواخر عهد ماو، والمادية كطريقة جديدة مُقدمة للعالم توقفت عن الجاذبية ليس فقط فى باريس وجاكارتا وهافانا ولكن فى الصين نفسها. الصين فى الستينيات والسبعينيات صارت إقليمية مُضاعفة حيث إنها أنكرت ماضيها وكذلك الغرب البرجوازى، والحرس الأحمر صار مثل البرجوازية الصينية التى تم تغريبها.

وصين دينج وجيانج استعادت بعض التوازن بالتوقف عن رفض الغرب واستدعاء بعض العناصر من ماضى الصين، لكن فى الحقيقة الصين اليوم هى عالمية كوزموبوليتانية بمعنى رقيق (ضعيف) والنظام الشيوعى الصينى والنظام السياسى الشيوعى فقد علاقته مع ثقافة الصين وهذا النظام السياسى قد أصيب بداء تصلب الأنسجة.

الصين الجديدة لديها أبراجها السكنية الشاهقة وفائض فى التصدير وصواريخها والتى ليست كافية فى حد ذاتها لتكفر عن البدايات الزائفة فى القرن العشرين فى العمل نحو نظام ما بعد الأسر المالكة كنظام سياسى وفلسفة عامة. والإنترنت سيساهم فى تحول الشعب إلى إنسانيين آداميين وديموقرابين أو كوزموبوليتانيين عالميين.

صين ماو من وجهة نظر (ليفنسون) غيرت فلسفة الصين إلى تاريخ خاص للصين لتجعل منها جزءًا من التاريخ الماركسى اللينينى. ثورة ماو جرى تقديمها بروح عالمية وفى وضع مضادٍ لتاريخها فيما أن صين جيانج أسقطت الماركسية العالمية وبدأت استعادة تاريخ الصين لنفسها، ولكن لسوء الحظ فإن جيانج ودينج مثل ماو اختاروا من ٣٠٠٠ سنة من ماضى الصين الأسطورة والديكتاتورية.

والصين الثورية التى رأت غربين ليبرالى وبلشفى أيدوا ليس فقط الغرب الخاطئ ولكن كذلك الماض الصينى الخاطئ. لقد ناسب دينج وجيانج والآن هو جنتاو وبصفةٍ أقل أكثر من ماو الالتقاء مع الماضى القانونى الأوتوقراطى للصين؛ حيث أتوا بـــ(كين شهوانج) من المتحف ليؤكد المُنطلقات الأربعة، والماضى الإنسانى الكونفوشيوسى ظل كما هو لم يدّعوه إلا فقط كمثال سلبى. وألم الفجوة اليوم بين سياسة الصين والمجتمع الصينى هو الثمن الذى تدفعه الصين للحلول المزيفة للمشاكل مع الماضى ومع

الغرب فثقافيًا صين ماو ليس لديها رسالة للعالم، وسياسيًا فإن صين اليوم ليس لديها رسالة للعالم.

والقفز من قومية التحليل الطبقى إلى قومية الثروة والقوة لم يهبط بالصين على أرض عالمية كوزموبوليتانية. وفى أواخر حياته فإن (ليفنسون) تساءل متعجبًا هل الصين ستبقى حوتًا شاطئيًا؟ أو ما إذا كانت ستلحق بالعالم مرة ثانيةً على الأمواج العالمية للمحيط. وكما كتب (ليفنسون) عن الفترة اليسارية فإننى أعتقد أن الثورة الثقافية ربما أدت وظيفتها ولكنه أشار إلى أن مستقبل تغريب الصين سيقوم بوظيفته أيضًا. وإذا نظرنا للوراء فسنجد أن الصراع والسباق ليسا قريبًا، والطرق والأساليب الغربية هى أكثر نفوذًا وتأثيرًا فى الصين عما كانت عليه لعقود، إلا أن القومية هى التى كانت الأكثر إتمرارًا من أواخر القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن الواحد والعشرين. وغالبًا فإنه بالإهمال والتخلف فإن الحياة الاقتصادية وليس الثقافة أو السياسة هى الجزء المركزى من عالمية صين اليوم .

(ديريك بود) الأستاذ فى جامعة بنسيلفانيا للأدب واللغة الصينية الذى عاش فى بكين عندما أغلقها الشيوعيون أواخر الأربعينيات سجل حوارًا مع أصدقاء له عن القيم الصينية والغربية "الحضارة الغربية رغم كل صعوباتها وتركيزها على التقدم الفردى ورغم الحربين العالميتين ما زالت تعطى وتقدم الأمل الأعظم للتحسن بسبب المكان الذى ينجح الإنسان والفرد فى تبوئه والتعبير الفردى خارج الأورثوذوكسية السائدة" وبكلمات أخرى فإن عنصر الصراع والذى يحوم بلون أسود على العالم الغربى والذى هو مدمر غالبًا هو ما أعطى الإمكانية للتقدم والتحسن النهائى المرغوب".

وفيما بعد عندما عاد إلى الولايات المتحدة وعاود النظر فى كلماته شعر أنها تحتاج إلى إضافة حاشية. ومع التوتر بين الشرق والغرب والأسلحة النووية شعر أنه من الصعب أن يكون متفائلاً كما كان من الغرب

عام ١٩٤٨. رغم هذا فإن التاريخ أخذ منحنىً آخر فى نهاية القرن العشرين. فالغرب لم يضمحل لكنه وصل لذروة جديدة، فى منتصف الثمانينيات فإن حوالى ٧٠ دولة وما يقرب من ثلثى سكان العالم عاشوا تحت حكم الحكومات الاشتراكية، ومع بداية التسعينيات فإن معظم الشيوعية وقطاع كبير من الاشتراكية كان قد أدركه الموت أو هو فى الطريق إليه. والأفكار الليبرالية التى طالما تجذرت فى الغرب بدت فى مرحلة العلو والانتصار.

الصين وهى التى مازالت عصية حتى الآن مع شمال كوريا وكوبا كأخوات بدوا فى حالة عظمة على غير الحقيقة، مواقفها الرسمية غالبًا يتعذر احتمالها أو الدفاع عنها، علاقة ثقافتها بسياستها من الصعب أن تصل إلى حل بشكل أكثر مما كان فى السنوات الأخيرة من أسرة مملكة الكينج. حتى الصين كانت تحتضن قيمًا يسميها البعض غربية، الأمريكى يمشى فى شوارع مدن الصين لا يشعر بصدام بين الحضارات. ومن الناحية السياسية فعلى أية حال فى عام ٢٠٠٣ فإن الصين ما زالت لم تبدأ إلا نادرًا فى أقلمة قيم المجتمع ومؤسسات القوى السياسية. وكنتيجة لهذا فإنها لم تظهر التحسين الروحى الذى قدره وأشار إليه (بود) وواجهت مرة ثانية ما واجهته فى أعقاب الأزمات السياسية فى عام ١٩١١. وحيث إن الحزب الشيوعى الصينى قسم التاريخ الصينى لماضيين، كذلك من حيث المستقبل هناك صينان يتقدمان لوراثة القرن الحادى والعشرين. واحد يرى صيناً ذات يدٍ ثقيلة مع عقلية مُحاصرة وتفويض تاريخى مفترض.

الصين التى نمت قوية فيما بقيت كدولة إمبريالية وهى تهدد تايوان، تسجن الديموقراطيين، تجعل ميانمار دولةً تابعة، تشن حربًا صليبية على الدين فى التبت، تغلق مواقع الإنترنت، ترفض التفاوض لتسوية قضية الجزر المتنازع عليها فى بحر الصين الجنوبى.

هذه الإمبراطورية القمعية لا يمكن أن تكون مستقرة فى حالة ارتياح ورضىً مع نشاطها وفعالياتها الاقتصادية والاجتماعية أو صديقًا للولايات المتحدة أو لجيران الصين.

أما الصين الثانية فستكون صينًا أقل تحكمًا وأكثر تساهلاً مما هى عليه الآن ومُعظم سكانها من صغار السن الذين لم تحركهم مظهريات النظام الشيوعى، وهذا القطاع من السكان يؤكد ويركز على الأسرة والثقافة والحياة الاقتصادية أكثر منها على الدولة. هذه الصين كما أعتقد سوف تأتى للوجود لتنهى وتقضى على حلم الإمبراطورية الصينية، الصين كفيدرالية ديموقراطية يمكن أن تكون قوة قيادية فى العالم ومشاركًا مفيدًا فى آسيا لعقود قادمة. وتذكَر أن التقليد الصينى يعطى ثورات أخرى غير الأوتوقراطية بما فيها العبء الإنسانى للكونفوشيوسية، وعكس الأوتوقراطية توجد كذلك الفكرة (الداوية) فى شعاراتها والتى توجد فيها الحكمة المشهورة أن "الحكماء يتكلمون أقل، أما هؤلاء الذين يتكلمون كثيرًا فنادرًا ما تكون لديهم حكمة".

رغم هذا لم يجد الصينيون من السهل أن يحلوا مشكلتهم مع المؤسسات السياسية وستكون هناك أوقات صعبة تسبق تحول الصين لديموقراية فيدرالية ومشاكل وصعوبات طائفية والاختلاف بين تشكيلات المنفيين المناصرين للديموقراطية تعطى علامة تحذير لذلك، كما كتب الكاتب السياسى المخضرم (ليو بنيام) "لهذا نحن غير أكفاء وغير قادرين على التفكير المجرد بالنسبة إلى القضايا العليا والتى لا تهم مصالحنا الذاتية... وأعتقد أننا قد ورثنا مشاكلنا، إنها تعيش فى دمنا".

وأنا لا أعتقد فى الصين القمعية التى رغم أنها مجهزة بالماكينيات والصواريخ والدولارات، ولا أعتقد أنها يمكن أن تؤهلها للعب دور نافذ وبارز فى العالم وقد قال (جون ستيوارت ميل) عام ١٨٥٩ "أن قوة ووزن وقيمة أى دولة فى المدى البعيد هو قيمة الأفراد الذين يكونونها" وبذلك يكون

قد بيّن السبب في أن صين اليوم هى فى النهاية ليست قوية وقد أضاف ميل "أن الدولة التى تقزم رجالها وتظهرهم بأنهم مجرد أدوات لا أكثر، طيعة وسهلة الانقياد وحتى لأهداف نفعية ستجد أنه مع هؤلاء الرجال الصغار فإنهم لا يمكنهم أن يحققوا أو ينجزوا شيئا عظيمًا" والدولة الصينية قامت بتقزيم شعبها وربما بطريقة أقل فى نصفها الثانى أكثر من نصفها الأول، ورغم هذا فإن الفرد هو فى الحقيقة القوة الخلاقّة.

الصين الثانية ستنتج لاحقًا دولة صينية ديموقراطية حليفة، هذه الدولة مدفوعة بالرغبات الحقيقية والحكمة والفكر المتعدد الأصول للسكان والشعب ستكون وتستحق الحضارة الصينية.

ويجب أن أعترف أن المستقبل عادةً أكثر انفتاحًا منا نحن المتنبئين عن مستقبل الصين. والصين طالما كررت وجعلت من الوهم الحدود والمدى التى وضعها الأباطرة والبيروقراطيون الذين حاولوا تشكيل الحقيقة. وبالتساوى فإنها تتخطى الحدود والتصنيفات التى وضعها صانعو الأساطير الأجانب فى الماضى والحاضر. وقد كتب (أندرو ناثان) عن المتخصصين فى الصين "لقد وجدنا أن بحثنا هو تجاه أفق يضيق ويضعف وينقص باستمرار". وهذا الوهم ينبع من الفجوة بين النظرية والتطبيق فى الحياة الصينية ومن نقص الحدود الواضحة بين فضاء الصين الحقيقية وجيران الصين من العالم غير الصينى. وفى كلا الموضوعين آمل أن هذا الكتاب قد ألقى شعاعًا من الضوء أو شعاعين. ورغم هذا باعتبار أن جوهر الصين ينسحب ويضعف وأن تعريف الصين يبقى غائمًا وغير واضح، فإن الصين غير السياسية تتألق دائمًا وتشع. وكتب (ريتشارد ووكر) وهو واحد من كبار المتخصصين فى الصين "إن خبرات الحياة تقودنا للاعتقاد فى أن القوة المستمرة للصين ليست بالضرورة كدولة ولكن كطريقة حياة، والتى سوف تمتد فى إسهاماتها إلى فضاء العالم المتسع".

المؤلف فى سطور:

روس تيريل Ross Terill

- أستاذ مساعد (باحث) فى مركز فيربانك دراسات شرقى آسيا بجامعة هارفارد.
- كتب العديد من الدراسات الشهيرة عن الصين ومنها: مدام ماوتسى تونج و"الصينى فى وقتنا، ماو وسيرته الذاتية".
- يعيش فى بوسطن ماساشوستس، الولايات المتحدة.
- حاز الكتاب المترجم على جائزة الكتاب من صحيفة لوس أنجلوس تايمز.

المترجم فى سطور:

- **سفير محمد محمود العشماوى**

- ولد فى البتانون / منوفية عام ١٩٤٩.

- تخرج فى قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة ١٩٧١.

- زميل كلية الدفاع الوطنى بأكاديمية ناصر العسكرية العليا بالقاهرة ١٩٨٩ "دراسات الاستراتيجية العليا والأمن القومى".

-عمل فى السلك الدبلوماسى المصرى ١٩٧٣/ ٢٠٠٩.

- وضمن البلاد التى خدم فيها فى سفارات مصر: الهند - تايلاند - اليابان.

- زار الصين ١٩٩١ فى جولة سياحية خاصة.

-الأوسمة:

١- وسام الرياضة من جمهورية الكنغو الديموقراطية (زائير). ١٩٩٦.

٢- وسام الاستحقاق من درجة ضابط عظيم من جمهورية النيجر عام ٢٠٠٩.

التصحيح اللغوى: هــبة عمــرو
الإشــراف الفنى: حســن كامــل